



رِسَالَةُ القُرْآنِ

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ

نخبة من الباحثين والكتاب

إعداد

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

بمناسبة الاحتفال بإنجاز مصحف قطر وبدء تداوله



رسالة القرآن

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ

نخبة من الباحثين والكتاب

بمناسبة الاحتفال بإنجاز مصحف قطر وبدء تداوله

إعداد

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

الطبــعة الأولـــى

ربيع الأول ١٤٣١هـ - شباط (فبراير) ٢٠١٠م

- رسالة القرآن.
- نخبة من الباحثين والكتاب.
- الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٠م.
- ٦٢٤ ص، ٢٤سم.
- رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 51 / 2010
- الرقم الدولي الموحد للكتاب: 6-8-775-99921

هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠ - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa
البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا

(الإسراء ٩)



حضرة صاحب السمو

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

أمير دولة قطر



سمو

الشيخ تميم بن حمد آل ثاني

ولي العهد الأمين

تقديم

سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

أحمد بن عبد الله المري

الحمد لله الذي اصطفانا لوراثة الكتاب، وجعلنا محلاً للرسالة الخاتمة وريثة النبوات، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (فاطر:٣٢)، وناط بالأمة المسلمة مهمة الشهادة على الناس والقيادة لهم إلى الخير، والارتقاء بهم للتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، وأهّل الأمة بما أنزل عليها من القرآن للاضطلاع بهذه المهمة، التي تتطلب أول ما تتطلب فقه القرآن وفهم العصر.

والصلاة والسلام على إمام البيان، معلم القرآن، الذي تجسدت قيم القرآن في حياته وسلوكه فيما تروي السيدة عائشة، رضي الله عنها، ذلك بقولها: «**كان خلقه القرآن**»، فكان الأنموذج القدوة لكل السائرين على الطريق في ترجمة قيم القرآن إلى واقع سلوكي متحرك في حياة الناس،

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١)، الذي اعتبر أن الإصابة والسقوط في التخلف والتراجع الحضاري وانطفاء الفاعلية إنما يلحق بالأمة لبعدها عن حسن تدبر القرآن وفهم العصر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠).

وبعد:

فهذا الإصدار الثامن في سلسلة «**المشروعات الثقافية الجماعية**» الممتدة بمشيئة الله سبحانه وتعالى وتوفيقه، بعنوان: «**رسالة القرآن الكريم**»، تلك الرسالة التي تمحورت بعمومها ومقاصدها حول استرداد إنسانية الإنسان المفقودة، وتحقيق كرامته المسلوبة، وحماية حقوقه المنتهكة، وتحريره من كل ألوان العبودية والتسلط والتأله والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، وتحقيق المساواة بين البشر؛ تلك المساواة الغائبة التي كانت ولا تزال تمثل روح الحضارة السارية في الحياة ونسغها الممتد، وسعيها الدائب لوضع العنت ورفع الأغلال عن الناس، يقول تعالى واصفاً رسالة القرآن ومبيناً مهمة الرسول حامل الرسالة ﷺ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ (الحجرات:٧)، ويقول أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧)، ذلك أن

المقصد الأساس والهدف المنشود، الذي تسعى «رسالة القرآن» لتحقيقه هو إلحاق الرحمة بالعالمين، كل العالمين، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، لذلك فقد لا نستغرب أن تبدأ مائة وثلاث عشرة سورة، بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من بين مائة وأربع عشرة سورة مجموع سور القرآن.

فعقيدة التوحيد التي جاء بها القرآن، والتي شكلت منعطفاً في مسيرة الإنسانية نسخت الآلهة المتحكمة برقاب البشر من الأرض، وحررت عقل الإنسان من الخرافة، وضميره من التسلط، وإنسانيته من الاستعباد والاستغلال، هذه العقيدة الدافعة للإنسان نحو الخلاص والارتقاء، تغذيها العبادات المفروضة التي شرعها القرآن وتجسدها الأخلاق والمسالك التي دعا إليها القرآن، هذا على مستوى الفرد؛ الفرد الذي يشكل المنطلق والأساس لكل خير، وتنمية، وإصلاح، أما على مستوى الأمة فحسبنا أن نقول: إن الأمة المسلمة دون سائر الأمم إنما تشكلت من خلال كتاب، من خلال فكرة، فالأمة المسلمة هي أمة الفكرة والعقيدة، التي نشأت بعيداً عن قيود وأسوار الجنس، واللون، والقوم، والجغرافيا، والطبقة، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ (الحجرات:١٠)، ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢).

وليس ذلك فقط، وإنما كان القرآن ولا يزال يشكل بالنسبة للأمة المسلمة الدافع والمحرض الحضاري لها للنمو والارتقاء والنهوض، وحمل الخير للعالمين، كما كان المانع لها من السقوط والانهيار والانقراض والذوبان في حالات الاستعمار والتخلف والتراجع الحضاري.

إن القرآن شكل لأمة الإسلام المشروعية العليا لحياتها، فهو مصدر قيمها وتشريعها وثقافتها وأخلاقها، وهو حبل الله المتين الممتد الواصل بينها وبين الله، حيث تستمسك الأمة بأحد طرفيه للوصول إلى الله، وهو الصراط المستقيم، وهو أيضاً سبيل عصمة عموم الأمة والتقائها على البر والتقوى، يقول تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ (آل عمران:١٠٣)، والاستمساك به يعنى الالتزام بقيمه وتحكيم مرجعيته، التي اكتسبت عموم الأمة بها العصمة، يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ**» (أخرجه ابن ماجه)، وفي رواية «**على خطأ**»، فكانت الأمة بهذا القرآن قادرة على تصويب مسارها، وتقويم اعوجاجها، وتجديد الجوانب الرخوة والهشة في حياتها، وتحقيق مقاصدها .

لقد ناط القرآن بالأمة التصويب لمسيرتها، فقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» (أخرجه أبو داود)، فالتجديد هنا ليس الاستبدال والتغيير وإنما نفي نوابت السوء والبدع، التي يمكن أن تلحق بقيم الدين و«رسالة القرآن» وتكاليفه للإنسان من خلال تراكم التقاليد والعادات؛ والتجديد هو العودة بها إلى الينابيع الأصلية في الكتاب والسنة، وإزالة الرواسب، وإبراز الوجه الحقيقي للقيم الإسلامية.

كما ناط بعلمائها العدول مهمة نفي الخبث عن مسيرتها من التحريف والغلو والانتحال، يقول ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**» (أخرجه البيهقي).

وليس ذلك فقط، وإنما ناط بها تصحيح مسيرة البشرية وتصويب رؤاها الدينية ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة: ٤٨)، وتخليصها من المعاناة، وإشاعة العدل، وحراسة قيم الخير في الحياة وتأصيلها، يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(آل عمران:١١٠)، ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، فالشهادة على الناس ودلالتهم على الخير من أعلى المهام الحضارية، التي تجعل من الأمة المسلمة أمة الشهود الحضاري.

والقرآن معجزة الإسلام الباقية الخالدة، المجردة عن حدود الزمان والمكان، القادرة على إنتاج النماذج القرآنية وبناء الجيل القرآني في كل زمان ومكان، الأمر الذي يدلل من بعض الوجوه على خلود القرآن وخاتميته، وحسب هذه المعجزة أنها تحققت في واقع الناس من خلال عزمات البشر.

ولئن كانت معجزات الأنبياء السابقين مادية مرتبطة بحياة الأنبياء وجوداً وانقضاء، الأمر الذي يشير إلى أن هذه الرسالات موقوتة ولأقوام بأعيانهم مضوا مع معجزاتهم وبقي الإيمان بها هو إيمان بالغيب، يقول الشاعر:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم

فإن معجزة الرسول الخاتم ﷺ هي معجزة فكرية عقلية بيانية خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان، ممتدة إلى يوم القيامة، فالقرآن الذي نزل على الرسول ﷺ ونُقل إلينا كتابةً ومشافهةً كما نزل سيبقى كذلك إلى يوم الدين، بما تحقق له من وسائل الحفظ والكتابة والنقل، الذي جاء

استجابة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩).. والمعروف علمياً أن الحفظ والكتابة ومناهج النقل، التي توفرت للقرآن لم تتوفر لأي كتاب سماوي أو أرضي على وجه البسيطة، ولا تزال الأمة إلى اليوم تتابع تلك المسيرة الخيّرة، فمدارس القرآن والخلاوي والكتاتيب والمسابقات المنتشرة في كل مكان، التي تكاد تعم العالم الإسلامي بل العالم، والتفنن في خط المصحف ورسمه وبيان علامات القراءة، إضافة إلى ما نشأ حول القرآن من علوم وفنون وبحوث ودراسات يؤكد من أكثر من وجه أن القرآن الرسالة الخاتمة إلى البشرية والتي تقتضي خاتميتها أن يصل النص سليماً من التحريف والتبديل ليجئ التكليف صحيحاً، فمنذ عهد الصحابة وحتى الآن ما تزال الجهود مستمرة والمناهج ممتدة.

وعلى الرغم من تقدم العلوم والمعارف والفنون يبقى النص القرآني شامخاً سامقاً، لم تسجل عليه إصابة واحدة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:٤٢).

وقد تبدو الحاجة اليوم، بعد أن لحق الأمة ما لحقها بسبب هجرها للتلقي الصحيح عن القرآن، أشد ما تكون إلى العودة إلى مائدة القرآن وكسر الأقفال من على القلوب، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:٢٤)، لتستنير بنور القرآن، وتزيل الرّان الذي لحق بها نتيجة اقتراف المعاصي ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤).

قد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، للعودة للقرآن والاغتراف من معينه الخالد، والارتقاء بالأجيال إلى مستوى القرآن، والإعداد والاستعداد لاستئناف دور الأمة في الشهادة على الناس، وعلى

الأخص في هذا العصر العولمي الجديد والفضاء الإعلامي المفتوح، حيث كل الفرص متاحة لتحقيق الشهادة على الناس والقيادة لهم، لكن لهذه الشهادة مواصفات ومؤهلات لابد من التحقق بها وإلا كانت الأمة مسؤولة أمام الله عن الفساد الكبير الذي بدأ يعم العالم ويجتاح البشرية نتيجة نكوص الأمة المسلمة عن الاضطلاع بمهمته، وتحالف أعدائها، يقول تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ (الأنفال:٧٣).

وبعد:

فلعل من أقدار الله سبحانه وتعالى أن يأتي هذا العطاء والإصدار المتميز في الوقت الذي تم فيه إنجاز «مصحف قطر»، الذي تشرفت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالإشراف على إنجازه، والذي جاء لوحة فنية رائعة من حيث جمالية الخط وفخامة التجليد والإخراج برعاية من حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، حفظه الله.

ونحن هنا لا ندعي أو نزعم أننا بهذا الإصدار الكبير قد استوفينا أبعاد رسالة القرآن، ولكن حسبنا في ذلك أننا فتحنا الملف، واستدعيناه إلى ساحة التفكير، وألقينا ولو إضاءات بسيطة، وقدمنا بعض الملامح والرؤى الفكرية والتخصصات المعرفية المتنوعة، لعل ذلك يشكل مساهمات وبصائر على طريق خدمة القرآن واسترداد دوره في الحياة

ونعترف أن «رسالة القرآن» تعتبر ملفاً مفتوحاً وممتداً بطبيعة العطاء القرآني الخالد، وهي باقية ما بقي الإنسان بكل تطلعاته إلى النهوض والارتقاء والانتقال إلى الأفضل.

ولا يسعني بمناسبة هذا الإنجاز الثقافي الجماعي، الذي ينضم إلى مجموعة الإنجازات المقدورة السابقة، إلا أن أتقدم لحضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، حفظه الله، بوافر الشكر والإجلال والتقدير على تشجيعه ورعايته المستمرة لمثل هذه المشروعات، والأمر بترجمتها إلى اللغات الحية، تعميماً للفائدة، وتوصيته الدائمة بتوسيع دائرة المشاركة والمساهمة فيها.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى الإخوة الكتاب والباحثين، الذين كان لاستجابتهم ومساهماتهم الفضل في إنجاز هذا العمل العظيم في وقت قياسي،

وإلى الإخوة في إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الذين اضطلعوا بعبء هذا العمل الكبير وإنجازه في الوقت المناسب، رغم ضغط الزمن والإمكانات المتواضعة.

سائلاً الله للجميع التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين.

من مرتكزات

رسالة القرآن

«هذه بعض المرتكزات الأساس، التي شكلت المواصفات والحقائق، التي تبلورت من خلالها «رسالة القرآن»، والتي طُرحت لتكون الإطار العام لجميع المساهمات، على تنوع عطائها»:

- منهج النقل العلمي، حيث نقل القرآن مكتوباً فهو كتاب، ومقروءاً فهو قرآن (كتابة ومشافهة).
- القرآن أقدم وثيقة تاريخية وردت بالتواتر (بطريق علمي) يفيد اليقين وبهذا المعنى يعتبر مصدراً معرفياً للأديان والحضارات السابقة.
- دور القرآن في تصويب الرؤى الدينية السابقة ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).
- عالمية الخطاب القرآني، فهو لكل إنسان في كل مكان وزمان ودين.

- القرآن عربي اللسان إنساني الرسالة.

- مصدرية القرآن للثقافة، ومحوريته لكل أنواع النشاط الفكري والاجتهادي والمنهجي للأمة.

- القرآن ودوره في نهوض الأمة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤).

- عناية الأمة بالقرآن، حفظاً وتفسيراً وإغناءً لفن الخط والرسم العثماني.

- القرآن أعظم ما تمتلك الأمة (النص الإلهي السليم) من إمكان حضاري لمعاودة النهوض.

- الخاتمية ودلالاتها العقلية والشرعية على صحة النص، حيث لا يمكن عقلاً ولا شرعاً أن يُخاطَب الناسُ بنصٍ غير صحيحٍ وغير محفوظٍ من الله وقد توقف التصويب من الوحي!

- خلود النص، وتجرده وقدرته على الإنتاج في كل زمان ومكان.

القرآن الكريم مصدراً للمعرفة ومحوراً للنشاط الفكري

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري (*)

ليس القرآن كتاب علوم ومعارف عامة، ولكنه كتاب هداية ورحمة وبشرى للمسلمين، يحث على التفكر والتدبر وإعمال العقل: ولذلك يتجنب الصوابَ من يقحم القرآن في البحوث العلمية والمخترعات والاكتشافات، ويربط بينها وبين ما جاء في كتاب الله العزيز على سبيل (التفسير) غير مأمون العواقب، فالقول بأن القرآن يشتمل على المسائل العلمية التي لا تتعارض مع ما وصل إليه العلم الحديث، قول مردود لأنه يعرض كتابَ الله لما لا يجب أن يعرض له.

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، المنزل على رسوله ونبيّه محمد ابن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، وهو منهاج شامل للحياة في أبعادها المختلفة، وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة:٧٧). كما وصفه بأنه يهدي للتي هي أقوم، قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى

(*) المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء :٩)، وبيّن سبحانه ما يتضمنه القرآن من فيوض بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل : ٨٩). فالقرآن منهاج للفرد، يتضمن الأصول الموجِّهة لحياته، وعلاقته بالرب سبحانه، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته المسلمة، وعلاقته بالآخرين من غير المسلمين، ممن يسالمونه وممن يحاربونه، كما أنه دستور للأمة وحبل الله الذي لا ينفصم[1].

والقرآن الكريم كتاب هداية للبشرية، في كل زمان ومكان. ومفهوم الهداية شامل وعميق، ومن معاني الهداية أن الكتاب العزيز يشتمل على الأصول الإيمانية والقواعد التشريعية الكلية، والمبادئ القويمة العامة لحياة الفرد والمجتمع، وجوامع الحكم التي تنير السبيل أمام الإنسان وتهديه إلى ما فيه خير الدارين.

لقد احتوى القرآن الكريم من الفضائل الخلقية والآداب الاجتماعية والأحكام التشريعية، في آياته البينات على:

١- في العبادات (على نحو مائة وأربعين آية).

٢- في الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ووصية وإرث وغير ذلك (على نحو سبعين آية).

٣- في المجموعة المدنية من بيع وإجارة ورهن وشركة وتجارة (على نحو سبعين آية).

٤- في المجموعة الجنائية من عقوبات وجنايات (على نحو ثلاثين آية).

٥- في القضاء والشهادة وما يتعلق بهما (على نحو عشرين آية).

---

(١) يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط.١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م) ص٤١٨.

والقرآن الكريم هو دستور الحياة الإسلامية كلها، والمصدر الأول للهداية الإلهية في توجيه تلك الحياة إلى الحقّ والخير. وبالهدي القرآني بنى المسلمون حضارتهم الشامخة التي امتدّ نفعها إلى البشرية قاطبة، وإلى ذلك الهدي يفزعون كلما حزبهم حازبٌ من ذات أنفسهم أو من دوائر أعدائهم، فحرّف مسار حياتهم عن طريق الحق، يبغون فيه تقوية ما ضعف من حالهم، وتعديل ما انحرف من سيرهم. وكما كان المسلمون يعلمون أنّ في هداية الذكر الحكيم سداد حياتهم وشهود حضارتهم وقوّة شوكتهم، كان أعداؤهم يعلمون ذلك، فاتجهوا من بين ما توجهوا، في معرض التدافع معهم، إلى ذلك المصدر الهادي، يحاولون النيل منه والحطّ من قدره في عيونهم، وذلك بإثارة الشبه حوله، والغمز في تاريخه ومبناه ومحتواه، قصداً في ذلك إلى أن يهون أمره في النفوس، فلا يبقى له فيها تأثير يصحّح وجهتها عند الانحراف، ويقوّي عزمها عند الضّعف.

ولمْ يكن ما لحق القرآن الكريم من محاولات النيل هذه قاصراً على مجال الدعاية التلقائية وردود الأفعال العفوية، وإنما أصبح ممتداً إلى دوائر البحث العلمي، ومتسرباً إلى الموسوعات ودوائر المعارف الواسعة الانتشار بين المسلمين. وقد كانت «دائرة المعارف الإسلامية» التي تطبع في «دار بريل» في مدينة «لايدن» الهولندية، وهي الواسعة الانتشار في الأوساط العلمية الإسلامية وغير الإسلامية، في مقدمة الموسوعات والمراجع التي تحمل من الغمز في القرآن والتشويه لصورته والتحريف لحقيقته شيئاً كثيراً، سواء في ذلك طبعتها القديمة وطبعتها الجديدة.

ومهما يكن من أن القرآن الكريم محفوظ بالوعد الإلهي من أن تناله أيدي المحرّفين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، ومهما يكن من أن بعض ما يُوجّه إلى القرآن الكريم من المطاعن يصدر عن دسيسة مغرضة أو عن جهل أو عن خلل في المقتضيات المنهجية للبحث العلمي، فإنه يكون من الواجب التصدّي لهذه المطاعن، والكشف عن زيفها، وتصحيح أخطائها وهفواتها، إظهاراً للحقيقة، وحيلولة دون أن يهون القرآن في النفوس، فلا يكون له فيها تأثير. وهذا الواجب هو الذي قامت به المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو»، حيث نشرت سلسلة كتب بالعربية والإنجليزية والفرنسية، منها كتاب «القرآن الكريم: دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن»، هذا الكتاب الذي يتتبع بالتصحيح ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية من الأخطاء متعلقة بالقرآن الكريم، وهو الكتاب الثاني في سلسلة «تصحيح ما ينشر عن الإسلام والمسلمين من معلومات خاطئة»[1].

وظهرت بعد ذلك موسوعة أوروبية جديدة متخصصة في الطعن في القرآن الكريم ونشر الأباطيل والشبهات عنه، هي «موسوعة القرآن Encyclopedia of Qur'an» الصادرة عن دار النشر الهولندية «إ.ج.بريل E.J Brill»، بإشراف المستشرقة الكندية «جين ماك أوليف Jane McAiliffe»، وتقع في ستة أجزاء.

---

(١) عبد العزيز بن عثمان التويجري، في تقديمه لكتاب: القرآن الكريم: دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن (الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ٢٠٠٣م).

وقد جمعت هذه الموسوعة بين دفتيها من الافتراءات والأباطيل على القرآن الكريم مما فاضت به كتابات المستشرقين المتقدمين والمحدثين من الطعون والشبه، وقدمت معلومة قريبة ومواتية ولكنها مغرضة، في شكل هذه الموسوعة ذات الطابع المرجعي.

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتاب له رصد فيه الأباطيل ضد القرآن الكريم التي يروجها أعداء الإسلام يحمل عنوان: «لا يأتيه الباطل»: «ويهبّ اليوم أئمة هذه الحرب المشهرة على القرآن ودعاتها، في تحركات عشوائية يائسة، تمطر القرآن بترهات وأكاذيب مختلقة باطلة، من خلال أقنية فضائية متخصصة، وعن طريق إذاعات موجهة، وبواسطة صحف ومجلات شائعة .. وعن طريق ما استطاعوا أن يصلوا إليه أخيراً من تجنيد "الفاتيكان" نفسه للاشتراك في الحرب اليائسة، أما الميزانية بل الميزانيات المرصودة لإنجاح هذه الحرب اليائسة، فهي - فيما يؤكده كثير من مواقع الإنترنيت - أرقام من الكثرة عجيبة ومذهلة، تنوء عنها الدول الحضارية العظمى، إلا تلك التي تمسك بزمام القيادة في إلهاب هذه الحرب وتوجيهها.

وليس في الناس اليوم من لا يعلم أن القرآن لو كان افتئاتاً على الله من قِبل محمد ﷺ أو أيّ من الناس، لقضي عليه وأصبح أثراً بعد عين ومجرد تاريخ يُروى، بمعشار هذه الجهود اليائسة، وبأدنى من قدر الفائدة الربويّة التي تُجنى من هذه الميزانيات كلها.

ولكن ها هو ذا القرآن يعلن عن وجوده متألقاً صافياً من الشوائب كلها، لم يتماسك على صفحة إشراقه شيء من غيوم الشبهات والتقولات الباطلة التي تلصق به، يتحدى العصور والأجيال المتطاولة أن تنال منه أي منال، وها هم أولاء الناس الذين تحرروا من سلطان الرعونات والعصبيات والأسبقيات، لم تمنعهم غربتهم عنه واستغرابهم له وجهلهم به، أن يُقبلوا فينصتوا إليه، ويضعوه من الاهتمام والاعتبار في موازين عقولهم، دون أي تأثر بالسحب الداكنة التي عكف على نسجها قادة هذه الحرب ودعاتها ... وإنها لكثرة لا تحصى تلك التي تعتنق الإسلام عن طريق كلام الله وبيانه، في تلك المجتمعات الغربية عن القرآن والإسلام، وإن الذين يعتنقونه ويمارسونه سراً هناك، أضعاف الذين أعلنوا اعتناقهم له وتمسكهم به.

فمن أجل هذا أُعلنُ وأؤكد أن هذه الحرب ضد القرآن على الرغم من شراستها وضخامة الأموال والجهود المرصودة لها، حرب يائسة حقاً، وأن حركة قادتها وجنودها ليست إلا حركة مذبوح»[1].

ونشراً للمفاهيم الصحيحة للثقافة الإسلامية، وتيسيراً للوصول إلى المصادر الأصلية للمعرفة الدينية التي تستند إلى القرآن الكريم، من حيث ضبط المصطلحات، وشرح المفردات، وتحليل المدلولات التي تعبّر عن الحقائق القرآنية الساطعة بدقة وأمانة، صدرت «الموسوعة القرآنية: خصائص السور» عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وبالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. وهي عملٌ موسوعيٌّ جديد، يتناول

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي، لا يأتيه الباطل: كشف أباطيل يختلقها ويلصقها بعضهم بكتاب الله عز وجل (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧م) ص١١-١٢.

خصائص السور القرآنية، على نحو يساعد في فهم آي الذكر الحكيم، والولوج إلى الآفاق الممتدة لعالم القرآن، كما يساعد في سبر أغوار معانيه السامية، والإلمام بقسماتٍ مضيئة من مبناه الذي جمع البساطة إلى الإعجاز.. مضمون هذه الموسوعة ماثلٌ في أبواب تسمى مباحث، تتناول، من كل سورة: أهدافها، وترابط الآيات فيها، وأسرار ترتيب ورودها بين السور الأخرى، ومكوّناتها، ولغة التنزيل العائدة إليها، ومعانيها اللغوية، ومعانيها المجازية، ومسائل متفرقة تواجه القارئ، عنوانها في الموسوعة: لكل سؤال جواب. وقد انتُقِيَت موادُّ هذه الموسوعة من أمهات كتب التراث العربي الإسلامي، ومن المؤلفات الحديثة في علوم القرآن. والجديد اللافت في الموسوعة: أنها جمعت، في حيّز واحد، موضوعات قرآنية متفرّقة، تعوّدنا أن نطلبها في مراجع مختلفة، تندرج في ما يعرف بـ «**علوم القرآن**»، وأن أوثق المراجع المتفق عليها، وأوفاها، قد اختيرت لها، فجاءت مباحثها مستوفية لموضوعاتها، محققة لأغراضها[(١)].

إن القرآن الكريم حجة الله البالغة وكلامه المعجز ودستور الحياة، لم يترك كبيرة أو صغيرة من حياة الإنسان إلاَّ ووضع لها القواعد الكلية لانتظامها مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ولقد كان الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي بليغاً ودقيقاً فيما كتبه عن هذا المنحى من مناحي القرآن الكريم، مستوعباً أبعاده في دقة، في

---

(١) عبد العزيز بن عثمان التويجري، في تقديمه للموسوعة القرآنية: خصائص السور، المجلد الأول (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية والإيسيسكو، ١٩٩٩م).

كتابه القيم «كيف نتعامل مع القرآن العظيم» الذي يغني عن الكثرة من المؤلفات التي صدرت حول هذا الموضوع في هذا العصر، لشموله لقضايا عديدة تتصل بالموقف من القرآن، حيث قال: «للقرآن الكريم وظيفة سامية في الحياة الإسلامية، إلى جوار كونه منهاج العمل لحياة الفرد المسلم، وقانون الحكم والتشريع للمجتمع المسلم، أو للدولة المسلمة، هو كذلك دستور الدعوة إلى الإسلام. فهو كتاب عالمي، موجه إلى الناس كافة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، وإن نزل بلسان العرب. ومن قرأه وتدبره يلحظ فيه هذه العالمية ما بين أول آية بعد البسملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وآخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ١- ٣). فهذا هو القرآن يتحدث عن الله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿رب الناس﴾ لا رب العرب، ولا رب إسرائيل! كما تقول التوراة.

ونداءات القرآن موجهة من الله تعالى، لا تحمل أي طابع عنصري أو إقليمي أو طبقي، لأنها إما موجهة إلى (الناس) كافة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ٢١)، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣). وقد وجه هذا النداء الرباني إحدى وعشرين مرة في القرآن. ومثله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وقد وجه مرتين في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦)، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦).

ومثلها ما وجه إلى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ مثل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١). وقد جاء هذا النداء خمس مرات في القرآن.

ومثلها ما وجه إلى العباد مضافين إلى الله تعالى بياء المتكلم ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، وهي إضافة تشريف وتكريم مثل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (العنكبوت: ٥٦). أو إضافة إيناس وتقريب، مثل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ (الزمر: ٥٣). وقد وجه هذا النداء في القرآن خمس مرات.

وإما موجهة إلى أهل الأديان السماوية السابقة من اليهود والنصارى، وقد اختار القرآن صيغة تؤنسهم وتقربهم، وهي ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مثل : ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ (آل عمران:٦٤) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧١)، وقد تكررت اثنتي عشرة مرة.

وإما موجهة إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ .. وهذه الصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لم تعرف إلا في القرآن المدني، بعد أن أصبح للمسلمين جماعة وكيان مستقل. وقد جاءت في القرآن أكثر من تسعين مرة.

وهذه النداءات الربانية كانت جديدة على العالم، وقد قرعت سمع الجزيرة العربية لأول مرة، بعد أن كان الناس لا يتنادون إلا بـ (يا بني فلان)

أو (يا عرب) أو (يا عجم). أما النداء بصيغة إنسانية أو الإيمان، فلم يكن لأحد به عهد.

وقد أعلن القرآن عالمية دعوته، وأعلن الرسول الكريم (ﷺ) عموم رسالته من أول يوم. فهي رسالة عامة في المكان، خالدة في الزمان، شاملة لكل شؤون الإنسان»[1].

وتأكيداً لهذه المعاني التي تؤكد عالمية الرسالة القرآنية إلى الناس كافة وتثبت صمود الإسلام في وجه أعدائه، يقول عباس محمود العقاد في فصل حرره عن (القرآن والزمن) من كتابه «المرأة في القرآن»:

«بقي القرآن الكريم في العالم الإسلامي نحو ألف وأربعمائة سنة قوة عاملة يعتصم بها في إقباله وإدباره، وفي عزته وانكساره، بل كان هو القوة العاملة التي نفعته حين فارقته جميع القوى التي تنتفع بها الأمم، فكان له قوة تعينه على التقدم والنماء، كما كان له قوة تعينه على الثبات والمقاومة، وابتلي المسلمون في أيام ضعفهم بسطوة الطامعين فيهم، وعداوة القادرين عليهم، فلا تعرف دولة من الدول الطاغية لم تفتح بلداً من بلدان المسلمين، أو تدخله بالحيلة والمكيدة، ولا تعرف لهذه البلاد المغلوبة قوة تعوذ بها، غير إيمانها بهذا الكتاب: إن الإيمان بالقرآن وقبول الخضوع لغير رب العالمين، نقيضان لا يجتمعان في قلب إنسان»[2].

(١) يوسف القرضاوي، المرجع السابق، ص٤٣١-٤٣٢.

(٢) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧١م)/٤/٥١٩.

وفي هذا المعنى قال عباس العقاد أيضاً: «إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين، ولعل مكانه في هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته في كثير من القرون الماضية، لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التي يعيش فيها من ذلك النوع، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمي إليها، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون»[1].

وهذا الكلام ينطبق على قرننا الحالي الحادي والعشرين، بل وعلى جميع القرون المقبلة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فليس القرآن الكريم كتاب علوم ومعارف عامة. ولكنه كتاب هداية ورحمة وبشرى للمسلمين، يحث على التفكر والتدبر وإمعان العقل. ولذلك يتجنب الصوابَ من يقحم القرآن في البحوث العلمية والمخترعات والاكتشافات، ويربط بينها وبين ما جاء في كتاب الله العزيز على سبيل (التفسير) غير مأمون العواقب. فالقول بأن القرآن الكريم يشتمل على المسائل العلمية التي لا تتعارض مع ما وصل إليه العلم الحديث، قول مردود لأنه يعرض كتابَ الله لما لا يجب أن يعرض له، فهو كتاب هداية ورحمة وبشرى للمسلمين، وكتاب توحيد ودعوة الناس كافة إلى الحق والعدل والمحبة والإخاء الإنساني، وتحرير للعقل من العبودية لغير الخالق عز وجل.

وفي هذا المجال يردّ الشيخ محمود شلتوت في كتابه «تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى» على من يقول بربط القرآن الكريم

(١) عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، المرجع السابق، ص ٢١٨.

بالنظريات العلمية، فيقول: «هذه النظرة للقرآن الكريم خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف. وهي خاطئة من غير شك، لأنها تحمل أصحابَها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم. وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير؛ فقد يصحُّ اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات. فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة، لعرضناه للتقلب معها وتحمّل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه. فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظاهر الطبيعة، إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم. وحسبنا أن القرآن لم يصادم، ولن يصادم، حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول»[1].

ويلتقي عباس محمود العقاد مع شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت، في إبطال ربط القرآن بما تصل إليه نظريات العلم الحديث، حيث يقول: «كل ما يجب على المسلم أن يؤمن به، أن كتابه الإلهي يأمر بالبحث والتفكير، ولا ينهاه عنه، ولا يصدّه عن النظر والتأمل في مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا المجهول كيفما كان، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة، وهي عرضة بعد قليل للنقص أو التعديل، بل

---

(١) الشيخ محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى، ط.١٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م).

لا يأمره الكتاب بالتوفيق بين الكيفيات التي يفهمها العلم والكيفيات التي يقدرها العقل لفهم المسائل الكونية في بداءتها الأولى ونهايتها الأخيرة بين طوايا الغيب المجهول، لأنه لا ينبغي أن يعلم ـ عقلاً وإيماناً ـ بأن اليوم إذا نسب إلى الإله أو نسب إلى عمر الكون أن يفهم منه أنه يوم من أيام عمر الإنسان، قبل أن يوجد وقبل أن توجد الأرض التي خلق عليها الإنسان. فنحن مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم، ومطالبون بأن نفكر وأن نستفيد لأفكارنا من علوم العصر الذي نعيش فيه، ولكننا لا نطالب في عصر من العصور بأن نعلق إيماننا بتفسير النظريات العلمية، وهي لا تستقر عصراً واحداً على تفسير غير قابل للنقض أو التعديل والتحوير»[1].

والقرآن الكريم رسالة السماء الخاتمة. وبذلك فهو كتاب الله الخالد إلى أن تقوم الساعة. فهو كتاب للزمن كله، أمس واليوم وغداً. وهذا الخلود يجعل من كتاب الله دستوراً دائماً للإنسانية فوق هذه الأرض، تؤمن به، وتتفهمه، وتكتشف حقائقه جيلاً بعد جيل. وفي هذا السياق يعجبني ما قاله الشيخ محمد الغزالي في محاوراته مع الأستاذ عمر عبيد حسنة، التي نشرت في كتاب يحمل عنوان «كيف نتعامل مع القرآن». والعجيب أن هذا العنوان هو نفسه العنوان الذي اختاره الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي لكتابه الآنف الذكر، وقد أشار في مقدمة ذلك الكتاب إلى هذا التشابه بين العنوانين.

---

(١) عباس محمود العقاد، الفلسفة القرآنية، موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧١م) ص ٢٠٧.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «هناك إجماع بين المسلمين على أن القرآن، من ناحية الطول، يستغرق الزمن كله، بل يتعدى الزمن، يقول الرسولﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»[1]. فكأن القرآن امتدادٌ للزمن تتجاوز هذه الحياة، إلى أنه سيقرأ في الجنة. وامتداده العرضي يشمل الأجناس كلها.. نحن الآن في القرن الخامس عشر للهجرة، لكن الأجناس متفاوتة في ذكائها، ومستواها العلمي. وممكن لكل من هذه الأجناس أن يصل إليه القرآن، ويتجاوب معه، ويفهم منه. والعبارة القرآنية فيها مرونة تجعل معاني كثيرة تخرج منها أو تتحملها الآية.. وهذا ما أشار إليه الإمام علي، رضي الله عنه، عندما قام ابن عباس، رضي الله عنهما، وجادل الخوارج : «لا تحاجّهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال أوجه...».. فكلمة «حمّال أوجه» هي في الحقيقة تشير إلى طبيعة الصياغة القرآنية.. وكان لابد أن تكون في الصياغة هذه المرونة لكي تبقى وتكون ممتدة مع الزمن.. ففيها مرونة ظاهرة بحيث إنه إذا تكلم في التاريخ أو تكلم في وصف أرض، أو تكلم في شيء، تنزل عبارة لها نسيج معين بحيث يمكن أن يستقبلها العبقري ويغوص فيها، ويمكن أن يصل إليها العامي ويستقر عند حدودها الأولى. فهذا من خصائص القرآن الكريم. وقد لاحظ هذه الخصائص كل متذوق للقرآن. فالكتاب لكي يكون للزمان كله، وللعقول كلها، وللقلوب كلها، كانت صياغته فيها هذه المرونة العجيبة التي تجعل كل الناس مهما تفاوتوا يستريحوا إليه، وينبعثوا عنه وهم

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، في كتاب **فضائل القرآن**، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح.

راضون.. ولذلك، نرى قفزة العلم في عصرنا هذا، وبالذات في الستين سنة الأخيرة، فقد تضاعف العلم البشري أكثر مما تضاعف خلال الزمن كله، ومع هذا يبقى القرآن، ولو أن إينشتاين قرأه لما وجد فيه ما يناقض العلم الذي اكتشفه في الكون، بل لوجد أن خالق الكون كما رآه هو في ثنايا البحث المادي، هو منزل هذا القرآن الذي يشعر قارئه بأنه حكيم وعليم وعظيم، بقدر ما فهم هو من دراسته الكونية"[1].

وصلاحية القرآن لكل زمن ومكان، تقتضي أن تكون دعوته دعوة عالمية موجهة للإنسانية جمعاء، وتستدعي إلى ذلك حفظ القرآن الكريم من لدن رب العالمين. والقرآن الكريم منذ أن نزل به الوحي على الرسول ﷺ حفظته جموع من الناس شفاهة، وتناقلته جيلاً عن جيل بالتوازي مع النشر الكتابي للمصاحف. وهل نجد عدداً غفيراً يفوق الحصر من حافظي ومرتلي نص رسالة سماوية في كل جيل من أجيال الإنسانية غير قُرَّاء القرآن الكريم؟ وكل جيل من المسلمين في كل زمان يصلي بنصوص من تلك الرسالة. هذا والقرآن لم تتغير لغته العربية إلى اليوم، فلغته ما زالت حية بين الشعوب، ولا يشق على الناس في مجتمعاتنا الحاضرة الإطلاع على القرآن بالعربية، أو على معانيه المترجمة إلى اللغات الأخرى[2].

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، في مدارسة أجراها معه الأستاذ عمر عبيد حسنه، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(٥) ط.٢ (المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ المنصورة/مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٢م) ص٢٠٤-٢٠٥.

(٢) مجموعة من الباحثين، لغات الرسل وأصول الرسالات (الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ٢٠٠٢م) ص٢٢٨-٢٣١.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم «النبأ العظيم» عن حفظ الله تعالى للقرآن الكريم : «وفي تسميته بهذين الاسمين (القرآن، الكتاب) إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى. فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ؛ بالإسناد الصحيح المتواتر. وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها، بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، وبل وكلها إلى حفظ الناس لها»[1].

وفي كتابه المتميّز «مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن» يمحص الدكتور محمد عبد الله دراز هذه القضية تمحيصاً ويزيدها وضوحاً بعد وضوح، حيث يلقي نظرات جديدة إلى القرآن الكريم جديرة بالتقدير، فيقول : «إنه يتضح من البحث أن النص القرآني الذي بين أيدينا اليوم لا يرجع إلى الخليفة الثالث، عثمان بن عفان، كما يقال، ولا إلى الخليفة الأول أبي بكر، وإنما هو مطابق مطابقة حرفية للنص المكتوب بإملاء الرسول، عليه الصلاة والسلام، والذي حفظ بعناية وتقديس في صدور

---

(١) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن، ط.١(الكويت: دار القرآن الكريم، ودار القلم، ١٩٧١م) ص٨.

الصحابة وقرائهم. وبعد أن حفظ النص القرآني على هذا النحو، بعيداً عن أي خلط أو شكوك، انتقل كما هو معلوم من جيل إلى جيل بأمانة وتقديس حتى وصل إلينا، والدليل الذي يقطع بصحته يكمن في أنه رغم الخلاف الذي نَزَغَ بين المسلمين مبكراً بسبب تباعد آرائهم السياسية، فقد ظل القرآن واحداً في العالم الإسلامي كله حتى بالنسبة للفرق الإسلامية الحانقة على الخلفاء الثلاثة الأول»[1].

ولقد حرر القرآن الكريم العقل الإنساني من الأوهام وبدّد الضلالات التي كانت تحول دون رؤية الحقائق الكونية واللطائف الربانية في خلقه. وبذلك تقوم نظرية المعرفة في القرآن على أساس التعادل والتكامل والتوازن بين الكم والكيف والروح والمادة والغاية والسبب. فقد ربط القرآن بين الحواس والعقول والوجدان ودعا إلى استعمال السمع والبصر[2].

يقول الشيخ الإمام محمد عبده في عبارات قوية عميقة موحية ومشرقة: «لقد كشف القرآن عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير: «العالم» والكون الصغير: «الإنسان»، فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزلي، لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها، بل ينبغي أن يحيى ذكرها عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ**

(١) محمد عبده، رسالة التوحيد، ضمن الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم الدكتور محمد عمارة، ط.١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م) ص٤٦٤.

(٢) أنور الجندي، المصدر السابق، ص ١٣.

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَصَلُّوا». وفيه تصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد، لا يقضي فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامتها عليها»[1].

ولما كان التقليد جموداً وحجاباً يحول دون إعمال العقل والتفكير والاجتهاد، فإن القرآن الكريم، قد نهى عن التقليد. وفي هذه المسألة يقول الشيخ محمد عبده: «لقد أنحى القرآن على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم، صاح العقل صيحة أزعجته من سباته وهبت من نومة طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هيمنة (الصوت الخفي) من سدة هياكل الوهم: «نم فإن الليل حالك، والطريق وعرة والغاية بعيدة، والراحة كليلة والأزواد قليلة»[2].

ويحث القرآن الكريم على التفكير في خلق السموات والأرض وفي الحياة وفي الكون وفي الإنسان. وهذا التفكير هو مصدر المعرفة. وحول هذا الموضوع يقول الشيخ محمود شلتوت موضحاً هذه المسألة: «لقد كان موقف القرآن في الحث على التفكير في ملكوت السموات والأرض بأساليبه برهاناً واضحاً على مكانة العقل والعلم في نظر الإسلام، إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرته. وإذن يكون كل ما ورد في القرآن حثاً على التفكير إعلاناً عن فضل العقل، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته، وهو في

(١) المصدر نفسه، صفحة ٤٥٤، والحديث أخرجه البخاري.

(٢) الشيخ محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ط.٨ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م) ص١١٦.

الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم، وإيحاء بتحصيله، فيقف الإنسان على الحقائق، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويحرر من رق الأوهام والخرافات. وبذلك كان الإسلام دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم، وحسبنا أن رسوله لم يقدم حجة على رسالته إلاّ ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم»[1].

لقد ارتفع القرآن الكريم بالعقل، وسجل أن إهماله في الدنيا سيكون سبباً في عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجري على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك:١٠). وكذلك ارتفع القرآن بالعلم وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(آل عمران:١٨).

ولقد قدم القرآن الكريم منهجاً وافياً حول الفكر والعلم والمعرفة، فقد كانت دعوته قائمة أساساً على النظر إلى ما في السموات والأرض، والتعرف إلى قدرة الله تبارك وتعالى وعظمته في الخلق وفي الآفاق، وكيف يبدأ الخلق ثم يعيده، وكيف بدأ الخلق ثم الله (تبارك وتعالى) ينشئ النشأة الآخرة. ودعا القرآن الناس كافة، دون جماعة معينة، إلى التأمل في خلق السموات والأرض وخلق الناس واستعمال الحواس والعقل والتفكير وإلى الاهتمام الكبير بالحساب والهندسة والفلك والتجارة والحساب والانتقال من

(١) المصدر السابق.

النظر إلى التجربة وتقديم البرهان. ومن هنا نجد هذه الألفاظ المتصلة بالعلم والمعرفة قد وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم على هذا النحو :

(رأى) وردت ٣٣٢ مرة، **(نظر)** وردت ٩٩ مرة، **(عرف)** وردت ٣٤ مرة، **(علم)** وردت ٨٠٣٠ مرة، **(ذكر)** وردت ٢٤٧ مرة، **(فقه)** وردت ٢٠ مرة، **(عقل)** وردت ٤٨ مرة، **(فكر)** وردت ١٩ مرة، **(الألباب)** وردت ١٦ مرة، **(الحكم)** وردت ١٩ مرة، **(الحجاج)** وردت ٦٩ مرة، **(الجدل)** وردت ٢٩ مرة[1] .

وهكذا، فإن القرآن الكريم بأنواره المشعة وبفيوضاته المتدفقة وبآياته الباهرة الدالة على حكمة الله في خلقه والداعية إلى التفكير والتدبير والتفقه والبحث عن المعرفة وطلب العلم، كان ولا يزال وسيبقى مادامت الحياة فوق هذه الأرض، مصدراً للمعرفة ومحوراً للنشاط الفكري، ودعوة دائمة إلى الاجتهاد لمواكبة تطور الحياة وارتقاء العلم وازدهار المعرفة الإنسانية.

فرسالة القرآن الكريم رسالة خالدة، وهي رسالة ربانية موجهة للإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان. ولذلك فإن أمة القرآن مسؤولة أمام الله تعالى ومأمورة بتبليغ هذه الرسالة الخالدة للعالمين، وقبل ذلك هي مسؤولة ومأمورة بإقامة الدين والعمل بمقتضى أحكام القرآن الكريم وبتعاليمه ومبادئه، وفقاً لهدي القرآن، وطبقاً للمنهاج الذي جاء به، والذي هو منهاج الحكمة والتبصر والاعتدال والوسطية.

---

(١) أنور الجندي، المصدر السابق، ص ١٨٣.

عالمية الخطاب القرآني

الشيخ الدكتور ناصر بن سليمان العمر(*)

إن نفوس بني آدم متنوعة مختلفة، بل النفس الواحدة تكون لها أحوال مختلفة، وقد جاء الخطاب القرآني بما يوافق هذه النفوس والأحوال جميعاً ولم يأت على نسق واحد، فنجد فيه الترغيب ونجد الترهيب، نجد الوعد ونجد الوعيد، نجد خطاباً للعقل بالحجج والبراهين، ونجد خطاباً للقلب والمشاعر والأحاسيس، نجد الثواب ونجد العقاب، نجد المثل والقصة والحكمة.

- مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فقد بعث الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، فجعله خاتم النبيين والمرسلين، وأنـزل عليه القرآن الكريم مهيمناً على الكتاب

(*) داعية وباحث أكاديمي، المشرف العام على موقع المسلم (السعودية).

قبله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم؛ وخلال مدة وجيزة من عمر الأمم لا تتعدى مائة عام، صار هذا الكتاب منهاج أمة عظيمة يمتد أفرادها من الصين شرقاً إلى المغرب والأندلس غرباً، وطوال أربعة عشر قرناً ونيف من الزمان ظل هذا الكتاب العزيز مصدر هداية وإرشاد لملايين البشر الذين انتشروا في أرجاء العالم القديم، ثم في العصر الحديث امتد تأثيره ليشمل كل أرجاء المعمورة.

إن هذه الحقيقة التي لا يستطيع أحد ردها لوضوحها وثبوتها، آية عظيمة الدلالة على أن هذا الكتاب ليس كأي كتاب، وأن ما حواه من تعاليم ليست كأية تعاليم، وحق له ذلك، فكيف يكون لكتاب مهما علا شأنه، وبلغت حجة صاحبه وقوة عبارته وجزالة بيانه، أن يضاهي، بل يقارب كتاباً حوى كلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه لا من خلفه! ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٣- ٢٤).

فإذا أضيف إلى ما سبق أن هذا الكتاب قد نزل في الجزيرة العربية، وهي يومئذ في ذيل الأمم حضارياً وثقافياً وعلمياً واقتصادياً وسياسياً، ثم حمله العلماء والدعاة إلى شتى بقاع الأرض فخضعت لسلطانه الروحي الآسر - في تلك المدة الوجيزة- أمم عريقة في الحضارة والتقدم بمقياس ذلك الزمان، أيقنا أن هذا الكتاب يحمل في طياته قيماً ومثلاً وتعاليم، تتجاوز حدود الإقليم الذي نزل فيه، وأن تعاليمه عالمية بمقاييس ذلك الزمان وزماننا هذا، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

إن الخطاب القرآني صالح لمخاطبة الناس وإقناعهم وإخضاعهم لسلطانه والتسليم لحجته في كل زمان ومكان، وتعاليمه كفيلة إن طبقت في أي مكان بإصلاحه في كل زمان.

وما الهزات الاقتصادية المعاصرة إلاّ علامة بهاتة تدل العامة على هذا المعنى في هذا الزمان.

وفي هذه الكلمات سوف أحاول، بإذن الله، تجلية شيء من جوانب عالمية الخطاب القرآني، وعمومه وشموله لكل زمان ومكان، على اختلاف انتماءات البشر العرقية والجنسية والثقافية والدينية، وسوف يدور البحث حول المحاور التالية:

أولاً: حاجة البشرية لخطاب عالمي.

ثانياً: أدلة عالمية الخطاب القرآني.

ثالثاً: سبب عالمية الخطاب القرآني.

رابعاً: ملامح عالمية الخطاب القرآني.

خامساً: شبهات حول عالمية الخطاب القرآني.

ولا يفوتني قبل الشروع إثبات الثناء على الإخوة في المكتب العلمي على ما بذلوه من جهد في جمع مادته وإعدادها، فجزاهم الله خيراً وكل من أسهم في هذا العمل.

أولاً: حاجة البشرية لخطاب عالمي

لقد صار العالم اليوم كالقرية الصغيرة أو كاد، بسبب التطور الهائل في وسائل الاتصالات وسرعة وسهولة تبادل المعلومات والمعارف؛ وهو ما أفرز نوعاً غير مسبوق من تسابق الزمن، حيث صارت البشرية تنتج في سنوات معدودة ما كانت تحتاج كي تنتجه فيما مضى لعشرات السنين بل القرون.

هذه الحال الجديدة بدت مناسبة لظهور دعوات وأفكار تخاطب المجتمع الإنساني كله، ولا تنحصر في حدود الإقليم، فظهرت الشيوعية والعلمانية والليبرالية وغيرها، بل ظهرت الدعوة للعولمة، والغرض منها أن تصطبغ كل الأمم والشعوب بصبغة واحدة تذوب معها كل الفروق الثقافية والحضارية وكل المميزات والخصوصيات التي بين الشعوب، ونحن هنا لسنا في معرض مناقشة هذه الدعوات وبيان ما فيها من مساوئ ومناقضة لشرع الله، فهذا يخرجنا عن المقصود، لكننا نبين بما سبق أن العالم في وضع يؤهله لتقبل دعوة عالمية تخاطب الجنس البشري عموماً.

إن المذاهب السابقة لا تصلح عند التحقيق لتلبية طموحات البشر وتحقيق سعادتهم، ففي ظل عالمٍ سريعِ التغير والتحول يموج بكثير من القيم والأفكار والمبادئ المتصارعة والمتدافعة كالتي سبق ذكرها، وفي ظل أمواج متلاطمة من الفتن والمحن والمشكلات التي تعصف بأفراد الأسرة الإنسانية جميعاً على كافة الصعد؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والقِيَمية وغيرها، تبرز الحاجة الماسة إلى مصباح ينير الدرب

للحيارى والتائهين في زحمة الأحداث، وإلى منهاج يعتصم به الناس ليخرجهم من ظلمات الحيرة والشك والاضطراب والصراعات التي تحرق الأخضر واليابس إلى نور الطمأنينة واليقين، وإلى بر الأمان الذي تستمر فيه حياتهم وتنتظم معايشهم.

إن هذا المنهاج لا يمكن أن يكون من وضع البشر، لأن ما آلت إليه حالهم من اضطراب ليس إلا انعكاساً لما أفرزته عقولهم من أفكار ورؤى متصارعة، سعى كل فريق منهم بما أوتي من قوة لبسط ما يراه منها وتحكيمه، وفقاً لما يخدم أهواء بني جنس أو وطن ويعزز مصالح فئة أو بلد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، أما المنهج الرباني فالناس فيه سواسية مهما تشعبت بهم الأهواء تحت عدالة قدسية الأحكام والميزان، ثم إن المنهاج الرباني أنزله خالق هؤلاء البشر العالِمُ بما يُصلِحهم وما يفسدهم، وما يَصلُح لهم وما لا يصلح، فإن من أوجد شيئاً وصنعه وركبه - ولله المثل الأعلى- أدرى بما يناسبه وما لا يناسبه.

ومن خصائص منهج الله المنزل من لدن حكيم عليم مقسط عدل أنه منهج عالمي في طرحه لا يراعي أحوال أمة من الأمم دون غيرها، ولا منطقة جغرافية لها خصوصياتها دون غيرها إلاّ لمعنى يناسبها تميزت به عن غيرها، وكل ذلك مقتضى العدالة التامة والحكمة البالغة.

إن هذا الجمع بين إلهية المنهج وعالميته، لا يتحقق إلا في رسالة واحدة وصلت أهل الأرض بالسماء، هي رسالة الإسلام الخالدة التي امتن الله بها

على عباده يوم بعث نبيه محمداً ﷺ هادياً ومبشراً ونذيراً للإنس والجن كلهم، من مبعثه إلى يوم الدين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:٢٧)، وأما الرسالات الإلهية السابقة فلم يبق منها على وجه الأرض اليوم سوى اليهودية والنصرانية وبقايا أدعياء، واليهودية والنصرانية كلتاهما كانت لبني إسرائيل دون غيرهم من الأمم؛ أما اليهود فهم مقرون بذلك ولا يسعون لنشر دينهم بين غيرهم، وأما النصارى فقد نشروا دينهم بين الأمم مخالفين بذلك تعاليم ما بين أيديهم من أناجيل تؤكد أن النصرانية خاصة ببني إسرائيل فحسب مثل اليهودية، فإنهم ينسبون للمسيح، عليه السلام، قوله: «لَمْ أُرْسَلْ إلاَّ إلَى خِرَافِ بَيْتِ إسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»[١]، وجاء في إنجيل متى أيضاً: «هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: إلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»[٢]، وقد دخل هاتين الديانتين من التحريف والتبديل ما الله به عليم، وهما منسوختان بدين الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥).

إن من تأمل في الظروف والملابسات التي كانت موجودة في العالم بأسره قبيل بعثة النبي ﷺ وجدها متقاربة مع حال كثير من أنحاء العالم المضطرب اليوم، فعن عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي**

(١) إنجيل متى، الإصحاح الخامس عشر، ٢٤.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح العاشر.

يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ...»[1].

وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد انتشر الكفر والظلم والبغي في أرجاء الأرض، وعم الفساد وطم، ولولا بقايا من أهل الإسلام المتمسكين بدينهم القابضين على الجمر لأظلم وجه الأرض بما اقترفته أيدي بني آدم. ولئن كانت الحال قبيل البعثة قد استدعت إرسال النبي ﷺ وإنزال القرآن الكريم، فإن الحال اليوم تستدعي نشر هذا الكتاب العزيز وحمله للعالمين لينهلوا من مورده العذب ويستظلوا بظله الوارف.. فإن العالم اليوم يعيش كوارث ولا كاشف لها إلاّ منهج القرآن.

(١) صحيح مسلم، ٤/٢١٩٧ (٢٨٦٥)، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

ثانياً: أدلة عالمية الخطاب القرآني

هذه الأدلة تنقسم إلى قسمين؛ شرعية وكونية.

أما الكونية فتتمثل في انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ودخول الناس في دين الله أفواجاً استجابة لدعوة القرآن الكريم، فاستجابة الناس على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ولغاتهم وطبائعهم لهذا الكتاب العزيز دليل أكيد على أن خطابه لقي قبولاً عند كل هؤلاء وهذا دليل أكيد على عالميته، وقد أقر بهذه العالمية كثير من مفكري الغرب والمستشرقين، يقول «مارسيل بوازار»[1] في كتاب «إنسانية الإسلام»: «إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»[2]، ويقول «جاك. س. ريسلر»[3] في كتاب «الحضارة العربية»: «إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة... وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ»[4].

(١) مفكر، وقانوني فرنسي معاصر.
(٢) عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، ١/٧.
(٣) باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي في باريس.
(٤) عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، ١/٢١.

وقد وَسِع منهاج القرآن عبر قرون أمماً في أقصى المشرق وأمماً في أقصى المغرب، تختلف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم وأجناسهم وخلفياتهم الثقافية، ومع ذلك بقيت حضارتهم تزدهر قروناً، قرناً بعد قرن، وظلت أحكام الشريعة تستوعب المستجدات، وتتفاعل مع التطورات، لا ترد مسألة أو تستجد نازلة وليس لها حكم في كتاب الله عند العالمين به أبداً، وما وانتكست أمم الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها إلاّ بعد أن ابتعدت عن منهاج ربها، وصراطه المستقيم.

وكذلك وَسِع منهاج القرآن من قضي عليه بأن يعيش في دولة الإسلام أو في أرض العهد أو دار الحَرب، وَسِع الأسير والطليق والصحيح والمريض والغني والفقير، بل وَسِع الثقلين في مختلف أحوالهم وعلى اختلاف حالاتهم.

وأما الأدلة الشرعية على العالمية فمن الكتاب والسنة والإجماع:

أ- أدلة الكتاب:

وهي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨)، ودلالة هذه الآيات وما شابهها على المراد ظاهرة، قال ابن كثير في تفسير الآية الأخيرة: «أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين»[(١)].

(١) تفسير ابن كثير، ٥١٨/٦.

ومنها قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب:٤٠) الآية، ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى قد وعد أن يرسل لبني آدم من يهديهم إليه، وألا يتركهم هملاً، فيلزم من ختم النبوة مع انتشار الناس في الأرض واستمرار الحياة عليها أزمنة عديدة إلى ما شاء الله، أن يكون آخر نبي نبياً لهم جميعاً.

ومن الأدلة الظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (القلم:٥٢)، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (ص:٨٧).

ب- أدلة السنة:

ورد عن النبي ﷺ العديد من الأحاديث الدالة على هذه الحقيقة، فمنها قوله، عليه الصلاة والسلام، في الحديث الذي رواه أبو هريرة، رضي الله عنه: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ، أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»[1]، ومنها قوله، عليه الصلاة والسلام، في حديث جابر، رضي الله عنه: «**كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**»[2]، قال النووي، رحمه الله، في الشرح: «قيل: المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب - لغلبة السمرة فيهم- وغيرهم من السودان؛ وقيل: المراد بالأسود السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب

(١) صحيح مسلم، ٣٧١/١ (٥٢٣)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) صحيح مسلم، ٣٧٠/١ (٥٢١)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وغيرهم، وقيل: الأحمر الإنس، والأسود الجن؛ والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم»[1].

ج- أدلة الإجماع:

أما أدلة الإجماع، فقد قال ابن حزم، رحمه الله، في مراتب الإجماع: «باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع»، فذكر منها: «وأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي المبعوث بمكة المهاجر الى المدينة رسول الله ﷺ إلى جميع الجن والإنس إلى يوم القيامة»[2]، فهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، بحيث يكفر من ينكره وإن أقر بنبوته، عليه السلام، وبكل أحكام دينه، قال ابن كثير، رحمه الله: «والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم»[3].

(١) شرح النووي على مسلم، ٥/٥.

(٢) ابن حزم، مراتب الإجماع، ١/١٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير، ٣/٤٨٩.

ثالثاً: سبب عالمية الخطاب القرآني

من المعلوم أن الله عز وجل وعد بني آدم منذ أخرج أبويهم من الجنة وأهبطهما الأرض ألا يتركهم يخبطون فيها خبط عشواء، بل يرسل لهم هداة معلمين مبشرين ومنذرين، يدلونهم على طريق الله الموصلة إلى رضوانه، والتي في سلوكها أوبة حميدة إلى ديارهم الأولى، التي أخرج منها الأبوان بمكرٍ من الشيطان وضعف منهما، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٣٨)، وأيضاً: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (طه:١٢٣).

ومصداقاً لهذا الوعد كان الله عز وجل يرسل للناس رسلاً وأنبياء يصلون أهل الأرض بالسماء؛ وحيث إن بني آدم قد كثروا وانتشروا في بقاع الأرض المختلفة، وتباعدت منازلهم وتنوعت بيئاتهم واختلفت ألسنتهم، فقد كان يرسل لكل قوم رسولاً منهم يتكلم بلسانهم ويعالج انحرافاتهم بخاصة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (إبراهيم:٤)، وقد كانت مهمة كل نبي في البلاغ منحصرة في القوم أو الأقوام الذين يرسله الله عز وجل إليهم دون غيرهم، لذا لم تكن هناك حاجة لعالمية في الخطاب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾(الأعراف:٥٩)، وقال: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ﴾(الأعراف:٦٥)، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾

(الأعراف:٧٣)، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف:٨٥).

فلما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يرسل رسولاً خاتماً لكل الخلق كان من لوازم ذلك أن يكون الخطاب خطاباً عالمياً غير محلي بحيث يلقى قبولاً وتفهماً من كل أمم الأرض؛ وهنا قد يثور سؤال هو: ما الداعي لختم الرسالات برسالة واحدة إلى كل الأمم - خلافاً لما جرت عليه سنة الله عز وجل- ومن ثم تحول الخطاب من المحلية والإقليمية إلى العالمية؟

إن الجواب الرئيس الذي ينبغي أن يستصحبه المسلم معه لهذا السؤال وغيره من الأسئلة المشابهة، أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فأفعال الله سبحانه وتعالى لا يُسأل عنها بـ«لم»، و«كيف»، بل يسلم له سبحانه وتعالى ويسلم لحكمته، فهو عز وجل حكيم لا يصدر عنه فعل إلا لحكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها؛ أما بعد التسليم لهذه القاعدة فلا بأس من تلمس وجوه الحكمة، فإن معرفة الحكمة تزيد اليقين وتحفظ قلوب كثير من الناس من الفتن، ويرد بها على كثير من الشبهات.

وقد ذكر أهل العلم بعضاً من الوجوه المحتملة للحكمة من ذلك، منها أن الأمم السابقة كانت تعيش فيما يشبه العزلة عن بعضها، وأن التواصل بين الأمم والحضارات كان يتم ببطء شديد، ولما كان عصر البعثة يشهد نوعاً من الاستقطاب بين قوتين عالميتين فقط هما الفرس والروم، وكان التواصل بين الأمم - نتيجة ذلك- يسير بصورة أسرع مما مضى، كان من المناسب أن

تعم البشرية رسالة واحدة؛ ومنها أن هذا التواصل المتسارع بين أعضاء الأسرة البشرية كان يؤدي إلى شيء من التشابه في المشكلات والآفات التي تعاني منها البشرية، بخلاف ما كان سائداً فيما سبق، حيث تبين آيات الكتاب العزيز أن كل أمة من أمم المرسلين كان لديها من الانحرافات والآفات ما تتميز به عن غيرها، وإن اجتمعت مع الآخرين في غيرها، وهو ما كان يستلزم أن يأتي كل نبي بعلاج آفات قومه الخاصة؛ إن هذه النقطة بالذات تظهر أكثر ما يكون في عصرنا الحاضر، حيث كان لثورة المعلومات والاتصالات أثرها الكبير في هذا الأمر، وهو ما لم يكن قائماً فيما مضى.

ولعل من ألطف وجوه الحكمة المحتملة أن الله سبحانه وتعالى اصطفى محمداً ﷺ على ولد آدم أجمعين، وآتاه خير كتبه وأحسن شرائعه، فكان من المناسب ألا يكون في زمانه أو بعده شريعة لا تصل في الحسن لما امتازت وخصت به شريعته، وكان من عدل الله عز وجل ورحمته بالخلق أن جعل هذا النبي وهذا الكتاب وهذه الشريعة عامة لهم جميعاً منذ بعثته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ومنها كذلك أن الأقوام السابقة كانت تناسبهم دعوات خاصة تتعلق بظروف شتى وأحوال متنوعة كانوا يتقلبون فيها، أما هذه الشريعة فجاءت مناسبة كذلك لسائر الخلق في آخر الزمان، كما كانت تلك مناسبة للأمم في حينها، وشرح هذا أو الاعتراض عليه لا يتأتى إلاّ بمعرفة حقيقة ما كان وما سيكون على الوجه الذي يفهمه من عايشه، فلا سبيل لنقضه، وأما إثباته فبعموم النصوص التي تثبت الحكمة والعدل.

رابعاً: ملامح عالمية الخطاب القرآني

المتدبر لآيات الكتاب العزيز يستطيع أن يتلمس كثيراً من ملامح هذه العالمية، فمنها:

١- أن الله عز وجل كان يعطي كل نبي من المعجزات ما يناسب قومه؛ وقد كانت كل معجزات الأنبياء السابقة حسية مادية، فلما كان السحر قد انتشر في زمن موسى، عليه السلام، أيده الله سبحانه وتعالى بالعصا وبما يبطل سحر السحرة؛ ولما كان قوم عيسى، عليه السلام، قد برعوا في الطب كانت معجزته أن يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله؛ وأما نبينا محمد ﷺ فقد كانت له معجزات حسية كانشقاق القمر وحنين الجذع وغيرها، لكنْ معجزته الكبرى هي هذا الكتاب العزيز، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَـاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِـيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١].

ولئن كان العرب أهل فصاحة وبلاغة فجاءت فصاحة القرآن وبلاغته معجزة لهم أن يأتوا بمثله بل بعشر سور بل بسورة من مثله، فإن معجزته لم تتوقف عند ذلك ولا توقفت عند حد إعجاز العرب، بل امتدت لإعجاز الإنس على اختلاف أجناسهم وتنوع ألسنتهم، وكذلك إعجاز الجن معهم على أن

(١) صحيح البخاري، ٤/١٩٠٥ (٤٦٩٦)؛ صحيح مسلم، ١/١٣٤ (١٥٢).

يأتوا بمثله مما يدل على عالمية خطابه، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨)؛ وجماع القول في إعجاز القرآن الكريم: إنه كلام الخالق عز وجل، فلا يمكن أن يشبهه كلام أي مخلوق، ولا يمكن لأي من الخلق أن يعارضه أو يأتي بمثله.

٢- أن أول آيات نزلت على رسول الله ﷺ تحدثت عن الإنسان مطلقاً، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق:١- ٧)، فذكر امتنانه على جنس الإنسان بالخلق والتعليم ثم ما كان منه من طغيان في مقابل الإنعام، وكأن في هذا إشارة مبكرة لعالمية الخطاب، والله أعلم.

٣- أن آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن جنس الإنسان وعن عموم الناس، آيات كثيرة جداً تقترب بمجموعها من ثلاثمائة آية، بينما لا نجد لفظ العرب كقوم يأتي ولا مرة واحدة رغم أنه نزل بلغتهم، وهذا مؤشر شديد الوضوح على عالمية الخطاب وخروجه عن حدود المحلية والإقليمية.

٤- أن الله عز وجل خاطب البشر عموماً في كثير من الآيات، بغض النظر عن جنسهم ولونهم وأصلهم بل بغض النظر عن دينهم، سواء كانوا مسلمين موحدين أم كفاراً من أهل الكتاب وغيرهم، وذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ حيث وردت هذه اللفظة في عشرين آية[1] بخطاب مباشر من الله عز وجل أو مسبوقة بلفظ ﴿قُلْ﴾.

٥- أن القرآن الكريم في خطابه لعموم الناس لم يفرق بين الأمم والشعوب والأجناس، ولم يصنفها تصنيفاً عنصرياً وإنما جعل التقوى والالتزام بالمنهج الرباني هو معيار التفاضل بين البشر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)، وهو ما أكده النبي ﷺ حيث خطب الناس في أكبر جمع للمسلمين في أيام التشريق، فقال: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى. أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله**»[2]، فهذا العدل وهذه المساواة المقيدة ملمح مهم من ملامح عالمية خطاب القرآن.

٦- أن الله سبحانه وتعالى دعا في كثير من الآيات إلى إعمال العقل والفكر والنظر في آيات الكون المنشور وآيات الكتاب المسطور، مما يتوافق مع ما سبق بيانه من وصول البشرية لمرحلة النضج العقلي، وهذه الأدوات، التي دعا القرآن الكريم لإعمالها مشتركة بين كل البشر،

---

(١) جاء لفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في آية أخرى ولكن على لسان سليمان، عليه السلام.

(٢) مسند أحمد، ٤٧٤/٣٨ (٢٣٤٨٩)، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

لا تختص بأمة أو شعب أو عرق أو لون، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

٧- أن الله عز وجل دعا في القرآن الكريم للاعتبار بما حل بالأمم السابقة، ولئن كان الأنبياء السابقون قد دعوا قومهم لذلك أيضاً، فإنهم إنما دعوهم للاعتبار بحال من جاورهم من الأمم التي يعرفونها وخلفوها، فهود، عليه السلام، قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف:٦٩)، وصالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ (الأعراف:٧٤).

أما دعوة القرآن الكريم فكانت لكل الناس للسير في الأرض والضرب فيها والاعتبار بحال كل الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧- ١٣٨).

٨- من هذه الملامح الدور الذي ناطه القرآن الكريم بالأمة الإسلامية، فهي لا تقف بعيدة عن المشهد العالمي متفرجة عليه، لكنها أمة رائدة فاعلة ومتفاعلة، ويوضح هذا المعنى آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(النور:٥٥)،

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨).

٩- أن البشر حيال قضية الإيمان بالله ينقسمون إلى أصناف؛ فمنهم المنكر لوجود الصانع، ومنهم المؤمن بوجوده المنكر نبوة محمد ﷺ، ومنهم المؤمن بوجوده المشرك معه في العبادة غيره، ومنهم أهل الكتاب المتبعون لما حرف من كتبه، ومنهم المؤمنون الموحدون، وقد تنوع خطاب القرآن الكريم ليشمل هذه الأصناف جميعاً.

فخاطب منكري الصانع في أكثر من آية مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ (الطور:٣٥).

وخاطب منكري نبوة محمد ﷺ في غير آية مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٦).

وخاطب المشركين في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وخاطب أهل الكتاب في كثير من الآيات مثل قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:٧١).

وخاطب أهل الإيمان في آيات كثيرة جداً مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا

وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢- ١٠٣).

١٠- أن نفوس بني آدم متنوعة مختلفة، بل النفس الواحدة تكون لها أحوال مختلفة، وقد جاء الخطاب القرآني بما يوافق هذه النفوس والأحوال جميعاً ولم يأت على نسق واحد، فنجد فيه الترغيب ونجد الترهيب، نجد الوعد ونجد الوعيد، نجد خطاباً للعقل بالحجج والبراهين، ونجد خطاباً للقلب والمشاعر والأحاسيس، نجد الثواب ونجد العقاب، نجد المثل والقصة والحكمة، نجد الكلام عن عالم الغيب وعالم الشهادة، نجد دعوة للزهد في الدنيا إلى جانب الدعوة للأخذ بأسباب القوة فيها؛ وبناء عليه فإن نفوس بني آدم جميعاً إذا سلمت من الهوى تجد الأنس والراحة والسرور في هذا الخطاب الذي لا يشبهه خطاب.

١١- أن القرآن الكريم تناول كل ما يحتاج إليه البشر من أمور دنياهم وأخراهم، وذلك ببيان ما ينفعهم في جوانب الاعتقاد والتشريع والأخلاق؛ فقد أجاب الإنسانَ عن كثير من الأسئلة التي تؤرقه مما يتعلق بأصل وجوده، ومن أوجده، ولِمَ أوجده، وماذا يريد منه، وما مآله بعد الموت؟ وبين له ما ينبغي عليه أن يعتقده في أبواب الإيمان المختلفة، وما ينبغي أن يقوم به من عبادات وفرائض قياماً بحق العبودية لله عز وجل على الوجه اللائق؛ كما اشتملت آياته الكريمة على تشريعات كاملة في جوانب السياسة والاقتصاد

والاجتماع، وبينت أصول الأخلاق الفاضلة والكاملة وكثيراً من تفصيلاتها، فكان القرآن الكريم بشموله لكل هذه الجوانب منهج حياة متكامل.

١٢- ومن ملامح عالمية الخطاب القرآني أنه صالح لكل زمان ومكان، فإن تشريعاته وتعاليمه الحكيمة كانت تلقى القبول في مشارق الأرض ومغاربها منذ العصر الأول إلى يومنا هذا إلى ما شاء الله، وما زلنا كل يوم نسمع عن دخول مزيد من الناس، من مختلف الأجناس ومن مختلف الطبقات والمستويات العلمية والاجتماعية في دين الله سبحانه وتعالى، تأثراً واقتناعاً بما جاء في القرآن الكريم كلام الرب عز وجل، ولو لم يكن يلبي حاجات وتطلعات الشعوب والأمم المختلفة لما وجدت له هذه المكانة ولما تحقق له هذا الانتشار على أرض الواقع.

خامساً: شبهات حول عالمية الخطاب القرآني

منذ اليوم الأول من دعوة النبي ﷺ قومَه وُوجه القرآن الكريم بالعديد من الشبهات التي تهدف للصد عنه وعن سبيل الله؛ فقيل: إنه من عند النبي ﷺ، وقيل إنه يعلمه بشر، وقيل إن الجن يوحون به إليه، إلى غير ذلك، وقد كان من بين الشبهات التي أثيرت من زمن بعيد في وجه القرآن الكريم ودعوة الإسلام شبهة تنفي عالميته وشموله للجنس البشري بزعم أنه خاص بالعرب، وهذا قول طائفة من اليهود، قال النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: «فيه دليل على أن محمداً صلى الله عليه وآله مبعوث إلى الخلق كافة، خلافاً لطائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أتباع عيسى الأصفهاني، زعموا أن محمداً ﷺ رسول صادق، لكنه مبعوث إلى العرب خاصة»[1].

وفي عصرنا الحاضر يثار في وجه عالمية الخطاب القرآني نوعان من الاعتراضات: الأول ينفي هذه العالمية ابتداء، والثاني يقر بها ولكنه يحرفها عن معناها الصحيح. وسوف نتناول فيما يلي هذين النوعين بالنقد والتحليل:

أ- نفي عالمية الخطاب القرآني:

كما سبق فإن هذه الدعوى قديمة، حيث قال بها بعض اليهود زاعمين أن النبي ﷺ لم يبعث للناس كافة وإنما للعرب خاصة، ولربما قالوا: إن بني إسرائيل بعينهم ليسوا داخلين في دعوته، والثابت عنه، عليه الصلاة

(١) تفسير النيسابوري، ٤/١٤.

والسلام، خلاف ذلك... وقد رد الرازي، رحمه الله، هذه الدعوى بقوله: «إن كان رسولاً حقاً امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه؛ فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية - أي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾- أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الخلق، وجب كونه صادقاً في هذا القول، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط»[1].

وفي العصر الحاضر هناك من ينفون عالمية الخطاب القرآني كذلك، سواء أقروا بنبوة محمد ﷺ أو لا، ومن أعظم حججهم ما يلي:

١- أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية ولم تكن زمن نزوله لغة عالمية، لأن العرب لم يكن لهم وزن يذكر في العالم، ولم تكن لهم مدنية أو حضارة تساعد على انتشار لغتهم، وأن الحال اليوم كحال الأمس، ويؤكد هذا المعنى أن القرآن الكريم لا تترجم ألفاظه إلى بقية اللغات بخلاف الإنجيل مثلاً.

الجواب: إن للغة العرب من الميزات والخصائص التي تفوق بها غيرها من اللغات ما هو معلوم للباحثين والدارسين، من حيث غزارة المفردات، واتساع اللغة، وإيجازها في التعبير عن المقصود، وكثرة المترادفات التي تراعي الفروق الدقيقة في المعاني، إلى غير ذلك؛ وهي في الفصاحة والبلاغة تتربع على عرش اللغات جميعاً، وهذا ما يؤهلها كي تكون لغة عالمية إن لم نقل اللغة العالمية الأولى.

---

(١) الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ٢٧٠/٧.

وأما عدم ترجمة ألفاظ القرآن الكريم بمعنى وضع مرادف لمعناه بلغة أخرى لا نقل معانيه - بمعنى تفسيره- فهذا أمر يؤكد عالمية خطابه لا العكس، لأن باقي اللغات لا تستطيع أن تعطي معاني مفرداته على وجه الدقة، واللفظ الواحد من أي لغة قد يعطي معنى واحداً من المعاني الكثيرة المحتملة للفظ القرآني، فتضيع كثير من الفوائد إن جعل هذا اللفظ بدل لفظ القرآن، مما يؤكد على تفوق اللغة العربية من جهة، وعلى ضرورة عدم ترجمة ألفاظ القرآن الكريم من جهة أخرى.

يقول «جب»[1] في كتابه «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» عند تعرضه لمنع ترجمة ألفاظ القرآن الكريم: «إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلاني مستندة في ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني. والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع. إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله، لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ. والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلى القرآن لتلقي تعاليمه. ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقي إلى فخار»[2].

(١) سير هاملتون الكساندر روسكين جب (١٨٩٥ – ١٩٦٧)، يعد إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠م.

(٢) قالوا عن الإسلام، ١/٣٥.

ومن جهة أخرى فمعلوم من تاريخ الإسلام أن اللغة العربية صارت اللغة الأولى لكثير من الأمم والشعوب التي لم تكن تتكلمها، وقد اعتنى المسلمون من العرب وغيرهم بهذه اللغة أيما اعتناء حتى إن كثيراً من أساطين اللغة كانوا من غير العرب كما هو معلوم، وهذا مما يدل على عالميتها ويبطل هذه الحجة، يقول «سارتون»[1] في كتابه «الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط»: «(إن) لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله جل وعلا للوحي كانت، بهذا التحديد، كاملة... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد... (وجعل منها) وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة»[2].

وأخيراً، فإن الاعتراض باللغة المحلية على عالمية الرسالة اعتراض غير صحيح، فمن أين ومن ذا الذي شرط في الخطاب حتى يكون عالمياً أن يجيء بسائر اللغات؟!

وإذا كان التوراة والإنجيل أنـزلت لبني إسرائيل بالسريانية وقد انقرضت تلك اللغة فهل من جاء بعد من بني إسرائيل غير مخاطبين بأحكامهما لأن لسانهم قد تغير؟

وهل مقررات الأمم المتحدة في نصوصها الملزمة المحكمة عند التنازع - وهي في الغالب الصادرة بالإنجليزية والفرنسية دون المترجمة لأغلب اللغات

(١) جورج سارتون (١٨٨٤-١٩٥٦م)، دكتور بلجيكي في العلوم الطبيعية والرياضية (١٩١١م)، درس العربية وألقى في بيروت محاضرات ممتعة لتبيان فضل العرب على التفكير الإنساني، زار عدداً من البلدان العربية.

(٢) قالوا عن الإسلام، ١/٢٢.

الأخرى- لا سلطان لها على بقية دول العالم بحجة اختلاف اللسان؟ أم هي مقررات عالمية وإن صدرت باللغة الإنجليزية أو الفرنسية!

٢- أن القرآن الكريم يركز في ذكر نعيم الجنة على ما يعد موضع اهتمام العرب دون غيرهم من الأمم، فالكلام عن الأنهار والزرع والنخيل والأعناب والغرف المبنية واللحم والفواكه مناسب لبيئة الصحراء القاحلة التي تفتقر للمياه والزروع والخيرات، والتي تمثل الأعناب والنخيل فيها ثماراً معروفة مألوفة لهم، وكذلك الحديث عن الحور العين وهي تمثل بالنسبة للعرب قمة الجمال بالنسبة للنساء، بينما هذه الأمور قد لا تكون موضع اهتمام غيرهم من الأمم التي تعيش في بيئات غنية بالمياه والزروع وحيث يختلف معيار الجمال عما هو موجود عند العرب.

الجواب: لا شك أن أي خطاب عالمي لا بد أن يراعي البيئة الأولى التي يلقى فيها كي يجد بيئة حاضنة تساعده على البقاء والانتشار، فعلى التسليم بما ذكر في الشبهة فإن هذا وحده لا يكفي كي ينزع عن الخطاب القرآني صفة العالمية، فكيف إن كنا لا نسلم بما فيها!

إن ما جاء ذكره من نعيم أهل الجنة له قيمة عالية عند العرب، لا شك في ذلك، إلا أن له قيمة كبيرة عند غيرهم أيضاً، فإن الاستمتاع بالماء والخضرة والوجه الحسن مما تتفق عليه طباع البشر السوية في أرجاء المعمورة وليس أمراً خاصاً بالعرب.

ومن جهة أخرى فإن نعيم الجنة الحسي كما بينه القرآن الكريم لم يقتصر على ما ذكر، بل هذه أمثلة لنعيمها، ففيها من أنواع الزينة الفاخرة

كالسندس والحرير والإستبرق واللؤلؤ والذهب والفضة وغير ذلك، ما يخلب لب أكثر أهل الأرض نعيماً على اختلاف أجناسهم.

ومن جهة ثالثة فإن نعيم الجنة لم يقتصر على هذه الأمور الحسية، بل إن فيها من النعيم المعنوي أضعاف ذلك، من اجتماع الأهل والأحبة من المؤمنين، وتنزه الأسماع عن اللغو والكذب، والأبصار عن كل قبيح، وفيها ما أهو أعظم من كل ذلك؛ الأنس بالقرب من الله عز وجل ونيل رضوانه وكرامته.

وبعد كل ما سبق، فإن القرآن الكريم قد بيَّن أن المؤمنين الذين يكرمهم الله عز وجل بدخول الجنة يكونون في نعيم مقيم وأن كل واحد منهم يجد فيها ما يشاء ويشتهي، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف:٧١)، وقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق:٣٥).

٣- أن الله سبحانه وتعالى ذكر في أكثر من آية أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢) وأنه تحدى العرب أن يأتوا بمثله في الفصاحة والبلاغة، فمثل هذا التحدي لا يتوجه لغير العرب مما يدل على محلية الخطاب القرآني وعدم عالميته.

الجواب: إن هذه الشبهة رغم أنها أرأس شبهاتهم إلا أنها شبهة باردة وحجة سخيفة، فمن المعلوم أن أي دعوة عالمية إنما تنشأ في بيئة محددة ثم تنطلق منها إلى باقي البقاع والأماكن، وكل التيارات العالمية اليوم مرت بمثل ذلك، ومن المنطقي والحال كذلك أن تخاطب الدعوة الوليدة البيئة الأولى بلغتها وإلا ماتت الدعوة في أرضها لعدم تقبلها من البيئة الحاضنة،

وهذا أمر بدهي، ولهذا الكلام دليل شرعي كذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ (فصلت:٤٤)، قال ابن كثير: «أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطَب عربي لا يفهمه، هكذا رُوي هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾، أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي، هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ وهو رواية عن سعيد بن جبير وهو في التعنت والعناد أبلغ»[1].

هذا وإن تحدي القرآن الكريم لم يقتصر على تحدي العرب في الإتيان بمثله في البلاغة والفصاحة، بل التحدي يشمل كل البشر بأن يأتوا بكلام مثله لأنه كلام الله سبحانه وتعالى الذي لا يشبهه كلام البشر، فهو على طوله لا اختلاف فيه ولا تناقض، وهو صدق كله وعدل كله، قال ابن كثير: «من تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء،

(١) تفسير ابن كثير، ٧/١٨٤.

وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ (الأنعام:١١٥) أي: صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه... وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن... وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء... وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم»[1].

(١) تفسير ابن كثير، ١/١٩٩-٢٠٠.

فيدخل ضمن كلامه، رحمه الله، ما يمكن أن نسميه إعجازاً عقدياً وتشريعياً وأخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً، وكذلك ما يعرف في هذا العصر بالإعجاز العلمي شريطة أن يكون منضبطاً بضوابط حددها أهل العلم، فهذه التحديات قائمة لأهل هذا العصر وكل عصر، وغير العرب أولى بها من غيرهم لما حازوه من تقدم علمي دنيوي كبير.

وأخيراً، فإن الإعجاز اللغوي واحد من أنواع إعجاز القرآن، ولا يزال إعجازه التشريعي، والعلمي يأسر ألباب المنصفين من الغربيين الذي تقدموا في تلك الميادين أكثر من غيرهم.

٤- واحتجوا كذلك على اختصاص الخطاب القرآني بالعرب دون غيرهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤)، وما أشبهه مثل قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء:١٠).

الجواب: ليس في هذه الآيات دليل على مرادهم، إذ أقصى ما فيها أن الله سبحانه وتعالى قد اختص العرب بشيء من الفضل عمن سواهم من أمة الدعوة، وليس فيه أنهم مختصون بالدعوة دون غيرهم، بدليل ما قدمنا من الآيات الدالة على عالمية دعوة الإسلام، قال ابن كثير، رحمه الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه... وقيل:

معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، أي: لتذكير لك ولقومك. وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم»[1].

٥- واحتجوا كذلك بأن حجته لا تقوم إلا على من يؤمن به، لأن من لا يؤمن به لا يلزمه أن يصدق بما فيه ويقر به، فكيف يكون حجة عليه؟ فبهذا يثبت أن خطابه ليس عالمياً وإنما ينحصر في المؤمنين.

الجواب: قد تخدع هذه الحجة كثيراً من أهل الإيمان رغم أنها حجة ساقطة، ذلك أن من آيات القرآن الكريم ما يخاطب العقل مطلقاً بغض النظر عن دين صاحبه، فهذه لا يسع أحداً أن يقول إنها خاصة بالمؤمنين، وقد حاجج القرآن الكريم من يكفر به من المشركين وأهل الكتاب بأدلة عقلية قاطعة باهرة، وقال لكل من الفريقين: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:١١١) و(النمل:٦٤)، فلم يستطيعوا أن يصمدوا في ميدان الحجاج، أو أن يأتوا ببراهين حقيقية، ولم يجدوا سبيلاً للرد سوى الاستهزاء والتكذيب والاستكبار والعناد.

وهناك آيات أخرى حوت حقائق كانت غائبة عن أذهان الناس أو أسماعهم وأبصارهم ثم أظهرها الله لهم فيما بعد، فهذه لا يملك المنصف من كل دين إلا أن يذعن لها ولصدقها، فليست خاصة بالمؤمنين بإطلاق.

وهناك آيات أخرى كثيرة حوت من بدائع الحكم والأخلاق والتشريعات في كل المجالات ما يظهر للبشر بمرور الزمن أنها تقدم الحلول المثلى

(١) تفسير ابن كثير، ٧/٢٢٩.

لما يواجههم من مشكلات ومصاعب وأنها ترسم لهم طريقاً واضحة لجلب كل ما يصلح شأنهم ودرء ما يفسده، فهذه أيضاً عالمية في خطابها.

على أن أصل الشبهة باطل، فحجة القرآن قائمة على من آمن به وعلى من كفر به، فالكافر محجوج بالقرآن، مكلف بأحكامه على الصحيح وإن لم تقبل منه قبل إيمانه.

ب- تحريف عالمية القرآن الكريم:

يقوم هذا النوع على الإقرار باللفظ وتحريف المعنى، فتجد المحرف المبدل يقر بلسانه بعالَمية القرآن الكريم، ويزعم بلفظه أنه يصلح لكل زمان ومكان، لكنه إقرار زائف، لأنه يفرغ العبارة من معناها الصحيح، الذي هو أن تعاليم القرآن الكريم بقواعده العامة والكلية وأحكامه التفصيلية التي أرادها الله سبحانه وتعالى ليست مختصة بزمان دون غيره ولا بمكان دون غيره، بل هي صالحة للتطبيق كما أراد الله في كل آن ومكان، وأن في تطبيقها صلاح للزمان والمكان؛ فهذا هو المعنى الصحيح، لكن المحرف المبدل لا يريد بل يريد أن معاني القرآن تحرف، ونصوصه تلوى أعناقها، بحيث تناسب واقعاً خاصاً أو عاماً، فتنسجم معه ولا تنكره، فيلغي قواعد النظر وأصول الاستدلال ومدلول الخطاب العربي، بدعوى أن لكل زمان ومكان مفاهيم وقيماً وظروفاً ومصالح تختلف عن غيرها، فينبغي أن يفسر القرآن الكريم تفسيرات مختلفة وتستمد منه أحكام مختلفة بما يوافق كل بيئة أو مكان وزمان، وبما يحقق مصالحهما التي تختلف عن مصالح غيرهما، إذ حيث توجد المصلحة فثم شرع الله! فإن اختلفت

المصالح في الوقت الواحد، فالواجب اختلاف التفسيرات، والقول بها جميعاً وإن تعارضت!

ومن تأمل هذه الدعوة علم أن ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب، ذلك أنها تقضي على ميزة عظيمة من مميزات هذا الدين الحنيف وهي ثبات أحكامه وتشريعاته، فتجعلها عرضة للتبدل والاختلاف والتعارض مع نسبة كل ذلك للشرع المطهر ولكلام الله سبحانه وتعالى، وهو ما يفتح الباب للطاعنين فيه على مصراعيه ليعارضوا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

وقولهم حيث وجدت المصلحة فثم شرع الله كلمة حق أريد بها باطل، فمن قال هذه العبارة من العلماء لم يرد بالمصلحة ما يتخيله هؤلاء مما تزينه لهم أهواؤهم وأنفسهم الأمارة بالسوء، بل المراد بالمصلحة هنا المصلحة المعتبرة شرعاً والتي دل النص عليها، ولا يجوز ليّ النصوص لتوافق ما تراه الأهواءُ مصالح، فلا يجوز مثلاً تعطيل حكم الربا بحجة أن المتعامِلَين بالربا يرى كل منهما في هذا التعامل مصلحة، فيصرف دلالة الآيات عن مدلولاتها التي تقتضيها الأصول واللغة والقواعد، ليحملها على معنى خصصه بهواه وعقله القاصر، وكذلك يقال في تحريم الخمر فلا تلوى أعناق النصوص بحجة أن في بيعها والاتجار بها مصالح اقتصادية مثلاً ومنافع أخرى، ويحمل التحريم على معنى يختاره المحرف المبدل للشرع!

وبالجملة، فكل مصلحة دلت النصوص على إهدارها وفقاً لقواعد النظر والاستدلال فلا عبرة بها، ولا يجوز تحريف الكلم من بعد مواضعه لتعتبر.

وهذه الدعوة إلى تفريغ عالمية القرآن من محتواها بتبديل دلالته لينسجم مع أهواء الناس وآرائهم تولى كبرها بعض من يتسربل بالإسلام من العلمانيين ومن يسمون ظلماً وعدواناً بالتنويريين، وبرغم خطورتها وضررها إلا أن ما هو أشد خطورة منها هي الدعوة التي يطلقها بعض الليبراليين بإطلاق الدعوة الأولى من كل عقال بحيث يكون لكل إنسان ملم بالعربية قراءته الخاصة وفهمه الخاص للقرآن الكريم برغم الاشتراك مع غيره في نفس البيئة والمكان والزمان، وتصحيح هذه القراءات جميعاً، وهذا ما يعني أنه سيكون هناك مئات الملايين من «الإسلامات» إن جاز التعبير، فيكون لكل إنسان إسلامه الخاص وأحكامه الخاصة به، انطلاقاً من نسبية المفاهيم والمعايير التي ينطلقون منها! ومؤدى هذا القول والذي قبله كذلك تصحيح المتناقضات، والجمع بين الشيء وضده، فإسلام الجندي الذي يقاتل في صفوف دولة كافرة قد تفسر نصوصه عند هؤلاء بما يسوغ له قتال مسلمين معتدى عليهم لصالح مصلحة بلده! فيصحح صنيعه كما يصحح صنيع من يقاوم العدوان!

وهنا يحق للمرء أن يتساءل: كيف يكون القرآن الكريم والحال كذلك: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)؟ وما الفائدة من إرسال الرسول وإنزال الكتاب إن كان الحق يتعدد بهذه الطريقة المريعة بحيث تصوب كل الأقوال على ما فيها من تضاد وتنافر؟ وهل يعقل أن يرسل الله عز وجل

رسوله، عليه الصلاة والسلام، بهذا الكتاب العزيز ولا يطلب من الخلق أن يصلوا إلى مراده منه، بل كل منهم يبحث فيه عن مراده هو وما يناسبه دون غيره!

إن من ثمرات هذه الدعوة الخبيثة أن تصحح كل التفسيرات الباطنية للقرآن والتي عد أهل العلم كثيراً منها على مر الزمان من الزندقة التي تخرج صاحبها عن الملة، ومن ثمراتها الخبيثة أيضاً ألا يحل الناس الحلال ولا يحرمون الحرام، وأن تبدل أحكام المواريث والنكاح والطلاق، ومن ثمراتها أن تلغى الحدود تماماً مواكبة للعصر ومفاهيمه وقيمه، ومن ثمراتها أن يحسن الناس ويقبحوا بعقولهم المطلقة دون الرجوع لشرع يضبط المفاهيم والقيم، فلا يعرف الناس معروفاً ولا ينكرون منكراً.

إن العقلاء لا يشكون أن هذه الدعوة امتداد حقيقي لدعوة الفوضى - غير- الخلاقة التي أرادها أعداؤنا في بلادنا بالتدخل العسكري المباشر، بيد أن هذه الدعوة أشد وأخطر وأفتك لأنها تعمل على الهدم من الداخل، تماماً كما كانت حال المنافقين على مر العصور، ولهذا اشتد تحذير القرآن الكريم منهم ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ (المنافقون:٤)، ولهذا كان عقابهم عظيماً قدر عظم الذنب وخطورته: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ (النساء:١٤٥).

فهذه الدعوة المتسربلة برداء الإسلام دعوة ماكرة خبيثة للقضاء عليه من الداخل، وخلاصتها تحريف القرآن وتبديل معانيه بدعوى تفسيره مع ما يتلاءم مع الواقع المعين، وفرقٌ بين التفسير والتحريف، ولكن المبطلين

يسمون الأمور بغير أسمائها لتروج على العوام، أما العالمون فيميزون بين التفسير الصحيح الذي يجيء وفق القواعد وبين التحريف والتغيير والتبديل، ويعلمون أن الله عز وجل حافظ دينه وكتابه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣٠)، فمهما سعى أعداء الله لإطفاء نوره فإن سعيهم في تباب ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(التوبة:٣٢- ٣٣).

وهذه البشارة الإلهية هي خير ما نختم به هذا البحث، فإن ظهور هذا الدين على ما سواه من الأديان، سواء ما كان منها سماوياً في أصله ودخلته يد التحريف، أو ما كان أرضياً من وضع البشر، من أعظم الأدلة على عالمية الخطاب القرآني، وأن أحداً مهما أوتي من دهاء ومكر، ومهما استخدم من وسائل ظلم وفتك لن يستطيع أن يوقف انتشاره وظهوره، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

الحرف القرآني
في لغات الشعوب الإسلامية وثقافتها

الأستاذ الدكتور يوسف الخليفة أبوبكر(*)

الحرف العربي هو الذي أمد لغات المسلمين بالحيوية والقوة، التي جعلتها تنتصر على لغات أخرى، وتتحدى الزمان فتعيش وتقوى وتتطور: لأنه حرف عقيدة، وحرف حضارة، ورسالة سماوية. وهنالك آلاف من المخطوطات النادرة في مكتبات العالم، وفي المكتبات الخاصة مكتوبة بالحرف العربي في مختلف اللغات، وفي كل أقطار المسلمين في آسيا وأفريقيا.

- ملخص الورقة:

المقصود بالحرف القرآني: الحروف التي كتبت بها اللغة العربية قديماً وحديثاً، بما في ذلك الحروف التي كتب بها المصحف الشريف،

(*) مستشار معهد اللغة العربية، رئيس وحدة كتابة اللغات بالحرف العربي، جامعة إفريقيا العالمية.

وكتبت به لغات المسلمين، التي يزيد عددها على ١١٠ لغة في إفريقيا وآسيا الوسطى وشبه القارة الهندية وجنوب- شرق آسيا وأوروبا.

وتعالج الورقة التطورات التي حدثت لهذا الحرف منذ نزول القرآن الكريم، وبعد أن كتبت به لغات الشعوب الإسلامية حتى صار أكثر الحروف انتشارًا في العالم حتى القرن العشرين.

وتتناول الورقة التطورات التي أحدثها المسلمون في الحرف العربي ليعبروا به عن أصوات لغاتهم، وما اعترى هذا الحرف من حرب الصليبيين في فترة الاستعمار الأوروبي، والمحاولات الجادة المعاصرة التي تبذل لإعادة المكانة التي فقدها باستخدام التقنيات المعاصرة لتأهيله ليكون في خدمة الشعوب الإسلامية والدعوة الإسلامية، كما كان كذلك عبر العصور، حيث انتشرت عن طريقه الدعوة والثقافة الإسلامية في المعمورة، وكُتب به تراث المسلمين، وحُفظت به لغاتهم من الاندثار الذي حدث للغات كثيرة في القارات الست.

الحرف العربي قبل الإسلام

١- الشعوب التي سكنت (شبه الجزيرة العربية) كما يُطلق عليها اليوم، تمتد الرقعة التي تقطنها هذه الشعوب إلى الرافدين (العراق وما حوله). هذه الشعوب أصلها واحد، وكانت تتحدث لغة واحدة ذات لهجات متعددة. ثم تطورت هذه اللهجات إلى لغات مختلفة. وقد أطلق عليها لغويو أوروبا مصطلح (الشعوب السامية) و(اللغات السامية)، القديم منها الذي انقرض، والحديث الذي يتحدث به الناس اليوم، في الجزيرة العربية والعراق وشمال أفريقيا، وفي شرقها الذي يتضمن اليوم عشراً من هذه اللغات[1].. هذه الشعوب يجدر أن نطلق على أصلها القديم: (الأمة العربية الموسعة) بدلاً من (السامية) ولغتها كذلك (اللغة العربية الموسعة). وتشمل لغة السومريين الذين اخترعوا الكتابة قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة، ونقلوا البشرية من عهد (ما قبل التاريخ) إلى عهد الحضارة، وتدين لهم أوروبا التي اقتبست الحروف التي تكتب بها اليوم لغاتها بالحروف اللاتينية.

وقد فطن الخليل بن أحمد في كتابة «العين» إلى العلاقة بين العربية والكنعانية عندما قال (٢٣٢/١): وكنعان بن سام بن نوح ينسب إلى الكنعانيين، وكانوا يتكلمون لغة تضارع العربية. كما فطن ابن حزم

---

(١) اللغات التي ترجع أصولها إلى العربية (الموسعة) أو (السامية)، ويتحدثها الناس في هذا العصر عددها ثلاث عشرة هي: (١) العربية (الفصحى بلهجاتها المختلفة بما فيها المالطية)، و(٢) العبرية، و(٣) التقري (من لغات أريتريا)، وفي السودان تتحدثها قبيلة بني عامر، و(٤) الأمهرية، و(٥) التقرينيا و(٦) الهرارية، و(٧) أرقويا، و(٨) ميسيميس، و(٩) سيلتي، و(١٠) سيبات – قوراقي، و(١١) زاي (الثمانية الأخيرة من لغات أثيوبيا)، و(١٢) الهرسوسية (المهرية/ الشحرية) من لغات ظفار بسلطنة عمان، و(١٣) الأرامية (من لغات سوريا).

الأندلسي إلى العلاقة بين العربية والسريانية والعبرية فقال في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» (١/٣٠): من تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من تبديل الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل. ويتفق المستشرقون والعلماء العرب المحدثون أن العربية الفصحى تمثل الصورة الأقدم لهذه اللغات، الأمر الذي يبرر إطلاقنا على مجموع هذه اللغات (اللغة العربية الموسعة)، بدلاً من (اللغات السامية).

٢- لقد وصل إلينا كمٌّ كبير من النصوص القديمة التي كتبت بها (لغات الشعوب العربية الموسعة) من لغات جنوب الجزيرة العربية وشمالها، غير أن اللغة القديمة (الأم) لم يصل إلينا منها سوى بضع جمل يرجع أقدمها إلى عام ٣٢٨ ميلادية، عثر عليها في (النماره) بالقرب من دمشق، ونقش (زبد) بالقرب من حلب ويرجع إلى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ ميلادية، وكلاهما بضعة جمل. وأطولها نقش (حوران) جنوب دمشق ويرجع إلى سنة ٥٦٨م وهو لا يزيد على صفحة واحدة.

ولم نعثر بخلاف هذه النصوص المكتوبة على القبور شيئاً، لا شعراً ولا نثراً، حتى ما يقال عن كتابة المعلقات السبع بماء الذهب وتعليقها على الكعبة، لم يعثر على شيء منها مكتوباً أو مخطوطاً سوى ما تناقله الرواة شفاهة[1].

---

(١) انظر أ. ولفنستون، تاريخ اللغات السامية (بيروت: دار العلم، ١٩٨٠م) ص١٩٠؛ وانظر أيضاً عبد العزيز الوالي، الخطاطه - الكتابة العربية (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م) ص٢٧ وما بعدها.

٣- كان نزول القرآن الموحى من عند الله إلى رسول الإسلام محمد ابن عبد الله ﷺ ثورة شاملة غيرت حياة المجتمع العربي – دينياً، واجتماعياً، وثقافيًا، وسياسيًا. وقد نزل القرآن مسموعًا وليس مكتوباً، ولكنه كان يُكتب أول بأول. وبذلك كان القرآن أول نص عربي طويل يصل إلينا مكتوباً، وموثقاً باتفاق المسلمين وغير المسلمين.

٤- كتب القرآن بالحروف العربية الشائعة في القرن السادس الميلادي حيث كانت حروف العربية تعبر عن الأصوات الصوامت فقط، ولم تكن هنالك حروف أو علامات تعبّر عن الحركات. كما أن الحروف كانت خالية من النقط. كان هنالك حرف واحد يعبر عن خمسة أصوات، هي: أصوات الباء والتاء والثاء والنون والياء. وحرف آخر يعبر عن ثلاثة أصوات هي أصوات الجيم والحاء والخاء. وسبعة حروف يعبر كلٌّ منها عن صوتين مختلفين، وخمسة حروف فقط خصص كل واحد منها ليعبر عن صوت واحد هي الألف والكاف واللام والميم والهاء. أما حرف الواو فقد كان (وما يزال) يعبر عن صوتين مختلفين هما الضمة الطويلة، وشبه الصامت بتعبير (علماء الأصوات المحدثين) ومثله الياء.

عليه، يمكن أن نستنتج أن القرآن كتب لأول مرة بحروف لا يزيد عددها على خمسة عشر. وكذلك كانت رسائل الرسول ﷺ التي أرسلها إلى الملوك والرؤساء، في داخل الجزيرة العربية وخارجها، يدعوهم إلى الدخول في دين الإسلام. كانت هذه الرسائل كلها مكتوبة بحروف خالية من النقط والشكل. كُتب القرآن ودوّن على العسب واللخاف والعظام،

وهـي الأدوات الـتي كـان يكـتب عليهـا آنـذاك. وتناقل أصـحاب الرسـول ﷺ القـرآن حفـظـاً، وكـثيـر منهم دوّن منـه مـا تيسـر لـه واحتفظ بـه لنفسـه إلى أن تمت مراجعـة المصحف فجـمع ودون على عـهد الخليفـة الثـالث عثـمان ابن عفـان، رضي الله عنه. ثم صـار نسـخ القـرآن تجارة رائجة.

وبمقارنة الخطوط التي كُتبت بها النقوش التي عثر عليهـا قبل الإسـلام بـالخطوط الـتي كـتب بهـا القـرآن الكـريم ورسـائل الرسـول ﷺ نجـد أن الـشـكل الهندسـي لحـروف العربيـة قبـل الإسـلام بـدائي، وغـير مسـتقيم، بينما نجد تحسناً وتطوراً واضحاً في كتابة القرآن والرسائل في العهد النبوي وحتـى منتصف القـرن الهجـري الأول، وقبـل اختـراع نقـط الحـركـات ونقـط الحروف الذي سمي (الإعجام).

٥- لا نريد أن نخوض في انتشار الكتابة بين الناس بعد ظهور الإسـلام، وحث الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام، على تعلم القراءة والكتابة، ولا إلى إشارات القرآن وتنبيهه إلى القراءة والكتابة بدءًا من استهلال الوحي بـ (اقـرأ)، وتـضمين القـرآن في كـثيـر مـن آياتـه أدوات الكتابـة والقـراءة، ولكن نكتفي بموضوع الورقة، الذي يتعلق بـدور الحـرف القرآنـي في تـاريخ المسلمين وثقـافتهم، بـدءًا مـن تطور أو تطـوير نظـام الكتابـة في القـرن الأول والثاني الهجريين ثم انتقال هذا التطوير إلى كتابة لغات المسلمين.

تطور الحرف العربي بعد الإسلام

٦- مَرَّ الحرف العربي في تطوره بعد الإسلام بعدة مراحل تم فيها إصلاحهُ حتى وصل إلى المستوى الذي استقر على ما هو عليه في زماننا هذا. كان هدف هذا الإصلاح: ضبط كتابة القرآن الكريم حتى يُقرأ كما أُنزل دون تحريف أو تبديل ينشأ عن الخلل أو الضعف في نظام الكتابة. وامتد التطوير إلى نظام كتابة لغات الشعوب الإسلامية غير العربية التي اختارت أن تكتب لغاتها بالحرف القرآني. فأضافت رموزاً جديدة تعبر عن أصواتها التي لا توجد في العربية.

وتم ذلك على ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: إصلاح الكتابة العربية:

تناول إصلاح الكتابة ثلاثة جوانب:

- الجانب الأول: وظيفي، هدفه أن تكون الكتابة العربية صوتية دقيقة بأن يكون لكل صوت أساسي رمز (حرف يعبر عنه).

- والجانب الثاني: جمالي، هدفه صقل الحرف العربي ليكون أسلوباً من أساليب الفن الذي يعبر عن الجمال.

- والجانب الثالث: توسيع وظيفة الحرف العربي، وتطويعه ليعبر عن أصوات لغات كل الشعوب المسلمة غير الناطقة بالعربية.

استغرقت المرحلة الأولى (الإصلاح الوظيفي) مائة عام تقريباً، بدأت باختراع نقط الحركات على يد أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) وانتهت بالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ).

ومعروف أن الحروف العربية التي كتب بها الوحي عندما نزل كانت خالية من نقط الحركات، كما كانت خالية من نقط الحروف. وكذلك كانت رسائل الرسول ﷺ للملوك خالية من النقط. بل إن المصحف الإمام الذي كُتب على عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ونسخ منه نسخ وزعت على الأمصار الإسلامية في ذلك الوقت كان أيضاً خالياً من النقط.

الإصلاح الذي تم على يد أبي الأسود الدؤلي يركز على ابتكار رموز للحركات العربية التي اختار لها النقطة بالمداد الأحمر (فوق الحرف) لتدل على الفتحة، و(تحت الحرف) لتدل على الكسرة، و(أمام الحرف) لتدل على الضمة، والنقطتان ليدلا على التنوين الذي أسماه (الغنة).

ثم جاء بعد أبي الأسود الدؤلي تلميذاه يحيى بن يعمر (ت ١٢٩هـ)، ونصر بن عاصم الليثي (ت ٨٩هـ)، فاقتبسا من طريقة أستاذهما أبي الأسود فكرة النقط، فنقطا الحروف المتشابهة حتى يقابل كلُّ حرف صوتاً واحداً من أصوات العربية، ويكون لكل صوت رمز (حرف) خاص به. فنقطا ثمانية حروف نقطة واحدة فوق الحرف هي (خ ذ ز ض ظ ف غ ن) ونقطا حرفين نقطة واحدة تحت الحرف هما (ب ج) ونقطا حرفين نقطتين فوقهما وهما (ت ق) ونقطا حرفين ثلاث نقط فوقها وهما (ث ش)، ونقطا حرفاً

واحداً نقطتين تحته هي (ي)، فهذه (١٥) حرفاً منقوطاً تميزت عن مشابهاتها غير المنقوطة (المهملة)، وجعلا النقط بالمداد الأسود الذي تكتب به الحروف؛ لأن النقط أصبح جزءاً من شخصية الحرف وبه تكتمل دلالة الحرف على الصوت. أما نقط الحركات فقد ظل بالمداد الأحمر الذي يخالف لون مداد الحرف حتى أيام الخليل.

وهنالك حروف آحادية الدلالة غير منقوطة أصلاً وليس لها مشابهات، هي بقية الحروف العربية (ا ك ل م هـ و)، وبذلك ارتفع عدد حروف العربية الصوامت إلى (٢٨) حرفًا.

وقد تفنن أتباع نصر بن عاصم في أشكال نقط الحروف، فمنهم من جعلها دائرة مفرغة (O)، ومنهم من جعلها في شكل مربع (□)، ومنهم من جعلها نقطة مطمسة (•). ولذلك لا نعجب من خطاطي هذا العصر حين جعلوا النقط دائرة مفرغة حيناً، وفي شكل معين (◇) حينا آخر[1].

ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، فأكمل ما كان من نقص في نظام الهجاء، فأبدل نقط الحركات بعلامات الحركات التي تستخدم في زماننا هذا. وقد هداه حسه الصوتي إلى أن الحركات القصيرة الفتحة والكسرة والضمة هي أبعاض حروف المد، أي أن الفرق بين الحركة والمد هو أن زمن المد أطول من زمن الحركة.

وبما أن علامة مد الفتحة هي الألف فقد جعل الخليل الفتحة ألفاً قصيرة مبطوحة ووضعها فوق الحرف بدلاً عن النقطة. ولأن علامة المد بالضم هي

(١) محمود عباس حموده، دراسات في علم الكتابة العربية (القاهرة: مكتبة غريب، بدون تاريخ) ص٥١.

الواو، جعل الضمة واواً صغيرة فوق الحرف، ولأن علامة الكسر هي الياء جعل علامة الكسر ياء صغيرة تحت الحرف، ثم حذف رأس الياء فصارت الكسرة شرطة تحت الحرف، وإذا كانت الحركة منونة كرر الحركة فصارت فتحتين، وضمتين وكسرتين، وجعلها بلون مداد الحرف؛ لأن دلالتها الصوتية غير دلالة الحرف الصامت، وبذلك وقف التعبير عن الحركات بالنقط بالمداد الأحمر.

ثم أضاف الخليل بن أحمد السكون وجعله في شكل رأس خاء، مع العلم أن دلالة السكون عدمية وما كان ينبغي أن يكون للعدم علامة. وجعل التضعيف (الشدة) رأس (شين) من غير نقط (ّ). والتشديد أو التضعيف صوت أساسي (فونيم)؛ لأنه يفرق بين معاني الكلمات. وجعل الخليل علامة ألف الوصل رأس الصاد (صـ)، وجعل للمد الطويل علامة هي (~). وجعل علامة الهمزة رأس عين (ء).

وبعمل الخليل هذا اكتملت مرحلة الإصلاح الوظيفي لكتابة اللغة العربية وصارت كما يقول علماء الأصوات (كتابة صوتية أو فونيمية)، بعد أن صار لكل صوت من أصوات العربية رمزه الخاص به الذي لا يلتبس بغيره.

ومنذ ذلك الزمن، استقر الهجاء العربي كما نعهده في زماننا هذا، فيما عدا رسم المصحف الذي بقي على ما كان عليه رسم (المصحف الإمام)، وإن أدخل عليه علماء الضبط رموزاً أخرى تساعد قارئ القرآن على صحة التلاوة وتجويدها، وهي علامات الضبط التي نراها في آخر كل المصاحف المطبوعة في زماننا هذا.

- المرحلة الثانية: المرحلة الجمالية، أو مرحلة تجويد الخط:

بعد نسْخ المصحف الإمام على عهد الخليفة عثمان، رضي الله عنه، وزعت نسخ من المصحف على الأمصار الإسلامية، ومنذ ذلك الوقت بدأت كتابة المصحف تجد رواجاً كبيراً، إذ حرص الأمراء والعلماء ومعلمو القرآن وحفاظه على أن يمتلك كل منهم نسخة من المصحف خاصة به، فراجت صناعة خط المصحف، وتبارى الخطاطون في تحسين خط المصحف، الذي كان في بداية عهده بالخط الكوفي (نسبته إلى الكوفة التي كانت مركزاً من مراكز الخط كما كانت مركزاً من مراكز النحو).

وقد وجد المسلمون في مرونة الحرف القرآني فرصة لإبراز مواهبهم الفنية، فاتخذوا من الكتابة وسيلة للإبداع الفني التشكيلي، فجعلوا منه زخارف في حيطان المساجد وسقوفها وأعمدتها ومنابرها، وفي الآنية والأثاثات والنقود والملابس وصالات الملوك. واستخدموا خيال الفنانين والرسامين حتى وصلت فنون الخط حد الأعجاز الذي أدهش المؤرخين والمستشرقين باستخدام الألوان والحفر والنقش بالفضة والذهب. وكان في ذلك تَعْويض لهم عن الصور والتماثيل، التي نهى عنها الفقهاء وحرَّموها. وكتبوا على الرخام والخزف والخشب والجص وغير ذلك من المواد.

وظهر من فنون الخط أنواع كثيرة منها الكوفي، والنسخ، والثُلث، والديواني، والفارسي، والمغربي. وذلك بعد أن كانت الكتابة في الجاهلية وأوائل عهد الإسلام بدائية الشكل، وجافة.

وقبل الإسلام لم نجد نماذج من الخط سوى النقوش على الحجارة وعلى القبور. ويكفي أن نقارن الكتابة قبل الإسلام وفي أوائله مع ما وصل إليه فن الخط في العصر العباسي والعصور المتأخرة لنعرف النقلة الفنية الرائعة التي حدثت في فنون الخط القرآني. وصار فن الخط العربي صناعة وفناً يتبارى فيه المختصون في كل عصور الإسلام، وفي كل البلاد التي اعتنقت الإسلام، بل صار هواية شعبية في كثير من بلاد الإسلام ومقرراً يُدرس في المدرسة، ويتباهى الطلاب فيه بحسن الخط.

ولم يبالغ الأستاذ «جون استيفنز John Stevens»[١] عندما ذكر في كتابه «نظم الكتابة في العالم» أن شكل الحروف في قارة آسيا له قيمة كقيمة المحتوى اللغوي، وصار جمال الخط عنصراً ضرورياً في تقاليد الثقافة الآسيوية، مما جذب انتباه الغربيين، على الرغم من أن اللغة العربية كانت من أواخر اللغات التي اتخذت شكلها الإسلامي في منطقة تمتد من الهند وحتى أسبانيا. ولأن الإسلام لا يشجع التصوير فقد صار فن الخط هو الوسيلة للتعبير الفني، اشتقت منه خطوط مختلفة للتزيين مثل ما حدث للخط الكوفي الذي زينت به جدران قصر (تاج محل) بالهند، كما صار فن الخط زينة لأغلفة الكتب والسجاد والأثاثات، بل لكل شيء في العالم الإسلامي، وفي حدود ضيقة تسامح بعض الفنانين بعمل خطوط تمثل بعض الطيور والإنسان.

---

(١) "Asian Calligraphy", in The World's Writing Systems, ed. Peter T. Danials and W. Bright, Oxford U.press, ١٩٩٦, pp. ٢٤٤

- المرحلة الثالثة: مرحلة الانتشار (في لغات المسلمين):

انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية بين الناطقين بلغات أخرى، وكان كثير من الشعوب التي دخلت الإسلام لها لغات مكتوبة، منها لغة الفرس التي كتبت بالحرف البهلوي، وفي الهند كتبت اللغات بالحروف السنسكريتية، وفي الشام كتبت اللغة السريانية بحروفها الآرامية، وفي مصر كتبت اللغة المصرية بالكتابة التصويرية (الهيروغليفية).

وكانت الكتابة منتشرة في الغالب بين طبقة خاصة هي طبقة رجال الدين والعلماء.

ولما اعتنقت هذه الشعوب دين الإسلام وحث رسول الإسلام ﷺ كل مسلم على تعلم القراءة، والكتابة، وكانت معرفة الكتابة والقراءة عند المسلمين متممة لشخصية المسلم، الذي لابد له من قراءة القرآن انتشرت الكتابة العربية من ناحية، وسارعت الشعوب على كتابة لغاتها بالحرف العربي بدلاً من الحرف الذي كانت تكتب به قبل الإسلام،

أولاً: لأن الكتابة في الإسلام لم تعد حكراً على طائفة معينة؛

وثانياً: لسهولة الكتابة العربية؛

وثالثاً: لأن كتابة لغاتها بالحرف العربي ييسر لها قراءة القرآن وتعلم اللغة العربية المكتوبة بهذا الحرف.

ولم ينتشر الحرف العربي في قارتي آسيا وأفريقيا وحسب بل كتبت به لغات في أوروبا الشرقية والغربية.

تعديل الحرف القرآني
للتعبير عن أصوات لغات المسلمين

٧- كانت أولى اللغات التي كتبت بالحرف القرآني: اللغة الفارسية، وكما فعل أبو الأسود الدؤلي وتلاميذه الذين نقطوا الحروف، كذلك اقتبس الفرس فكرة النقط لابتكار رموز (حروف) جديدة لمقابلة الأصوات التي لا توجد في اللغة العربية.

وبذلك التعديل تأثرت لغات آسيا الوسطى وجنوب شرق أفريقيا، التي كانت مدينة للفرس في نشر عقيدة الإسلام في بلادها، فكتبت لغاتها بالحرف العربي الفارسي، وعدلت حروفها عن طريق النقط. فأصبح لكل لغة من لغات المسلمين هجاؤها المقتبس من الحروف العربية، ولم تغير كل هذه التعديلات الأشكال الهندسية للحرف، فيما عدا مكان النقط من الحروف العربية. وزادوا عليه نقط بعض الحروف المهملة أو زيادة عدد نقط الحرف المعجم.

وقد وجدت أن عدد الحروف الجديدة التي عدلت لتقابل الأصوات الخاصة بلغات المسلمين أكثر من (٨٠) حرفاً جديداً بخلاف حروف العربية التي تركت للتعبير عن أصوات اللغة العربية، كما أبقوا حروف العربية للتعبير عن الأصوات المشتركة بين العربية وهذه اللغات.

وشمل ذلك لغات المسلمين في آسيا الوسطى ولغات شبه القارة الهندية ولغات جنوب – شرق آسيا، كما شملت اللغات الإفريقية التي كتبت

بالحرف القرآني، وهي تقرب من أربعين لغة، وعلى رأسها الهوسا والفولاني والسننكية، والبربرية والسواحيلية والملاقاشية واللغات الحبشية (الأمهرية والهرارية والتقرية...).

وقد بلغ عدد اللغات المكتوبة بالحرف القرآني أكثر من مائة وعشر لغة ظلت تكتب بالحرف القرآني إلى العقد الرابع من القرن العشرين، إلا أن الاستعمار أبطل معظمها من الكتابة بالحرف العربي، وبقي البعض الآخر يقاوم بقوة أي تغيير في هذا الحرف، الذي يرتبط بدينهم وحضارتهم، وعدد هذا «البعض» لا يزيد على عدد أصابع اليدين.

وقد صدق مؤلف كتاب «نظم كتابة لغات العالم»[1] حين ذكر أن الحروف العربية قد أصبحت مرنة جداً، كما أنها قد عدلت وأخضعت لكتابة اللغات الأخرى، وقد استعيرت الحروف العربية وكثير من الكلمات العربية التي دخلت بحروفها وتهجيتها العربية، مع أن نطقها اختلف حسب اللغة التي استعارتها.

ثم إن نظم كتابة اللغات غير العربية تمتاز عن كتابة اللغة العربية في أنها تخلو من كثير من مشكلات الإملاء العربي مثل كتابة الألف بعد واو الجماعة، وكتابة الواو في كلمات مثل (أولئك) و(أولو)، وحذف الألف في (هذا وهؤلاء) والتاء المربوطة والمفتوحة، ومشكلة كتابة الهمزة، وقلب الألف ياء في بعض الكلمات.

(١) نفس المصدر، والمكان.

وبذلك أصبحت كتابة لغات المسلمين بالحرف العربي أكثر دقة من كتابة اللغة العربية، ويمكن أن يقال: إنها كتابة صوتية دقيقة (كل صوت له رمز واحد، والرمز يمثل صوتاً واحدًا) دون عملية القلب أو انقلاب الحروف إلى حروف أخرى دون منطق، كما إنها تخلو من الحروف الزائدة أو الناقصة.

وكل التعديلات التي أحدثها المسلمون على الحروف العربية كانت من أجل التعبير عن الأصوات غير العربية، وقد حافظت هذه اللغات على الشكل الهندسي للحروف العربية وخصائصها الأساسية، وجعلتها أساساً لكل تعديل، وعلى ذلك جرى العمل في مشروع الحرف القرآني الذي تنظمه منظمة إيسيسكو حاليًا.

وقد حسم الحاسوب الجدل الذي ظل قائماً حول محاولات تيسير الكتابة العربية باختصار صور الحرف العربي المتعددة (أول الكلمة ووسط الكلمة وآخرها...)، فأصبحت هذه الصور تظهر آلياً دون عناء.

على أن فناني الخط - في سبيل الزخرفة والتزيين - قد أحدثوا تغييرات وإضافات جعلت الخط العربي معقداً حتى صار القارئ أحياناً يقف حائراً في فهم ما تدل عليه الأشكال التي أحدثوها في الحروف.

الحرب على الحرف العربي

٨- إن انتشار الحرف القرآني في لغات المسلمين قد يَسَّر عليهم قراءة كتاب الله المكتوب بهذا الحرف، كما أن معرفة كتابة أية لغة بهذا الحرف القرآني يعتبر خطوة طيبة في اتجاه تيسير تعلم اللغة العربية، ومن يتعلم كتابة لغته بالحرف العربي يرتبط نفسياً بمصدر هذا الحرف وهو القرآن الكريم وثقافته، على عكس الأثر النفسي الذي تتركه كتابة اللغة بالحرف اللاتيني الذي يربط الفرد نفسياً بمصدر هذا الحرف اللاتيني وهو الغرب المسيحي.

وهذا ما قصد إليه المبشرون بالدين المسيحي عندما تنادوا في كل أنحاء العالم الإسلامي بتنفيذ استراتيجيتهم الخاصة بكتابة لغات المسلمين بالحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي، في أفريقيا وآسيا وأوروبا حيث كانت لغات المسلمين تكتب بالحرف العربي حتى الربع الأول من القرن العشرين، وهدفهم تقريب المسلمين من الثقافة والحضارة الغربية المسيحية.

ويكفي أن نقتطف فقرة وردت في مجلة «العالم الإسلامي The Muslim World» التي كانت وما تزال من دعائم التبشير بثقافة الغرب بين المسلمين، والتبشير بتخلي المسلمين عن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني. في مجلدها الثاني، العدد رقم (٢)، الذي صدر عام ١٩١١ (ص٢١٨) كتبت تحت عنوان: الأبجدية العربية أم اللاتينية «Arabic or the Latin Alphabet»، ما يلي:

«In order to meet the advance of Islam in East Africa the German missionaries are supplanting the Arabic Alphabet in the vernaculars by the Latin, and we are told that this will prove blow to Islam. It is not only in Africa, however, but in Albania that the question of Arabic or Latin is being raised. Situated on the borders of Europe and with the choice before them of Eastern or Western civilisation, it is a vital political question. The Young Turkish party naturally favours the Arabic, but the more intelligent Albanians and those who incline towards Christianity favour the Latin as the medium of Western culture. Meanwhile we are told by a correspondent that the Clash of opinion is setting the Whole province of Albania in commotion».

«لكي تقاوم الإرسالية الألمانية الإسلام في شرق أفريقيا فقد أبدلت الحرف العربي بالحرف اللاتيني في كتابة اللغات المحلية، وقد علمنا أن ذلك يعتبر ضربة للإسلام. ليس فقط في أفريقيا، ولكن أيضا في ألبانيا التي بدأت تثار فيها قضية كتابة اللغة بالحرف اللاتيني أو الحرف العربي موضوعًا للنقاش. وبما أن ألبانيا تقع في حدود القارة الأوروبية حيث وضع أمامهم الخياران: حضارة الشرق أو الغرب، وتعد هذه قضية سياسية مهمة. ومن الطبيعي أن فضل الحزب التركي الناشئ الحرف العربي، إلا أن الألبان الأذكياء وغيرهم من الذين يميلون إلى المسيحية يفضلون أن تكون الحروف اللاتينية لكتابة لغتهم وسيلة إلى الثقافة الغربية. وفي ذات الوقت قد علمنا من مراسل بالمنطقة أن الصدام في الآراء حول هذه القضية قد أثار الاضطراب في كل الولاية الألبانية».

الحرب على كتابة اللغة العربية بحروفها!

٩- عرفنا أن الاستعمار عمل جاهدًا من أجل إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي في لغات الشعوب الإسلامية، ولم يستثن اللغات العريقة التي لها تاريخ طويل وتراث عظيم مثل اللغة التركية واللغة الفارسية. بل حاول الاستعمار كتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني. فقد روى الدكتور عبد الكريم خليفة[1] رئيس مجمع اللغة العربية الأردني أن حكومة المستعمرات الإنجليزية قد أوفدت الأستاذ «مرغيليوث Margoliouth» من جامعة أكسفورد إلى بعض البلاد العربية وإيران ليقترح إبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وقال: إن العرب قد أضاعوا فرصة تقدم باهر بعدم اقتدائهم بتركيا في اتخاذ الحرف اللاتيني في كتابة اللغة العربية، وعندما ردّ عليه من كان يحدثهم بأن في اتخاذ الحرف اللاتيني ضرراً كبيراً على العرب، وأن الأتراك أنفسهم أضاعوا مركزهم في الشرق بتبديل حروفهم .. رد عليه قائلاً: إن العرب لا يحملهم على تغيير كتابتهم إلا حاكم قوي مثل أتاتورك، وأن أمله وطيد في أن شاه إيران يحذو حذو أتاتورك، وأنه مسافر إلى طهران لدراسة تأخر شاه بهلوي عن المبادرة بفرض الحروف اللاتينية.

هكذا كان يسعى الغرب إلى طمس هوية الأمم المستعمرة وسلب إرثها العلمي والثقافي وفرض لغاته ونظم كتابتها، ولا يخفون ذلك على أهلها.

(١) اللغة العربية على مدارج القرن العشرين (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م) ص٢٦.

ومن بعد (مرغيليوث) تبنى الفكرة (فكرة كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية) بعض أبناء العرب، إلا أنها وجدت مقاومة قوية، فماتت المحاولات في مهدها بالنسبة للغة العربية، وصمدت الفارسية والأردية والباشتو والسندية ضد التحول إلى الحروف اللاتينية بل نص دستور إيران على أن اللغة الإيرانية تكتب بالحرف الفارسي فقط.

١٠- ويتحفظ بعض علماء اللغة العربية اليوم، ومن بينهم أعضاء في مجامع اللغة العربية، على المجهودات المبذولة لعودة الحرف العربي في كتابة لغات المسلمين، خوفاً من أن يؤثر ذلك على انتشار اللغة العربية، ويقولون: إذا كان هنالك مجهود يبذل فالأولى أن يبذل في نشر اللغة العربية(!)

ولكن ردنا هو أن نشر الحرف العربي في لغات المسلمين لن يعيق نشر اللغة العربية، بل يجعل هذه اللغات أقدر على توظيفها في الدعوة الإسلامية وفي تدوين التراث الإسلامي، ومحو الأمية الدينية، أكثر مما لو تركناها تكتب بالحرف اللاتيني. بل أن كتابة لغات المسلمين بالحرف العربي منذ قرون طويلة حفظها من الانقراض، والانشطار إلى لغات متعددة، فإذا حاربنا كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف العربي فسوف تُكتب بحرف آخر، ونكون قد أبعدنا هذه الشعوب عن أحد مقدساتها، وهو الحرف الذي كتب به كتابهم العزيز.

إن ما يبذل من جهد في نشر الحرف العربي ليس على حساب اللغة العربية بل لتقريب اللغة العربية إلى عشاقها، وتحقيق رغبات المسلمين.

أذكر أنني كنت مشرفاً على دورة تدريب معلمي اللغة العربية بجمهورية غامبيا في غرب إفريقيا عام ١٩٧٧م، وفي إحدى الاجتماعات الشعبية الحاشدة، دعونا الناس إلى الاهتمام بتطوير مدارس التعليم العربي الإسلامي، وأن تشتمل مقررات هذه المدارس دراسة الرياضيات واللغة الإنجليزية، فانبرى أحد رؤساء القبائل قائلاً بالحرف الواحد: (تقطع يدي ولا أترك ابني يكتب من الشمال إلى اليمين!).. فانظر إلى الأثر الذي تركته الكتابة بالحرف القرآني في الحرص على واحدة من خصائص الكتابة بالحرف القرآني وهي الكتابة من اليمين إلى الشمال. وهو يشير أيضاً إلى أثر دعوة الإسلام إلى التيامن. وهي دلالة على أن الحرف العربي يمثل مكاناً عظيماً في نفوس المسلمين.

وليس من المبالغة أن يؤكد المرء أن في نفس كل مسلم غير عربي رغبة شديدة أو أُمنية أن يقرأ القرآن بالحرف العربي، وأن يتعلم كتابة لغته بالحرف العربي، وليس بالحرف اللاتيني. وإذا أهملنا الدعوة إلى العودة إلى كتابة لغات المسلمين بالحرف القرآني فسوف يزحف الحرف اللاتيني ويقضي على الحرف العربي في بقية اللغات التي تكتب بهذا الحرف، ويكون في ذلك خسارة ونَقض لإحدى عُرى التراث الإسلامي، التي بدأت تزول الواحدة بعد الأخرى.

من ناحية أخرى، فإن كتابة لغات المسلمين بالحرف القرآني قد حفظها من الانقراض، أو التمزق والانشطار إلى لغات متعددة، ويتضح ذلك إذا نظرنا إلى اللغة الفارسية التي لم تختلف منذ ألف وخمسمائة عام

إلا بقدر ما تختلف اللغة في مستوياتها الأدبية عن اللغة العامية، وبالمثل لغات المسلمين التي كتبت في القرن الخامس عشر أو بعده، بينما نجد عدداً كبيراً من لغات البشر قد انقرض، وفي زماننا هذا هنالك ٣٠٠٠ لغة من لغات البشر آيلة للانقراض كما يرى علماء اللغات[١].

١١- اليوم يبلغ عدد المسلمين مليار وثلاثمائة مليون نسمة، وكل الشباب والكهول والشيوخ، من كان له منهم معرفة بكتابة لغته بالحرف العربي، والذي لا يعرف الكتابة والقراءة، ومن كانت له ثقافة واسعة في الإسلام، ومن كانت ثقافته فيه محدودة، قد ارتبطوا بالمصحف المكتوب بالحرف القرآني، ارتباطاً نفسياً، جعلهم لا يحتملون النظر إلى ورقة مكتوبة بالحرف العربي ملقاة في الأرض حتى لو كانت بلغة غير عربية، وكثيراً ما يتسارعون إلى التقاطها من الأرض خوفاً من أن يكون فيها اسم الله، فيضعونها في مكان يؤمن عليه من التعرض لأن تداس بالأقدام أو التعرض للقذارة. ولا نجد ذلك في كتابات اللغات الأخرى.

هذا الاحترام مستمد من القرآن الكريم، الذي كتب بالحرف العربي عندما نزل الوحي على محمد ﷺ. وقد عبر عن ذلك الأستاذ «أندرو أ. روبنسون» في كتابه «قصة الكتابة»[٢] بقوله: اليوم تعتبر الكتابة بالحرف العربي أفضل الكتابات في العالم وذلك يرجع إلى أنه «حرف الإسلام المقدس».

(١) موقع اليونسكو الالكتروني؛ وانظر أيضاً يوسف الخليفة أبوبكر، مدخل إلى علم اللغة (الخرطوم: جامعة السودان المفتوحة، ٢٠٠٦م) ص٥.

(٢) The Story of Writing by Andrew Robins, ٢nd. ed Theomes & Hudson, ٢٠٠٧, p١٣.

والحرف العربي هو الذي أمد لغات المسلمين بهذه الحيوية والقوة، التي جعلتها تنتصر على لغات أخرى، وتتحدى الزمان فتعيش وتقوى وتتطور؛ لأنه حرف عقيدة، وحرف حضارة، ورسالة سماوية. وهنالك آلاف من المخطوطات النادرة في مكتبات العالم، وفي المكتبات الخاصة مكتوبة بالحرف العربي في مختلف اللغات، وفي كل أقطار المسلمين في آسيا وأفريقيا.

١٢- كان العقد الثالث من القرن العشرين بداية النهاية للحرب التي شنها الاستعمار على الحرف القرآني. فقد تكثفت مؤتمرات المبشرين وعلماء اللغات في أوروبا لوضع قائمة الحروف والحركات التي تكتب بها اللغات بالحرف اللاتيني، وكان ذلك بقيادة جامعة لندن، وكان آخر هذه المؤتمرات في السودان وتنزانيا، بعدها صدر كتاب لنظام كتابة اللغات الإفريقية بالحروف اللاتينية.

وفي هذا العقد تم تحويل كتابة اللغة التركية من الحرف العربي (العثماني) إلى الحرف اللاتيني. وفي هذا العقد أيضاً أدخلت مادة في دستور الاتحاد السوفيتي يحرم كتابة لغات المسلمين في دول الاتحاد السوفيتي بالحرف العربي، وأن تكتب بالحرف الروسي. بل أبطل كتابة لغات الاتحاد السوفيتي بالحرف الكريلي الذي كان وما زال شائعاً في كتابة لغات أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى.

وكانت نتيجة هذا الحرب أن من بين لغات الشعوب الإسلامية التي كانت تكتب بالحرف القرآني وعددها يزيد على ١١٠ لغة:

أ- أن بعض لغات المسلمين استسلم إلى الحرف اللاتيني، مثل اللغة التركية.

ب- وبعض لغات المسلمين صمد ضد التحول إلى الحرف اللاتيني ومنها اللغة الفارسية ولغة باشتو والأردو والسندي وأخريات في باكستان.

ج- معظم لغات المسلمين عايش فيها الحرف العربي الحرف اللاتيني مع غلبة الحرف اللاتيني، الذي أصبح يمثل الحرف الرسمي في دواوين الدولة والتعليم الحكومي والإعلام ....الخ، بينما انزوى الحرف العربي إلى محيط التعليم الديني الإسلامي. وعلى المستوى الشعبي يستخدم في عقود الزواج والترويج للبضاعة أو حملات التوعية الصحية والزراعية والانتخابات، وأحياناً في عناوين المحلات التجارية والمؤسسات الشعبية.

ونجد في كثير من بلاد المسلمين يستخدم الحرف العربي كمدخل لتعلم اللغة العربية والقرآن الكريم، فيقدم للطفل الحروف العربية (المعدلة) التي تكتب بها لغته، وينتقل بعد معرفة كتابة اللغة إلى كتابة كلمات القرآن بالرسم العثماني، أو كتابة الحروف الهجائية العربية.

العودة إلى الحرف العربي

١٣- ولما قاومت الشعوب الإسلامية محاولات الاستعمار بوسائل سلبية وايجابية (سلبية برفض إلحاق أبنائهم بالمدارس الحكومية «العلمانية والتبشيرية») وإيجابية بمواصلة استخدام الحرف العربي في كثير من أمور الحياة، عندئذ عمدت المؤسسات التبشيرية إلى ترجمة الإنجيل إلى لغات المسلمين بالحروف العربية. ونجد في كتاب «الألف لغة» One Thousand Tongues الذي أصدرته الجمعية الدولية للإنجيل[1] ، وهي منظمة أمريكية، نجد في هذا الكتاب نماذج لست وأربعين لغة ولهجة من لغات المسلمين المكتوبة بالحرف العربي قد ترجم إليها أجزاء من الإنجيل بالحرف العربي.

وتعدت الحرب إلى منظمة الأمم المتحدة (اليونسكو) التي جعلت من أهدافها محو الأمية في العالم. لكنها كانت في إحصاءاتها تعتبر أن الذين يكتبون لغاتهم بالحرف العربي في عداد الأميين. أما الذين يكتبون لغاتهم بالحرف اللاتيني فقد انمحت أميتهم. كان ذلك في غرب إفريقيا.

وقد أثار ذلك السلوك من المنظمة الدولية بعض أبناء غرب أفريقيا الغيورين. وهو الدكتور كريم توري (من سيراليون) فقدم محاضرة في جامعة لندن في الستينيات من القرن العشرين هاجم فيها سلوك منظمة اليونسكو في اعتبارها (في إحصاءاتها) أن الذين يكتبون لغاتهم بالحرف العربي في عداد الأميين. وأكد في محاضرته أنهم يستخدمون هذا الحرف

"The Book of One Thousand Tongues." The International Bible Society of America, (١) New York, ١٩٣٣.

(العربي) في كتابة لغاتهم في كثير من أمور الحياة، وأن هذا الحرف يساعد على تنمية المجتمعات الإفريقية.

كان ذلك الشعور نتيجة أن أبناء المسلمين – بعد أن تحررت بلادهم من الاستعمار – بدأوا يحسون أن الاستعمار قد سلبهم من هويتهم هذا الحرف، الذي كانوا يكتبون به لغاتهم. وعندما قدم المدير العام لليونسكو الدكتور أحمد مختار أمبو (من السنغال) شرحاً وتوصية للمؤتمر العام لليونسكو المكون من وزراء التعليم في كل الحكومات المنضوية تحت الأمم المتحدة تمت الموافقة على أن تساعد اليونسكو الدول التي تكتب لغاتها بالحرف العربي في مجال محو الأمية. وكان ذلك في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين.

١٤- عندما وافقت منظمة اليونسكو على تنشيط كتابة لغات المسلمين بالحرف العربي تكونت لجنة فنية من علماء يمثلون المؤسسات الإسلامية والعربية وهي:

أ- المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

ب- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو).

ج- البنك الإسلامي للتنمية – في جدة.

د- جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

هـ- معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالمغرب.

بدأت اللجنة الفنية اجتماعاتها منذ عام ١٩٨٥م ووضعت في الاعتبار ما يلي:

١- أن معظم تراث الشعوب الإسلامية من وثائق دينية وتاريخية وسياسية واجتماعية وغيرها مكتوب بالحرف العربي، وأن الإبقاء على كتابة هذه اللغات بالحرف العربي من شأنه أن يحافظ على هذا التراث من ناحية، ويجعله متاحاً لأجيال المسلمين حتى لا ينفصلوا عن تراثهم وتاريخهم.

٢- أن الحرف العربي الذي تكتب به لغات الشعوب الإسلامية يربط أبناء المسلمين بالقرآن الكريم واللغة العربية.

٣- ضرورة تطوير الحرف العربي وتطويعه لكتابة لغات المسلمين في آسيا وأفريقيا وتوحيد نظام الكتابة في هذه اللغات، بحيث يعبر الحرف عن نفس الصوت في كل اللغات.

٤- جعل الكتابة صوتية بحيث يكون لكل صوت أساسي (فونيم) رمز خاص به يعبر عنه حتى يزول الالتباس عند القراءة.

٥- الاستفادة من تجارب المسلمين في كتابة لغاتهم بالحرف العربي.

٦- في حالة تعديل الحرف ليعبر عن صوت غير عربي يتجنب التعديل بالنقط الكثير. والنقطة الواحدة أفضل من النقطتين وألا يزيد النقط عن ثلاثة.

٧- لابد من وضع رموز للحركات القصيرة والطويلة حتى لو كانت أكثر من خمس طالما أن الحركة صوت أساسي (فونيم).

٨- عدم استخدام حرف عربي ليعبر به عن صوت غير عربي.

٩- وهنالك اعتبارات أخرى نشأت من الممارسة العملية لخصوصية بعض اللغات.

١٥- وبعد أن استعرضت اللجنة الفنية أصوات عدد من لغات أفريقيا عرضت مقترحاتهم على العلماء والتربويين والمختصين في البلدان الإفريقية التي اعتمدت تطوير كتابة لغاتهم في حلقات نقاش متخصصة حتى توصلوا إلى وفاق حول الحروف والرموز التي تعبر عن أصوات كل لغة (على حدة).

وفيما يلي نماذج للحروف والحركات التي ارتضتها لجان اللغات المعنية. والجداول التالية خاصة برموز الأصوات غير العربية في هذه اللغات:

الجدول ١: الصوامت الإفريقية غير الممثلة في الألفباء العربية

رمز لاتيني	رمز عربي	ولوف	كمورو	سونكاي	هاوسا	بولار
□	ۏ				ۏ	ۏ
□	ے		ے			
B	ئ		ئ			
N	۴	۴		۴		۴
ƙ						
č	٠	٠		٠	٠	٠
g	گ	گ	گ	گ	گ	گ
v	ڤ		ڤ			
ɽ						
y	ث				ث	ث
č	چ		چ			
ny	٣	٣	٣	٣		٣
p	پ	پ	پ			پ

الجدول٢: الصوامت المزدوجة الإفريقية غير الممثلة في الألفباء العربية

رمز لاتيني	رمز عربي	ولوف	سوسو	سونكاي	هاوسا
ts	تس				تس
gb	گب		گب		
gw	گو				گو
gy	گي				گي
ƙw	٨و				٨و
ƙy	٨ي				٨ي
nč	ذ•	ذ•		ذ•	
ng	نگ	نگ		نگ	

الجدول٣: الحركات الإفريقية غير الممثلة في الألفباء العربية

رمز لاتيني	رمز عربي	ولوف	ماندنكا	سونكاي	هاوسا
bo	بٗ	بٗ	بٗ	بٗ	بٗ
b□	بٗ		بٗ		
be	ب.	ب.	ب.	ب.	ب.
b^{E}	ب□		ب□		
b^{P}	ب□	ب□			

بعض اللغات الآسيوية قطعت شوطاً بعيداً في تقنين أصوات لغاتها، وأدخلتها في النظام العالمي للرموز الموحدة (Unicode) واستخدمت في الحواسيب.

بعض حروف اللغات الإفريقية مستخدمة في النظام الدولي الموحد، وبقيت بعض الحروف، الذي يجري العمل الآن على إدخالها في النظام الدولي الموحد، كما يلي:

0680 **Arabic** 06FF

	068	069	06A	06B	06C	06D	06E	06F
0	ڀ	ڐ	ڠ	ڰ	ۀ	ې	۠	۰
1	ځ	ڑ	ڡ	ڱ	ہ	ۑ	ۡ	۱
2	ڂ	ڒ	ڢ	ڲ	ۂ	ے	ۢ	۲
3	ڃ	ړ	ڣ	ڳ	ۃ	ۓ	ۣ	۳
4	ڄ	ڔ	ڤ	ڴ	ۄ	۔	ۤ	۴
5	څ	ڕ	ڥ	ڵ	ۅ	ە	ۥ	۵
6	چ	ږ	ڦ	ڶ	ۆ	ۖ	ۦ	۶
7	ڇ	ڗ	ڧ	ڷ	ۇ	ۗ	ۧ	۷
8	ڈ	ژ	ڨ	ڸ	ۈ	ۘ	ۨ	۸
9	ډ	ڙ	ک	ڹ	ۉ	ۙ	۩	۹
A	ڊ	ښ	ڪ	ں	ۊ	ۚ	۪	ۺ
B	ڋ	ڛ	ګ	ڻ	ۋ	ۛ	۫	ۻ
C	ڌ	ڜ	ڬ	ڼ	ی	ۜ	۬	ۼ
D	ڍ	ڝ	ڭ	ڽ	ۍ	۝	ۭ	۽
E	ڎ	ڞ	ڮ	ھ	ێ	۞		۾
F	ڏ	ڟ	گ	ڿ	ۏ	۟		

390 *The Unicode Standard 3.0,*

شكل(٤) رموز اللغات الاسلامية في الحاسوب

0600　　　　　**Arabic**　　　　　067F

	060	061	062	063	064	065	066	067
0				ذ	ـ	ِ	٠	ٰ
1			ء	ر	ف	ّ	١	ٱ
2			آ	ز	ق	ْ	٢	ٲ
3			أ	س	ك	ٓ	٣	ٳ
4			ؤ	ش	ل	ٔ	٤	ٴ
5			إ	ص	م	ٕ	٥	ٵ
6			ئ	ض	ن		٦	ٶ
7			ا	ط	ه		٧	ٷ
8			ب	ظ	و		٨	ٸ
9			ة	ع	ى		٩	ٹ
A			ت	غ	ي		٪	ٺ
B		؛	ث		ً		٫	ٻ
C	،		ج		ٌ		٬	ټ
D			ح		ٍ		٭	ٽ
E			خ		َ			پ
F		؟	د		ُ			ٿ

　　359

شكل (٥) معيار اللغات الإسلامية في الحاسوب

١٦- من ثمار مشروع الحرف القرآني الذي ترعاه منظمة إيسيسكو بالتعاون مع معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالمغرب تصميم مرقنة (آلة كاتبة) يدوية تشتمل مفاتيحها على الحروف العربية مضافاً إليها الحروف والحركات الخاصة لما يزيد على عشرين لغة إفريقية، وأنتج منها خمسمائة مرقنة وزعت على الدول الإفريقية، التي أدخلت لغاتها في المشروع، كما درب عدد كبير من أبناء هذه اللغات على كتابة لغاتهم بالمراقن الإفريقية. وذلك منذ بداية التسعينيات من القرن العشرين.

من ناحية أخرى، أنشأت جامعة إفريقيا العالمية عام ٢٠٠٣م وحدة متخصصة لتطوير كتابة لغات المسلمين بالحرف القرآني، وأمدتها بالمختصين في اللغويات والحوسبة، وكان في مقدمة أنشطتها حوسبة الحرف القرآني، الذي تُكتب به اللغات الإفريقية، وبذلك انتقلت الكتابة من خط اليد والطباعة بالمراقن إلى الحاسوب، وتعاونت مع الجامعة في ذلك منظمة (إيسيسكو). ثم بدأ تدريب القيادات التربوية في إفريقيا على كتابة لغاتهم بالحرف القرآني باستخدام الحاسوب، وذلك في سلسلة من ورشات العمل التي عقدت في جامعة إفريقيا العالمية في الخرطوم، وجامعات أخرى في إفريقيا.

كما صدرت مجموعة من الإصدارات في الفقه المالكي بلغات إفريقيا بالحرف العربي المحوسب. وأنشأت الجامعة موقعاً إلكترونياً للتعريف والتواصل مع الآخرين في هذا المجال.

والله ولي التوفيق وهو المعين.

مراجع أخرى مفيدة

١- Asher R. E. and other editors. *Encyclopedia of Language and Linguistics*. University of Glasgo, U.K.

٢- *Nationalities of the Soviet East Publications and Writing Systems.* Library of Congress, W. NH-B II ٠١٩٣. UNI PRESS, New Yourk. London. ١٩٧١.

٣- *Broneu. Bronei Year Bocki Key Information on Bronei.* P٨٠٨٤ ٢٠٠٠.

نقله الأستاذ أبانغ حزمين في رسالته للماجستير بعنوان كتابة الملايو بالحرف العربي في بروناي. قدمت إلى معهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام ٢٠٠١م، ص٣٤.

٤- Curtis. Hayens and others. *The ABC's of Languages and Linguists.* National Text Book Company, Lincolnwood, Illinoi, Chicago, ١٩٨٧.

٥- The International Phonetics Association. *The Principles of the IPA*. London, ١٩٦٧.

٦- يوسف الخليفة أبو بكر، "الحرف العربي واللغات الإفريقية". بحث قدم في ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتضامن مع جامعة الخرطوم ٢١- ٢٦ فبراير ١٩٨١م. ونشر أيضًا في مجلة الثقافة السودانية، العدد١٩، نوفمبر ١٩٨١م. وأعيد نشره في كتاب "الثقافة العربية والثقافات الإفريقية" المنظمة العربية، إدارة الثقافة، أعده للنشر الدكتور يوسف فضل تونس ١٩٨٥، ص ١٦٧- ١٨٠.

٧- "بعض المقترحات لأبجدية صوتية عربية دولية"، بحث قدم في الملتقى العربي الإفريقي واللغة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع المعهد الثقافي الإفريقي- داكار، ٩- ١٢ ابريل ١٩٨٤، وقد ترجم البحث إلى اللغة الفرنسية.

٨- "الجوانب الصوتية والصواتية"الفونولوجية" لعملية تكييف الحرف العربي القرآني من أجل كتابة لغات الشعوب الإسلامية بصيغة أكثر دقة" بحث قدم في ندوة كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف القرآني، جامعة النيجر، ٢- ٦ ديسمبر ١٩٨٨م.

من مقاصد القرآن

الدكتور ثقيل بنساير الشمري[*]

العناية بالقرآن من أجلِّ ما تتصرف إليه الهمم، لما في ذلك من الأجر العظيم.. وقد كان وصف هذه الأمة في الكتب السابقة بأن أناجيلهم في صدورهم.. هذا القرآن كان وما يزال محفوظاً في صدور الرجال ﴿..بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ..﴾ (العنكبوت:٤٩).

تمهيد:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيمًا لينذر باسا شديدًا من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ما كثين فيه أبداً، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً؛ والحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا.

(*) نائب رئيس محكمة التمييز (قطر).

والصلاة والسلام على نبينا محمد، المبعوث بالهدى والرحمة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وآله وصحبه ومن سار على دربه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الله سبحانه قد منّ على خلقه وخاصة المؤمن منهم بأن بعث فيهم رسوله الكريم ﷺ وأنزل معه أفضل كتبه وخاتمها والمهيمن عليها، يقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وفي صحيح مسلم، من حديث عياض بن حمار المجاشعي، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ...**»[1]. هذا الكتاب هو المهيمن على الكتب السابقة كلها، يقول الله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:٤٨)، والمعنى أنه عال ومرتفع على ما تقدمه من الكتب، وهو أمين عليها وحاكم وشاهد وقيّم

(١) أخرجه مسلم.

عليها، يقول ابن جرير، رحمه الله: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل. ا هـ..

وكتاب الله له المكانة العظيمة في قلب كل مسلم، وهو أيضاً عظيم في نفسه كريم مجيد عزيز، فالقرآن مصدر (قرأ) قرآناً، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧- ١٩).

والكلام المقروء نفسه يسمى قرآنًا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(النحل:٩٨)، والقرآن كلام الله حقيقة، لفظه ومعناه من الله، أنزله على عبده محمد بن عبد الله ﷺ وحياً، فهو منزل غير مخلوق، يقول الله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(الزمر:١)، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾(النحل: ١٠٢)، ويقول: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (غافر: ١- ٢)، ويقول: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(فصلت:٢)، ويقول: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦)، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وعلى هذا أجمع سلف الأمة، رحمهم الله جميعاً.

وقد سمى الله هذا الكتاب بأسماء كثيرة في كتابه، ووصفه كذلك بصفات كثيرة، وإنما يدل هذا على شرف هذا الكتاب وعظمته، فهو القرآن، والفرقان، والكتاب، والهدى، والنور، والشفاء، والبيان، والموعظة، والرحمة، والبصائر، والبلاغ، وهو العربي، والمبين، والكريم، والعظيم، والمجيد، والمبارك، والتنزيل، والصراط المستقيم، والذكر الحكيم، وهو

حبل الله، وهو الذكرى والتذكرة والبشرى، وهو المصدق لما بين يديه من الكتاب، وهو المهيمن عليها. وهو المثاني، وفيه تفصيل كل شيء، وتبيان كل شي، وهو الذي لا ريب فيه، ولا عوج فيه، يقول الله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨)، ويقول سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، ويقول سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١- ٢)، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧)، ويقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ٥٨)، ويقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤)، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧)، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).

ويقول جل وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (الكهف: ١- ٢)، ويقول عز من قائل سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١- ٢٢)، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الواقعة: ٧٧- ٨٠)، وغير ذلك من الآيات كثير، فيها أسماء هذا الكتاب العظيم وصفاته، مما ينبيك على عظيم قدره وجليل شرفه، كيف والمتكلم

به هو رب الأرباب –سبحانه – عالم الغيب والشهادة، القائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:٢٧).

ومما ينبغي أن يعلم أن كل اسم أو صفه لهذا الكتاب العزيز فهو دال على معنى اختص به، ولولا خشية الإطالة لنبهنا على جملة تكون معينة على فهم ما بقي.

هذا وإن مما اختص به هذا الكتاب الكريم أن الله سبحانه تكفل بحفظه ولم يكل حفظه الى احد من خلقه، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).

يقول ابن القيم، رحمه الله: «فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وصف محله بالحفظ في هذه السورة، أي البروج، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ومعانيه من التحريف» اهـ.[1]

كتاب الله الكريم هو المنجي من الفتن، وهو أنيس المؤمن ونور قلبه وربيع صدره وجلاء همه وغمه، كتاب الله فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منه

(١) التبيان، ٦٢/١

العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه ولا تفنى عبره، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (الجن: ١).

من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، وهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى التي أوتيها نبينا ﷺ، حيث يقول: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

معجز في لفظه وبيانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(البقرة: ٢٣)، معجز في تيسير تلاوته وقرآنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧)، معجز فيما حواه من قصص الماضين لنعتبر: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾(يوسف:٣)، ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:١١١)، معجز فيما حواه من عقائد الشريعة وشرائع الدين، لنمتثل: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم:١)، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩)، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

(١) أخرجه مسلم.

بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (الزمر:٢)، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (الأنعام :١٥٥)، معجز بما حواه من أخبار الغيب ؛ لنؤمن ونسلم: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ١- ٣).

أية ظاهرة وحجة باهرة من بعثة النبي ﷺ إلى أن يأذن الله برفعه، تحدى الله به أفصح الناس فلم يستطيعوا، بل تحد به الجن والإنس مجتمعين فأعياهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾(الإسراء: ٨٨)، امتن الله به على نبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧)، يهدي إلى الطريق القويم والمنهج المستقيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾(الإسراء: ٩).

هذا وأن لتلاوة هذا الكتاب أجراً عظيمًا وفضلاً كبيرًا، يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾(فاطر: ٢٩- ٣٠).

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: « **لا حَسَدَ إلاّ فِي اثنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»[1]، وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: « **مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ (ألم) حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[2].

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وصاحب القرآن هو المقدم في الدنيا والآخرة، وهم أهل الإكرام والإجلال، فعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: « **إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[1].

وعن أبي مسعود الأنصاري البدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « **يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ**»[2]. وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: «**كان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً كانوا أو شبابًا**».

وعن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**»[3].

وعن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ؛ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ؛ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ؛ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**»[4].

هذا في الدنيا أما في الآخرة فثوابه أعظم أن عُمِل به، وأجره أكبر؛ عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ**

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه أبو داود وحسنه النووي.

(٤) أخرجه مسلم.

مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ»[1]؛ « **المَاهِرُ بِالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»**[2].

وعن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**»[3].

وصاحب القرآن هو المقدم في أول منازل الآخرة، فعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: «كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي الثَّوْبِ الوَاحِدِ ثُمَّ يَقُولُ: **أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلقُرْآنِ؟** فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ وَقَالَ: **أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[4].

ولا يزال صاحب القرآن يترقى في منازل الجنة على قدر ما معه من القرآن، فعن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»[5].

ولا شك أن العناية بحفظ القرآن من أجلّ ما تتصرف إليه الهمم؛ لما في ذلك من الأجر العظيم، وقد كان وصف هذه الأمة في الكتب السابقة أن أناجيلهم في صدورهم. وهكذا فإن الله سبحانه قد أخبر في كتابه أن هذا الكتاب محفوظ في صدور الرجال، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه الترمذي، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ﱡﭐ الظَّالِمُونَ ﱠ(العنكبوت: ٤٨- ٤٩)، فأخبر سبحانه أنه ‌في صدور العلماء محفوظ، وهذا يصدق الحديث القدسي الذي فيه «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْــزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ...**»[1]، والمعنى أن الماء لا يمحوه إذ هو محفوظ ‌في الصدور.

وقد شبه النبي ﷺ من لم يحفظ شيئًا من القرآن بالبيت الخرب، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»[2].

وقد تقدمت معنا الأحاديث الدالة على إكرام حامل القرآن وعظيم منزلته.

وحفظ القرآن مشروع للمسلم،والقدر الواجب عليه منه هو ما يحتاج إليه ‌في تصحيح عبادته، وقول شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: « وأما حفظ جميع القرآن وفهم جميع معانيه ومعرفة جميع السنّة فلا يجب على كل أحد، لكن يجب على العبد أن يحفظ من القرآن ويعلم معانيه ويعرف من السنّة ما يحتاج إليه» ا.هـ.

إن القرآن أثبت وجود الله عز وجل للجاحدين والمجادلين، وأثبت وحدانيته للمشككين، كما أثبت نبوة النبيين ورسالة المرسلين، وأثبت أن البشرية لا بد لها من يوم ترجع فيه إلى الله، وهو يوم البعث والجزاء، وقد كان منهج القرآن واضحاً ‌في إثبات ذلك كله، وقد جعلت هذه المقالة ‌في مباحث تسهيلاً لبيان الموضوعات التي أثبتها القرآن.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

المبحث الأول

إثبات وجود الله

من أهم الموضوعات التي تحدث عنها القرآن العظيم إثبات وجود الله ووحدانيته، فوجوده عز وجل حقيقة لا تقبل النقاش والجدل؛ لأنها ضرورة تسري في الأحاسيس والمشاعر، وتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وتقرير هذا الدليل على وجود الله كما يسوقه علماء الكلام من غير أن نتسامى إلى مقام البيان القرآني أنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، وأن هذا التنازع يؤدي إلى فسادها لتناقص الإرادتين، ولكنهما صالحان غير فاسدين فبطل ما يؤدي إلى الفساد فكانت الوحدانية، فسبحان الله رب العرش عما يصفون[١].

وقد أثبت القرآن الكريم للملحدين والمتألهين وجود الحق عز وجل وبقيت أدلته صخرة صلبة تحطمت عليها أفكار هؤلاء قديمًا كما تتحطم عليها أفكارهم في كل زمان ومكان؛ لأن الوجود الإلهي يفرض نفسه على أحاسيسهم ومشاعرهم ويقولون به من حيث لا يشعرون؛ لأن الإيمان بوجود الله ضرورة حتمية وبديهة لا تقبل الفطر الإنسانية الأخذ والرد فيها وإن انحرفت بعض الفطر الإنسانية ومالت إلى الجحود فهذا لا يعني عدم الإحساس بوجود الله، ولكنها أصيبت بنكسات قلبية أودت بها في المتاهات

(١) أبو زهرة، المعجزة الكبرى،ص٤٠١.

المظلمة ولم تستخدم ما وهبها الله من تفكير للنظر في الكائنات والتبصر في الموجودات لتستدل به على خالق هذا الكون ومدبره. قال أبو العتاهية:

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة في الورى شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

وقد رد القرآن على الملحدين المنكرين لوجود الله بصرف النظر عن ادعائهم الكاذب المبني على الجهل بل لا يناقشهم في جهلهم وتفاهة تفكيرهم، إنما يهددهم وهو يرسم لهم مشهدًا مرعبًا وهم معروضون أمام الله، جاثون مع الجاثين، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٤- ٢٨).

فهؤلاء الملاحدة زعموا أنهم وجدوا في هذه الحياة بحكم طبيعة النشوء والتوالد الماديين، وأن الدهر سيفنيهم تلقائيًا عند انتهاء حياتهم، وعلى هذا فهم لا يعترفون بإله خلقهم ورزقهم في الحياة الدنيا ولا يؤمنون بإله يتوفى الأنفس حين موتها ويبعثها مرة أخرى ليفصل بين خلقه فيسعد أولياءه ويظهر العدل مع الجاحدين لوجوده.

وهؤلاء الدهريين الذين ادعوا أن ليس هناك خالق موجود، وأنهم وُجدوا في الحياة عن طريق التوالد بين الذكر والأنثى، وسيموتون بفقدان الحياة عندما يتعرض أحدهم لشيء من نوازل الدهر، ومثل هذه الدعوى رد عليها القرآن الكريم وفندها بأمرين:

١- بنفي العلم عنهم فيما يتعلق بدعواهم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ (الجاثية:٢٤)، والنفي هنا يفيد العموم لأنه نكرة في سياق النفي فيعم[١].

٢- إثبات الظن والتخرص في دعواهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (الجاثية: ٣٢).

فقد نفى القرآن أن تكون دعواهم مستندة إلى دليل، وإذا عُدم الدليل في الدعوى أو طعن فيه بشيء من المطاعن المعتبرة سقطت الدعوى، أو كما يقال: إذا نقضت المقدمة بطلت النتيجة[٢].

وقد رد القرآن عليهم في غير هذه الآيات بإثبات وجود الله بالبراهين القطعية عن طريق الحصر المنطقي، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾(الطور:٣٥- ٣٦).

فثبت عن طريق هذا الحصر قيام البرهان القطعي على وجود الله تعالى وإبطال دعوى المنكرين من الماديين والدهريين.

وإذا أردنا أن نعرف الطريق التي دعا إليها القرآن الكريم في إثبات وجود الله تعالى وجدناها تنحصر في طريقين، كما ذكرهما ابن رشد:

الأول: الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ويمكن أن نسميه دليل العناية.

الثاني: دليل الاختراع وهو ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودة مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحية والعقل.

(١) تفسير التحرير والتنوير(الدار التونسية) ٣٦١/٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، ٣٧٢/٢٥.

وقد ذكر ابن رشد أن الآيات الواردة في القرآن المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه تنحصر في هذين الجنسين من الأدلة، يعني بذلك دليل العناية ودليل الاختراع؛ وذلك أن الآيات التي تشير إلى المعنى الذي ذكرناه تنحصر في ثلاثة أنواع:

١- آيات تتضمن الإشارة إلى دلالة العناية.

٢- آيات تتضمن الإشارة إلى دلالة الاختراع.

٣- آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعًا[1].

فأما الآيات التي تتضمن الإشارة إلى دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ (النبأ: ٦- ١٦)، ومثل قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان:٦١)، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس: ٢٤).

وأما الآيات التي تتضمن الإشارة إلى دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(الطارق:٥- ٦)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(الغاشية:١٧)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ (الحج:٧٣).. وغير ذلك من الآيات.

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في العقائد، ص٦٩.

وأما الآيات التي تجمع الدلالة فهي كثيرة أيضًا بل هي الأكثر، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(البقرة:٢١- ٢٢).

وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إشارة إلى دلالة الاختراع، وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إشارة إلى دلالة العناية.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ (يس:٣٣)، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران:١٩١).

وقد جاء القرآن الكريم بالأدلة الكونية في الأنفس والأفاق شاهدة بوجود الله تعالى متمثله في بدائع وأحكام تصريفه لشؤون خلقه، جاءت واضحة في نظام الكائنات وسائر المخلوقات. وقد وجدت هذه الكائنات على هيئة صالحة لاستخدام الإنسان لها وتذليلها له وتسخيرها للانتفاع بها.

كما أن خلق الإنسان في تركيب بدنه وأجزائه وعجائب تكوينه على هيئة تدعو إلى الدهشة والحيرة كلها تدل على أن هذه العناية والدقة في سائر المخلوقات محال أن تكون نفسها بنفسها، ومحال أن تكون على سبيل المصادفة العمياء، ومن غير حكيم وصائغ مبدع أفاض عليها من عنايته وحكمته وهو الله سبحانه تعالى.

وقد استخدم القرآن الكريم ما في عالم الحيوان من عجائب خلقه وتكوينه وأجهزته الدموية والهضمية والعصبية والتنفسية ونظام التوالد وتنوعه إلى حيوانات برية وبحرية وهوائية طائرة وحيوانات طويلة العمر

وأخرى قصيرة الأجل، وحيوانات تبيض وأخرى تلد، وحيوانات لأكل لحمها وأخرى لألبانها، وغير ذلك بل كان بصنع فاعل حكيم مختار ليس من جنس الحوادث، بل هو خالق كل شي سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور:٤٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:٣٨)، وقال عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (هود: ٦)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(النحل:٧٩)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ (الملك: ١٩).

كما استخدام القرآن لإثبات الخالق ما في عالم النبات من عجائب وسنن كونية تحار فيها العقول البشرية، كيف توضع الحبة في الأرض الرطبة فلا تتلفها الرطوبة لكنها تربو وتنشق من أسفل عن جذور تمتد إلى باطن الأرض ومن أعلى عن ورق وساق يصعد إلى أعلى شاقًا لنفسه طريقًا من بين التراب، وكيف يتنوع عالم النبات ويختلف شكلاً ونوعًا وطعمًا ومذاقًا ولوناً ورائحة، وتختلف كذلك الثمار والفواكه، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾(الأنعام: ١٤١)، وقوله

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ (فاطر:٢٧)، وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ (الرعد:٤).

وفي تدليل القرآن على إثبات وجود الله لفت الأنظار والعقول إلى عالم الكواكب وما فيه من عجائب، كيف أن السماء رفعت بلا عمد، والأرض بما فيها من بحار وأنهار وجبال تسير في الفضاء بدقة ونظام في سيرها لا يرتطم بعضها ببعض، نعلم من حركتها عدد السنين والحساب والليالي والأيام وتتنوع بسبب سيرها الفصول السنوي من صيف إلى شتاء وإلى ربيع وإلى خريف، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعاني والأمور، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(الرعد:٢)، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (النحل:١٢).

كما وجه القرآن الكريم إلى النظر بأمر الرياح وتوابعها قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر:٢٢)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأعراف:٥٧).

كما نبه القرآن الكريم إلى ما يتبع الرياح والهواء ويتفاعل معه من السحاب والمطر والرعد والبرق، وأن كل ذلك عجيب الصنع دقيق الحصول متنوع في كمه وكيفه وفي الآثار المترتبة عليه وفي سبب حصوله، وتكونه،

وفي انتفاع العباد والبلاد به، وما يتبع ذلك من اختلاف في الدراسات البيئية، لو نظرنا إلى كل ذلك بتمعن لأدركنا أن فاعل ذلك لا بدّ أن يكون حكيمًا عليمًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ (النور:٤٣- ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ (الرعد: ١٢- ١٣).

ومازال القرآن يحشد الأدلة على إثبات وجود الله، ويلفت أنظار الجاحدين إلى الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال، وما في باطنها، وإلى صلاحيتها للحياة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ (فاطر:٢٧- ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد:٣).

كل هذه الآيات بتنوع أساليبها واختلاف موضوعاتها تلفت الأنظار إلى أن هذا الكون وما يحتويه لم يكن وليد المصادفة والاتفاق وإنما هو مخلوق عن علم عليم وقدرة قادر، وهو الله عز وجل.

المبحث الثاني

إثبات وحدانية الله

البحث هنا متعلق بالمبحث السابق؛ لأن الأول يتعلق بالأدلة على وجود الله والبحث هنا متعلق بالأدلة على وحدانية الله تعالى، وهو متضمن للأول إلزامًا والتزامًا، بمعنى أن من أقر بوحدانية الله فقد اعترف بوجوده سبحانه، بينما المبحث الأول يتضمن الثاني إلزامًا فقط، فقد كان المشركون يقرون بوجود الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف:٩).

ولم يدخلهم إقرارهم بوجود الله في التوحيد الذي بعث الله من أجله الرسل وهو توحيد الإلهية، ولكنهم ملزمون بإقرارهم، فإنه إذا ثبت أن خالق هذا الكون موجود ثبت أنه واحد؛ لأن الصنعة مفتقرة إلى الصانع وليست مفتقرة إلى ما زاد على الصانع، فصار وجود ما زاد على الصنعة جائزًا والجائز الوجود لا يجوز أن يكون إلهًا مبدعًا قديمًا[١].

وقد سلك القرآن في استدلاله على وحدانية الله مسلكين:

- **المسلك الأول:** الاستقلال على ذلك بانتظام الكون وسلامته من الاختلال والتصادم، ومن أبرز الأدلة في ذلك ما يسميه علماء الكلام بدليل التمانع، ويتمثل هذا في ثلاث آيات هي:

١- قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

(١) ابن الحنبلي، استخراج الجدال من القرآن، ص١١.

٢- قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٢).

٣- قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

فتقرر الدليل في الآية الأولى أن يقال: الله واحد؛ لأن التدبير لا ينتظم في دار واحده بمدبرين فكيف ينتظم التدبير العام في جميع هذا الكون بمدبرين؟ فلو وجد ذلك لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، إذ يريد أحدهم حياة شخص والآخر موته، أو إسعاده والأخر شقاءه، وهذا التنازع يؤدي إلى فساد السموات والأرض لتخالف الإرادات، ولكنهما صالحان غير فاسدين فبطل ما يؤدي إلى فسادهما وهو تعدد الآلهة، فثبتت الوحدانية لله تعالى، وتقرير الدليل الثاني، مبني على فهم المراد من قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:٤٢).

وفيه قولان:

الأول: أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله فإنها ستطلب إليه القربى وتفتقر إليه، والجواب عن هذا الافتراض أن من يفتقر إلى غيره لا يصلح أن يكون إلهًا.

الثاني: أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله فإنها ستتجه لمنازعته على السلطة فيقع الصدام الذي ينتج عنه فساد العالم. والجواب عن هذا الافتراض أنه لم يفسد العالم ولم يختل نظام الكون فثبت أن ليس مع الله آلهة أخرى.

وتقرير الدليل في الآية الثالثة قريب مما تقدم في الآية الثانية، فإنه لو فرض وجود إله مع الله لانفرد كل إله بسلطان مستقل واتجه للمغالبة والاستعلاء بالقوة على غيره فينشأ عن ذلك فساد الكون أو تغلب أحدهما على الآخر، والمغلوب لا يكون إلهًا، ولكن نظام الكون لا فساد فيه ولا اختلال فدل على أن مدبره إله واحد هو الرحمن الرحيم، وقد ذكر بعض العلماء أنه قد تثار الشبهة على هذه الأدلة من وجهين:

١- أنه يجوز أن يكون اثنان تتفق إرادتهما فلا يقع خلاف وبالتالي لا فساد.

٢- قالوا: لما رأينا وجود الشيء وضده مثل الموت والحياة والنور والظلمة والخير والشر وما يقتضي الحكمة وينافيها من النقض بعد البناء والعجز بعد القوة جاز أن ينسب إلى مدبرين اثنين.

والجواب على الوجه الأول: أن يقال يستحيل وجود اثنين متحدين إرادة متكافئين علمًا، والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة الآخر في الأعيان والأذهان، فإذا وجدا – وذلك مستحيل متعذر – فهما واحد سموه اثنين؛ ويقال في حصر هذا الافتراض: لو فرض وجود إلهين وأراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر تسكينه، فلا يخلو الأمر إما أن يحصل مرادهما فيكون الجسم ساكنًا متحركًا في أن واحد، وهذا جمع بين النقيضين وهو باطل، وإما لا يحصل مراد واحد منهما فيخلو الجسم من الحركة والسكون وهذا ممتنع بالإضافة إلى عجز كل منهما في تنفيذ مراده، ومن كان كذلك فليس بإله قادر، وأما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر فالذي حصل مراده هو الإله القادر والآخر عاجز لا يصلح للإلوهية، وإما أن تتنازع الإرادتان فيستعمل كل إله سلطته وقدرته ضد

الآخر فينشأ عن هذا فساد الكون وخراب العالم، والواقع والثابت أن الكون بما فيه يجري على أحكم نظام ودقة، فتبين من هذا أن خالق هذا الكون ومن فيه إله واحد.

والجواب عن الوجه الثاني: أن صدور الشيء وضده أدل على قدرة الصانع، وقد نبه سبحانه وتعالى على ذلك في عدة مواضع من الكتاب العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد:٤)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس:٨٠).

- **المسلك الثاني:** في التركيز على إبطال معبودات المشركين وبيان حقارتها وذلها وعجزها وأنها لا تخلق ذبابة ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضررًا ولا تجلب لها نفعاً فكيف تملك لغيرها ضرًا أو نفعًا؟ وبيان تفاهة المشركين أيضًا عندما يعبدون هذه الأوثان وأنها أضعف وأحقر من أن يقام لها وزن أو يثار حولها جدل، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٤١).

وقد بعث الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيق هذا المبدأ العظيم وهو إثبات وحدانية الله تعالى وترك ما يعبدون من دونه، وهذا الأصل العظيم هو الأصل الأول، الذي دعت لتحقيقه جميع الأديان السماوية، إذ بعث الله في كل أمة رسولا يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾(النحل:٣٦).

المبحث الثالث

إثبات الرسالات

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان بدنًا وروحًا، ولكل من البدن والروح غذاؤه ومقوماته، فالبدن يجد كفايته في الماديات والمحسوسات من المأكل والمشارب من نعم الله المبثوثة في الأفاق والروح، تجد كفايتها فيما جعل الله من معقولات ومدركات معنوية ومفاهيم فكرية ورسالات سماوية منزلة من الله تعالى لهداية بني الإنسان، وإرشادهم بما في هذه الرسالات من قيم ومبادئ يسعدون بها في العاجل والآجل، وهذه الرسالات المنزلة هي رحمة من الله بعباده ليربيهم بالنعم الروحية، كما يربيهم على موائد كرمه بالنعم المادية.

ولا بد لهذه الرسالات من رسل يحملونها ويبلغونها عن الله تعالى، وهم الصفوة الخيرة من بني الإنسان، فلا تكون الرسالة ألا لمن اختصه الله بهذه النعمة وأعده لحمل رسالته: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:١٢٤).

إن هؤلاء الرسل لم تكن مهمتهم سهلة ولم يفرش طريقهم بالورود والرياحين، فقد كانت حياتهم جهادًا لإعلاء كلمة الله وتبليغ رسالاته، كانت صراعًا بين الحق والباطل. وجاء الرسل، عليهم السلام، بما كلفوا بحمله من شرائع وما أمروا به من تبليغ، فعرضوا ذلك على أقوامهم فقابلهم أكثر الناس بالتكذيب والازدراء وبما وجدوا عليه إباءهم من ألف للعادات والتقاليد، ولجأوا إلى انتحال الشُبه لإبطال تلك الدعوات، وقد ذكر القرآن الكريم أنواعًا من مواقف الأمم السابقة مع أنبيائهم مما يشهد لهم بإبلاغ

رسالات الله وإقامة الحجج على أقوامهم، ويشهد لهم بالصبر والثبات مهما واجهوا من معوقات تعترض طريقهم؛ فمن تلك المواقف:

١ - موقف قوم نوح، عليه السلام، من رسالته:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾(نوح: ١- ٣)؛ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون: ٢٣- ٢٥)؛ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾(الأعراف:٥٩- ٦٤).

من مجموع الآيات السابقة يتجلى لنا الصراع الذي دار بين نوح، عليه السلام، وقومه مما يشهد له بإبلاغ الرسالة، لقد دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وطاعته وتصديقه في كل ما يبلغ عن الله؛ لأنه رسول من الله، والرسول يطاع ويتبع، وقد قابله قومه بالتكذيب لرسالته واتهامه بأنواع التهم والمفتريات الباطلة فقد قالوا عنه إنه بشر، ومعنى هذا

أن الرسالة لا تكون لبشر، إذ لو أراد الله أن يرسل رسولاً لجعله من الملائكة، فكيف يدعي الرسالة رجل من البشر؟ والرد على الشبهة أن الله تعالى هو الخالق وهو الإله الحق، فله أن يأمر عباده ببعض الأشياء وينهاهم عن بعضها، ولا يجوز أن يخاطبهم بتلك التكاليف من غير واسطة، ولا يجوز آن يكون ذلك الرسول واحدًا من الملائكة لعدم إمكان تلقي الناس التكاليف الشرعية منه وهو على صورة بشر، كما كان جبريل يتمثل عند نزوله بالوحي على الرسل فإذا تمثل للناس في صورة بشر، حصل اللبس والتكذيب، وقد بين الله هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(الأنعام:٩)، فكونه ملكًا يأتي في صورة إنسان أشد غرابة وأبعد عن التصديق مما لو جاء هذا التكليف على لسان رجل منهم يعرفون صدقه وأمانته وقدره ومكانته.

وهكذا كان رد نوح، عليه السلام، ينفي الاستغراب والتعجب من تكليف الله تعالى لرجل من جنسهم لحمل الرسالة وإبلاغها، فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٦٣)؛ فقد ظنوا أن الذي يأتي نوحًا، عليه السلام، من الوحي إنما هو من جنس الجنون والتخيلات الشيطانية، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون:٢٥).

والرد على هذه الشبهة: أن المجنون لا يأتي بما فيه الرشد والسعادة، ولا يقيم الحجج والبراهين على مدعاه.

ونوح، عليه السلام، على عكس ما يزعمون تمامًا، فقد دعاهم إلى ما يصلحهم في الدنيا والآخرة، وأقام الحجج والبراهين عليهم مستدلاً بالآيات الكونية والنفسية، كما جاء في سورة نوح.. وكان رده عليهم في

كثير من الأحيان يتسم بطابع الهدوء والتلطف، فقد كانوا يجاوبونه بفظاظة القول كقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(الأعراف:٦٠)، وكان جوابه بتبيان مهام رسالته دون جفاء حيث قال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:٦١- ٦٢).

٢- موقف قوم شعيب، عليه السلام، منه:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء:١٧٦- ١٨٩).

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾(هود:٨٤)، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾(هود:٩٤- ٩٥).

بعث الله شعيباً، عليه السلام، إلى مدين وهم أصحاب الأيكة على القول الراجح من أقوال المفسرين لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٧٦- ١٧٧)، ولأن القرآن وصف أصحاب مدين وأصحاب الأيكة بأنهم يطففون المكيال والميزان، فدل على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة.

وقد اشتمل نقاشهم مع شعيب، عليه السلام، على مطالب أساسية كان شعيب يدعوهم إليها: وهي الإقرار بوحدانية الله ونبذ كل معبود من دون الله. كما طلب من قومه أن يسمعوا ويطيعوا له فيما يبلغ عن الله من أمور الرسالة، ونهاهم عن التطفيف في الكيل والميزان أو بخس الناس أشياءهم أو الإفساد في الأرض .. واعترضوا على هذه المطالب بتكذيبه ونفي رسالته حيث قالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (الشعراء:١٨٥- ١٨٦).

فاعتراضهم عليه بأنه رجل مسحور، والوحي الذي يأتيه إنما هو نوع من السحر، ثم إنه على فرض سلامته من السحر فإنما هو بشر مثلهم ويعنون بهذا أن الرسالة لا تكون على يد أحد من البشر، ثم ختموا ذلك بالتكذيب، وكأنهم يقولون أنت على أي حال من الأحوال كاذب فيما تزعم من دعوى الرسالة والتبليغ عن الله.

والرد على هذه الاعتراضات الساقطة أن يقال: إن دعوة شعيب، عليه الصلاة والسلام، وأحواله العقلية والخلقية لا تتناسب مع أحوال المسحرين وأصحاب الأمراض النفسية، وقد شهدوا له بأنه حليم رشيد، وقد دعاهم إلى أمور عادلة يشهد العقل بصحتها وعدالتها، فهو يأمر بالوفاء وينهي عن بخس الناس حقوقهم وعن السعي في الأرض بالفساد، وكل هذه صفات

حميدة ومطالب كريمه، ومن هنا يتضح سقوط دعواهم، وأنها باطلة بضرورة العقل كما أنها باطلة بالحس والنقل.

أما قولهم: إنه بشر فمردود؛ لأنه من الطبيعي أن يكون عندهم علم بالرسل السابقين وأخبارهم مع اسمهم كما ذكرهم بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ (هود:٨٩)؛ فإنكارهم وجود الرسل من البشر إنكار لما هو معلوم لديهم، ولما تشهد به أثار الأمم وأخبارها.

أما التكذيب لرسالته فلا يُقبل منهم؛ لأنه ديدن كل مخالف، وقد قام الدليل على صدقه حيث استجاب الله دعوته وأيده بنصره عندما كذبوه وتحدوه بأن يسقط عليهم كسفًا من السماء وأن ينزل عليهم العذاب؛ لأنه من الصادقين، فابتلاهم الله بالحر الشديد، فكان لا يروي ظمأهم ماء ولا تمنعهم ظلال ولا تقيهم المنازل، ففروا هاربين وخرجوا من ديارهم مسرعين ولكنهم فروا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره، فقد شافوا سحابة ظنوا أنها واقية لهم من حر الشمس فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ويستريحوا بفيئها حتى إذا تكامل عددهم وتآلف جمعهم قذفتهم بشرر ولهب، وجاءتهم صيحة من السماء وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ففزعوا لهول ما رأوا وما كادوا يحسون بما حل بهم حتى أزهقت أرواحهم وهلكت نفوسهم.

وهكذا أثبت الله رسالة شعيب، عليه السلام، كما بين نهاية التكذيب والطغيان وكيف أهلك قوم شعيب بعذاب يوم الظلة، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾(الشعراء:١٨٩).

إثبات الرسالة المحمدية

بعث رسول الله ﷺ بالشريعة الختامية، والدين العالمي، وظهر في مجتمع جاهلي يتخبط في عشوائية، ونفوس أهله تتطلع إلى هادٍ يقودهم ويهديهم سواء السبيل، وكانت نزعتهم العقلية تميل إلى الدين، فهم يتشبثون بالأوثان والأصنام ويعبدونها من دون الله لكي تقربهم إلى الله زلفى، ولكن النفوس عندما تألف شيئاً وتقيم عليه طويلاً لا يكون انصرافها عنه سهلاً، ولا ميسورًا، إلا إذا أحاطت بها العوامل الموجبة لذلك من جميع الجوانب، فلقد بدأ ﷺ بالدعوة، وأعلن أنه رسول من عند الله، ودعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الأصنام فظهرت المعارضة من قومه بشراسة وعنف دون تحكيم للعقل والمنطق السليم في أبعاد تلك الدعوة العالمية الخيرة.

وكانت عوامل التنافس بين أفراد الأسر والقبائل المختلفة من العوامل التي دفعت بكثير من العرب إلى معارضة الرسالة المحمدية بالإضافة إلى موقف اليهود والنصارى منها؛ لأن انتشارها سيعرض ما هم عليه من دين ومعتقدات إلى الزوال والاندثار، وكل هذه العوامل تكالبت للقضاء على رسالة الإسلام الخالدة، ولكن الله كتب لها البقاء وهي خليقة بالبقاء إذ هي منهج متكامل للحياة الإنسانية.

وهذه بعض النماذج لاعتراض المشركين على رسالة محمد ﷺ وكيف رد القرآن عليهم، وأثبت تلك النبوة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ (الفرقان:٤).. لقد ادعوا أن هذا القرآن، الذي جاء به رسول الله ﷺ مختلق مكذوب وأعانه على تأليفه وتجميعه قوم آخرون.

وقدر رد القرآن على هذا الافتراء ونقض هذه الدعوى وأبطل هذا الادعاء بأمرين:

١- إنه رجل أمي لا يكتب ولا يقرأ فكيف ظهر عليهم فجأة بهذه المعلومات، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)؛ إذ لا يعقل أن يأتي رجل أمي بهذا البيان المعجز والنظام الشامل الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله وقريش تعلم أنه لم يتعلم على يد معلم ولم يتلق درساً من مدرس ولا جالس فيلسوفاً حتى يكون لهم أدنى شيء يتعلقون به أو شبهة يتشبثون بها.

٢- إنه لو كان في استطاعة محمد ﷺ أن يستعين بمجموعة من العلماء والمفكرين والعباقرة المبدعين أن يأتي بالقرآن من نفسه إن افترض وجود مثل هؤلاء العباقرة حينذاك، لكان في استطاعة قريش وهم أهل الشعر والفصاحة والبيان والبلاغة أن يأتوا بمثله سيما إذا استعانوا بأهل الكتاب وبما لديهم في عرض الأخبار والقصص، ولكن تحداهم الرسول ﷺ في مقامات مختلفة بأن يأتوا بحديث مثله وجعلهم في سعة من الأمر، تحداهم بحديث مثله ثم بعشر سور ثم بسورة، وقد عجزوا في جميع المقامات والصور ثم جاء التحدي العام للثقلين الجن والإنس ليقطع لجاجتهم ومكابرتهم وينهي عناد كل متطاول على هذا القرآن الكريم في كل زمان ومكان فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨)، وهذه حقيقة لا مناص منها ومن أراد التجربة فأمامه الميدان.

قال الشوكاني، رحمه الله، في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة:١): هذه الآية التي افتتح الله بها هذه السورة فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدة، منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما يتلى مما لا يحل، ومنها تحريم الصيد على المحرم، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم[(١)].

فتبين من كل ما تقدم أن دعوى الكفار أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ أو من عند غيره من البشر دعوى ساقطة قد أبطلها القرآن، وبهذا التحدي قام البرهان على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه من أمر الرسالة، وعجزهم عن معارضة القرآن ملزم لهم بالإيمان بأنه من عند الله، وأمام هذا الشك في أمره مع أنه لو أخبرهم أن خيلاً وراء هذا الوادي ستغير عليهم لصدقوه لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً، ثم إنه قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين عامًا فلم يحدثهم بشيء من أمور النبوة: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٦).

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان:٧- ٨).

(١) فتح القدير،٢/٤.

اشتملت هذه الآية على خمس شبه أوردوها على رسول الله ﷺ طعناً في صفاته زاعمين أنها أمور تخلّ بالرسالة:

أ- أنه كان يأكل الطعام.

ب- أنه يمشي بالأسواق، واعترضوا على أكله الطعام لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكًا، وعيروه بالمشي في الأسواق فقالوا هذا يطلب أن يتملك علينا فما باله يخالف سيرة الملوك[1].

ج- أنه لم يكن معه ملك يشهد له ويصدقه ويرد من خالفه.

د- أنه لم يلق إليه كنز من السماء فينفقه فلا يحتاج إلى طلب المعايش.

هـ - وإذا لم يكن له كنز فلا أقل من أن يكون له بستان يأكل من ثماره، ثم أعقبوا هذه الشبهات بدعوى أنه رجل مسحور، وبطلان هذه الدعوى ظاهر لكل عاقل.

إن هذه الشبهات في غاية الضعف، ومع ذلك أبطلها القرآن، فرد الشبهة الأولى والثانية بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٢٠)، وبقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد:٣٨).

تلك هي سنة الله في رسله أن يجعلهم من البشر، إذن شأنه ﷺ كغيره من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لطلب المعيشة ويتزوج النساء ويكون له أولاد ولا يقدح ذلك في رسالته كما لم يقدح في رسالات الأنبياء السابقين.

(١) القرطبي.

والرسل الكرام وإن كانوا هم الصفوة من البشر إلا أن فطرتهم البشرية تجعلهم كغيرهم من البشر يحتاجون لما يقوّم حياتهم من الاستمتاع بأنعم الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون:٥١)، مهمتهم إبلاغ رسالات الله تعالى إلى من أرسلوا إليهم.

أما الرد على الشبهة الثالثة: فإنه قد ثبت بالمعجزات الظاهرة أنه رسول من عند الله، ومهمته تبليغ ما كلف به من الوحي وليس له أن يغير أو يبدل في أمور الرسالة ولا أن ينزل الملائكة أو الآيات إلا بإذن الله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ (الرعد: ٣٨)، فالله تعالى هو الذي يملك إرسال الرسل وإنزال الملائكة والكتب، فالأمر لله وحده.

أما الشبهة الرابعة والخامسة: فقد جعلوا ميزان السعادة والفضل أمورًا مادية، ويريدون من وراء ذلك الوصول إلى نتيجة خبيثة هي أن الله تعالى لو كان يحب رسوله لأعطاه الكنوز وكانت له الحدائق الواسعة الوارفة الظلال، وهذا خطأ ظاهر، فإن المكاسب المادية ليست برهانًا على السعادة والفضل، فالله تعالى يعطي الملك والمال والصحة للبر والفاجر، وأما الرسالة فلا تكون إلا لمن اختصه الله واصطفاه من خلقه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾(الأنعام:١٢٤).

ومع ذلك فإن تلك الأمور المادية سهلة ويسيرة على الله تعالى ولو شاء لوهبها لرسوله ﷺ، ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ (الفرقان:١٠)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٦).

عندما يرى الكفار من العرب حججهم تنهار وشبهاتهم تتلاشى تثور كوامن الأحقاد في أنفسهم فيهربون بما لا يعقل ولا يتفق مع المنطق السليم فيقولون عن محمد ﷺ: إنه مجنون، كما وصفوه بأنه ساحر أو مسحور، وبأنه ليس من عظماء القرشيين، أي مكة والطائف.

والسؤال الذي لابد منه هو: أن المجنون لا يعقل شيئًا وإنما يهذي بكلام لا يستند إلى منطق عقلي، ولا يكون عنده أسلوب يضم به أطراف الحديث فكيف أتى محمد ﷺ بهذا القرآن، الذي يتحدى الأجيال أن تأتي بمثله عبر القرون الغابرة؟ وهي وسيلة من وسائل التكذيب يستخدمها أعداء الرسل في كل زمان ومكان توجد فيه تلك الرسل، وقد نزل القرآن وفيه تسلية لرسول الله وإشعار بأن كل نبي تعرض لمثل هذه المفتريات، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (الذاريات:٥٢).

لقد طلب القرآن من هؤلاء الظالمين المكذبين أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا، الذي نشأ بينهم وترعرع على مرأى ومسمع منهم بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بالصدق والأمانة ورجاحة العقل، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ:٤٦).

لم يقف مشركو العرب وحدهم ضد رسالة محمد ﷺ فلقد لعب اليهود والنصارى أدوارًا مهمة في التكذيب والتشكيك، ولكن ما جاء به

رسول الله ﷺ من الحق قد يتفق مع الحق الذي بقي لديهم من التوراة والإنجيل وإنكار الحقائق والصفات والنواميس، التي تُبعث بها الرسل خشية أن يظهر منهم ما يؤيد رسالة محمد ﷺ ولكنهم لم يألوا جهدًا في الطعن والتشكيك في الرسالة وظهروا أمام الناس بمظهر المحافظ على عهود الله واحترام مواثيقه، فإنهم يقولون ما تركوا الإيمان بمحمد حسدًا له وإنما تركوا ذلك لأنه لم يأت بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبياً صادقاً في زعمهم.

ولقد حكى القرآن عن اليهود شبهتهم هذه، ورد عليها بما يدحضها فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (آل عمران:١٨٣).

وملخص هذه الشبهة أنهم قالوا: إن الله عهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتُقبلت منه أن تنزل نار من السماء فتأكلها.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم من واقع تاريخهم المظلم فقال: قل لهم يا محمد: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ أي بنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل؟ فقد نقض القرآن دعواهم وأبطلها، ومعنى هذا أن العلة التي توجب عندكم الإيمان بالرسل قد وجدت، فلم قتلتموهم؟

أما النصارى فالبراهين الملزمة لهم بتصديق محمد ﷺ كثيرة جداً، ومنها حادثة المباهلة مع نصارى نجران في مسألة المسيح بن مريم، عليه السلام، حيث بلغ النقاش في هذه المسألة ذروته، وعولجت المشكلة من جميع جوانبها وهم لا يزدادون إلا إصرارًا على رأيهم وأباطيلهم، فوجه القرآن نظر رسول الله ﷺ إلى أن يفض النزاع معهم ويلجأ إلى المباهلة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران:٦١).

وقد روي أنه لما دُعوا إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما خلوا مع بعضهم قالوا لحكيم لهم كان ذا رأي فيهم: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال: الله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فودعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم[1].

فعدول النصارى عن المباهلة اعتراف منهم برسالة محمد ﷺ وحتى قامت الحجة على صدق الرسول أو حصل الاعتراف به وجب تصديقه في كل ما يخبر به؛ لأن الرسول لا يجوز عليه الكذب، ولا يخطئ بما يكلف بتبليغه من الوحي، ولا تجوز عليه الخيانة فيما يبلغ عن الله تعالى.

أما شمول الرسالة المحمدية لعموم البشر، فلا يخلو الأمر إما أن يكون المخالف مؤمنًا بأنه مرسل من عند الله ولكن رسالته خاصة بالعرب

(١) تفسير ابن كثير، ٣٦٨/١.

كما تقوله العيسوية[1]، وهي فرقة من فرق اليهود، وإما أن يكون المخالف منكراً للرسالة جملة وتفصيلاً، فأما المعترف له بالرسالة فإنه يلزمه أن يصدقه في كل ما جاء به عن الله، ومن ذلك عموم رسالته ونسخها للشرائع قبلها حتى شريعة موسى، عليه السلام، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«لو كان أخي موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»** أما كونه يؤمن برسول ولا يصدقه فيما جاء به فهذا تناقض ومكابرة.

أما المنكر لرسالة نبينا محمد ﷺ مطلقًا فقد قام البرهان على صدق صاحب الرسالة ﷺ ولا تزال معجزاته تتحدى الثقلين، الجن والإنس، وهي القرآن في أن يأتوا بمثله، ومع ذلك نقوله له: إما أن تأتي بما ينقض المعجزة القائمة وإلا لزمك الاعتراف بمدلولها، فإن اعترف بالرسالة لزمه التصديق بكل ما أخبر به الرسول ﷺ وإن ذهب يكابر ويعاند ليأتي بقرآن مثل ما جاء به محمد ﷺ وقع في العجز لا محالة، فقد عجز أرباب الصنعة البلاغية، ولا شك أن غيرهم أعجز من هذا؛ لأنه معجزة خالدة وتحدي المعجزات تحد للقدرة الإلهية التي لا تغلب، فإذا لم ينقضوا المعجزة القائمة بما يماثلها، فقد شهدوا على أنفسهم بالعجز والفشل.

أما الأدلة من القرآن الكريم على عموم رسالة محمد ﷺ فمنها ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١).

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ (ص:٢٨).

---

(١) العيسوية نسبة إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، كان في زمن المنصور، وابتدأ دعوته في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، وادعى أن له آيات ومعجزات، وزعم أنه نبي وأنه رسول المسيح المنتظر، انظر الشهرستاني، الملل والنحل،١/٢١٥- ٢١٦.

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

٤- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧- ١٥٨).

والآية الرابعة لا تقبل الجدل في أن رسالة محمد ﷺ تشمل اليهود والنصارى لذكر التوراة والإنجيل ولأن السياق قبلها في بني إسرائيل ..

تلك معالم الرسالة المحمدية الخالدة، وإذا ظهر أدعياء الفكر الحديث من المستشرقين ومن تغذى بألبانهم وروجوا لدعاواهم في القرآن الكريم بأنه من قبيل الوحي النفسي فإننا نعلم يقينًا أنهم قد نسجوا على هذه الدسيسة ثوبًا أوهى من بيت العنكبوت، ولن تخفي عن ذوي العقول السليمة والبصائر النيرة تلك المطاعن المتهافتة، التي يضمرونها للطعن في القرآن الكريم ويدرسونها فيما يقدمونه للعالم من نتاج فكري يدعون فيه الإنصاف في القول والبحث عن الحقيقة، ولكنهم في بحوثهم تلك يدسون السم بالزعاف بشكل مقبول عند بسطاء الناس من ذوي الثقافة المحدودة، والحقيقة أن تلك الأفكار الجديدة التي يرتبها المستشرقون ويروجون لها ليست إلا إعادة لفكرة الجاهلية الأولى التي وقفت طويلاً أمام رسول البشرية وهاديها محمدﷺ، ولكن المفكرين من علماء الإسلام بحمد الله يدركون ما تنطوي عليه تلك

الشبهات المغرضة، ولقد أحسن الدكتور محمد عبد الله دراز في رده على ما يسمى اليوم بالوحي النفسي، الذي يزعمون فيه أن محمداً ﷺ كان يتخيل القرآن عن طريق ذلك التصور الفكري حيث قال: «ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم، وإن أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبته إلى نفس صاحبه، على اضطرابهم في تحديد تلك الحالة النفسية، التي صدر عنها القرآن: أشعر هي أم جنون أم أضغاث أحلام....»، ثم قال: «وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي»، زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد وما هو بجديد وإنما هو الرأي الجاهلي القديم لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله، فقد صوروا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذاً شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغي كثيراً على حواسه يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصًا يكلمه وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذاً الجنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعديلات فقد اضطروا أن يهجروا كلمة «الوحي النفسي» حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة فقالوا لعله تلقنها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة فهو إذاً قد علمه بشر، فأي جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثًا معادًا يضاهئون به قول جهال قريش؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه وكان غذاء هذه الأفكار المحتضرة في العصر الحديث مستمدًا من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ (البقرة:١١٨).

«وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله: إنه كان صادقاً أميناً وإنه كان معذورًا في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلهي؛ لأن أحلامه القوية صورتها له وحياً إلهياً فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣)، فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأشياء لا هو ولا قومه من قبل هذا بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا: إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل، ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون»[١].

وخلاصة رأي هؤلاء الماديين: أن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحي إليه لا من الخارج، وقد ذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» شبهات المنكرين لعالم الغيب على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ بما يسمونه بالوحي النفسي وذكر أن «أميل درمنجام» قد فصل الشبهة التي أجملها «مونتيه»، كما ذكر أن هذه الشبهة لها عشر مقدمات: منها دعوى الأخذ من بحيرا الراهب، والأخذ من ورقة بن نوفل، ودعوى انتشار النصرانية واليهودية في بلاد العرب..... الخ، وقد ناقش تلك الشبهات ورد عليها بمنطق الحجة والبرهان[٢].

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ وشمولها إذ لو ذهبنا نستقصي الأدلة ونناقش شبهات الخصوم لخرجنا من حد الاختصار.

---

(١) النبأ العظيم، ص ٥٩ – ٦٠.

(٢) انظر الوحي المحمدي، ص٨٧-١٤١.

المبحث الرابع

إثبات البعث والجزاء

الجدال في البعث والجزاء من الموضوعات المهمة التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم وتصارعت فيها الأفكار بين السلب والإيجاب، والبشرية بما هو مرتكز في فطرتها من حب البقاء تقاوم فكرة العدم المحض؛ لأنها تحس بالحسرة الصارخة عندما تختنق فيها بواعث الأمل باستمرار هذه الحياة الدنيا، فهي ترى مظاهر الموت على قدم وساق، حيث تسلب الحياة من هذه الأجساد ثم لا تلبث الأجساد أن تتحول إلى رفات ثم تتحلل إلى ذرات، فإذا كان مصير الإنسانية إلى هذا الفناء الرهيب، فما أبشعها من حياة محوطة بالمخاطر بين لحظة وأخرى، إنها رحلة تشدها الأحاسيس والمدارك إلى حفرة رهيبة في نهاية المطاف فتصبح فيها الأجساد رمة عفنة ينهشها الدود من كل مكان.

وقد جاءت الأديان السماوية مبشرة بحياة أخرى بعد الموت، وجعلت مصير كل إنسان مرتهناً بما قدمت يداه في الحياة الدنيا، وبذلك عاد للإنسانية نوع من الطمأنينة إذا هي آمنت بربها وما جاءت به رسله، وقدمت عملاً صالحاً تسعد به في حياتها الأخرى.

وإذا كانت جميع الأديان السماوية تدعو للإيمان بالحياة الأخرى والبعث بعد الموت فقد كانت الأديان السابقة تكل المؤمن إلى إيمانه الذي يفترض عليه التصديق بكل ما جاءت به رسل الله، عليهم الصلاة

والسلام، من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وختمت تلك الرسالات برسالة الإسلام الخالدة، وهي الرسالة العالمية وليس بعدها رسالة تبين للناس ما يختلفون فيه وما يستجد من حياتهم العقلية والحضارية، فلا بد أن تكون وافية بمطالب الروح والجسد في تعاليمها وهداياتها، ولا بد أن تكون براهينها قائمة على ما جاءت به من مبادئ وقيم لأن الجدل مرتكز في بني الإنسان جبله وطبعًا: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤).

ولما كان الإقناع بحياة أخرى بعد الموت من الأمور التي تشغل الفكر الإنساني فقد جاء القرآن الكريم وافيًا بالأدلة والبراهين القاطعة على البعث والجزاء، وعرض ذلك في نماذج حية وضمنها شبه المنكرين للبعث، ولم يتركها تمر دون مناقشة لها بالمنطق الصحيح وإبطال الشبه والملابسات بالبراهين العقلية التي تزيل فكرة الفناء الأبدي وتعيد للإنسانية طمأنينتها وتدفعها للعمل، وتحيي فيها آمال التسابق في الدرجات العلا في حياة أفضل.

والقرآن الكريم وهو كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:٤٢)، يرد على جميع المنكرين للبعث مهما اختلفت بيئاتهم أو تنوعت أساليبهم، يرد عليهم بمنطق الحجة والبرهان، ويقيم البراهين الحسية والعقلية على المعاد.

منهج القرآن في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه

ولقد نهج القرآن الكريم في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه منهجاً قوياً يجمع بين ما فطرت على النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس ويقع منها تحت تأثير السمع والبصر وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة، وتلك طريقة تميز بها القرآن الكريم مما لا تجده في كتب الحكمة النظرية.

وكان منهج القرآن في استدلاله على البعث كما يلي:

أولاً: الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم:

كما أخبر الله تعالى عن ذلك، ومنهم:

١- قوم موسى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:٥٥- ٥٦).. وقيل: إن الذين أخذتهم الصاعقة هم السبعون الذين اختارهم موسى، ذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، فأرسل الله إليهم ناراً من السماء فأحرقتهم ثم دعا موسى ربه فأحياهم، كمال قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[1].

٢- المضروب بعضو من أعضاء البقرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ

(١) انظر تفسير القرطبي،١/٤٠٣.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٧٢- ٧٣).. وقيل: إن المقتول ضرب ببعض من أعضاء تلك البقرة التي أمرهم الله أن يذبحوها كما قال موسى لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ (البقرة:٦٧)، فما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتًا كما كان[1].

٣- الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾(البقرة:٢٤٣).. وهؤلاء قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء ففروا هاربين، قال ابن عباس: «كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون، وقالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت فأماتهم الله تعالى فمر بهم نبي فدعا الله فأحياهم»[2].

٤- ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:٢٥٩).

والذي مر على القرية هو «عزير»، عليه السلام، قال ابن كثير في تفسيره: «وهذا القول المشهور.. والقرية المشهورة هي بيت المقدس مر عليها عزير بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها»[3].

---

(١) انظر تفسير القرطبي،١/٤٥٧.

(٢) انظر تفسير القرطبي،٣/٢٣٠.

(٣) انظر تفسير ابن كثير،١/٣١٤.

٥- سؤال إبراهيم، عليه السلام، عن كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٠).

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم، عليه السلام، هذا أسباباً منها: أنه لما قال للنمرود: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة»، وأما حديث «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾» فقد تقدم أنه لم يكن شاكًا في قدرة الله قطعًا.

أما قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، فقد روى ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل أربعه أجبل وقيل سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم، عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته»[1].

(١) انظر تفسير ابن كثير، ٣١٥/١.

٦- ما أخبر الله به عن عيسى، عليه السلام، من أنه كان يحيي الموتى بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾(آل عمران:٤٩).

٧- ما أخبر الله به من قصة أصحاب الكهف.

وهذه الأدلة المتقدمة أدلة مادية حسية، وقعت كلها لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا برهان قطعي على القدرة الإلهية، وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر فوجب القطع بذلك؛ لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته.

ثانيًا: الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى:

ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي:

١- قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾(الحج:٥- ٧).

في هذه الآيات دليلان على إمكان البعث: أحدهما دليل في الأنفس والآخر في الآفاق، فأما الدليل الذي في الأنفس فهو ما اشتمل عليه صدر

الآية وهو متعلق بالنشأة الأولى، وأما الدليل الآفاقي فهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ وهو الاستدلال بخلق النبات على إمكان البعث كما سيأتي، وإنما أوردنا الاستدلالين لنرى النتائج الخمس المذكورة بعدهما عليهما، وقد اشتمل الدليلان على مقدمات صحيحة في إمكان البعث، والدليلان هما:

أ- الاستدلال بخلقه الحيوان أولاً وهو موافق لما أجمله الله في قوله: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ (يس:٧٩)، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾(الإسراء:٥١)، فكأنه سبحانه تعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانيًا[1].

ب- الاستدلال بحال خلقه النبات على ذلك: وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ...﴾، ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة، وذكر أموراً خمسة:

١- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ والحق هو الموجود الثابت، فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع، وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأعراض المتنافية وتواردها على الأجسام دليل على وجود الصانع.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات؟

---

(١) الفخر الرازي،٧/٢٣.

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لا بد أن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة، ومن كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات، ومن كان كذلك فإنه لا بد أن يكون قادراً على الإعادة.

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾؛ والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة، وأنه تعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرًا على الإعادة في نفسها، وإذا ثبت الإمكان وأخبر الصادق عن وقوعه وجب القطع بوقوعه[١].

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لأنه خبر ممن ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته فوجب القطع بوقوعه أيضاً.

قال الفخر الرازي: «واعلم أن تحرير هذه الأدلة على الوجه النظري أن يقال الإعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها»[٢].

وقد أورد السيوطي في الإتقان: «أن الإسلاميين من أهل هذا العلم، يعني (المنطق) ذكروا في أول سورة الحج إلى قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات، وهي:

قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته منقول إلينا بالتواتر فهو حق، ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق، فالله هو الحق، وأخبر تعالى أنه يحيي الموتى، لأنه أخبر عن أهوال الساعة

---

(١) الفخر الرازي، مع بعض التصرف،٢٣/٩-١٠.

(٢) الفخر الرازي،٢٣/١٠.

بما أخبر، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التي يعملها من أجلهم، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء، ومن الأشياء إحياء الموتى فهو يحيي الموتى.

وأخبر أنه على كل شي قدير؛ لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شي قدير، فهو على كل شي قدير.

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها؛ لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ثم يعيده بالبعث وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ثم أماتها بالمحل ثم أحياها بالخصب، وصدق خبره في ذلك كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب حتى انقلب الخبر عياناً صدق خبره في الإتيان بالساعة ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور؛ لأنها عبارة عن مدة يقوم فيها الأموات للمجازاة، فهي آتية لا ريب فيها، وهو سبحانه يبعث من في القبور[1].

وهذا الكلام الذي أورده السيوطي هنا لا يخلو من ضعف نظري:

وقد انتقده العلامة الألوسي فقال ما نصه: «هذا وفي الإتقان للجلال السيوطي أن الإسلاميين من أهل المنطق ذكروا في أول سورة الحج إلى قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات ثم بين ذلك بما يقضي منه العجب ويدل على قصور باعه في ذلك العلم[2].

(١) السيوطي، الإتقان،٤/٥٢-٥٣.

(٢) تفسير الألوسي، ١٧/١٢١.

ولم يترك الإمام الألوسي الكلام يمر على علاته بل حاول أن يرتبه ترتيبًا منطقيًا فقال: وقد يقال في بيان ذلك أن النتائج الخمس هي الجمل المتعاطفة الداخلة في حيز الباء: واستنتاج الأولى: بأنه لو لم يكن الله سبحانه هو الحق أي الواجب الوجود لذاته لما شوهد بعض الممكنات من الإنسان والنبات وغيرها والتالي باطل ضرورة فالله تعالى هو الحق، ودليل الملازمة برهان التمانع.

واستنتاج الثانية: بأنه لو لم يكن سبحانه قادرًا على إحياء الموتى لما طور الإنسان في أطوار مختلفة حتى جعله حيًا وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، والتالي ضرورة أن الخصم لا ينكر أنه تعالى أحيا الإنسان وأحيا الأرض، فالله قادر على إحياء الموتى ووجه الملازمة ظاهر.

واستنتاج الثالثة: بأنه إذا كان الله تعالى قادراً على إحياء الموتى فهو سبحانه على كل شي قدير، لكنه قادر على إحياء الموتى فهو على كل شي قدير، ووجه الملازمة أن المراد من الشيء الممكن، وإحياء الموتى ممكن، والقدرة على بعض الممكنات دون بعض تنافي وجوب وجوده تعالى الذاتي، وأيضاً إحياء الموتى أصعب الأمور عند الخصم المجادل حتى زعم أنه من الممتنعات، فإذا ثبت أنه سبحانه قادر عليه بما سبق وثبت أنه تعالى قادر على سائر الممكنات بالطريق الأولى.

واستنتاج الرابعة: بأن الساعة أمر ممكن ووعد الصادق بإتيانه وكل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فالساعة آتية، أما أن الساعة أمر ممكن فلأنه لا يلزم من فرض وقوعها محال، وأما أنها وعد الصادق

بإتيانها فالآيات القرآنية المتحدى بها، وأما أن كل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فلاستحالة الكذب.

واستنتاج الخامسة بنحو ذلك[1].

وكلام الألوسي جيد إلا في تعليقه على استنتاج الثالثة: فلا أدري هل حدث ذلك سهوًا حيث أسقط بعض الحروف وزاد بعض الكلمات أم أنه وقع فيما يذكر أنه وقع فيه السيوطي قبله، فالكمال لله وحده.

ويمكن أن يستقيم كلام الألوسي إذا تصرفنا في العبارة، فيكون الترتيب هكذا: واستنتاج الثالثة: بأنه لو لم يكن الله تعالى قادرًا على إحياء الموتى لما كان على كل شي قدير، لكنه قادر على إحياء الموتى فهو على كل شي قدير... الخ.

أما انتقاده للسيوطي في الكلام السابق فإن فيه نظراً لأن السيوطي لا يلام إذا كان الكلام الذي أورده في الإتقان لغيره فإنه حينئذ يكون ناقلاً وليس على الناقل من عهدة إلا الصحة في النقل، والذي يدل على أن السيوطي كان ناقلاً ذلك الكلام عن ابن أبي الأصبع أمور ثلاثة:

أ- أن ذلك الكلام الذي انتقده الألوسي جاء في سياق نقل السيوطي عن أبي الأصبع حيث قال ما نصه: وقال ابن أبي الأصبع: زعم الجاحظ أن المذهب الكلامي لا يوجد منه شي في القرآن وهو مشحون به... الخ، ولم يرد في السياق ما يدل على انتهاء كلام ابن أبي الأصبع واستئناف كلام جديد.

ب- أنه قال بعد انتهائه من ذلك الكلام الذي هو موضع نقد الألوسي ما نصه «وقال غيره: استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسماني بضروب...

---

(١) تفسير الألوسي، ١٧/١٢١.

الخ فكلام السيوطي ظاهر بأنه لا يزال في نقل كلام ابن أبي الأصبع، إلى قوله: «وقال غيره يعني غير ابن أبي الأصبع».

ج- أن الكلام الذي نقله السيوطي في الإتقان موجود في كتاب «بدائع القرآن» لابن أبي الأصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤هـ وقد نقله عنه السيوطي حرفيًا (انظر بدائع القرآن، بتحقيق الدكتور حفني شرف، مطبعة الرسالة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧م، ص٣٧ – ٣٩)، فتأمل هذا والعلم عند الله تعالى.

٢- قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس:٧٨- ٧٩).

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته يذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار**» ونزلت هذه الآيات من آخر يس.

وروي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي هذه الله بعدما ترى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم**» قال: ونزلت الآيات من آخر يس.

وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث؛ ذكره ابن كثير[1].

(١) تفسير ابن كثير،٣/٥٨١.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في قول الله تعالى حكاية عن منكر البعث: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ قال: إنه قياس حذفت إحدى مقدمته لظهورها والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، وهذا الاستفهام إنكار متضمن للنفي، أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم، قال كونها رميمًا يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها، ولنحو ذلك من الشبهات.

والتقدير: هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم، فلا أحد يحيها، ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء، فبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ وقد أنشاها من التراب، ثم قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء أو استحال[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء:٤٩- ٥١).

إن شبهات المنكرين للبعث تكاد تكون متجانسة، لأنها تدور حول استبعاد جميع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة الحياة إليها بعد فنائها، وهذه الشبه لا تكون إلا بالقدح في كمال علم الله المحيط بكل شيء وكمال

(١) درء تعارض العقل والنقل (مطبعة دار الكتب،١٩٧١م)١/٣٣.

قدرته على كل شيء، وقد قام البرهان على كمال العلم والقدرة لله تعالى، فلا وجه للاستبعاد والاستغراب بعد ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني به أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حالة كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادتكم حتى لو تحولتم إلى حجارة أو حديد، فالله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى، مع أن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمة وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة.

وفي قوله ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على الثانية، وهذا هو الشاهد من الآية، أما قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ فهو سؤال فاسد كما ذكره الرازي؛ لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها ثم إن الله تعالى بين البرهان الباهر كونه ممكنًا في نفسه فقولهم ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ كلام لا تعلق له بالبحث الأول فإنه متى ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه، فأما أنه متى يوجد فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية، فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف وإلا فلا سبيل إلى معرفته[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم:٢٧)، في هذه الآية

(١) انظر الفخر الرازي،٢٠/٢٢٦. .

استدلال على البعث بالقياس الأولوي، وفي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ضرب مثل؛ لأنه لا يوجد بالنسبة لله تعالى شيء هو أسهل وشيء هو أصعب وإنما المقدورات عندنا متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيلاً منا، وإيجاد شيء من شيء ممكنًا استعارته كلمة افعل، وضرب ذلك مثلاً ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من شيء، قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضا والغضب، وكل صفة وصف بها الإنسان من ذلك فإن لله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله وعظمته وللمخلوق ما يليق بعجزه وضعفه.

٥- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٦- ٦٧).

بهذا المنطق الصحيح والبرهان القاطع يرد القرآن الكريم على ذلك المنكر ويجادله في أسلوب هادئ محكم فيلزمه الحجة الواضحة في أقل من نصف سطر، وفي الآية كما ترى استدلال على المعاد بالنشأة الأولى.

ثالثاً: الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان:

وذلك مثل السموات والأرض فإن خلقها أعظم من خلق الإنسان، ومن الآيات الدالة عليه ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ (الإسراء: ٩٨- ٩٩).

٢- قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (يس:٨١).

٣- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(الأحقاف: ٣٣).

وجميع الآيات السابقة وما في معناها من الآيات أكبر برهان على قدرة الله المطلقة التي لا تقيد بقيود ولا تنتهي عند حدود، فإن تلك الآيات الكونية مما هو معروف ببداهة العقول أن خلقها أعظم من إعادة خلق الإنسان.

رابعاً: الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة:

ومن الآيات ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٧).

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ (فاطر:٩).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:٣٩).

٤- قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (الرعد:٤- ٥).

وفي الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال النباتات من حياة إلى موت فحياة. وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية فلو كان مستحيلاً إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها؛ لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى، ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ...﴾ إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث، ومعناه: إن كان لك عجب من شي فمن إنكارهم البعث، فأعجب لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه وليس البعث مما ندر وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له

والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى[1].

خامسًا: الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين:

فإن الإحياء بعد الموت لا يستنكر من حيث إنه يحصل الضد بعد حصوله الضد إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى؛ لأنه لما جاز حصول الموت عقيب الحياة فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد، قال تعالى مقررًا لهذا المعنى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الواقعة: ٦٠).

سادسًا: الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر:

١- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠).

٢- قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ (الواقعة: ٧١- ٧٢).

وفي الآيتين السابقتين استدلال بتولد النار مع حرها ويبسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته.

قال الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾: «ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به حياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة

(١) انظر ابن الحنبلي، استخراج الجدال من القرآن الكريم، مخطوطة، ص ١٤.

فيه فلا تستبعدوه، فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب، وأنتم تحضرون حيث منه توقدون، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدون، فإن الله خلق السموات والأرض»[1]، وفي هذا عبرة عظيمة فإن الله تعالى جمع في الشجر الأخضر بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ...﴾ أما أن يراد من شجرة النار الشجرة التي توري النار منها بالزند، والزند كالمرخ والعفار، أو يراد بها الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار، ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح وتشب بالنفخ، فالحجر والشجر كالقبر والقدح والنفخ كالنفخة في الصور.

وقد تحدث فلاسفة الإسلام عن إمكان البعث وأبرزوا ذلك في دراساتهم النظرية ولكنهم يجدون بغيتهم في القرآن الكريم بأوجز عبارة وأحكم برهان، ولا غرابة إذا رأينا الفيلسوف الكندي متأثرًا بتلك البراهين في دراسته للتفسير من الناحية النظرية.

فقد تحدث عن الآيات التي في آخر سورة يس، كما نقله عنه الأستاذ أبو ريدة، حيث قال في تفسير الكندي لهذه الآيات: يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى، وهي:

---

(١) تفسير الرازي،٢٦/١١٠.

١- وجود الشيء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو أصعب، هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

٢- ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن واقع تحت الحس، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى، وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو: أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق، هذا الدليل موجود في آية: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، وقد انتفع به الأشعري في إمكان البعث.

٣- خلق الإنسان أو أحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن وهذا هو مضمون آية: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٤- الخلق والفعل مطلقًا مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان، خلافًا لفعل البشر الذي لا يتم إلا في زمان ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل، وهذا هو معنى آية: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢).

وهذه الآية في رأي الكندي إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان

يناسب عظمته قياسًا منهم لفعل الله على فعل البشر، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلهي وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زماني.

فأي بشر – كما يقول الكندي – يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جل وتعالى إلى رسوله ﷺ فيها من إيضاح أن العظام تحيا بعد أن تصير رميمًا، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض، وأن الشيء يكون من نقيضه، كلّت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة، وقصرت عن مثله نهايات البشر، وحجبت عنه العقول الجزئية[1].

سابعاً: الاستدلال على إمكان البعث بأن اختلاف الناس في الدنيا لا يرتفع:

«واختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه»، فوجب أن يكون هنا معاد ينحسم فيه النزاع ولا يكون ذلك ألا بين يدي الحي القيوم، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (النحل: ٣٨- ٣٩).

وقد أورد السيوطي في الإتقان قول ابن السيد في الآيتين السابقتين «وتقريرهما أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق في نفسه واحد، فلما ثبت أن ها هنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف

(١) رسائل الكندي، ٥٧-٥٨.

عليها وقوفًا يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف إذا كان الاختلاف مركوزاً في فطرنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد، وهذه هي الحالة التي وعد الله بالمصير إليها، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ (الأعراف:٤٣)؛ أي حقد فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث ينكره المنكرون»[1].

فكل خصومة لا بد لها من منتهى في موقف ينقطع فيه الجدال بالباطل ويذهب فيه عنفوان المكابرة والعناد، وهذا الشعور الوجداني هو الذي يشعر به كل مظلوم وينتظر ساعة الفصل العادلة إذا لم يحصل على إنصافه في الدنيا «وعند الله تجتمع الخصوم».

ثامنًا: الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء:

فإن الله تعالى لم يخلق الناس عبثًا ولن يتركهم سدى، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة:٣٦)، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥)؛ فعدل الله وحكمته وإحقاقه الحق وإبطاله الباطل وإعطاؤه لكل ذي حق حقه وتمييزه بين الخبيث والطيب والمحسن والمسيء كل ذلك يأبى إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا، ينال فيه كل إنسان جزاءه وما يستحقه من الثواب والعقاب على ما قدم من خير أو شر.

---

(١) السيوطي، الإتقان،٤/٥٤.

فإننا نرى أناسًا يفارقون الدنيا وهم ظالمون لم يقتص منهم، ونرى أناساً آخرين يفارقون الدنيا مظلومين لم ترد إليهم مظالمهم، ونرى أشراراً في الدنيا منعمين ونرى أخياراً فيها معذبين، فإذا ذهب كل إنسان بما فعل إن ظالماً أو مظلوماً، محظوظاً أو مهضوماً، كان ذلك خدشًا في عظمة الألوهية وعدلها وقضائها فلا بد إذن من يوم يحضر الجميع فيه بين يدي الله ليقتص من الظالم للمظلوم، ولينال كل من المحسن والمسيء جزاءه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧)، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١).

ولهذه المعاني قال بعض الحكماء: «ثبت أن الله عز وجل حكيم، والحكيم لا ينقض ما بنى إلا لحكمة أتم من حكمة النقض ولا يجوز أن تكون انقص ولا مماثلة على ما لا يخفي»[(١)].

تاسعًا: الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم:

فإن النوم أخو الموت واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:٦٠)، ذكر عقبه أمر الموت والبعث فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ

(١) استخراج الجدال من القرآن، ص ١٤.

عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ (الأنعام:٦١- ٦٢).

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر:٤٢).

والمراد منه الاستدلال بحصــول هذه الأحـوال على صحـة البعث والحشر والنشر، كما ذكره الرازي وغيره.

نحو قراءة كونية لكتاب الله

الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند (*)

تحتاج الأمة الإسلامية إلى مؤلفات ترشدها إلى العلوم الكونية التي نبه إليها القرآن الكريم باعتبارها مفتاحًا للنهضة والتقدم الحضاري، وباعتبارها علومًا شرعية نتقرب بها إلى الله.. إن اهتمام القرآن بعالم الشهادة يعتبر دعوة ربانية لكل ذي عقل ليبحث ويكتشف ويحسن توظيف الكون أداءً لأمانة الاستخلاف.

تمهيد:

إنها فرصة طيبة أن تجئ هذه المناسبة على موعد مع الصحوة التي تعيشها الأمة الإسلامية كرد فعل لحالة الاستضعاف المصاحبة للاستعمار الغربي للعالم الإسلامي شرقًا وغربًا؛ نعم إنها فرصة طيبة لكي نحيي الأمل المفقود، ونعيد إلى الأمة الوعي بالذات المستلبة، أن تعيد الأمة قراءة كتابها الكريم بوعي وتدبر وفقه لما تقرأ.

(*) باحث أكاديمي، أستاذ الفلسفة الإسلامية جامعة القاهرة (مصر).

وسوف أقتصر في كلمتي على الإشارات القرآنية إلى عالم الشهادة، وكثرة هذه الإشارات، مع غفلة المسلمين عنها، إنها دعوة لكي نقرأ القرآن الكريم قراءة كونية نقف خلالها على عناية القرآن الكريم بالكون ومفرداته باعتبار ذلك مفتاحاً لنهضة الأمة، وباعتباره تكليفاً شرعيًا بالأمر الإلهي، فضلاً عن أن قراءة الكون واكتشاف قوانينه مقام من مقامات التعبد والتقرب إلى الله كالصلاة والزكاة، ففي عالم الشهادة تتجلى كلمات الله الكونية (كن) في شكل القوانين والحقائق العلمية؛ والمسلم مكلفٌ شرعًا بالكشف عنها والإفادة بها.

وفي عالم الشهادة تتجلى سنن الله في انتظام الممالك وانهيارها؛ والحاكم المسلم مكلفٌ باكتشاف هذه السنن من وقائع التاريخ، ليعرف أسباب انتظام الممالك وأسباب انهيارها، وهي تدور بين تحقيق العدل وانتفاء المظالم وصون الحقوق وأدائها لأصحابها والحفاظ عليها.

وفي عالم الشهادة تتجلى للمفكرين والفلاسفة صفات الخالق وآثارها في صنعته من الحكمة والإتقان والقدرة والعلم ... مما ينتفي معها القول بالصدفة أو العبثية.

وفي عالم الشهادة تتجلى مظاهر عناية الله بالإنسان، ورحمته به، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك كله، وكلَّف المسلم بمعرفته كمدخل واقعي للتعرف على الله.

إن اهتمام القرآن بعالم الشهادة يعتبر دعوة ربانية لكل ذي عقل أن يتأمل ويبحث ويكتشف ويسخِّر ويعمر ويحسن توظيف الكون أداءً لأمانة الاستخلاف، ووظيفة ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ .. فهل أجاب المسلمون دعوة الله لهم للبحث العلمي في عالم الشهادة؟

ألا فليعلم المسلمون أن مفاتيح النهضة التي ينشدونها تكمن هاهنا، في إجابة الدعوة القرآنية للعلم الكوني.

ألا فليعلم المسلمون أن قاطرة التقدم تكمن هنا، في دعوة القرآن للأخذ بمفاهيم العلم الكوني وإنتاج المعرفة.

ألا فليعلم المسلمون أن قراءة الكتاب المنظور أمر إلهي نزل به كتاب الله المسطور ...

والسؤال المحير: لماذا تخلى المسلمون عن قراءة هذا الكتاب الكوني، وتركوه لغيرهم، فقرأوه واحتكروا قراءته وحرموا علينا الإفادة منه؟

لماذا تركنا أنفسنا عالة على غيرنا، نتسول منه لقمة الخبز؟ يتحكم بها في مصيرنا كما نتسول منه العلوم الكونية؟

إن هذه الدراسة المتواضعة والسريعة أشبه بالآهات التي ينفثها العليل تعبيرًا عن إحساسه بالألم يعتصره من وضع الأمة الإسلامية وتخلفها العلمي والحضاري في الوقت الذي تدين بدين العلم، وتقرأ فيه كتاب ربها، الذي يجعل العلم فريضة، وتمتلك فيه مقومات النهضة من العقول الواعية والأرض والثروة والأيدي العاملة، ومع كل هذه المقومات الحضارية يؤثرون التسوُّلَ من على موائد اللئام، ابتداءً من رغيف الخبز وحبة القمح، وانتهاءً بالآلة والمصنع!

أليس في الأمة رجل رشيد، يوجِّه أصحاب الأموال إلى تأسيس مراكز علمية تقود الأمة إلى المستقبل؟

أليس في الأمة من يملك الإرادة الفاعلة لتحويل الخطب العصماء وقرارات المؤتمرات إلى عمل علمي تجني الأمة ثمرته؟

أليس في الأمة مسؤول يحوِّل إرادة العلماء وجهودهم إلى طاقة فاعلة، فنأكل مما نزرع، ونلبس مما ننسج، ونصنع أدواتنا بأيدينا؟

إنها قضية أمة وليست قضية فرد، وينبغي أن يتحمل مسؤوليتها أصحاب القرار السياسي وأصحاب الكلمة من العلماء.

والله من وراء القصد.

بين آيات الله القولية وآياته الفعلية

نريد في هذه الدراسة أن نعرض موقف القرآن الكريم من العلوم الكونية التي جسدها في حديثه عن عالم الشهادة، ونقارن بينه وبين عرض القرآن لمسائل الاعتقاد على المؤمن، وهي كلها مسائل تنتمي إلى عالم الغيب بينما تنتمي مسائل العلوم الكونية إلى عالم الشهادة. ثم نترك للقارئ الحرية في المقارنة التي أراها ضرورية بين الموقفين.

أ- موقف القرآن من عرض قضايا العقيدة ومقصوده منها، وكيف كان عرضه لها مجملاً بعيدًا عن التفصيلات والتفريعات التي وجدناها في علم الكلام، ثم مقارنة ذلك بموقف المتكلمين.

ب- موقف القرآن الكريم من عالم الشهادة ومقصوده من الحديث عن مفردات هذا الكون وعرْضها على عقل المؤمن، ولماذا ختم آياته الكونية بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(البقرة:٢٢١)، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩)، ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٦٥). ثم مقارنة ذلك بموقف المتكلمين أيضًا، لنرى الفرق الكبير بين الموقفين، كيف كان حديث القرآن عن عالم الشهادة أكثر تفصيلاً وحديث المتكلمين عنه أكثر إجمالاً، وكيف كان حديث القرآن عن مسائل العقيدة مجملاً بعيدًا عن التفصيلات، بينما كان حديث المتكلمين عنها أكثر تفصيلاً وتفريعًا.

ج- ثم لابد من طرح السؤال: ألسنا في حاجة إلى إعادة القراءة لعلم الكلام على نحو يحقق مقاصد القرآن وأهدافه من حديثه عن

عالم الشهادة وحديثه عن عالم الغيب ومسائل الاعتقاد معًا؟ وكيف جاء حديث القرآن عن مسائل الاعتقاد مجملاً بعيدًا عن التشقيق والتفريع وإثارة الخلافات في الوقت الذي كان حديث المتكلمين عنه يميل إلى التفصيلات والتفريعات التي أثارت الشقاق والخلاف بين الفرق الإسلامية؟

إن مطلوب القرآن وأهدافه من الحديث عن عالم الغيب عمومًا ومسائل العقيدة خاصة هو الإيمان بها والاعتقاد فيها والاستدلال على صحتها دون البحث فيها أو تفصيل القول فيها لعلم الله السابق أن العلم بتفصيلاتها فوق مدارك العقول، ولذلك لم يطلب القرآن من المؤمن أن يبحثها بمنطق العقل ليعرف كنها أو كيفها أو حقيقتها، وكفاه من العقل أن يستدل به على صحة الخبر الذي جاء به الوحي عنها، فإذا ما صح له الخبر عن ذلك الغيب فقد وجب الإيمان به، ما دام قد صح عنده دليل صحة الخبر في نفسه.

هذه الأسئلة وغيرها تمثل المحور الأساس لهذه الدراسة المتواضعة التي أرجو من طرحها أن أفتح الباب لطلاب العلم أن يناقشوها بشيء من الأناة والتروي يحدوهم نبل المقصد وتصحيح المسار، إن شاء الله.

- الحاجة للقراءة:

تحتاج الأمة الإسلامية في عصرنا الراهن أن تقرأ؛ القرآن الكريم قراءة كونية تضاف إلى القراءات المتعددة التي قام بها علماؤنا، قديمًا وحديثًا، فلقد امتلأت المكتبة الإسلامية بكتب التفسير، التي اهتمت بالقراءة الفقهية والبلاغية والنحوية للقرآن الكريم، لكننا نحتاج الآن بالإضافة إلى ذلك مؤلفات تهتم بالقراءة الكونية لكتاب الله، مؤلفات ترشد الأمة إلى العلوم الكونية التي نبه إليها القرآن الكريم باعتبارها مفتاحًا للنهضة

والتقدم الحضاري، وباعتبارها علومًا شرعية نتقرب بها إلى الله، ونتعبد بها في محراب العلم، كما نتقرب إليه سبحانه بالصلاة والصيام.

لقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ بنوعين من الآيات:

آيات الله المقروءة: القرآن الكريم، وكانت أول آية فيه تشير إشارة واضحة إلى قراءة آيات الله الكونية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ (العلق: ١ ـ ٣)، جاء الأمر بالقراءة المباشرة للكون: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وأن تكون القراءة باسم ﴿رَبِّكَ﴾؛ لأن الخلق والمخلوق من متعلقات الربوبية، نزلت الآية الأولى من القرآن الكريم: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وهي آية الله القولية لتأمرنا بقراءة آيات الله الفعلية الكونية ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وتأمرنا بأن يكون الكون، الذي خلقه الله، موضوعًا للقراءة العقلية، مفعولاً للفعل ﴿ٱقْرَأْ﴾، وفي ذلك إشارة مباشرة إلى ضرورة قراءة الكون الذي هو (آيات الله الفعلية) ونتقرب إلى الله بقراءة الكون تمامًا كما نتقرب إلى الله بقراءة القرآن الكريم الذي هو (آيات الله القولية)، وأن الربط بين القراءتين مطلب قرآني وأمر إلهي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

والقرآن الكريم قد سمى هذا الكون آية، وسماه آيات، وسمى كل جزء فيه آية، كما سمى القرآن نفسه آية، وسمى كل جزء فيه آية، ومعلوم أن الآية القرآنية نحن مطالبون بتلاوتها، والتقرب إلى الله بالاستماع إليها، وحسن تلاوتها، وتدبر معانيها، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ، وَمَنْ تَلاَهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(١).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

والقرآن الكريم هو الذي عرض علينا آيات الله الكونية، وأمرنا بحسن قراءتها والتأمل فيها باعتبارها آيات الله الفعلية، وباعتبارها التجربة العملية لتطبيق سنن الله في كونه، وباعتبارها مجرى قوانينه في التعمير والتسخير، تعمير الأرض كما أمر بذلك القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، وتسخير الكون لصالح الإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (لقمان: ٢٠).

وهاتان الوظيفتان (التعمير والتسخير) لا يمكن القيام بهما إلا إذا أحسن المسلم قراءة آيات الله الكونية، كما أمرنا بذلك القرآن الكريم، وأن تكون قراءة عالم الشهادة باسم ربك الذي خلق، أن تكون قراءة عالم الشهادة المخلوق باسم ربك الخالق. وليس باسم المادة، ولا باسم الصدفة، ولا باسم الطبيعة، ولا باسم الأقوال العبثية، وكما أن قراءة الآيات القولية أمر إلهي نتقرب به إلى الله فإن قراءة آيات الله الكونية أمر إلهي كذلك ينبغي ممارستها تقربًا إلى الله، ولا ينبغي أن يفهم أحد أن قراءة أحدهما تكون بديلاً عن الآخر لإقامة النهضة؛ لأن آيات الله المقروءة التي نزل بها الوحي على قلب النبي ﷺ هي التي أمرت المسلم بقراءة آيات الله المنظورة في هذا الكون، ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم إلى عالم الشهادات؛ ليكون موضع تدبر وتذكير وتذكر وتفكير وتفكر، ليكون النظر في هذا العالم المشهود بالحواس مدخلاً للتعرف على الخالق من خلال التعرف، بأسلوب علمي ومنهج دقيق، على صنعته ومظاهر التدبير والتقدير، وظواهر ربط الأسباب بالمسببات، حيث يرون في قانون السببية إشارة إلى حكمة الخالق فيما خلق، وحسن ربط الأسباب بالمسببات بمفاتيح الغيب

التي لا يعلمها إلا هو، وبذلك يكون بين يدي المسلم كتابان للتعرف على الله، وعلى قوانينه، والتعرف على تجليات صفاته العليا وأسمائه الحسنى.

الكتاب الأول منهما القرآن الكريم، هذا الكتاب المقروء، والذي يشير في آياته الكريمة إلى المنهج الرباني، الذي وضعه الخالق؛ لتستقيم به حياة المسلم على مستوى علاقته بنفسه، وعلى مستوى علاقته بالمجتمع، وعلى مستوى علاقته بالكون وما فيه، ثم على مستوى علاقته بالله ربًّا خالقًا وإلهًا معبودًا، وذلك من خلال أوامر القرآن ونواهيه ووصاياه الأخلاقية، ومن خلال القصص الواردة في القرآن؛ لتكون بمثابة الدرس العملي؛ لنستخلص منها العبرة التاريخية، التي نعيش بها حاضرنا، ونستضيء بها لمستقبلنا.

الكتاب الثاني، وهو كتاب الله المنظور، هو هذا العالم الكوني، هو عالم الشهادة، من سمائه إلى أرضه، بما فيه من نجوم وشموس وأقمار وكواكب ومجرات، وبما في الأرض باطنًا وظاهرًا، من الإنسان والحيوان والنبات والجماد والحشرات، وما علمناه من هذا العالم مما هو خاضع لمداركنا الحسية والعقلية، وما غاب عنا مما لم ندركه من هذا العالم. كل ذلك آية وآيات محسوسة لنا ومنظورة لأعيننا، وكما أن كتاب الله المسطور والمقروء آية وآيات نعيشها بقلوبنا وعقولنا، فإن الكون هو كتاب الله المنظور بحواسنا الخاضع لسلطان عقولنا، وهذان الكتابان يرتبط أحدهما بالآخر برباط وثيق، أشار إليه القرآن الكريم في العديد من آياته الكريمة. وكتاب الله المقروء القرآن الكريم هو الذي أمرنا بضرورة قراءة كتاب الله المنظور، وهو الذي سماه آية، وسمى ما فيه من مظاهر وظواهر آيات، وأمرنا بقراءة هذه الآيات بإعمال العقل فيها تدبرًا وتأملاً؛ لنحسن تسخيره وتعميره لصالح الإنسان.

- كتاب الله المنظور:

لقد نزل القرآن الكريم أول ما نزل منه في مكة المكرمة، ومكث الرسول ﷺ بها ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى دين الله، ويبلغهم أصول العقيدة الإسلامية، التي تأسست أركانها وتم بناؤها في مكة، وكان تأسيس العقيدة الصحيحة هي الهمّ الأكبر الذي شغل به الرسول ﷺ في مكة؛ لأن بناء العقيدة الصحيحة في قلب المؤمن هي أساس البناء السليم للفرد وللمجتمع معًا؛ لكي يصبح القلب متفتحًا لقبول أوامر الله ونواهيه من الصلاة والصيام والزكاة والحج والانتهاء عن كل ما نهي عنه، وما لم يصح أساس البناء فلن يصح بالتالي إقامة بناء عليه، وإنما يكون مآله إلى الهدم؛ لأن ما لا أساس له فإن مصيره إلى الضياع.

ولعل من هنا نستطيع أن نفهم السر في أن القرآن المكي كان موجهًا في الكثير من الآيات إلى ترسيخ عقيدة الإيمان بالله ورسوله؛ عقيدة الإيمان بالبعث واليوم الآخر؛ عقيدة الإيمان بالنبوة والوحي؛ عقيدة الإيمان بما صح من كتب الله السابقة كالتوراة والإنجيل وألواح موسى وزبور داود.

خاطب القرآن الكريم أهل مكة بأصول الاعتقاد باعتبارهم الجيل الأول الذي تلقى الخطاب عن الرسول ﷺ، وعاصر نزول الوحي وعايشه، ومن فضل الله ورحمته بهم أنه خاطبهم بآياته القولية النظرية التي نبهتهم وأرشدتهم إلى قراءة آيات الله في أفعاله الكونية، تأمرهم بقراءة أفعاله في كونه، وتدبر آياته المنظورة لهم والمشهودة بأعينهم في هذا العالم:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧- ٢٠).

هذه الآيات الكونية التي تشكل بمفرداتها البيئة المحيطة بهم في صحراء مكة من الأرض والجبال والنبات والحشرات والحيوان والأفلاك، فلم تسرح بهم الآيات في تهويمات عقلية ولا خيالات فلسفية، وإنما نبهتهم إلى النظر في البيئة التي يعيشونها: لأن القراءة الصحيحة لهذه الآيات الفعلية المحيطة بهم في هذا الكون سوف تقودهم – إن صحت القراءة – إلى الإيمان بآيات الله القولية في القرآن الكريم أن يؤمنوا بأن محمدًا ﷺ نبي الله ورسوله، أن يؤمنوا بالبعث بعد الموت.

والمطلوب من القارئ لآيات الله الكونية في هذا العالم أن يخلص العقل من الشكوك والأوهام لتكون القراءة صادقة وصحيحة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٣ - ٤) وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

فالقراءة الصحيحة شرطٌ للوصول إلى الفهم الصحيح والنتائج المطلوبة، وهذا كان موضع حرص شديد واهتمام كبير من الخطاب القرآني لكل قارئ أو راغب في القراءة، فجاءت الآيات القرآنية تعدد آيات الله الكونية على العقل الخالي من الشبهات، وتذكر المسلم بها، ثم تختم الآية بهذا اللون من الخطاب الإرشادي: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل:٧٩)، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٦٤)، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد:٣)، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر: ٢١).

ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم وأوامره للمسلم أن ينظر في عالم الشهادة، وأن يتأمل مفرداته وأنواعه، وأن يجول بناظريه في هذا العالم، من سمائه إلى أرضه، وأن يعتبر هذا العالم معرضًا تعرض فيه الصنعة الإلهية بكل أنواعها ومفرداتها، ثم يتأملها العقل المسلم، وأن يقرأ كل عقل منها على قدر استطاعته من المواد للتأمل والتدبر، وأن يقارن بين أوامر القرآن النظرية، التي أمرتنا بتدبر هذا العالم باعتباره آيات الله الفعلية ليجد أن هذا العالم أشبه بالمعمل، الذي يتخذه العالم محرابًا لإجراء تجاربه العلمية؛ ليصل من هذه التجربة إلى اليقين الذي يريده.

نعم ما أشبه هذا العالم بالمعمل، الذي تمثل كل مفرداته تجربة حية يؤسس عليها يقين المسلم، وعلى القارئ لهذه الآية أو تلك أن يحسن القراءة، كما أن على العالم في معمله أن يحسن إجراء التجربة مرات ومرات لكي يطمئن على صدق معطياتها: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ (الملك:٣- ٤) إذا أراد أن يصل إلى نتائج يقينية.

إن ما ذكره كتاب الله المسطور من صفات الخالق سبحانه وتعالى، من العلم، والقدرة، والإرادة، والحكمة، والمشيئة العامة وغيرها من صفاته العليا قد فسرها كتاب الله المنظور، قد فسرها عالم الشهادة تفسيرًا عمليًا، وجسدتها مفردات الكون كتطبيق عملي لما جاء ذكره في القرآن نظريًا، ليكون كتاب الله المنظور شاهدًا عمليًا بما جاء به كتاب الله المقروء، فهذا آية كونية منظورة، وذاك آية قرآنية مسطورة.

وكلا الكتابين يصدق بعضهما بعضًا، وكأن كتاب الله المنظور جاء تصديقًا عمليًا لكتاب الله المسطور، وكانت العلاقة بينهما أشبه بعلاقة

التجربة المعملية بالنظرية العلمية، فإن التجربة الصادقة هي التي ترفع مستوى النظرية العلمية من مجال الفرض العلمي الظني إلى مقام الحقيقة العلمية اليقينية – ولله المثل الأعلى في ذلك – فإن كلام الله المقروء حق في ذاته سواء صحت تجربة القارئ لعالم الشهادة أم لم تصح، وصدق الله العظيم ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ (لقمان: ١١).

- ضرورة الجمع بين القراءتين:

إذا كان القرآن الكريم هو الذي أرشدنا في آياته الكريمة إلى ضرورة الاهتمام بقراءة عالم الشهادة، فمما لا شك فيه أن إغفال المسلمين لهذه القراءة الكونية يعتبر إهمالاً لأوامر القرآن وتغافلاً عنها. ولو لم تكن قراءة عالم الشهادة على هذه الدرجة من الأهمية لما لفت القرآن الكريم نظر المسلمين إلى أهميتها، وما أمرهم بها، ولا التأمل في هذا العالم، ولا توعدهم بالعقاب إن هم تغافلوا عنها؛ فإن كثرة الأوامر الإلهية في القرآن الكريم بذلك تدل على أن قراءة عالم الشهادة أمر إلهي نتقرب به إلى الله كما نتقرب إليه سبحانه بالصلاة والصيام والزكاة، فهذا أمر إلهي وذاك أمر إلهي، ولا يكون أحدهما بديلاً عن الآخر في تنفيذ المنهج الإلهي لعمارة الكون وتسخيره لصالح الإنسان، ولا يكون أحدهما كافيًا عن الآخر في حسن التقرب والتعبد لله؛ لأن القرآن الكريم هو الذي أقسم في آياته المقروءة بآيات الله المنظورة على أن القرآن حق، وأنه وحي الله إلى نبيه ﷺ : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ

كَرِيمٍ﴾(الحاقة:٣٨- ٤٠)، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ١ ـ ٤).

ومعلوم عند كل عاقل أن القرآن لا يقسم إلا بما عظم شأنه عند الله وعلا قدره عند الناس.. ويقسم القرآن بالكون على ماذا؟ إنه يقسم بعظمة الكون على صدق القرآن في نفسه، إنه حق من عند الله وليس من عند محمد ﷺ، وليس بقول شاعر ولا ساحر ولا كاهن.

وليس بعد هذا القسم دليل على اهتمام القرآن بعالم الشهادة ودليل على ضرورة الاهتمام به، وضرورة قراءته لتقف على مكنون أسرار الله فيه، إن هذين الكتابين يمثلان لحياة المسلم جناحي الطائر، فإن الطائر لا تستقيم حركته في الهواء إلا إذا استعمل جناحيه معًا، يحلق بهما في الفضاء؛ لكي يعبر مفازات الصحراء وأعالي الجبال لكي يصل إلى تحقيق غايته ومقصوده، كذلك حياة المجتمع الإسلامي لا تستقيم أبدًا إلا بحسن قراءة هذين الكتابين، اللذين يصدق بعضهما بعضًا، ويعضد أحدهما الآخر، ويأمر أحدهما بقراءة الآخر.

وكما جمع الخطاب الإلهي بينهما في آيات الله القولية المقروءة يجب على المسلم أن يجمع بينهما، يقرأ الكتابين قراءة توحيدية، يبتغي من ورائها تحقيق الوظائف الكونية التي سبقت الإشارة إليها، وظيفة التسخير، ووظيفة التعمير، وما لم تكتمل هذه العناصر كلها في قراءة المسلم لهذين الكتابين فإن قراءته تكون ناقصة، ويترتب بالضرورة على هذه القراءة الناقصة نقص آخر وقصور في الواقع الذي يعيشه الإنسان في حياته اليومية والاجتماعية، ونقص في علاقته بالكون، وقد يترتب على هذا النقص في القراءة نقص في

حاجة المسلم أن يمد يده للآخر من الذين أجادوا قراءة عالم الشهادة؛ ليطلب منهم ما عجز هو عن قراءته وتحقيقه، وما أسفرت عنه قراءته القاصرة من آثار وسلبيات تتمثل أحيانًا في الحاجة إلى العلم الذي عجز عن الوصول إليه بسبب قصور قراءته، أو بسبب تقصيره في قراءة آيات الله القولية، وأحيانًا تترك هذه القراءة القاصرة آثارها السيئة فقرًا وجهلاً وتخلفًا عن ركب الحضارة الإنسانية، وهذا أمر واقع لا محالة لكل من قصر في قراءة أحد هذين الكتابين، وهذا كله واقع في حياة المسلم المعاصر.. فهناك من قصر في قراءة الكتابين معًا... وهناك من قصر في قراءة أحدهما... وهناك من عجز عن القراءة بالكلية.

وفي معظم الأحيان فإن المسلمين جعلوا قراءة الكتاب المسطور بديلاً عن قراءة الكتاب المنظور، مكتفين بذلك لتحقيق مقاصد القرآن الكريم في العبادات والمعاملات والشعائر والطقوس الدينية، ناسين تمامًا أن القرآن الكريم أمرنا بالتعبد لله بحسن قراءة الكتاب المنظور، كما أمرنا بالتعبد بحسن قراءة كتابه المسطور، وأن التقصير في قراءة أحدهما أو إهماله بالكلية يعتبره القرآن نقصًا ونكوصًا عن أداء أوامر الله وعبادته، وعلى كل ذي عقل مسلم أن يسأل نفسه: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣)، وقوله سبحانه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس: ٢٤)، وقوله سبحانه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق: ٥)؟ إلا أن إهمال المسلم أو تقصيره في أداء الصلاة سوف يعاقب عليه إن لم يتب وتقبل توبته، وعقابه يكون خاصًا به هو، وإنه عقاب فردي.

أما إهمال الأمر الإلهي بالنظر في آيات الله الكونية سوف تجنى ثمرته الأمة كلها في الدنيا تخلفًا وفقرًا وجهلاً، ويحاسب عليه المسؤولون أمام الله من العلماء والحكام، يُحاسب كل منهما على قدر مسؤوليته؛ فالعقاب في الدنيا عقاب جماعي، وفي الآخرة عقاب فردي، ومن هنا كان من واجب المسلمين أن يجمعوا بين قراءة القرآن الكريم تدبرًا وتفكرًا وفهمًا وفقهًا وقراءة الكون كشفًا عن قوانينه وتأملاً في آيات الله المبثوثة في مفرداته، وأن يحسنوا قراءة هذا الكون؛ لأنه المصدر والمنبع الذي به قوام حياتهم زراعة وصناعة وتجارة، وعلى قدر تقصيرهم في القراءة الكونية تكون آثارها السيئة في حاجتهم، ويكون فقرهم وجهلهم، ويكون عوزهم إلى (الغير).

ومن فضل الله على الإنسان أن مفردات الكون لا تبخل على قارئها بالعطاء والسخاء، فهي أجود من الريح المرسلة لكل من نظر إليها وأحسن التأمل فيها ليتعرف عليها وعلى خصائصها، ويتعرف على القانون الحاكم فيها والنظام العام الحاكم لمسيرتها، من حين نشأتها إلى نهايتها، وكيف تؤدي وظائفها؟ وكيف يفيد الإنسان منها؟ وكيف يسخرها لصالحه في حياته اليومية؟ ذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعل كل ما على الأرض ذلولاً للإنسان، طيعًا له، طوع إرادة الإنسان منه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥)، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

من هنا فإن مفردات عالم الشهادة، من سمائه إلى أرضه، وقوانين العلم بعالم الشهادة، ونتائج هذا العلم تكشف عن نفسها، وتبوح بأسرارها لكل من طلب ذلك منها بالبحث والتنقيب وطول النظر.. ولقد اعتبر الإسلام أن معاناة الباحث في معمله طلبًا للكشف عن أسرار هذا العالم عبادة لله، وجعل مداد العلماء مساويًا لدم الشهداء في ساحة الجهاد في سبيل الله، وجعل تحصيل العلم الكوني بعالم الشهادة مفتاحًا طبيعيًا لخشية الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ﴾ (فاطر: ٢٧- ٢٨)، وقد ورد في الأثر «أن مداد العلماء يساوى دم الشهداء عند الله يوم القيامة».

- إعادة القراءة:

من هنا كانت الحاجة ملحة إلى إعادة قراءة القرآن الكريم بوعي، نعيد إليه ما أهمله التاريخ من الخصوصية الإسلامية، التي تؤكد ذاتية الأمة وأصالة قيمتها الحضارية، التي تجعل من طلب العلم عبادة، وتجعل ممارسة العلم تسبيحا لله وتقديسًا له.

إن أمتنا الإسلامية تعيش الآن بؤرة الصراع العالمي فكرًا وثقافة وحضارة، وما لم تتشبث الأمة بخصوصيتها الثقافية، وتعبر عن ذلك في فكرها الفلسفي؛ فإن عوامل الفناء تتسارع لمحو هذه الخصوصية والقضاء عليها.

فمن المعلوم أن هذه الأمة تحمل إلى العالم كله رسالة النور وطوق النجاة، وتعيش مع الحضارات الأخرى سنة التدافع الوجودي فتأخذ وتعطي، وتتأثر وتؤثر، وفي هذه الحوارات التدافعية يتنافس المتنافسون، ويتمسك كل فريق بخصوصيته ويعتز بهويته، وهذا أمر مشروع لكل صاحب فكرة ومذهب، مادام يملك برهان الحق ودليل الصواب، ونحن أقدر الناس على ذلك؛ لأننا أصحاب كتاب ودعاة حق وأهل عقيدة سماوية لها منهجها في تفسير الوجود والإنسان والمبدأ والمصير وعلاقة الإنسان بالكون والمجتمع، وينبغي أن يتأسس على ذلك المنهج تحليلات المفكر المسلم للوجود بداية ونهاية ووظيفة، ويستمد منه نظره البرهاني في تفسير العلاقات السببية المتبادلة بين ظواهر الكون وعلاقة الإنسان بذلك.

إن هذا المنهج القرآني في قراءة الكون يتميز عن المناهج الفلسفية الأخرى بأنه يحمل في دلائله عوامل البرهنة اليقينية على صحة العقيدة التي يتناولها إقناعًا للعقل واقتناعًا بالقلب واطمئنانًا للنفس، بحيث تكتمل في الإنسان قناعات كل إمكاناته المعرفية العقلية والوجدانية على سواء، كما يتميز هذا المنهج بنظرته التحليلية للوجود الإنساني عن الفلسفات الأخرى التي تجعل من الوجود والإنسان كمًا مؤقتًا وكيفًا عابثاً لا غاية له في الوجود إلا لحظة يعيشها الإنسان يشبع فيها رغباته الحيوانية، ثم ينتهي الموقف كله بنهاية مأسوية عبثية هي الفناء المطلق .. أشبه بفصول الملهاة.

إن قراءتنا للكون، من خلال المنهج القرآني، تجعل للوجود معنى وللإنسان وظيفة، فالوجود لم يُخلق عبثًا لا غاية له ولا هدف منه، بل له غاية مقصودة وهدف مطلوب، وعالم الشهادة في المنهج القرآني لم ينفصل

في حكمته الوجودية عن عالم الغيب، وليست المادة في المنهج القرآني مستقلة في وجودها عن قانونها الغيبي الحاكم لها، والمتحكم فيها، كما هو الشأن في المذاهب المادية، قديمها وحديثها.

والوجود في فلسفتنا ليس مبتوت الصلة بخالقه، كما هو الشأن في فلسفة أرسطو ورأيه في المحرك، الذي لا يتحرك، وإنما هو آية دالة على خالقه، وتحمل مفرداته دلائل صفاته، وتجليات أسمائه الحسنى من العلم والحكمة والإرادة والقدرة.... الخ.

والوجود في فلسفتنا صفحة معروضة على العقل الإنساني ليقرأها بتكليف إلهي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١)؛ فالخلق كله من عالمه العلوي والسفلى صفحة معروضة على العقل أن يقرأها باسم (ربك) وليس باسم المادة ولا باسم الصدفة ولا باسم الطبيعة أو الدهر، يقرأ فيها ويقرأ منها على قدر استطاعته.

والوجود في فلسفتنا يحمل في قوانينه برهان العقل على فساد رأى القائلين بالصدفة أو المادة أو الدهر، فما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، وكل شيء عنده مقدر، ومهمة الفيلسوف أن يجلي هذه المعاني في تحليلاته الفلسفية، ويعيد إليها اعتبارها المهدر في تفسيراته العلمية، وتلك مهمة لا يفطن إليها إلا أولو الألباب، وأصحاب العزائم والنوايا الصادقة.

إن هذه القراءة الكونية، التي ينبهنا إليها القرآن الكريم، تتميز بأنها يشترك في قراءتها الحس والعقل والقلب، فالكون صفحة مقروءة أمام العقل والقلب معًا، فحين ينظر العقل ويتفتح القلب الواعي تنفع الذكرى،

وتثمر في القلب أثرًا إيمانيًا، يجعل للحياة معنى وللوجود قيمة؛ لأنها تصل قلب الإنسان العارف بالكون، الذي هو موضوع المعرفة، حيث تباشر الحواس معارفها الجزئية من رؤية السماء سقفًا مرفوعًا وسقفًا محفوظًا من الخلل، ويشهد السماء مزينة بالآيات التي تبعث في النفس البهجة والسرور، فالقمر (نور) في الليل، والشمس (ضياء) في النهار، والنجم علامات وهداية للسراة ليلاً في البر والبحر.

هذه اللوحة الرائعة يقدمها القرآن الكريم من خلال مشاهد متعددة في القرآن المكي، وفي تناسق عجيب؛ ليربط قلب المسلم بهذه المشاهدات فتنبعث فيه عوامل الإيمان واليقين، وتربط عقله بالنظر في هذه الظواهر طلبًا لمزيد من التعرف عليها؛ لتصل بين الإنسان وهذه الظواهر في وحدة معرفية يجمع فيها المسلم بين الذات العارفة – الإنسان – وموضوع المعرفة معًا، فالإنسان ليس غريبًا عن هذه الشواهد؛ لأنها مسخرة لأجله، وهو مطالب بالكشف عنها وحسن الإفادة منها، ولا تستقيم حياته على الأرض إلا بذلك، ولابد له من وصل ما انقطع بينه وبينها في الماضي حتى يواصل مسيرته، ويلحق بركب الحضارة الإنسانية، ولابد للمسلم من الصلة العلمية الوثيقة بها، فكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك أو خاصة من خصائص الكون وما فيه يجب أن تتحول إلى موضوع للبحث العلمي يوثق صلة العقل المسلم بهذا الكون بدلاً من هذه الغربة والقطيعة العلمية بين المسلم وعالم الشهادة، والتي أصبحت ظاهرة لافتة للنظر في واقع المسلمين.

إن هذا الكون كتاب مفتوح، قابل لأن يُقرأ بكل لغة، وفي ظل كل ثقافة وحضارة، ولأهل كل دين، ويكشف عن أسراره بكل وسيلة متاحة،

ويستطيع أن يقرأه ساكن الكوخ وساكن القصور، وأن يطالع مفرداته كل عاقل، مسلمًا كان أو غير مسلم؛ ليجنى الثمرة وينعم بخيراته، فيجد كل امرئ فيه زاده العلمي والإيماني معًا، حين يطالعه بقلب مفتوح وعقل صحيح متطلع إلى الحق، كل عالم يطالعه بقدر استعداده وعلى قدر استطاعته، ولذلك فإن الآية الواحدة تحمل معها البرهان العقلي لطالب العلم واليقين الإيماني لطالب الحق، والمنهج القرآني يجمع بينهما في سياق واحد، فلا ينقض البرهان العلمي اليقين الإيماني بل يقويه ويرفده ولا ينقض اليقين الإيماني البرهان العلمي ولا يعارضه بل يدعمه ويؤيده، ويمده بنور البصيرة ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾(ق:٨).

إن نور البصيرة، التي تساعد العقل في الربط بين الجزئيات المتناثرة والمفردات المتنوعة فيربط بعضها ببعض، ويضم شتاتها في وحدة متناسقة، تشير إلى وحدة المصدر، ووحدة النظام الحاكم، ووحدة الخالق كحقيقة كبرى، تسوق إليها هذه المقدمات الجزئية والمفردات المتنوعة على أنها الحقيقة الكبرى والمقصد والغاية؛ إنها تصل القلب (المتبصر) بنواميس الكون، فتذكره بالحكمة الكامنة والعناية الإلهية المبثوثة في كل جزئياته، ما دق منها وما عظم. فهي ليست معلومات جامدة يتلقاها العقل دون أن تسرى آثارها إلى القلب، فتثير فيه عوامل الإيمان، ولذلك فإن القرآن سماها آيات وآية ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧)؟

والله أعلى وأعلم.

هيمنة القرآن وخلوده

الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام (*)

لعل في بقاء واستمرار الطائفة المنصورة قائمة على الحق، مصدر استمرارية التطبيق للقرآن، ذلك أن وجود النماذج القرآنية التطبيقية الدالة على الخلود، والقدرة على إنتاج هذه النماذج في كل زمان ومكان، يعد حفظاً توثيقياً علمياً وعملياً، بعدما حفظ حفظاً توثيقياً كتابياً ولفظياً صوتياً.

- مقدمة:

الحمد لله أنزل القرآن، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، وتكفل بحفظه، وصانه من التغيير والتبديل الذي اعترى ما سبقه من الكتب، وسلّمه من التناقض والاختلاف الوارد على عمل البشر.

(*) رئيس مجمع الفقه الإسلامي (السودان).

وأفضل الصلاة وأتم السلام على من بعثه الله تعالى بالقرآن، هداية لبني الإنسان، فكان (خلقه القرآن).

وبعد:

فهذا بحث عن هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من الكتب، وتصديقه لها، وائتمانه ورقابته عليها، يشهد بالصحة لأصولها من حيث أنها من عند الله الديّان، ويبين ما وقع فيها من التبديل وما طرأ عليها من التحريف على مر الأزمان...

وهو الكتاب المعجز للعالمين أن يأتوا بمثله، المهيمن على النفوس المؤمنة به، المؤمِّن للإنسانية من الخوف، المتضمن من الشرائع ما سما بخصائصه على سائر الشرائع والقوانين، فكان بذلك مهيمناً عليها، وكانت النبوة التي جاءت به خاتمة النبوات. فكانت هذه الخاتمية مقتضية للخلود وللديمومة والصلاحية لكل زمان ومكان، والديمومة والعالمية من لوازم الخاتمية..

ذلك أن خاتمية الرسالة وختام النبوات يقتضي ديمومة القيم القرآنية بما فيها من توجيهات إلهية، فكانت الديمومة للقرآن لتدوم هذه القيم.

وكانت أمة الإسلام بما تمتلك من هذه الخصائص القرآنية، أهلاً لأن تكون الشاهدة على ما سواها من الأمم. فالقرآن يضم بين دفتي المصحف من المعايير والحكم ما يصلح حكماً وموجهاً لجميع الإنسانية.. وقد تكفل الله تعالى بحفظ هذه القيم وهذه المعايير من خلال حفظ الكتاب الذي يشتمل عليها، ومن خلال عزائم البشر الذين يعيشونها ويتمثلونها.. فحَفِظَه

الصحابة، رضوان الله عنهم، وتواتر نقله في الأمصار، واعتنى المسلمون به على مر الأعصار، وهي عناية تليق بهذا الكتاب العظيم، مشافهةً وكتابةً ورسماً وتدويناً وحفظاً في الصدور قبل السطور كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت:٤٩)؛ وإقامة لشعائره، وتطبيقاً لشرائعه في ميادين الحياة العامة والخاصة، مما جعل لهذا لقرآن أثره البالغ في تاريخ البشرية عموماً والمسلمين خصوصاً..

كما تحقق لهذا القرآن أن يهيمن بكماله وجلاله وجماله على كل كتاب، وأن يظهر على الدين كله، وأن تسود حضارة الإسلام ذات البعد الروحي والمادي، على سائر الحضارات، قديمها وحديثها. وأمة القرآن جديرة بأن ترفع ذكرها الذي به تسترد هيبتها، وأن تعود إلى أصالتها، فتوثق صلتها بكتابها المهيمن العالمي الخالد، لتكون بالتزامها به، مهيمنة عالمياً، خالدة قيمياً، وأن تستعيد التاريخ الإنساني المشرق كما كان مجد أسلافها حملة هذا الكتاب من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسان في جميع الأجيال حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ومع ما جرى تفصيله بحسب المقام في هذا البحث عن الهيمنة القرآنية، فما يزال في هذا المجال سعة، وعسى أن يتيسر لنا لاحقاً بفضل الله، أن نستوعب الحديث أو نقاربه بالإضافة والمراجعة والتعديل، ثم نفصل بَعْدُ في الخاتمية والخلود، والعالمية والصلاحية الأبدية.

والله يتولانا وهو يهدى سواء السبيل.

هيمنة القرآن على الكتب

- دلالة المصطلح:

تفيدنا الدراسة المعجمية لمدلول كلمة (هيمن) : أنها آمن غيره من الخوف، قال ابن منظور: وأصله (أأمن) فهو مؤأمن، بهمزتين قلبت الثانية ياء كراهة اجتماعهما، فصار مؤيمن وهو مفيعل من الأمانة، ثم صيرت الأولى هاء كما قالوا: هراق وأراق.

وقال بعضهم: مهيمن بمعنى مؤمن أي الأمانة، والهاء بدل من الهمزة كما قالوا هرقت وأرقت.

وفي معنى المهيمن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨)، والكتاب في الموضع الأول الذي أنزله الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه.

ويتضمن قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ عدة معانٍ:

١- المؤمَّن، الذي آمن غيره من الخوف.

٢- المؤتمن؛ لأن القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب.

٣- الرقيب على كل شيء، يقال هيمن يهيمن هيمنةً، إذا كان رقيباً على الشيء، والقرآن بهذا المعنى رقيبٌ على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والدقة في أصلها.. والمراد حفظ أصول هذه الكتب المنزلة، والرقابة على ما وقع فيها من تبديلٍ أو تحريف.

٤- الأمين، الذي لا يضيع لأحدٍ عنده حق، كما هو أمين على كل كتاب قبله.

٥- القائم على الكتب، القيِّم والقائم بأمور الخلق، ومنه القيام على الشيء، وقولهم عن أحدهم: إنه أعلم بالمهيمنات أي القضايا ذات الهيمنة، أي ذات الأهمية الحاكمة؛ فالقيام على الشيء يجعل الفعل لها وهو لأربابها القوامين بالأمور، والمهيمن القائم على خلقه برزقه.

وأنشدوا:

ألا إنَّ خير الناس بعد نبيه مهيمنه في العرف والنكر

٦- الشاهد على صدق أصول الكتب وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين بها، وهو الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء.

٧- الحافظ، حيث حفظ القرآن أصول الكتب في كونه الرسالة الإسلامية الخاتمة، التي اكتمل بها الدين وتمت نعمة التوحيد، من حيث ما تضمنته من دعوة التوحيد وأصول الدين.

٨- المصدِّق، بمعنى أنه صدَّق أنها أنزلت من عند الله في أصولها.

٩- الحاكم على ما قبله من الكتب.

ومما يناسب ذكره في هذا المقام، أن لفظ المهيمن ورد في القرآن كاسم من أسماء الله في ختام سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ (الحشر:٢٣)، بمعني القائم على تدبير أمر خلقه بأعمالهم وآجالهم وأرزاقهم.

وفي بيان تأويل هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨)، يقول الطبري: أنزلنا الكتاب

الذي أنزلناه إليك يا أحمد مصدقاً للكتب قبله وشهيداً عليها أنها حق من عند الله، أميناً عليها حافظاً لها.. وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب. يقال رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده، قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن عليه وهو عليه مهيمن[1] بقوله ومهيمناً أي شاهداً حفيظاً مصدقاً، وأميناً رقيباً عليه.

وعلى هذا فهيمنة القرآن على الكتب تعني أنه جاء بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتب، وحافظاً لها، وشاهداً وأميناً عليها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

وتتجلى هيمنة القرآن، على الكتب السابقة بعد تأملنا في النصوص القرآنية على النحو التالي:

أ- مفهوم هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

فالقرآن مهيمن على الكتب السابقة بأن صدق نزولها من عند الله، وحفظ الأصول التي جاءت بها دعوة الأنبياء الذين نزلت عليهم وهي دعوة التوحيد، وشهد على من آمن بها حين نزولها بأنهم ممن استجابوا لأمر الله، وعلى من كذب بأنهم ممن عصوه واستحقوا غضبه، وهو لا يزال قائماً بهذا الحفظ والتصديق والشهادة، أميناً قيِّماً أخبر عنها وعن أهلها، رقيباً على أن يُدعَّىَ عليها غير ما قال عنها، مؤتمن في ذلك كله.

---

(١) تفسير الطبري، ٦/١٧٢؛ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٦/١٨٠.

وهذا معنى تصديقه لما سبقه من الكتب وهيمنته عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨).. يقول حسان بن ثابت، رضي الله عنه، في مدح رسول الله ﷺ وبيان هيمنة القرآن على الكتاب:

إن الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه ذوو الألباب

والقرآن الكريم مع كونه مهيمناً على الكتب السابقة، فهو يصدّقها ويكملها، ويكشف مواطن التحريف، والتأويل فيها، ويفصّل ما جاء بها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس:٣٧). وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٩٧).

ولذلك يعود التشابه بينه وبين ما سبقه من الكتاب في الأصول الصحاح، ومقاصد التنزيل الحكيم كالدعوة إلى الخير والهداية للناس، مع تميزه وتفرده واحتفاظه بسماته الخاصة.. فالتوراة والإنجيل أنزلهما رب العزة هدى للناس وكذلك أنزل القرآن، مع تصديقه لهما، وتكميله وتصحيحه لما فيهما كما قال تعالى: ﴿ الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران:١- ٤).

كما أن هيمنة القرآن على الكتب تعني - فيما تعني- أن القرآن يملك خاصية المراجعة والرقابة لما أصاب الكتب السابقة من التحريف

والتبديل، أو الإخفاء والإلغاء. فالقرآن بهذا يصوِّب التاريخ ويقوِّم الحاضر ويوجِّه المستقبل.

وهيمنته عليها بهذا المعنى تتضمن:

١- الاسترجاع:

وهو استرجاعه ذكر بعض الأحداث الكبرى التي وردت في الكتب السابقة، حيث أعاد رواياتها، محققة مُحكمة و بما فيها من عبرة وموعظة. ويدخل في الاسترجاع القصص القرآني الذي اشتمل على جملة من قصص الأنبياء والمرسلين، وأممهم، إيناساً للنبي ﷺ وتطييباً لخاطره وتثبيتاً لقلبه، وبياناً وهدى لأمته، واعتباراً بما لحق بالدعاة من ابتلاءات ووقاية مما حاق بالمكذبين من سوء العواقب: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:١٢٠).

هذا، كما اشتمل القصص القرآني على بيان شواهد طيبة على نتائج الالتزام بتطبيق الأحكام الشرعية في الأمم السابقة، مما يدعم صلاحية هذه الأحكام، وهو المتفق عليه في شتى الشرائع السماوية من هذه الأحكام، ومن ذلك ما قصه القرآن من قصص بني إسرائيل، مبيناً عقوبة القصاص في التوراة وتصديق الإنجيل لها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ

بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة:٤٤- ٤٦).

فقد جاء القرآن مبيناً أن شريعة القصاص توفر الأمن للحياة ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(البقرة:١٧٩)، وهي شريعة باقية، وهو بذلك يوثق مثل هذه الأحكام من حيث هي معتمدة مستوعبة في الإنجيل، إذ جاء الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ويزيدها وثاقة أن القرآن مصدق لما جاء في التوراة والإنجيل، بيد أن له هيمنة وسلطاناً عليهما يبقي ما يبقي، وينسخ ما ينسخ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها فهو منسوخ، إذ له الهيمنة الكاملة[1].

٢- الاستيعاب:

إن ما أخبر به القرآن عن الأمم الماضية والرسل كان أوسع دلالة وأكثر استيعاباً وتوثيقاً، فضلاً عن تنزيهه لله تعالى ورسله الكرام عن تصورات المغضوب عليهم والضالين، ومن ذلك أن القرآن ذكر إبراهيم ودعوته إلى عبادة الله وتسفيهه عبادة الأوثان منذ عمر الفتوة ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ (الأنبياء:٦٠)، هذا بينما لا يرد له ذكر في الكتب السابقة كالتوراة إلا بعد بلوغه سن الخامسة والسبعين. على أن ما جاء في القرآن

(١) انظر محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٧٧م) ص١٩٦ وما بعدها.

الكريم مع وثاقته أهم من تفصيلات كثيرة وردت في الكتب السابقة عبرة وعظة من ورائها.. ذلك بأن القرآن الكريم يأخذ من حياة الأنبياء والرسل ما يمثل القيم العليا التي يدعو لها.

ثم إن ما ورد في القرآن من بعض شرع من قبلنا لا يخرج عن كونه مما أُمرنا به بالأصالة بحكم تصديق القرآن لتلك الكتب، من قبيل التأكيد لمشروعيتها الموروثة، كما في قوله تعالى في مشروعية الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣).

ومثل هذا الحديث عن شرع من قبلنا داخل في الاستيعاب، حيث استوعب القرآن ما في الكتب السابقة من الحق على منهاجه وطريقته ومقدرته الفائقة على استيعاب الخير، والعمل على أن يتجاوز بالبشرية ليبني لها مستقبلها، فرسل الله كلهم أخوة، وجاء كل واحد ليكمل رسالة سابقة حتى بعث الله النبي الخاتم برسالته الشاملة، المتضمنة كل الشرائع والحكم في صورتها النهائية، مهيمنة على ما سبق، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ (الشورى:١٣- ١٤).

٣- التجاوز:

أما التجاوز فيتناول الحديث عن النسخ وتجاوز الخصوصيات الزمانية والمكانية والقومية والعرقية.. ومع ما جاء في القرآن من أصول سبقت في الكتب الأولى، فقد تجاوز كثيراً منها بعد أن تغير الحال، وبحقق النضج البشرى وتهيأ لاستقبال الرسالة الخاتمة، وجاء بما هو خير منها، وأكمل وأتم وأيسر.

فأحل الطيبات وحرم الخبائث ووضع الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة تخفيفاً وتيسيراً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وفوق هذا كله رفع المؤاخذة بالخطأ والنسيان والإكراه، وجعل التكليف في ما يطاق ويستطاع، وازداد عفواً ومغفرةً ورحمةً، مخبراً عن ذلك كله في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦).

ويظل القرآن كله يؤكد بعضه بعضاً في هيمنته على الكتب السابقة والحكم عليها، فلا صدق لما خالف القرآن من أخبار الكتب السابقة، بل إن من وجوه هيمنة القرآن كونه ناسخاً لتلك الكتب، وشاهداً للحكم عليها. ولعل الإمام الرازي كان يستحضر هذه المعاني كلها وهو يعقب في تفسيره الكبير على الآية الخاتمة لسورة المائدة حيث يقول: «في هذه الخاتمة الشريفة أسرار كثيرة... أن السورة اشتملت على أنواع كثيرة من العلوم، فمنها بيان الشرائع والأحكام والتكاليف، ومنها المناظرة مع اليهود في إنكارهم شريعة محمد ﷺ ومنها المناظرة مع النصارى في قولهم بالتثليث، فختم السورة بهذه النقطة الوافية بإثبات كل هذه المطالب، فإنه تعالى قال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ (المائدة:١٢٠).

ومعناه أن كل ما سوى الحق سبحانه فإنه ممكن لذاته موجود بإيجاده تعالى... وإذا كان الأمر كذلك كان مالكاً لجميع الممكنات والكائنات، موجداً لجميع الأرواح والأجساد، وإذا ثبت هذا لزم منه ثبوت كل المطالب المذكورة في هذه السورة، وأما حسن التكليف كيف شاء وأراد فذاك ثابت؛ لأنه سبحانه لما كان مالكاً للكل كان له أن يتصرف في الكل بالأمر والنهي والثواب والعقاب كيف شاء وأراد فصح القول بالتكليف على أي وجه أراده الحق سبحانه وتعالى. وأما الرد على اليهود فلأنه سبحانه لما كان مالك الملك فله بحكم المالكية أن ينسخ شرع موسى ويضع شرع محمد، عليهما الصلاة والسلام، وأما الرد على النصارى فلأن عيسى ومريم داخلان فيما سوى الله؛ لأنه بيَّن أن الموجد إما أن يكون هو

الله أو غيره، وعيسى ومريم لاشك أنهما داخلان في هذا القسم، فإذا دللنا أن كل ما سوى الله ممكن لذاته موجود بإيجاد الله كائن بتكوين الله كان عيسى ومريم، عليهما السلام، كذلك. ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فثبت كونهما عبدين مخلوقين فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية التي جعلها الله خاتمة لهذه السورة،برهان قاطع في صحة جميع العلوم التي اشتملت السورة عليها، والله أعلم بأسرار كلامه».

وحيث كان القرآن مهيمناً على الكتب السماوية فإن هيمنته على ما سواها من باب أولى، وذلك في كل ما يتصل بالشعائر والشرائع والأحكام والآداب والعلوم، وحسب القرآن أن الله تعالى أنزله وهو حافظه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢)، وإذا تقرر هيمنة القرآن على ما سبق من الكتب فإن ذلك يقتضي بالضرورة هيمنته على كل مكتوب ومقروء من كتب ومؤلفات استقل بها أفراد أو جماعات أو كانت نتاج حضارات ودول على اختلاف الأعصار والأمصار، ومعياريته لها.

ب- تحريف الكتب السابقة:

حيث إن الكتب السماوية الموجودة بأيدي الناس مليئة بعمل البشر وأهوائهم، مما لا يناسب مقام ذي الجلال والإكرام ومقام رسله عنده، الأمر الذي لم يكن خافياً على الدراسات المقارنة لغير المسلمين من أهل تلك الملل، التي تثبتت ذلك، مما يؤكد هيمنة القرآن على هذه الكتب.

وقد جاء القرآن الكريم يقص على بني إسرائيل الذين عاصروا نزول القرآن الكريم، ويبين لهم ما اختلفوا فيه اختلافاً شديداً، حتى صار يلعن بعضهم بعضاً، فنزل القرآن يبين لهم ويهديهم إلى الحق الذي لو أخذوا به لما اختلفوا، ومن ذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل.

والتحريف هنا لفظي ومعنوي وهو مقتضى الإطلاق ومن أدلته:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٨)؛ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة:٧٩).

وكفى بشهادة القرآن دليلاً على ما أحدثه أهل الكتاب في كتبهم من تحريف، يقول الله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٧٥).

وهذا موضع آخر ينص فيه القرآن على تحريف اليهود خاصة للكلم عن مواضعه في التوراة: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ (النساء:٤٦)، والقرآن يشهد على فريق من أهل الكتاب أنهم في سبيل تحريف الكلم يلوون ألسنتهم، أي يقلبونها بالتحريف والزيادة، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٨).

ويقول تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ (المائدة:١٤- ١٥).

وهذا خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى معاً، أن يتبعوا الحق الذي جاء به القرآن الخاتم المهيمن، والذي يوافق ما لم يصبه التحريف من كتبهم: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾ (المائدة:٦٨)؛ لأن الذي يؤمن بما جاء به القرآن، يعتبر مؤمناً باليهودية الحقة، ومؤمناً بالنصرانية الصحيحة، وقد اعتبر الكثير من العلماء أن القرآن الكريم أقدم وثيقة علمية وصلت بطريق التواتر، لذلك فهي من الناحية الوثائقية البحتة تعتبر مصدراً للأديان السابقة.

والقرآن ينعى على أهل الكتاب، ويحذر من الانشغال بظاهر الحياة الدنيا عن ذكر الله، كما فعل اليهود والنصارى، الذين قعدوا عن القيام بواجبهم حتى تركوا كتابهم، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ (الحديد:١٦).

قال ابن كثير: «فذم الله أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله»[1].

وأما ما أسقطوا من كتبهم من الأحكام ومن القصص، فإن القرآن يشير إلى ذلك أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (النمل:٧٦- ٧٩).

ج- ختم الرسالة:

قضى الله جل وعلا أن تكون رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات السماوية، واللبنة الأخيرة في البناء النبوي، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً كما انتهت إلى الرسول ﷺ كمالات الأنبياء، لذلك لابد أن تكون مهيمنة عليها، فهي المكملة والمتممة لها والباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكان الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والقرآن هو آخر الكتب السماوية والمهيمن على ما سبق منها.

وفى صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا**

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المقدمة، ج١.

وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا وَيَقُولُونَ: لَوْلا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ قال رسول الله ﷺ: فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ جِئْتُ فَخَتَمْتُ الأَنْبِيَاءَ»[1].

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِي أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»[2].

ونقل القرطبي عن ابن عطية: في معنى خاتِم وخَاتم أن: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة، خلفاً وسلفاً، متلقاة على العموم التام، مقتضية نصاً أنه لا نبي بعده ﷺ[3].

د- لوازم ختم النبوة:

لذلك كان من لوازم الخاتمية وتوقف النبوات، التصويب والاستمرار للقيم، وحفظها في الكتاب والسنة صحيحة من كل تحريف أو تبديل، ليصبح التكليف صحيحاً عقلاً وشرعاً، ويترتب عليه الثواب والعقاب.

وختم النبوة يعني: أن القرآن هو آخر رسالة إلى الناس، فلا كتاب بعد القرآن. ولو علم الله أن الناس يحتاجون إلى رسالة أخرى من بعد ذلك لما كان القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة، فإن رحمته بالبشر لا تتركهم بغير دليل وهداية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الجامع لأحكام القرآن.

ونتيجة لختم النبوة، يلزم أن تكون الرسالة خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان، أي صالحة لكل زمان ومكان، وأن تكون لجميع البشر، تحقيقاً للعالمية، وأن تكون ميسرة للقراءة والعمل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ (القمر:١٧). وأحكامها قائمة على التيسير لا التعسير: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥)؛ حيث لا حرج ولا مشقة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٨٧)، والتكليف على الوسع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦). كما جاءت هذه الرسالة لترفع عنا الإصر والأغلال التي كانت على من سبقنا: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وقد ظل نداء المسلمين على الدوام، دعاء يتلى آناء الليل وأطراف النهار: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (البقرة:٢٨٦).. وليس ثمة حاجة لشيء من الرسالات السابقة تحقيقاً لمعنى الهيمنة؛ لأن الحفظ والخلود من لوازم الخاتمية.

وقد أحسن من قال: «والرسالة الخاتمة جاءت تعرض الإسلام في صورته النهائية الأخيرة، ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي الموجهة لمسار الكون، وهي للناس جميعاً، ولتهيمن على كل ما كان قبلها، وتكون هي المرجع النهائي، ولتقم منهج الله لحياة البشرية وفق تعاليم القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، وستظل هذه الرسالة ترفد الكون كله بهذه الهداية لتدور حياة البشرية حول محورها، استمداداً للتصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي وآداب السلوك الفردي

والجماعي حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنها الحق الباقي: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (النساء:١٠٥).. يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية، وهي الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع وفرض القوانين. ويتمثل الحق في محتوياته وفي كل ما يعرض له من شؤون العقيدة والشريعة، وفي كل ما يقص من خبر وما يحمله من توجيه»[1].

هـ- الرسول والرسالة في الكتب السابقة:

لقد قص القرآن الكريم بشارة الكتب السابقة بالنبي الخاتم ﷺ وبرسالته الخاتمة، وما تضمنته هذه الرسالة من بيان هيمنة القرآن عليها: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ (الصف:٦).. ومع ما أصاب كتب السابقين من تحريف وتبديل، إلا أن الإشارات الباقية فيها تؤكد البشارة بخاتم النبيين بصفاته ﷺ.

بل إن أحبار اليهود والنصارى يعرفون مما بين أيديهم، صدق رسول الله الخاتم ﷺ، ويجدون العلامات الدالة عليه في كتبهم:
﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ (الفتح:٢٩).. وقد أفلح منهم من عرف الحق واتبع الهدى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾

(١) في ظلال القرآن، ٢/٩٠١-٩٠٢.

(الأعراف:١٥٦)، ثم خسر من لم يؤمن، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأنعام:٢٠).

ولذلك، فالقرآن هو الحق والحكم ومصدر التلقي المهيمن الذي يحتكم ويلجأ إليه؛ سواء بما عرض من أحكام أو تاريخ البشرية أو القصص؛ لأنه الذي يتضمن المعايير والأصول الصحيحة التي تبين الحق وتصوب ما اختلف فيه.

فلا مجال بعد هذا لاعتماد كتب أهل الكتاب ولا الأخذ منها، وسيقضي الله تعالى بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، فيظهر ما حرفوه في الدنيا ويجازي في الآخرة كل واحد، المحق والمبطل.

لذلك ومهما تعددت النصوص والمصادر، تبقى الهيمنة للقرآن بما تحقق له من الحفظ، فهو مصدر المعرفة الذي يرجع إليه والذي نحاكم إليه شرائعنا، وخواطرنا واجتهاداتنا، ومؤلفاتنا، وكتبنا، ومن ثم فلا بد لكل اختلاف أن يرد إلى هذا الكتاب المعيار ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي الناشئ، أو بين أصحاب الديانات السماوية أو حتى بين المسلمين أنفسهم.

و- هيمنته على مصادر المعرفة وانسجامه مع حقائق العلم:

مصادر المعرفة في الرؤية القرآنية تتجاوز ما يعرفه الماديون من ظاهر الحياة الدنيا؛ فمصادر المعرفة التي لا يعرف العالم المادي غيرها وعليها قامت حضارته وكما يعبر عنها تعريف اليونسكو: «كل معلوم بالحس والتجربة» أسقطت من معرفتها الوحي وعالم الغيب، وعليه فإن مصادر

المعرفة عند الماديين لا تتجاوز الحس والتجربة، أما في المفهوم القرآني فلا إنكار للحس ولا التجربة ولا الخبرة ولا المشاهدة بل إن القرآن ارتكز إليها ونص على ذلك كله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:٧٨)؛ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (ق:٦- ٧)؛ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية:١٧- ٢٠)؛ ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام:١١)؛ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:٥٣).

وفوق ذلك كله، فإن الوحي بما يمتلك من صفة الهيمنة يعتبر مصدر المصادر للمعارف والعلوم، وسبحان الله منزل الوحي وحافظه وعاصمه، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام:١١٥)، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٣- ١٩٥).

وتبارك الله رب العالمين خلق الخلائق كلها يعلمها علم الخلاق العليم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤). وحسبنا أن نقول: إنه على الرغم من تقدم العلوم والمعارف مع ذلك لم يستطع العلم أن يسجل تعارضاً أو إصابة واحدة للنص القرآني، بل جاء العلم تأكيداً لما جاء به القرآن، وانسجامه معه دليل أسبقية القرآن للعقل البشرى المحدود، وأنه لا تناقض

بين العقل والوحي ولا ثنائية بينهما، وحقاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢)، مما جعل القرآن مصدراً لاستمرار المعرفة وتصويب النظريات، بحيث يكون القرآن هو المرجع لتأصيل العلوم وتحديد وجهتها وبيان هدفها.

وقد خلص «موريس بوكاي» بعد دراسة مقارنة للتوراة والإنجيل والقرآن، مع ما توصل إليه العلم من حقائق، إلى تناقض في التوراة والإنجيل مع هذه الحقائق، وانسجام القرآن معها مما دفعه إلى إثبات شهادته تلك في كتابه: (القرآن والعلم).

ز- هيمنته على الحضارات والديانات:

لما كان القرآن هو النص السماوي الوحيد الذي وصل بطريقة علمية صحيحة، وكان من خصائصه الخلود والخاتمية، لذلك اكتسب صفة الهيمنة على النصوص الدينية السابقة، وكل الإنتاج الثقافي الذي نشأ في ظلها أو معارضاً لها، كما هيمن على الحضارات جميعاً وعلى ما سبق من الديانات، وعلى تقاليد العرب الجاهلية، وعلى التراث الكتابي والعرفي والفارسي والروماني واليوناني، وعلى ما يأتي من مذاهب وأفكار معاصرة مادية وإلحادية، شرقية كانت أم غربية، فهي وإن خدع بريقها بعض الأبصار فذلك إلى حين؛ لأن التأثير النفسي والمحاكمة العقلية للقرآن وهيمنته على القيم الروحية والنفسية والفكرية في المسلمين يحول دون استقرارها ورسوخها في النفوس وتأثيرها عليها لما يتضمنه من انسجام مع الفطرة الإنسانية ومخاطبته لها: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

ٱللَّهِۚ ﴾ (الروم:٣٠). ويشهد لهذا واقع دخول العديد من أبناء الغرب في دين الله بعد أن لامست كلمات القرآن قلوبهم فأثمرت إيماناً بالله: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ (الرعد:١٧).

وهذا من أعظم معاني الهيمنة التي يسعى المصلحون المجتهدون لتحقيقها في حياتنا المعاصرة، وسيظل القرآن بذلك كتاب الحاضر والمستقبل، ولا يأتيه الباطل من بين يديه مما سبقه من الكتب والفلسفات، ولا من خلفه مما يمكن أن يكون من المعارف والعلوم والفلسفات، مثلما كان منذ نزوله مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم فسيبقى بإطلاقيته هادياً يهدي الناس كلهم؛ لأن الله تعالى أنزله هكذا: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٨٥)، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:١) ويمحو عن الناس بهدايته آثار الضلال وأنماط السلوك المادي المنحرف، فمهما استفدنا من حكمة (الغير) واهتدينا بالشواهد فالقرآن يعود ويبقى حكماً: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ ﴾ (الأنعام:١١٥)، صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في العقائد والشرائع والشعائر ويوجه الحياة الإنسانية عموماً: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩). فنظرته هي الأقوم، وهدايته هي الأكمل والأحسن في كل شيء، وهو بهذه القوامة مهيمن عليها جميعاً.

وهيمنته هيمنة معنوية (قيمية وفكرية) في المقام الأول، ومن شواهدها صلاة النبي ﷺ ركعتين في المسجد الأقصى كما ورد في قصة الإسراء

والمعراج، حيث جمع الله له المرسلين في بيت المقدس وأمره ربه أن يسألهم فلم يشك ولم يسأل كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ (الزخرف:٤٥)[١]، ودلالة ذلك أن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين جاء بكلمة الله الأخيرة.

ومن ذلك أن المعجزات السابقة التي مضت في الأمم السالفة كانت معجزات مادية قاهرة لتلكم الأمم، ولكن المعجزة الخاتمة كانت معنوية مجردة عن حدود الزمان والمكان، جاءت لتمتد ولتهيمن على الأفكار بالطوع والاختيار، وظهر بذلك حقاً أن القرآن العظيم هو كلمة الله الأخيرة في الكلام المقروء وقراءة الكون بالنظر والاعتبار والتدبر كما دعا القرآن. وقد جاء النبي ﷺ مذكراً بالقرآن من غير أن تكون له سيطرة على أحد: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢٢).

وأصل (مسيطر) في اللغة من السطر؛ لأن الكتب سطر، و(المسيطر) المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعد أحواله ويكتب علمه وأصله[٢].

وهكذا فإن الهيمنة لا تعني سلب الإرادة ولا التسلط ولا الإكراه قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة:٢٥٦). وليس لأحد من نبي أو أتباعه أن يكرهوا أحداً على الدخول في الدين: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ

---

(١) انظر الطبري، ٢٥/٧٨؛ والقرطبي، ١٦/٩٤-٩٥.

(٢) انظر لسان العرب، مادة سطر،٤/٣٦٤؛ الزبيدي، تاج العروس، مادة سطر،١٢/٢٦؛ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، مادة سطر،٣/٣٣٠.

حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)، وإنما الهيمنة في تأمين الحرية الفكرية والاعتقادية؛ لأنها السبيل الوحيد للوصول إلى الحق، وهو ما جاء به القرآن.

فقد عمل الإسلام على تأمين الناس في حريتهم الفكرية والاعتقادية، كما ضمن تأمين الناس في أنفسهم ممتناً عليهم بنعمه ليعبدوه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ (قريش:٣- ٤). والأصل في دعوة الإسلام، أنها دعوة طوع واختيار، وسماحة ويسر: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، ولم تقم مشروعية الجهاد إلا حين بادر الخصوم بالمحاربة: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ (الحج:٣٩- ٤٠).

وكانت مشروعية الجهاد أيضاً لتأمين العبادة ودورها، وحماية غير المسلمين إلى جانب المسلمين، كما تحدثت آيات مشروعية الجهاد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾ (الحج:٤٠).

واستمرارية الدعوة والمجاهدة بالقرآن، ومضيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، خير دليل على هيمنة الكتاب الذي أمر به، قال ﷺ: «**لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**»[1].

(١) أخرجه مسلم.

ولعل في بقاء هذه الطائفة المنصورة قائمة على الحق، مصدر استمرارية التطبيق للقرآن، ذلك أن وجود النماذج القرآنية التطبيقية الدالة على الخلود، والقدرة على إنتاج هذه النماذج في كل زمان ومكان، يعد حفظاً توثيقياً كلياً وعلمياً، بعدما حفظ حفظاً توثيقياً كتابياً ولفظياً صوتياً.

ح- هيمنته على مصادر التشريع:

وكما أن القرآن أنزل وهو مهيمنٌ على النص الديني الذي سبقه، وكل الإنتاج الثقافي الناشئ في إطاره، أو المناقض له، فإنه هو الأصل المهيمن على مصادر التشريع لاستنباط الأحكام، وما سواه يأخذ مشروعيته وصوابه منه.. والسنة النبوية لها الهيمنة بطبيعة بيانها وتطبيقها العملي للقرآن، وقد كان النبي ﷺ يتخلق بأخلاق القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، وقد أخبرت عنه السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنه «كان خلقه القرآن».. وإجماع الأمة أو مجتهديها، لا يخرج عن الارتكاز والاستناد إلى فقه القرآن، أو هيمنة القرآن عليه.. أما القياس فمعلوم أنه لا يستند إلى أصل منصوص عليه في الكتاب والسنة[1].

وقد أبعد النجعة من ظن أن المدونات الفقهية من تراثنا، تغني عن النظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، في كل عصر، بإعمال مجتهديه آراءهم

---

(١) وأقدم نص ذكر فيه القياس مصدراً من مصادر التشريع ما جاء في رسالة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لأبي موسى الأشعري عندما كان والياً على البصرة، فمن بنود تلك الرسالة قول عمر: «الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك، مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، واعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك...»؛ نعمان بن محمد بن العراق، تحقيق محمد حميد الله، ط ١٣٩٣هـ، ص ١٢٨.

واجتهاداتهم، مع الاستفادة من تراثنا، دون اعتقاد العصمة له. ومع مكانة السنة النبوية في التشريع الإسلامي بجانب القرآن، حيث أمرنا القرآن في مواضع كثيرة منه بمتابعة الهدي النبوي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر:٧)، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(النساء:٨٠)، فليس من الفقه أن يستدل بعض أهل الحديث بالسنة وحدها مع وجود النص الإمام من القرآن كاستدلال بعضهم على وجوب استقبال القبلة في الصلاة، بإيراده في المسألة حديثاً والغفلة عن إيراد قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة:١٤٤).

ط- هيمنة المؤمنين به على سائر الأمم:

الأمة المسلمة هي أمة الوسط، التي ناط الله بها الشهادة على الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣) والشهادة هنا تعني الهيمنة بكل معانيها، لذلك فمن وجوه الهيمنة للقرآن أن يؤدي المؤمنون وظيفة إمامة الإنسانية، وهدايتها، وتصويب مسيرتها وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (التوبة:٧١). مع قيام المؤمنين بواجب إعداد العدة وامتلاك القوة المأمور بإعدادها في القرآن: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠)، والجهاد في الله حق جهاده: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ (الحج:٧٨).

عالمية رسالة القرآن

العالمية إحدى مقتضيات مفهوم الخاتمية، والهيمنة من لوازمها؛ فمجيء الرسالة خاتمة للرسالات يقتضي الهيمنة على غيرها من الرسالات، وهذا يلزم منه عدم حصرها في أمة دون أخرى. والقرآن ينص في خطابه على ذلك، موجهًا نداءه للناس جميعاً وللعالمين.

وتتجلى عالمية القرآن أكثر ما تتجلى في المظاهر التالية:

أ- عموم الرسالة:

ولا شك في عالمية الرسالة، فقد جاء الإعلان بذلك مع بدء الوحي منذ الفترة المكية، وفي كثير من السور كما في سورة الأنعام المكية، يقول تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام:١٩)، وفي سورة الأعراف المكية أيضاً نقرأ قولة تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، علاوة عن صيغة الخطاب المتكرر بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

وفي تأويل هذه الآية يقول ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرسل مرسلاً إلى بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض ولكنها إليكم جميعكم».

وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: «ذكر أن موسى بشر به وأن عيسى بشر به ثم أمره أن يقول: إني رسول الله إليكم جميعاً»[1].

روى جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا أَدْرَكَ الرَّجُلَ مِنْ أُمَّتِي الصَّلاةُ يُصَلِّي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَلَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ قَبْلِي، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً**»[2].

ونقرأ في صدر سورة الفرقان وهى مكية النزول: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١). وفى بيان اشتمال هذه الآية على عموم الرسالة الخاتمة يقول الطبري: «يقول تبارك الذي نزل الفصل بين الحق والباطل وسورة بعد سورة، على عبده محمد ليكون محمد لجميع الإنس والجن، الذين بعثه الله إليهم داعية إليه نذيراً.. يعني ينذرهم عقابه، ويخوفهم عذابه، إن لم يوحدوه ويخلصوا له العبادة».

فرسالته ﷺ ليست لفئة من الناس دون غيرها وإنما هي للناس جميعاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨).

وفى تأويل هذه الآية يقول الطبري: «وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين قومك خاصة ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين، العرب منهم والعجم والأحمر والأسود»[3].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٠٢/٧.

(٢) أخرجه النسائي.

(٣) تفسر الطبري، م١٠، ٦٦/٢٢.

ويقول القرطبي[1] في بيان قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، وما أرسلناك إلا للناس كافة أي عامة، ثم ينقل عن الزجاج: وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ، وأن الكافة يعني الجامع، وقيل معناه: كافة للناس تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام.

فالنبي، عليه الصلاة والسلام، أرسل بالقرآن رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وقد فهم الصحابة، رضوان الله عليهم، هذا المعنى، فكانوا رسل دعوة وحملة هداية للإنسانية كلها، فجسدوا ذلك في حياتهم ودعوتهم وفتوحهم، فهذا أحدهم، وهو ربعي ابن عامر، رضي الله عنه، حين قال لرستم ملك الفرس: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ وما أرسلناك يا محمد إلا رحمةً لمن أرسلناك إليه من خلقي. ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية أجميع العالم الذي أرسل إليهم محمد أريد بهذا، مؤمنهم وكافرهم، أم أريد بها أهل الإيمان خاصة؟».

يقول: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن ابن عباس أن الله أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم. فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به والعمل بما جاء من الله

(١) تفسير القرطبي، ١٤/٣٠٠.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: دار الكتب العلمية) ٧/٤٠.

الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء، الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبل[1].

ب- التدرج في إقامة نظام الإسلام العالمي:

ولقد تدرج الإسلام بعد إعلانه المبكر بعالمية دعوته وعمومها، في إقامة نظامه العالمي حقاً ضمن مراحل متعددة، فصل المقال فيها وفق تسلسلها التاريخي والتشريعي ابن قيم الجوزية حيث يقول[2]: «أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر:١- ٢).. فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ (العلق:١)، وأرسله بـ: ﴿أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال. ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.. ثم الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٨٣/١٧.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحت عنوان: فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعثه إلى حين لقي الله عز وجل، ١٥٨/٣-١٦١.

ولما نـزلت سورة براءة، نـزلت ببيان حكم هـذه الأقسام كلها: فـأمر أن يقاتل عـدوه من أهـل الكتاب، حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام. وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم. فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم.. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهدٌ ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.. فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق، أربعة أشهر.. وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل الذمة الجزية..

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة إلى ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

أما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم وبالحجة، وأُمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم».

فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين، وأوردها صاحب الظلال[1]، ملخصاً لها، ثم عقب عليها معدداً سمات المنهج الحركي الإسلامي، وقد ذكر أن السمة الرابعة منها هي الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى... وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام هو الأصل العالمي، الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو أن تسالمه بجملتها، فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي أو قوة مادية، وأن تخلي بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته.. فكل فرد في العالم ينبغي أن يحدد موقفه من الإسلام، فإما أن يسلم، أو يسالم، أو يحارب.

وللإسلام من هؤلاء مواقف محددة وواضحة، فصلتها سورة براءة، ولو لم يكن الإسلام عالمياً لما بقي يؤكد على العالمية منذ بدء الدعوة حتى اكتمل نزول القرآن، ولما حدد مواقفه من هؤلاء، وكان هذا في السنة التاسعة للهجرة أي قبل انقطاع الوحي بعام، على أن هذا التدرج في إقامة نظام الإسلام لا ينفي إعلان عالمية الدعوة منذ الفترة المكية، كما تشير إلى ذلك آية مطلع سورة الفرقان المكية: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

ج- عموم رحمته وعدالته في الحكم:

إنّ إلحاق الرحمة بالناس، هي الغاية التي من أجلها جاءت الشريعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى من يتولى أمر الناس أن يحكم فيهم شرع

(١) انظر في ظلال القرآن، ١٤٣٣/٣.

الله، وأن يعدل بينهم، دون نظر لاختلاف الملل أو النحل، أو الأجناس أو البلدان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء:٥٨).

يقول الطبري في تأويل هذه الآية: «هو خطاب من الله إلى ولاة أمور المسلمين، بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره، في فيئهم وحقوقهم، وما أتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في العطية، والقسمة بينهم في السوية»[1].

وفي هذا من الدلالة على عالمية القرآن ما فيه، بل لقد حذر القرآن من أية دوافع قد تحول دون تحقيق العدالة مع أي من البشر: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨).

د- الشهادة على الأمم:

الأمة الإسلامية، مهتدية بما جاء به القرآن الكريم، جديرة بأن تكون شاهدة على الأمم جميعاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣). فهي الأمة الوسط، التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن فيهم تصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم، فتقوم أمرها، وتقول هذا حق وهذا باطل؛ لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها.. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم.. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول ﷺ هو الذي يشهد عليها، فيقر لها موازينها وقيمها ويحكم على

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٥/٩٢.

أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة، وبهذا تتحد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها به[1].

ومما تعنيه الشهادة، بيان الحق فيما اختلف فيه، وإدانة الباطل الذي دخل تلك الكتب، وما أصابها من تحريف وتغيير وتبديل، وكشف الزيف الذي افتراه الذين استحفظوا من بعد الرسل على الكتب السابقة. وإن الأمة المسلمة بما تمتلك وتجسد في حياتها من قيم الكتاب المحفوظ وما صح من الهدى النبوي، هي أمة معيارية، شاهدة على غيرها، منحها الله الريادة والقيادة، يقول تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ (الحج:٧٨).

فالشهادة على الناس، والقيادة لهم وفق منهج الله في الكتاب والسنة، هي من أخص خصائص المعيارية. ذلك أن أمة الرسالة الخاتمة، يستحيل عليها عقلاً وواقعاً أن تتواطأ على الخطأ؛ لأنها تمتلك القيم المعيارية المعصومة، ويمثلها ويجسدها - باستمرار- ظهور الطائفة القائمة على الحق، لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك، الأمر الذي يقتضي عصمة عموم الأمة، التي يشير إليها قول الرسول ﷺ: **«لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار»**[2].

وخدمة السيرة والسنة النبوية للقرآن، وتجسيدهما له في أرض الواقع واستمرار التمثل بهما حتى عصرنا، دلالة على معيارية القيم المعصومة في الأمة[3].

---

(١) في ظلال القرآن، ١/١٣٠-١٣١.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه، ١/١١٥.

(٣) عمر عبيد حسنه، من مقدمته لكتاب الأمة رقم (٣٧).

خلود القرآن

الخلود أحد مقتضيات الهيمنة، كالعالمية والخاتمية، إذ تقتضي الهيمنة حفظ هذا القرآن، ليصل للناس جميعاً، فيكون خالداً.. ومن مظاهر خلوده:

أ- حفظ الله له:

فقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن أبد الدهر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩).. والمعنى: إنا للقرآن حافظون من أن يزاد فيه ما ليس منه، أو ينتقص منه ما هو منه، من أحكامه وحدوده وفرائضه[1].

وهذا حديث قدسي، يؤكد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن، لا ينال منه شيء أبداً «...وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ»[2]. ومعنى قوله «لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ»: أنه محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مرّ الأزمان.

وأما قوله: «تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ»، فمعناه: أنه يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة؛ وقيل: تقرؤه في يسر وسهولة[3].

وهذا الحفظ أكد وثاقة النص القرآني، مكتوباً ومقروءاً، سليماً من التغيير والتبديل، منذ نزوله وحفظه بالاستظهار في الصدور، والتدوين في الصحف، وبقي المصحف كذلك لم يتغير فيه شيء غير تطور رسمه عبر العصور، وهو تطور محدود بحدود بيان الهيئة الداخلية من ضبط الحروف

(١) انظر: الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٦/١٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي، حديث رقم ٢٨٦٥ (بيروت: طبعة مؤسسة مناهل العرفان، دمشق: مكتبة الغزالي) مج ٦، ١٧/١٩٨.

وإعجامها ، حيث ظلت الهيئة الخارجية للحروف على حالها الأول غالباً مثل كلمة (الصلوة) لم تتغير في رسم المصحف إلاّ في وضع ألف صغيرة فوقها يوضح نطقها هكذا (الصلوة).

ولم يكن الاعتماد على مجرد رسم المصاحف ، بل صحبها شيوخ قراء معتمدون أقروا بما فيها ، وأورثوا تلاميذهم حفظ الصدور ، وقراءة المصحف ، وفقه العمل ، والحكمة ، التي طبقها الرسول. فقد حفظ القرآن بظهر الغيب رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ، من لدن عصر الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، وظل العدد يتنامى ويزيد على توالي القرون ورغم كل الظروف ، بما حقق تواتر نقله في الأجيال.

ويأتي دور الأجيال اللاحقة في فهم المعاني واستخراج الحكم واستخلاص الحلول والمعالجات لمشكلات الحياة المتجددة مع الإفادة الكاملة والتقدير لجهود السلف الصالح ، التي تشكل المرجعية الشرعية لفهم الكتاب وتنزيله على الواقع.

وقد شهد المنصفون من الباحثين ، حتى من غير المسلمين ، بسلامة النص القرآني من التحريف والتبديل ، ومن هؤلاء المستشرقون الألمان حيث جمعوا النسخ الخطية المتداولة للمصحف في شرق العالم الإسلامي وغربه ، للوقوف على ما توهموا من اختلافات بين النسخ ، وقارنوا بين هذه النسخ على العصور والبلدان المختلفة ، فلم يجدوا اختلافاً أصلاً ، مما يؤكد سلامة القرآن من التغيير والتحريف والتبديل ، وهو رد من داخل الدراسات الغربية على كل ما أثير من شبهات لا أساس لها من الصحة.. ولا غرابة في ذلك ، بعد ما شهد القرآن بأن الله تولى حفظه أبد الدهر.

وما أحسن ما أثر عن الجاحظ من كلمة بليغة عن سلامة القرآن من الزيادة أو النقصان، حيث يقول: «إن قوماً يتشككون في أحرف من القرآن ويبحثون عن زيادة أدرجت فيه بغير إذن النبي ﷺ وإجماع الصحابة في الوقت الذي لو أن أحداً أراد أن يدخل حرفاً في شعر أبي الشمقمق لافتضح عند الرواة فضلاً عن كتاب الله عز وجل المنقول بالتواتر والأسانيد الصحيحة والمتلو في المحاريب أناء الليل وأطراف النهار؟».

كما تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب والسنة من أي تحريف أو تبديل، سواء في ذلك تحريف الكلم عن مواضعه، أو تحريفه بالتأويل والخروج بالمعنى عن ما وضع له اللفظ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٧- ١٩)، وهذا التكفل بالحفظ الإلهي والحراسة لبيانه وقيمه عن طريق النبوة، يعتبر من أبرز سمات الرسالة الخاتمة وأخص خصائصها.

ب- خلود القرآن ووجوه إعجازه:

ومن وجوه خلود القرآن وإعجازه للعالمين عجز الجنّ والإنس عن أن يأتوا بمثله منذ نزوله وعلى توالي العصور وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد أوجز العز بن عبد السلام، رحمه الله، معاني الإعجاز فقال[1]:

(١) نبذ من مقاصد القرآن العزيز، تحقيق أيمن عبد الرازق الشواط، ط.١ (طبع مطبعة الشام، توزيع مكتبة الغزالي، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م) ص ٦٢-٦٤. وهذا الكتاب فصل ختم به العز كتابه المعروف «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» وهو مطبوع، ط ١٣١٣ هـ، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

- **الإعجاز:**

١- هو الإيجاز والبلاغة: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (البقرة:١٧٩).

٢- أو البيان والفصاحة: للآية ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر:٩٤)، ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ (يوسف:٨٠).

٣- وهو رصفه الذي أخرجه عن عاداتهم في النظم والنثر، والخطب والشعر والرجز، والسجع المزدوج، مع أن ألفاظه مستعملة في كلامهم.

٤- أو هو أن قارئه لا يمله.

٥- أو ازدياد حلاوته مع كثرة تلاوته، بخلاف غيره، فإنه يُمَلُّ إذا أكثر منه.

٦- أو هو لإخباره بما مضى، كقصة أهل الكهف، وذي القرنين، وموسى والخضر وجميع قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

٧- أو هو إخباره عما يكون، كقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ (البقرة:٢٤)، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ (البقرة:٩٥).

٨- واشتماله على العلوم التي لم تكن فيها آلتها، ولا تعرفها العرب، ولا يحيط بها أحد من الأمم[1].

ومجمل ما ذكره العلماء من وجوه إعجاز القرآن الكريم، يتلخص في أربعة أوجه، هي: الإعجاز البياني، والتشريعي، والعلمي، والإخبار عن غيوب المستقبل. ويتصدر الإعجاز البياني وجوه إعجاز القرآن.

(١) الإمام الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلميت، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (بيروت: طبعة دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م) ص٢١٥.

والإعجاز البياني حقيق بهذا المقام من إمامة وجوه الإعجاز؛ لأنه وحي يتلى بلسان عربي مبين، أعجز العالمين أن يأتوا بمثله في بيانه ووجوه إعجازه كلها، ونقرأ هنا حديث رسول الله ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

والقرآن الكريم مثلما كان المعجزة الكبرى للإيمان، فسيبقى كذلك أبد الدهر، يدعو إلى الإيمان، ويبشر بالمستقبل، بإعجازه البياني والتشريعي والعلمي، والغيبي، ولعل أول ما يلفت النظر من وجوه إعجاز القرآن العظيم ذلك التناسق المحكم بين آي القرآن وسوره، مع تحقيق التكامل والوحدة الموضوعية، حتى أن القرآن كله في ترابطه واتحاد الموضوع، في حكم السورة الواحدة.

وقد أحسن ابن هشام في كتابه «مغني اللبيب»، حيث ذكر في سياق كلامه عن (لا) النافية، أن عدم وجود الخبر في الآية نفسها أو السورة، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ (الحجر:٦)، حيث جاء الجواب في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ (القلم:٢)[2]. بل يذهب الإمام أبو بكر بن العربي في كتابه «سراج المريدين»، إلى أن «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى يكون كالكلمة

(١) أخرجه مسلم.

(٢) جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (دار الكتب العربية) ١/٢٠٠-٢٠١.

الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم...»[1]. وأحسن الزركشي في وصفه لترابط الآيات وتعلق بعضها ببعض، فقال: «بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة»[2].

ولقد اتفقت كلمة علماء العربية، من أئمة التفسير وعلوم القرآن وإعجازه البياني خاصة، على أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم يرجع إلى فصاحة ألفاظه، وبلاغة أساليبه، وخفته على اللسان، وحسن وقعه في السمع، وأخذه بمجامع القلوب[3].

وتتجدد أوجه إعجاز القرآن بيانياً، منذ نزوله وإعجازه العرب الذين عاصروا نزوله، فكانوا في أظهر مراحل لغتهم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بقرآن مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٣- ٣٤).. وجاء هذا المعنى مع التحدي في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨). ولا بعشر سور مثله مفتريات: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود:١٣- ١٤)، ولا بسورة من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (يونس:٣٨)، وهي آية مكية كسابقتها.

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣٦/٢؛ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٦/١-٧.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣٩/١.

(٣) الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد السيد صق، ص٥١.

فجاءت هذه الآيات المدنية في سورة البقرة، تأكيداً للإعجاز والتحدي: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٣- ٢٤).

ولا يزال الإعجاز والتحدي قائمين إلى يومنا هذا، وإلى الأبد، حيث تؤكد الدراسات اللغوية الحديثة أن من وجوه إعجاز القرآن وحدته البنائية، التي تساعد اللسانيات الحديثة على دراستها، كامتداد لما بحثه العلماء المتقدمون في إعجاز القرآن البياني.

ولقد تنزل السورة كالبقرة، نجوماً مفرقة على مدى طويل من الزمان، قد يستغرق سني حياة النبي ﷺ بعد الهجرة، لكنها لمن يتدبرها كأنها نزلت دفعةً واحدة، وفي ذلك يقول صاحب «كتاب النبأ العظيم»: «...إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذ البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة»[1].

إن نظم القرآن قد أخذ بألباب العرب البلغاء، وقد أدرك اللغويون القدامى عظمة لغة التنزيل، وأنها ليست كلغة العرب، أهل اللسن

(١) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات حديثة في التفسير.

والفصاحة، وأن لها خصائص عالية اكتسبت بها الإعجاز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ (فصلت:٤١- ٤٢) .. ولقد أقبلوا على التنزيل مستفيدين، معتبرين، مبينين أفانين شتى من وجوه القول، فكان ذلك مؤذناً أن القرآن قد أقام درس التربية على أنماطٍ جديدة، لم يهتد إليها العرب من قبل أن يتأدبوا بأدب القرآن.. لقد وجد الدارسون في لغة القرآن أنماطاً من وجوه القول وقفوا عليها، فقالوا فيها أقوالاً عدة، إذ هي وأمثالها كانت دافعاً لأهل العلم أن يضعوا أوائل الضوابط النحوية.

ثم إن لغة التنزيل العزيز قد نقلت العربية من كونها لغة أدب نتبينها في الشعر القديم، إلى لغة علم دقيق لها (مصطلحها الشريف)[1].

وأحل العلماء الراسخون منزلتها وعرفوا مكانتها، وكونها أساساً لفهم القرآن، يقول الشافعي: «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وفي التسبيح والتشهد، وغير ذلك...»[2].

ويقول ابن تيمية، رحمه الله: «وإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[3].

---

(١) انظر إبراهيم السامرائي، في شرف العربية، ص ٣٥.

(٢) الإمام الشافعي، الرسالة (ط. دار الفكر) الفقرة ١٦٧، ص ٤٨.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ٦٩/١.

وصاحب الموافقات في أصول الشريعة الإسلامية، يؤكد أنه لا سبيل لفهم القرآن والاستمداد منه إلا بمعرفة العربية، حيث يقول الإمام الشاطبي، رحمه الله: «إن هذه الشريعة المباركة عربية، فمن أراد فهمها فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى طلب فهمها في غير هذه الجهة».

أما العسقلاني، رحمه الله، فيذهب إلى وجوب معرفة اللغة العربية كفرضٍ من فروض الدين، الذي لا يأتي الفقه فيه إلا بهذه المعرفة، وينشد في هذا المقام:

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة
فليس يعرف دين إلا بحفظ اللغات

ولقد تحدث من بعد فأحسن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، رحمه الله تعالى، حيث بين أن القرآن يتناول إعجازه، إلى جانب نظمه وبيانه وتحقيقه لوحدة الأمة، جوانب ثلاثة :

تاريخه، فهو محفوظ بحفظ الله له أبد الدهر، لم يطرأ عليه ما أصاب الكتب السماوية الأخرى من تحريف وتبديل.

أما أثره، فكان أعظم كتاب أحدث هذا الأثر الشامل بما لم يسبق لغيره..

أما حقائقه، فهو الحق، وما أخبر به فكله حقائق: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ (فصِّلت:٤١- ٤٢).

ثم تناول بالدراسة سر الإعجاز في نظم القرآن، وذكر أن الكلام بالطبع يتركب من ثلاثة: حروف، هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم، وأن سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها، بحيث خرجت من جملتها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به.

يقول الرافعي: «فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم».

ويتابع الرافعي حديثه عن الأثر الصوتي لنظم القرآن، فيقول عن الذي يستمع لصوت القرآن: «فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية، في انسجامه، واطراد نسقه، واتزانه على أجزاء النفس، مقطعاً ونبرة، كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة».

ثم يقول: «وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه، مداً أو غنة، أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة، في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوهما، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة، لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من

هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو عجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه؛ لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان؛ وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يعد نقصاً منه في الأداء لأصوات الحروف ومخارجها، وإنما التمام الجامع لهذه الأسباب صفاء الصوت، وتنوع طبقته، واستقامة وزنه على كل حرف.

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن، إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه، بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما، مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه، الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية»[1].

وسيظل القرآن أبد الدهر يقرأ في السر والعلن، في المحاريب والمحافل، آناء الليل وأطراف النهار، لا يمل.. وقد أحسن ابن قتيبة وصف إعجاز القرآن في هذا المقام حيث يقول: «وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين، وجعله متلواً لا يمل على طول التلاوة، ومسموعاً لا تمجه الآذان، وغضاً لا يخلق على كثرة الرد، وعجيباً لا تنقضي عجائبه، ومفيداً لا تنقضي فوائده»[2].

وعلى هذا السياق ذاته، يمضي الرافعي فيقول: «ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه، رأيته غضاً طرياً وجديداً مونقاً، وصادفت من نفسك نشاطاً مستأنفاً، وحساً موفوراً، وهذا أمر في أصله يستوي في العالم الذي يتذوق الحروف، ويستمر تركيبها، ويمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،ط.٦ (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م) ص٢٤٣-٢٤٧.

(٢) تأويل مشكل القرآن،ط.٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م) ص٣.

من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها، على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه»[1].

لم يقف الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن، عند حد بيان الإعجاز البياني للقرآن... بل نص على وجوه أخرى للإعجاز كثيرة، حيث يقول: «إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به»[2].

وفي تأثير القرآن على النفوس وسلطانه يقول سيد:

«إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً»[3].

ثم يسترسل في بيان الأداء القرآني، فيقول:

«إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة، في حين يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول وأدق تعبير وأجمله وأحياه أيضاً، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة، والإيقاع، والظلال، والجو ومع جمال التعبير ودقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ موصفه، بحيث لا يجور الجمال على الدقة، ولا الدقة على الجمال.. ويبلغ من ذلك مستوى لا يدرك إعجازه أحد، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون

(١) المصدر نفسه، ص٢٤٧.

(٢) في ظلال القرآن، ١٥/١٦.

(٣) في ظلال القرآن، ٣/١٧٨٦.

حدود الطاقة البشرية في هذا المجال، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً»[1].

- **الإعجاز التشريعي:**

ويستمر إعجازه تشريعياً، بسبقه الشرائع والتشريعات السابقة المستمدة من أصول كتابية أو من وضع الحضارات والدول. وقد استفادت كل النظم الحضارية على مدار التاريخ، حتى الحضارة الغربية المعاصرة، من التشريعات الإسلامية ومدونات الفقه الإسلامي.

ولقد عد كثير من المتحدثين في إعجاز القرآن الكريم، علم الحلال والحرام أو ما يصطلح اليوم على تسميته بالإعجاز التشريعي، عدوه وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد علل صاحب كتاب «المعجزة الكبرى» لذلك، فقال: «وذلك لأن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع، وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم المودة والرحمة والعدالة، لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية، وإذا وزنا ما جاء في القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان، وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائة سنة وألف، من وقت إنشاء مدينة روما، إلى ما بعد خمسمائة من الميلاد، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل: إنهم ممتازون، منهم «سولون» الذي وضع قانون أثينا، ومنهم «ليكورغ» الذي وضع نظام أسبرطة.

---

(١) في ظلال القرآن، ١٧٨٧.

فجاء محمد ﷺ ومعه القرآن، الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى، من غير درس درسه، وكان في بلدٍ أمي ليس فيه معهد، ولا جامعة، ولا مكان للتدارس، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني، لم يسبقه سابق، ولم يلحق به لاحق»[1].

وتثبت الاكتشافات العلمية أن القرآن لا يتناقض مع أي حقيقة علمية تم اكتشافها في أي عصر من العصور، بل لم يكتشف العلماء والباحثون بعض ما أشار إليه القرآن من حقائق علمية قبل أربعة عشر قرناً، إلا في هذا العصر، بحيث لا تخالف حقائق القرآن ومقرراته ما توصل إليه البحث العلمي من حقائق. والتفسير العلمي بضوابطه الشرعية، يعد من أقوى الوسائل اليوم لبيان إعجاز القرآن لأهل عصرنا هذا.

وقد أشار صاحب كتاب «مدخل إلى القرآن الكريم»[2]، إلى حقائق علمية في القرآن الكريم، فقال: «ولكن القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة، لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة، لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب وإنما لأنها تذكر بالخالق العظيم القدير. ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق تماماً مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث، مثل المنبع الخفي، الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ

(١) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص٤٢٧-٤٢٨ .

(٢) محمد عبد الله دراز، المدخل إلى القرآن الكريم، ص ١٧٥/١٧٦ وحواشيها.

وَالتَّرَآئِبِ﴾ (الطارق:٦- ٧)، والمراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ (الحج:٥)، وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (الزمر:٦)، والمنشأ المائي لجميع المخلوقات الحية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠)، وتكوين المطر: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ (الروم: ٤٨)، ودائرية السماء والأرض: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر:٥)، وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الأنبياء:٤٤)، ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (يس:٣٨)، وتعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام:٣٨)، ووصف حياة النحل بصفةٍ خاصة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ (النحل:٦٨- ٦٩)، وثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى. وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦)»[1].

(١) محمد عبد الله دراز، المدخل إلى القرآن الكريم، ص ١٧٥-١٧٦ وحواشيها.

ثم يضيف الشيخ: «ولكن الأمثلة السابقة هنا لا تتطلب تفسيراً أو تأويلاً، وإنما تتضمن تطابقاً عجيباً بين التوضيح القرآني ذاته وبين التوضيح العلمي، الذي ثبت بعد بحوثٍ طويلة خلال العصور والأجيال، التي انتهت إلى النتائج المقطوع بصحتها، بفضل إسهام رجال متخصصين، كل في فرعه المحدود.

هل في هذا مجرد مصادفة؟ هل يمكن في عصر الجاهلية أن يتعرض رجل مجرد من أية معدات فنية، ومعتمد على علمه الطبيعي الخاص، وعلى مشاهداته المحدودة (بالإضافة إلى ما اشتمل عليه كتابه من حلولٍ في الأخلاق والدين والاجتماع)، لعلوم التشريح، والأرصاد الجوية، والكونية، والنفسية للحيوان والإنسان، وفروع أخرى كثيرة، تتطلب إمكانيات فنية دقيقة، وتجارب جماعية متكاملة، وأن يعطينا في كل موضوع حقائق عالمية خالدة، من غير أن يترك في أي مجال أثراً ولو طفيفاً ينم عن عصره أو بيئته أو حتى خياله الشخصي؟»[1].

- **الخلود والإعجاز بإخباره عن غيوب المستقبل:**

ومن وجوه إعجاز القرآن: إخباره عن غيوبٍ كثيرة، ماضيةٌ وكائنة في المستقبل، فما أخبر به القرآن من أخبار الأمم الماضية، وكله يطابق الحق والواقع، دليل على أنه من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء :٨٢).

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٧ من الحاشية ١٣.

ومـن ذلـك إخبـاره بمـا مـضى كقـصة أهـل الكهـف، وذي القـرنين، وموسى والعبـد الـصالح، كمـا في سورة الكهف. وهكـذا قصص الأنبياء جميعاً، عليهم الصلاة والسلام.

ومن أين لأحدٍ من أنبياء الله ورسله، أن يحدث النـاس عـن قصة الخليقة منذ أبينا آدم، عليه السلام، وما تناسل من ذريته، ومواقفهم مـن رسـل الله، عليهم الصلاة والسلام، مع إحقاق الحق ودحض الباطل... مـن أيـن لأحـدٍ أن يأتي بذلك ما لم يكن مخبراً عن الله ذي الجلال والإكرام؟

أما الإخبار عن غيوب مستقبلية، فقد تحقق بعضها كما أخبر، وينتظـر بعضها تحقيقاً لا ريب فيه.

فمثال ما تحقق فعلاً قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الروم:١- ٦).

ومــن ذلــك إخبــار القــرآن عمــا يكــون، كمــا في قولــه تعــالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ (البقرة:٢٤).

وقد ثبت بتوالي القرون منذ نـزول القرآن، عجز الناس عما تحداهم به، وهـو عجـز متصل مـع التحدي المستمر. أمـا مـا ينتظـر تحقيقـه ممـا أخبـر بـه القرآن، أو أعلمه الله تعالى نبيه الخـاتم عليـه الصلاة والسلام، فنسوق منـه ما تيسر على سبيل البشرى بمستقبل الإسلام وعزة المسلمين.

- البشرى بظهور الإسلام على ما سواه:

لقد ورد في القرآن الكريم من النصوص ما يبشر بظهور هذا الدين على ما سواه، واستمرارية دور الرسالة حتى يظهر على الدين كله، وبعد ذلك إلى قيام الساعة، وهذا لا يكون إلا بالخلود: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢)؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣٣). قال الطبري: «ليعلي الإسلام على الملل كلها ولو كره المشركون بالله ظهوره عليها»[1]. وقال الطبري: «وليظهر دين الإسلام على كل دين، أي بالحجة والبراهين، فقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها»[2].. لا هيمنة دون استظهار لما هي عليه الأديان السابقة وظهوره عليها.

هذا ما نؤمن به يقيناً، ونوقن به جزماً، ولا يزال كتابنا المحفوظ يقرر هذه الحقيقة ويبسطها، وتؤيده سنة نبينا المعصوم ﷺ فتؤكدها. ومن آيات النصر وبشائر المستقبل في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥).. فثبت أن وراثة الأرض مستقبل ينتظر الصالحين من عباد الله، الذين التزموا دينه، وأقاموا شرعته. أما السنن، فقد جاءت تترى، تثبت هذه الحقيقة وتقررها، ومن ذلك:

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٨٢/١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٢١/٨.

حديث النبي ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»(1). ومن ذلك أيضاً قوله، عليه الصلاة والسلام: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر**»(2).

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، قال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أم رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مدينة هرقل تفتح أولاً**»، يعني القسطنطينية(3).. وفي هذا بشارة على أن رومية، وهي المسماة اليوم (روما) ستفتح كذلك، بمفهوم قوله (أولاً)(4).

وكان لا بد من استمرار الجهاد ومضائه إلى يوم القيامة، لضمان حرية العقيدة والأمان وحماية الظهور، ولحفظ كلمة الإسلام عاليةً على ما سواه، وقد وعد الله المؤمنين بالعاقبة الحسنى وبالنصر المبين وأنه قريب من المؤمنين، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الحق.

ومن ذلك ما قصه القرآن من قصص بني إسرائيل، مبيناً فيه عقوبة القصاص في التوراة وتصديق الإنجيل لها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ

---

(1) أخرجه مسلم، 8/171، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد.

(2) صحيح ابن حبان، 1631 – 1632 .

(3) رواه أحمد، 2/ 176؛ والدارمي، 1/126، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(4) وانظر لمزيد من دلائل بشائر مستقبل الإسلام، ص 59-62 من كتابنا المستقبل للإسلام، كتاب الأمة (46).

وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة:٤٤- ٤٦).

ويقول تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (الشورى:١٣- ١٤).

فأثمرت إيماناً بالله: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (الرعد:١٧)، ويقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ (النساء:٥٨).

الاجتهاد الفقهي والأصولي في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور نور الدين مختار الخادمي(*)

إن بيان حقيقة أنواع الاجتهاد الأربعة (الاجتهاد الفقهي، والأصولي، والقواعدي، والمقاصدي) ورسوخها في القرآن هو الأمر الذي يعمق الوعي بها، ويقوي جانب الإقدام عليها ومزاولتها بوصفها شأنًا قرآنيًا مجيدًا وحقيقة من حقائقه الخالدة، التي ينبغي تمثلها وتحملها وتنفيذها في الواقع الفقهي الشرعي، وفي مجال الحياة الإسلامية والإنسانية بوجه عام.

المقدمة:

الاجتهاد كلمة عربية وإسلامية لهجت بها ألسنة أهل العلم والفكر، واحتفت بها مجالسهم ومدوناتهم وآثارهم. كما حظيت باهتمام بالغ وعناية فائقة داخل دائرة المعارف الشرعية والفقهية والأصولية بوجه خاص.

(*) باحث أكاديمي.. مدير مدرسة الدكتوراه، جامعة الزيتونة (تونس).

ومعلوم ما لهذه الكلمة من ظواهر الرسوخ ودلائله في القرآن الكريم. ومعلوم، كذلك، ما لهذا الرسوخ من دلالة عميقة على أهمية الاجتهاد ودوره في الفهم والنظر والاستنباط وإيجاد الحلول للمشكلات والتساؤلات، ووضع البدائل الممكنة والخيارات المناسبة.

ومعلوم، أيضاً، أن إحياء الوعي بهذا الرسوخ سيحدث التجديد والتفعيل في فعل الاجتهاد وحركته ومنظومته، وسوف يحرك العقول والأنظار، وينشط المؤسسات والهيئات، وينفي كثيراً من ظواهر الجمود وحالات التراجع والتقهقر في عالم الفكر والسلوك، في الداخل والخارج.

ونكاد نجزم في مقدمتنا هذه أن الاجتهاد جزء من الاعتقاد، ولكننا نقطع أنه من مستلزمات الإيمان ومقتضيات الشريعة ومتطلبات الحياة المعاصرة واللحظة الراهنة. ونقطع في ذات المقام أن هذا الاجتهاد برسوخه إنما هو الاجتهاد بضوابطه وروابطه، وهذا تحصيل حاصل، إذ الرسوخ دال على الجذور والأصول، ومنتج للثمار والآثار.

وكذلك، فإن قرآنية الاجتهاد دالة على تمام هذا الرسوخ والانضباط، برسوخ القرآن وانضباط نصوصه وأحكامه، واطراد حقائقه وأسراره؛ لأنه كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

المطلب الأول

الاجتهاد ورسوخه في القرآن الكريم

- الاجتهاد: من المدلول اللغوي إلى الاستعمال الاصطلاحي:

تدل عبارة الاجتهاد في لغة العرب على معنيين اثنين، الطاقة والمشقة وبذل الوسع والمجهود في طلب الأمر. ذكر ابن منظور أن الاجتهاد من جَهَدَ، والجَهْدُ هو الطاقة، وقيل: هو المشقة[1]. وقيل: الجَهْدُ هو المشقة، والجُهْد هو الطاقة. وجاء في محيط المحيط أن الاجتهاد في الأمر هو الجد وبذل الوسع فيه وتكلف المجهود[2].

وتَطوُّر المدلول اللغوي لعبارة الاجتهاد إلى استعمال اصطلاحي قد استقر عند أصحابه، بحسب المجال العلمي والتخصصي والوظيفي الذي يقومون به ويتصدون له. وذلك على نحو مجال الفلسفات والقانونيات والسياسيات والشرعيات، وغير ذلك مما يشكل الإطار الموضوعي والمجال العلمي والوظيفي الذي يُقيم عليه المجتهد نظره وعمله واستنباطه وحلوله.

والذي يعنينا في مقالنا هذا، إنما هو مجال الشرعيات الذي يقيم النظر فيه الإنسان المجتهد (الفرد أو الجماعة)، والذي يُصطلح على تسميته بالمجتهد أو الفقيه والأصولي والعالم المحقق والمفتي المدقق، وغير ذلك مما تتحدد عباراته ومدلولاتها وفق اعتباراتها وحيثياتها. أما مجال الفلسفات

(١) لسان العرب، ط.١(دار صادر، ١٩٩٧م) م١/ص٤٧٦،٤٧٧.

(٢) بطرس البستاني، محيط المحيط (مكتبة لبنان، طبعة سنة ١٩٧٧م) ص١٣٠-١٣١.

وغيرها فمورده ومقامه المعارف الفلسفية والكلامية والقانونية والسياسية، التي ينهض بها أصحابها من الفلاسفة والمناطقة وعلماء الكلام وفقهاء القانون وأهل السياسة؛ إذ بوسع هؤلاء أن يطلقوا على أنفسهم صفة الاجتهاد القائم على إعمال النظر والفكر في مجال هذه المعارف وموضوعاتها؛ دون أن تلتبس بصفة الاجتهاد الشرعي الإسلامي القائم على النظر والفكر في مجال الشرعيات وموضوعاتها الفقهية والأصولية، العملية والنظرية.

ففي مجال الشرعيات - كما ذكرنا- يكون المجتهد ناظراً في المدركات الشرعية وأحكامها ودلائلها بغية التصدي للنوازل والأقضية وتأصيل الظواهر والأفعال وتصحيح المسارات والخيارات وتغليب الراجح والأولى والأهم؛ بالنظر إلى توجيه الدين ومراد الشارع ومصالح الخلق. ويحتوي مجال الشرعيات على ما يُصطلح عليه بالفروع والأصول، أو الجزئيات والكليات، أو الأحكام والأدلة، أو المباني والمعاني، أو ما يُصطلح عليه بعبارة أوضح بالفقه وأصوله وقواعده ومقاصده. وهذه الأمور الأربعة إنما تمثل المجال الشرعي الذي ينصرف إليه مصطلح الاجتهاد عند إطلاقه، والذي يدور فيه نظر المجتهد الشرعي بأساليب عدة ومتنوعة حسب هذه الأمور وموضوعاتها ومدركاتها ومسائلها وغير ذلك. أي أننا إزاء هذه الأمور الأربعة نكون قد أقررنا أنواعًا أربعة للاجتهاد:

الاجتهاد الواقع في مجال الفقه والذي يمكننا أن نصطلح عليه بالاجتهاد الفقهي؛ والاجتهاد الواقع في مجال أصول الفقه والذي يجوز لنا أن

نصطلح عليه بالاجتهاد الأصولي؛ والاجتهاد الواقع في مجال القواعد الفقهية والذي نسميه بالاجتهاد القواعدي؛ والاجتهاد الواقع في مجال مقاصد الشريعة وغاياتها وأسرارها والذي نسميه الاجتهاد المقاصدي.

إن هذه الأنواع الأربعة للاجتهاد الشرعي، ولئن كانت تتخذ من الشرعيات مجالاً وموضوعًا لها، إلا أنها تتفاوت في مستويات عملها وأساليب أدائها وآثاره ومآلاته؛ وذلك بالنظر إلى تفاوت مستويات هذا الفقه وأصوله وقواعده ومقاصده من حيث الموضوع وطريق الثبوت والحجية والثمرة والعلاقة بالآخر، وغير ذلك مما يرسم معالم في التميز والتفرد أو الاختلاف والتنوع الملحوظة في كلٍّ من هذه العلوم الأربعة.

ثم إن المهم الأكبر في هذه الأنواع الاجتهادية الأربعة (الاجتهاد الفقهي، والأصولي، والقواعدي، والمقاصدي)؛ بيان حقيقتها ورسوخها في القرآن الكريم، وكونها مشارًا إليها ومصرحًا ببعضها ومدعوًا إلى اعتبارها بوجه من وجوه الاعتبار. وهو الأمر الذي يعمق الوعي بها ويقوي جانب الإقدام عليها ومزاولتها بوصفها شأنًا قرآنيًا مجيدًا وحقيقة من حقائقه الخالدة التي ينبغي تمثلها وتحملها وتنفيذها في الواقع الفقهي الشرعي، وفي مجال الحياة الإسلامية والإنسانية بوجه عام.

وفي بحثي هذا، سوف أقتصر على الاجتهاد الفقهي والأصولي، تاركًا النوعين الآخرين (الاجتهاد القواعدي والمقاصدي) إلى بحث آخر، بإذنه تعالى.

- رسوخ مطلق الاجتهاد في القرآن الكريم:

الاجتهاد بوصفه شأنًا إنسانيًا يزاوله العقل ويتحمله الجسد وتقوم به الإرادة، إنما هو حقيقة راسخة في القرآن الكريم. وهو جار في سياقات بيانية كثيرة ومتنوعة دالة على أقدار عالية من استغراق عدة مفردات وشمول كثير من الحالات.

والناظر في هذه السياقات البيانية بوسعه أن يدرك العناية القرآنية الفائقة بعبارة «الاجتهاد» ومشتقاتها وموضوعاتها وأحوالها. فقد وردت هذه العبارة بمشتقاتها في أكثر من أربعين نصًا قرآنيًا، هذا دون أن ننسى العبارات المرادفة للاجتهاد والمتوافقة معها في مستوى الدلالة والمعنى والمقصود والأثر. ومن شواهد عبارات الاجتهاد: جاهد، وجاهداك، وجاهدوا، وتجاهدون، ويجاهد، ويجاهدون، وجاهدهم، وجَهْدَ أيمانهم، وجُهدهم، وجهاد، وجهاده.

ومن الانطباعات السريعة التي ترتسم في ذهن الناظر إزاء هذه الاستعمالات اللفظية المختلفة لعبارة الاجتهاد:

- كثرتها، فقد تجاوزت أربعين موضعًا؛ وهو ما يؤكد عظم احتفاء القرآن بهذه العبارة ومدلولاتها وسياقاتها وآثارها. والكثرة مظنة الوفرة، وزيادة المبنى زيادة المعنى، وما كان أكثر عملاً كان أكثر فضلاً.

- تنوع صيغها، فقد وردت فعلاً ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً، ووردت فعلاً فرديًا وجماعيًا، ووردت فعلاً ومصدرًا؛ وهو الأمر الذي يؤكد استغراق

الفعل الاجتهادي لأطوار الزمان كلها، وأحوال الشعوب كافتهم، وشموله للأفراد والجماعات والهيئات، مع مراعاة التخصص والموضوع والمجال والسياق، فالموضوع الفقهي الشرعي يوكَل الاجتهاد فيه إلى العلماء بالشرع ومدركاته، والموضوع الطبي والعلاجي يُسند الاجتهاد فيه إلى الأطباء وعلماء الصحة والسلامة الجسدية، وهكذا.

- تنوع مجالها، فقد وردت استعمالات الاجتهاد مقرونة بالنفس وبالمال، ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ (النساء:٩٥)، وبالوالدين «**ففيهما فجاهد**»، وبالمجاهدة في الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ (العنكبوت:٦٩)، وبالقرآن الكريم: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢)، وبالأيمان: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ (الأنعام:١٠٩).

فتنوع هذه الاستعمالات يشير إلى تنوع المجالات التي يُمارس فيها الاجتهاد؛ فالنفس الإنسانية تكون مجالاً كبيرًا للاجتهاد الجهادي، الذي تكون فيه نفسًا شهيدة في سبيل الله تعالى ونصرة الحق ومقاومة المحتل والمعتدي.

والمال - كذلك- يكون ميدانًا لكل ذلك؛ بما يتحمله الإنسان من مشقة الإنفاق والاستثمار وتقوية الجناب ودعم النماء. والوالدان، باعتبار كونهما عنوانًا كبيرًا لأنواع البر والمعروف والوفاء، يمثلان بابين واسعين لفعل الاجتهاد المعروفي والخيري، قيامًا عليهما ورعاية لشؤونهما واعترافًا بجميلهما.

أما المجاهدة في الله تعالى فمرادها مجاهدة النفس وتوطينها على حب الامتثال والطاعة والانكسار إلى الباري تعالى، بفعل المأمور به والانتهاء عن المنهي عنه، وبمزاولة الترقي الإيماني والتربوي إلى غاية رضوانه في الآخرة والاهتداء إلى السبيل إلى ذلك كله، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت:٦٩).

أما الجهاد بالقرآن فضروبه كثيرة ومدلولاته وفيرة:

فأولاها التلقي والتفهم والتعقل والتدبر؛

وأبرزها الإفهام والتبيين والتفسير والتوجيه؛

وأدومها الملازمة والمداومة والتجديد والتفعيل؛

وأبلغها وأوسعها التحلي والتجلي والتمثل والتأدب؛

وخامسها غير ذلك من الفوائد والفرائد والمحاسن والعجائب التي يتسم بها القرآن عبر العصور وإلى يوم النشور والظفر بالتجارة التي لن تبور.

وأما جَهْد الأيْمان فمرادها أقواها وأغلظها وأوكدها[1]؛ وهو الذي يؤسس قوة فعل الاجتهاد وشدته على النفس والوصول به إلى آخره؛ من أجل تحقيق نتائجه وآثاره.

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ٢٣٣،٢٣٤/٦.

المطلب الثاني
الاجتهاد الفقهي ورسوخه في القرآن

- مدلول الاجتهاد الفقهي:

«الاجتهاد الفقهي» كلمة مركبة تركيبًا وصفيًا من كلمتين، هما: كلمة «الاجتهاد»، وكلمة «الفقهي». وقد بيّنا مراد الاجتهاد، ونبيّن فيما يلي كلمة «الفقهي».

فالفقهي نسبة إلى الفقه. والفقه هو العلم بالشيء على وجه الإحاطة والعمق والدقة. جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود:٩١)، وجاء قوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء:٧٨). كما جاء قوله، عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1]. وكل هذه المعاني المشتقة من الفقه تتصل بالعلم الدقيق والمعرفة العميقة والإحاطة الجامعة والواعية بالمعلومات والعلوم المقصودة بالتفقه فيها والعلم بها.

أما الفقه في الاصطلاح العلمي الإسلامي فيراد به أحكام الشرع العملية المستفادة من أدلتها التفصيلية. وهو المراد بقول العلماء: أحكام الحلال والحرام والواجب والمندوب والمكروه والمباح، والمستفادة من نصوص الوحي الإلهي الكريم، قرآنًا عظيمًا وسنة صحيحة. وقد استقر في دائرة المعارف الإسلامية أن الفقه يُراد به أقسامه وتفاصيلها العلمية، وهي: فقه العبادات

(١) أخرجه البخاري.

والمعاملات والأسرة والأخلاق والجنايات. وهو مشتهر بمصطلح الفقه الإسلامي.

و«الاجتهاد الفقهي» هو الاجتهاد الواقع في مجال الفقه الإسلامي، أي الواقع في مجال هذه الأقسام. وهو مجموع النظر والأداء الصادرين من الفقهاء في التعامل مع هذه الأقسام وتفاصيلها. وهذا يشمل عدة أضرب منها: تحصيل الأحكام واستيعابها، وبيانها وتعليمها، وتنزيلها وتطبيقها، ودراستها وتحقيقها وإجراء مقارناتها ومقارباتها، وتجديدها وتفعيلها، وغير ذلك مما يُعد من قبيل الاجتهاد في الفقه الإسلامي بأوجهه المختلفة وضروبه المتعددة.

ومن هنا فإن الاجتهاد الفقهي يتناول مستويين من التحمل والأداء؛ مستوى أهل التخصص والعلم الذين يزاولون عمل الإفتاء والقضاء والتحقيق والتجديد والتخريج والإلحاق والتفريع والتأصيل والترجيح؛ ومستوى عمل عموم المكلفين الذين يزاولون التكليف الديني بناء على معرفتهم بالأحكام الفقهية وتمثلهم لأدلتها وتوجيهها ومقاصدها. إذ إن هؤلاء يزاولون ضربًا من الاجتهاد بمعناه اللغوي المتصل ببذل الجهد العقلي والبدني والروحي لتحصيل الحكم الفقهي واستيعابه وحسن تطبيقه وتبليغه، والعمل على إتقان التفقه والتفقيه، فكرًا وتنزيلاً. كما أن بعض هؤلاء -ولاسيما ذوي المراتب العلمية والثقافية المتصلة بالعلوم الفقهية والشرعية- قد يكون لهم حظ من التجاوب والتفاعل في دائرة الاجتهاد وإزاء أهله وأربابه، من خلال تكييف أوضاعهم وفق أحكام الفقه، وبذل الجهد في فهم جوانب من مناطات

الأحكام وعللها ومقاصدها، وفي تنزيلها على واقعهم وحياتهم، ولكن دون استقلال عن توجيه المجتهد المتخصص والفقيه المتقن، ودون أن يمارس هؤلاء العامة أي أداء في الإفتاء والاستنباط والاجتهاد، إذ هذا كله موكول لأصحابه المتخصصين الراسخين، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤)، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء:٨٣).

غير أن الاجتهاد الفقهي في أساسه العلمي والوظيفي، إنما يوكل للفقهاء والمجتهدين وأصحاب التحقيق في علوم الفروع والقواعد والأصول والمقاصد والفروق؛ وذلك لأنه رتبة عالية وتخصص دقيق لا يتصدى له إلا من رُزق مؤهلات ذلك في المعرفة والتزكية والتجربة العملية ومعايشة الواقع وهمومه. ومن رزقه الله تعالى قدرًا من التفقه في التحمل الذهني وامتثاله الشرعي وتعليم غيره وتوجيهه؛ فذلك من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء.

- رسوخ الاجتهاد الفقهي في القرآن العظيم:

رسوخ مبدأ «الاجتهاد الفقهي» في القرآن العظيم حقيقة قطعية جارية في كثير من نصوص هذا القرآن ومعانيه وأحكامه ومقاصده، مع ما في ذلك من التفاوت في أقدار هذا الرسوخ ومسالكه وأساليبه ومتعلقاته. فقد تضمن القرآن الكريم من الشواهد المقررة لمبدأ الاجتهاد وفائدته وضوابطه؛ ما يجعل هذا المبدأ يرقى إلى مراتب المعلوم الضروري وواجب العلم والعمل قطعًا ويقيناً أو ظنًا غالبًا وراجحاً. وهذه الشواهد بمجموعها وباستقرائها وربطها بغيرها مما هو من موضوعها، ومما ورد في السنة،

وفي كلام السلف الواقع في مجال المرفوع والمنقول والمجمع عليه والراجح على غيره؛ فتقرر هذه الشواهد حقيقة مبدأ الاجتهاد الفقهي، وأنه ضرورة دينية وإنسانية وحضارية، هذا فضلاً عن كونه منظومة معرفية تتكامل فيها أجزاؤها وتتناغم أوجهها وصورها وتتبين ضوابطها وآلياتها وكيفياتها.

- إيراد بعض هذه الشواهد:

هذه الشواهد كثيرة ومتنوعة ومتفاوتة ومتكاملة. ويمكن للناظر أن يقف عند بعضها وأبرزها، مما يمكن أن يشكل مدخلاً لدراسة أعمق وباستقراء أوسع واستنتاج أقطع، وأن يستحث أصحاب الهمم العالية في الزيادة والاستزادة؛ من أجل الإقناع بجدوى هذا الاجتهاد وأثره البالغ في تنزيل الأحكام وتفعيلها، وفي تحقيق الامتثال الأقوم والإفتاء الأصوب والنظر الأحكم والاجتهاد الأورع (من الورع) والأروع (من الروعة).

الشاهد الأول: مجموع أحكام القرآن الواردة في مختلف أقسام الفقه الإسلامي:

وذلك كأحكام أوقات الصلاة والصوم والزكاة والحج، وأحكام التراضي والمسامحة والعدالة والتوثيق في المعاملات المالية، وأحكام الزواج والعشرة والحمل والرضاعة والنفقة... في الأسرة، وأحكام المواريث والجنايات وغيرها. فقد توالت هذه الأحكام في القرآن المجيد، وتفاوتت أساليب بيانها، من حيث الإجمال والتفصيل، والتصريح والتلميح، والانفراد والاجتماع والتقوي بالآخر النصي والحكمي، والقطع والظن في الدلالة على المعاني والأحكام. ومعلوم أن ورودها وتفاوت أساليب هذا الورود من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الاجتهاد فيها والنظر إليها والاستنتاج منها. فهذا الورود

موضوع لتلقيه وفهمه وتحمله وتطبيقه وتفعيله، فهذه الأحكام مشروعة لكل ذلك، وهذا الورود معدود من قبيل القرآن، الذي ينبغي أن يُتعبد به في تلاوة آياته، وتدبر معانيه، واستخلاص فوائده وترتيب آثاره عليه. كما أن هذا الورود قد أحيل على السنة الشريفة لبيانه أو زيادة بيانه، أو لتأكيده وتعظيمه، أو لتفصيله وتفسيره، أو لمزاولة أي صورة من صور ارتباط السنة بالقرآن وصلتها البيانية والإيضاحية له.

إن صور التعامل مع مجموع الأحكام القرآنية، فهمًا وتحملاً وتبليغًا وتفسيرًا وتأويلاً واستدلالاً واستنباطًا وتحقيقًا وتحريرًا... إنما تُظهر بجلاء حقيقة الاجتهاد في فقه هذه الأحكام ومستوياتها المختلفة، كمستوى الفقيه المتطلع إلى استقرائها وتقرير قواعدها، وكالمجتهد المزاول للاستنباط منها وتنزيلها على الوقائع بالإفتاء والقضاء، وكمستوى المكلف الذي يفهم هذه الأحكام ويتمثلها في واقعه الحياتي وفق درجة علمه وخبرته وتدينه وتزكيته، وبموجب ما يقدمه إليه العالِم والفقيه والمجتهد من توجيه وتصحيح لمسيرة ذلك كله.

- الشاهد الثاني: مجموع أدلة أحكام القرآن الكريم:

مجموع الأحكام القرآنية منوطة بمجموع أدلتها ونصوصها. ومن ذلك حكم وجوب إتمام الحج والعمرة، فهو وارد في النص القرآني: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٩٦)، وحكم تحريم الربا، فهو وارد في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ (البقرة:٢٧٥). ومعلوم أن تقرير هذه الأحكام قد ثبت بالنظر في أدلتها والاستنباط منها، وفق منهج ذلك وكيفيته وضوابطه. وهو ما يقرر ضمنًا الدعوة إلى الاجتهاد في فقه هذه الأحكام،

أي أن وضع هذه الأدلة إنما يُراد به أحكامها المتضمنة فيها، كما يُراد به تقرير مقاصدها وتحقيقها في الواقع وترتيب آثارها عليها. وكل ذلك موقوف على إعمال النظر وفعل الاجتهاد. فكأن القرآن يدعو صراحة إلى هذا النظر والاجتهاد في هذه الأدلة من أجل إظهار أحكامها وبيانها. غير أن القرآن قد جعل ذلك أمرًا يستلزمه ورود هذه الأدلة، ويقتضيه مراد الله تعالى الذي أنزل هذه الآيات لفهمها وتحملها في الامتثال والالتزام، ويستوجبه صلاح الناس الذين هم مخاطبون بهذه الأحكام المستنبطة من أدلتها. وفي ذات الوقت نلاحظ أن القرآن قد صرح وأشار إلى النظر والاجتهاد والتدبر؛ بما يفيد وجوب فعل الاجتهاد في هذه الأحكام وتحصيل فهمها وفقهها.

كما أن القرآن لم يحرم عموم المكلفين ومجموع الناس من مزاولة أوجه من التأمل والتدبر في هذه الأدلة وأحكامها، وفق مراتب تحصيلهم ودرجات فهومهم. إذ بوسع المكلف العامي أو الإنسان العادي أن يحصل له قدر من فهم قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٩٦)، يتمثل في معرفة كون الحج والعمرة عبادتين يجب فعلهما على الوجه التام والكامل، وينبغي القيام بهما لله وحده دون رياء أو شرك. فتحصيل العبادتين على الوجه التام والكامل يُفهم بمجرد قوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟﴾، والذي يفيد بصراحة وجلاء ويسر الفعل وتمامه وكماله، كما أن قوله ﴿لِلَّهِ﴾، يفيد بأن يكون الحج والعمرة لله وحده، وهو ما ينفي تشريك غيره فيه، كالصنم والولي، وكإرضاء الناس وتحقيق المآرب ونيل المراتب وحصول الشهرة والسمعة.

فالمكلّف في هذه الآية الكريمة قد نال حظوظًا من الفهم وفق مستطاعه في الفهم والإدراك. ولهذا المكلف هذا الفهم؛ باعتبار كون الآية متوجهة إليه ليقرأها ويتدبرها ويعمل بها. وبفعله لكل ذلك يكون قد مارس ضربًا من الاجتهاد الذاتي لتحسين امتثاله وتعامله وتعميق فكره وحفظ عقله وربطه برباط النظر في الأدلة القرآنية والشرعية؛ مما يديم وجوده وبقاءه في دائرة الامتثال والذكر، ومما يقربه من ربه تعالى ويعظم ثوابه ويقوي إيمانه ويصفي سريرته ومسيرته من الشوائب والتهم والقوادح.

ثم إن تحصيله لأقدار فهمه للآية لا ينبغي أن يصرفه عن مراجعة من هو أكثر علمًا وتخصصًا منه، كالمفسر الذي قد يبدي له بعض الفوائد التفسيرية كإبداء سبب نزولها وصلتها بغيرها وأوجهها البلاغية واللغوية، كدلالة حرف الواو على الجمع أو المعية أو الترتيب أو عكس الترتيب أو الاستئناف أو الحال. وكالفقيه المفسر لآيات الأحكام الذي قد يبدي له حكم الحج والعمرة، وهل هما بمعنى الواجب والفرض، أم أن الحج فقط هو الفرض والواجب؟

أما العمرة فهي غير ذلك، كما قد يبدي له تفاصيل كثيرة في الأحكام الفقهية للحج والعمرة بناء على ورودهما مجتمعين في هذه الآية، وبناء على ورودهما في آيات وأحاديث أخرى، وغير ذلك مما لا يتصدى له إلا المفسر الماهر والفقيه المتقن والعالم الراسخ. والمكلف في كل ذلك متلق ومحصل، ومضيف إلى رصيد تحصيله وتعلمه، ولكن بنظر دقيق وفهم عميق واستحضار واع وامتثال متبصر وصادق. وكل هذا من قبيل عمله الذهني وأدائه النظري والاجتهادي.

الشاهد الثالث: مجموع الآيات المتضمنة لمشتقات عبارة الفقه:

وذلك كآية: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء:٧٨)، وآية: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود:٩١)، وآية: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤)، وآية: ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ (طه:٢٨)، وغير ذلك من الآيات التي تضمنت صراحة هذه المشتقات. وهي بمجموعها تعطينا معنى أكبر وأوسع وأبلغ وأقطع للفقه والعمل والاجتهاد فيه. كما أنها تؤصل مبدأ التفقه وعملياته وتداعياته، وتقرره على أنه أصل راسخ وحقيقة ثابتة في محكم التنزيل ومتشابهه، وحقيقته ومجازه، وكلياته وجزئياته، وظواهره ومدلولاته، ومتنوع توجيهاته وتوصياته.

والحاصل الجوهري المشترك الثابت بالنظر في مجموع آيات مشتقات الفقه، يقرر معنى جامعًا لهذه المشتقات؛ وهو العلم والفهم والإدراك، والعمق في ذلك ودقته والوعي والإحاطة به، مع تفاوت مقادير ذلك وأساليبه ومقاماته وأحوال أصحابه.

ثم إن هذه المشتقات تمثل توجهًا قرآنيًا مبدئيًا مهمًا لفعل التفقه والتفقيه وإدامته وترسيخه وتعميمه وتفعيله وتأصيله وضبطه، سواء بالنسبة إلى الفقيه والمجتهد على صعد أعماله المختلفة المتصلة بالاستنباط والاجتهاد والتفسير والإفتاء والقضاء والتخريج والقياس وملاحظة الفرق والاستثناء والترجيح... أو بالنسبة إلى المتفقه المكلف الذي يزاول أقدارًا من الفهم البسيط والعميق بحسب مستطاعه الذهني والإرادي والعملي، وبحسب ملازمته لأهل العلم ومعايشته لمجال النظر ومواضع الكتب وفرص الفكر.

وفي كل الأحوال يُطالب الفقيه المتخصص والمتفقه المطلع والمهتم المتابع والمكلف الممتثل بمزاولة الفهم العميق والمعرفة الواعية والإحاطة الممكنة بالأدلة وأحكامها وأسرارها، وفق شرط الاستطاعة في التحصيل؛ قياساً على شرط الاستطاعة في الامتثال، فقد تقرر في محكم التنزيل أنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، وأنه «لا واجب مع العجز ولا حرام مع الضرورة». وكل هذا من ضروب التفقه والتعرف والتدبر. وكلاً وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً.

صلة هذه الآيات بالاجتهاد الفقهي:

أوجه هذه الصلة فيما يلي:

- أن هذه الآيات مثلت إحدى طوائف الأدلة القرآنية على حقيقة الفقه وتعريفه ومشروعيته، فقد جرت عادة كثير من العلماء على إيراد هذه الآيات الكريمة عند تعريفهم للفقه في لغة العرب واستعمال أهل العلم، وعند بيان أهمية الفقه وفائدته وأثره.

- أن هذه الآيات شكلت المعنى المشترك والمدلول الأساسي للفقه الإسلامي، وذلك المعنى هو: العلم الدقيق والفهم العميق والإحاطة والغزارة...

- أن بعض هذه الآيات شديد الصلة بموضوع الأحكام الدينية والتعاليم السماوية، كقوله تعالى على لسان شعيب: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود:٩١)، فينصرف لفظ: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ إلى معنى: «ما نفهم أحكام ومعاني كثيرًا مما تقول»، إذ الفهم هنا فهم لما يدل عليه قوله، أو فهم لقوله ومعناه وحكمه وتوجيهه. وليس لمجرد القول العاري عن مدلوله ومعناه وحكمه.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ (النساء:٧٨)، فينصرف حسب ما ظهر لي إلى فهم معاني الحديث وأحكامه. ومما يقوي هذا الذي ذهبت إليه حديث الدعاء لابن عباس: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1]، فارتباط الفقه بالدين يقرر معنى فهم أحكام الدين وهديه وتوجيهه، وهذا الفهم يكون بالمعرفة العميقة والجامعة والواعية، وليس بمجرد معرفة الظواهر والعموميات والشكليات. وغيره من الأحاديث والآثار المقوية لمعنى ربط الفقه بالفهم الدقيق للأحكام والمقاصد والمناطات والعلل والفروق والقوادح والاعتراضات والترجيحات وغير ذلك مما يشمله مصطلح الفقه ومدلوله وعمومه.

- **أجمع آية في الدلالة على رسوخ الفقه في القرآن الكريم:**

هي قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢). ومن دلائلها:

- أنها تضمنت عبارة النفير، الذي يُطلق في الغالب على الجهاد والقتال. فكأن التفقه في الدين بمنـزلة الجهاد والقتال: من حيث إعداد القوة الذهنية والمادية والنفسية، واعتماد العمل الجماعي، وتراص الصفوف، واستمرار الجهود، ودوام العطاء، والصبر والثبات عند مواجهة الشدائد والنوازل.

- أنها تضمنت عبارة الطائفة للدلالة على أن النفير الفقهي يقوم به أصحابه المتخصصون والمتقنون، فهو واجب يتعلق بذممهم، ودون أن يعفي الأمة من الحث والتحريض والتلقي والتحمل والتفقه والتفقيه بالمعنى العام

(١) أخرجه الإمام أحمد.

الذي لا يفوت حق هذه الطائفة في الاستنباط والاجتهاد، وفي العمل الفقهي الدقيق والمتخصص والموقوف عليها دون غيرها.

- أنها تضمنت عبارة التفقه في الدين للدلالة على أن هذا الفعل إنما هو طلب الأحكام الشرعية والتوجيهات الدينية في شتى أحوال الناس وأفعالهم ومبتكراتهم وحوادثهم. وهو الأمر الذي يرمز بدلالة واضحة إلى انطباق عبارة الفقه على طلب الأحكام من الدين.

- أنها تضمنت الإنذار، وهو أحد أسلوبي الخطاب الموجه إلى الناس، والذي ينضاف إلى أسلوب التبشير. وقد خُص بالذكر لأمور، منها: إمكان انطوائه على الأسلوب الثاني، إذ الإنذار هو التحذير من مغبة فعل المحرم، أو من مغبة ترك الواجب الذي يقتضي العقاب، ويقتضي خلافه الثواب. ومنها: تغليب التحذير على التبشير لمهابته وعظمته وخطورته. ومنها ربما: الإحالة إلى البيانات الشرعية الأخرى لتحصيل أسلوبي الخطاب، تبشيرًا وإنذارًا؛ والله أعلم.

وفي كل أحوال هذا الخطاب يتقرر شموله لأحوال الفقه ومفرداته ومسائله وحلوله وبدائله وإسهاماته؛ وذلك بناءً على مبدأ نوط الإنذار بالتحريم والمنع والإثم والعقاب، ونوط التبشير بالوجوب والندب والثواب وحسن الجزاء.

والخلاصة الجامعة لهذه الآية الكريمة أنها دلت بجلاء على متانة التفقه والتفقيه في القرآن الكريم، وأشارت في مجموعها إلى شيء من مفردات هذا التفقه والتفقيه، كمفردة أصالة فعل التفقه والتفقيه واعتباره فعلاً أساسيًا وشأنًا ضروريًا للفرد والمجتمع والدولة والأمة، ومفردة أهل الفن

الفقهي وأربابه وأنهم جزء من الكل، لهم وظيفتهم وشروطهم ودورهم في المعرفة والتنمية، ومفردة أساليب الخطاب الفقهي وآلياته وآدابه، ومفردة نتائجه ومآلاته وتداعياته ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

الشاهد الرابع: مجموع الآيات المتضمنة لمشتقات النظر والفكر والعقل ومترادفاتها:

وذلك كآية: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، وآية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية:١٧)، وآية: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤)، وآية: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر:١٨)، وآية: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس:١٠١)، وآية: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء:٨٢)، وآيات أخرى كثيرة.

إن مجموع هذه الآيات تؤسس لمبدأ النظر والتفكر والتعقل بوجه عام، ولمبدأ التفقه في الدين والأحكام بوجه خاص؛ وذلك لأن النظر المدعو إليه يشمل النظر في الموجودات الكونية وفي المشروعات الدينية.

فالأول، كقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١)، فالدعوة هنا هي دعوة إلى إعمال النظر في النفس وخلقها وخصائصها ووظائفها ودلائل الإعجاز والاستخلاف والتكليف والامتثال في ذلك.

وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ (عبس:٢٤)، والذي دُعي فيه الإنسان إلى التأمل في طعامه، من حيث عدة أمور، كالتأمل في أهميته في قيام حياة الإنسان واستمرارها وتحقيق ضرورياتها وحاجياتها وتحسينياتها، والتأمل في وسائل كسبه وحيازته واستهلاكه وتوزيعه، والتأمل في دلالته

على عظمة الخالق في تنوع الأطعمة والأشربة والفواكه واللحوم والخضراوات، ودلالته على تقرير مبدأ المناسبة للفطرة والملائمة للطبيعة وأثر ذلك في التعايش والتجاوب والتوافق، وفي القيام بشأنه كسباً وتحصيلاً، واستفادة وانتفاعًا، وتصرفًا وتوزيعًا، واستثمارًا وتأمينًا، وتقوية وتمكينًا.

أما الثاني، وهو المراد بقولنا المشروعات الدينية التي دعي في القرآن الكريم إلى النظر فيها، فمثاله قوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر:١٨)، فهو دعوة إلى النظر في الأعمال الصالحة التي تُقدمها النفس في حاضرها وحياتها لتأمين مستقبلها وآخرتها؛ وهو الأمر الذي يقتضي تقرير الأساس الشرعي لهذه الأعمال، من حيث لزوم قيامها على خطاب التكليف وفقه الأحكام والآداب.

ومن هنا يمكننا اعتبار هذه الآية تؤسس للنظر الفقهي الذي تقوم عليه أعمال الإنسان وتصرفاته، أي أن هذه الآية تؤسس لفقه الأحكام المتعلقة بهذه الأعمال والتصرفات التي يُعد بها الإنسان مستقبله وسعادته يوم لقاء ربه.

ونلاحظ شدة الارتباط بين مشتقات النظر والفكر والعقل في نوعي المشروعات الكونية والدينية، وذلك عند مزاولتنا لبعض التفسير والتأويل والتعليل، وعند التزامنا ببعض اعتبارات ذلك وحيثياته؛ كقولنا - مثلاً- : إن النظر المدعو إليه في المشروعات الكونية يمكنه أن يتعلق بالنظر

في المشروعات الدينية؛ بناء على ملاحظة التداخل والتجاذب والتقارب بين المشروعين.

ومثال ذلك: النظر إلى الطعام يكون نظرًا دينيًا وفقهيًا، إضافة إلى أنه نظر كوني وطبيعي؛ وذلك عندما يتصل هذا الطعام بموضوع الفقه والأحكام، كأن يتصل بالفقه من جهة كونه معدودًا حلالاً ومباحًا، أو من جهة اعتباره طعامًا ضروريًا أو حاجيًا تتوقف عليه حياة الإنسان وقيام أمره، أو من جهة اعتباره واجبًا كفائيًا إذا تعلق بالسلطة أو الدولة أو بفريق علماء التغذية وخبراء الأطعمة، أو باعتباره شرطًا لتحقيق الأمن والتمكين والسيادة والاستقلال، وهو الأمر الذي يدعو إلى تحقيق ما يُصطلح عليه بالأمن الغذائي والمائي أو الاستقلال الغذائي والمائي، ولكل هذا أحكامه الفقهية ومدركاته الشرعية.

إن الطعام بهذه الاعتبارات الفقهية يكون فعلاً إنسانيًا ووطنيًا ودوليًا تُناط به أحكام الشرع الخمسة (الوجوب والندب والتحريم والكراهة والإباحة)، بحسب متعلقاته ومنطلقاته ومآلاته وملابساته.

ومن الممكن أن تستوعب الآية الكريمة ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس:٢٤)، أقدارًا من هذه المعاني والتأويلات بأحد طرق البيان والتأويل والدلالة، كالدلالة بالعبارة أو الإشارة والتلازم والاستغراق والتضمن. فلا بأس أن يستدل العالِم الفقيه بهذه الآية ليقول: إن الآية الكريمة تدعو إلى النظر في الطعام اللازم للفرد والجماعة، من حيث إعداده وتأمينه واستمراره، ومن حيث بحث سبله وتوفير مستلزماته، ومن حيث التخطيط

لحاضره ومستقبله، ومن حيث منع معوقاته وعراقيله، ومن حيث البلوغ به إلى طور الأمن الغذائي الكامل والشامل. وله أن يُضيف ما ذكره المتقدمون من أن النظر هنا هو نظر في دلائل الإعجاز وشواهد الإنعام ودواعي الثناء والامتثال، والتي تضمنها وجود الطعام ومناولة الإنسان له وانتفاعه به وترتيب فوائده وآثاره عليه.

ومن هنا وهناك، يتكامل نوعا النظر إلى الطعام في تقرير نوعي المشروعين الكوني والشرعي؛ ليكون المشروع الكوني موضوع الأشياء والأفعال التي تُناط بها أحكام المشروع الديني والفقهي ومراد الخالق والآمر.

المطلب الثالث

الاجتهاد الأصولي ورسوخه في القرآن الكريم

الاجتهاد الأصولي هو الاجتهاد الواقع في دائرة علم أصول الفقه الإسلامي. وعلم الأصول، كما عرفه أهله، هو: علم الاستنباط والاستخراج، أو هو العلم بالقواعد التي يُتوصل بها أو التي يُتوسل بها لاستنباط الأحكام. وربما يتساءل المرء عن تنسيب علم الأصول إلى القرآن الكريم، وعن مراده وكيفيته، وعن مبدأ تصوره أصلاً، إذ كيف يُنسب هذا العلم الحادث في النشأة، والبشَري في الصنعة، إلى القرآن الكريم، الذي هو كلام الله تعالى ونصه المحكم والمتعالي والمقدس.

وبإجابة سريعة ومختصرة ومجملة، أقول: إن التنسيب هنا إنما هو إيرادٌ لشواهد القرآن الدالة على الأصول بأحد الاعتبارات، كاعتبار موضوع الأصول، وهو الأدلة والأحكام الكلية، أو كاعتبار ثمرة الأصول ومنتوجها، وهو الأحكام الفرعية والجزئية، وكاعتبار القائمين بعلم الأصول، وهم العلماء والمجتهدون والمستنبطون، وكاعتبار حقائق وتفاصيل وأمثلة بعض القواعد الأصولية نفسها، كحقيقة القرآن نفسه ومجموع الآيات الواردة في تقرير مرجعيته وحاكميته، وحقيقة السنة والإجماع والقياس وغيره.

إن إيراد هذه الشواهد والتعليق عليها وتحقيق القول فيها، هو ذاته إرجاع الأصول إلى القرآن الكريم وتنسيبها إلى آياته وأحكامه ومقاصده، وإقرار

جذور حقائقها وأمثلتها وتفاصيلها إلى البيان القرآني بوجه من وجوه البيان، مع ملاحظة التفاوت في تحصيل ذلك، بالتفاوت في أقدار هذا البيان وأساليبه وأحواله وارتباطاته بمجموع الآيات والأحكام القرآنية، وبمجموع البيان النبوي المبارك وتفاصيله ومستوياته.

ثم إن تنسيب الأصول إلى القرآن يجعلنا نفرق بين ما هو شرعي ديني في الأصول، وبين ما هو بشري وإنساني. فالشرعي والديني هو الحقائق والقواعد والأحكام الأصولية الكلية ومدركاتها النصية والمعتبرة. ومن ذلك حقيقة الكتاب باعتباره أصل الأصول، وأحكام ذلك ومدركاته المتصلة بمجموع الأدلة والنصوص المقررة لذلك. ومن ذلك، كذلك، مواضع الإجماع وأحكامه ومحتوياته الشرعية المعتبرة، كالإجماع على ترتيب الآيات وترتيب السور، والإجماع على البيان القرآني القطعي والظني، والإجماع على الشمول والعموم القرآني، وغير ذلك مما يشكل موضوعات إجماعية هي حقائق وأحكام شرعية ودينية.

أما الإنساني في الأصول فهو الأداء البشري لصناعة الأصول وتأليفها وتحقيقها وتنزيلها، كالأداء بطريق الاستقراء والتتبع، والأداء بطريق تحقيق المناط وتخريجه وتنقيحه، والأداء بطريق تيسير التأليف وتسهيل الأساليب الدراسية والطباعية والإعلامية، وغير ذلك.

ومعلوم أن الأداء البشري للصناعة الأصولية أمر لا ينفصل عن الأصول نفسها؛ إذ الأصول موكولة إلى العلماء كي يفهموها ويطبقوها ويفعلوها، وهؤلاء العلماء محكومون بحقائقها وضوابطها وآلياتها، وهو الأمر الذي

يتقرر فيه الشأن الأصولي وفقاً لهذا الحد المشترك والمعنى المترابط بين ما هو شرعي ديني وإنساني بشري.

وضل من يظن خلاف ذلك، كأن يظن سباحة الأصول في عالم خال من الإنسان، أو طواف العلماء خارج دائرة الأصول وحقائقها ومحتوياتها وضوابطها.

وحتى هذا الأداء البشري للصناعة الأصولية؛ فهو راجع، بأحد الأوجه والصور، إلى القرآن الكريم، الذي دعا إلى النظر والفكر والاستقراء والاستخلاص...؛ فهذا الأداء البشري، إذن، راجع إلى مبدأ التوجيه القرآني في تقرير الاجتهاد البشري والعمل العقلي والنظري، وراجع إلى مبدأ العلم والثناء على العلماء، وغير ذلك من المبادئ التي تُبنى عليها أعمال البشر وتتفرع عنها ثمار الخير والحق والصواب، أو التي تنشأ بمقتضاها توسيع مجالات الفكر ودوائر النظر، ومساحات التعارف ومقادير التوافق، وإذا لم تتوصل هذه الأعمال إلى الصواب في أدائها والتوفق في نتائجها، على الرغم من تحريها الصواب واستفراغ وسعها وجهدها من أجل ذلك؛ فإن حكمها هو حكم الاجتهاد الفاقد للصواب والحاصل على أجره بموجب ذلك.

- مدلول الاجتهاد الأصولي:

الاجتهاد الأصولي، كما ذكرت، هو الاجتهاد في مجال الأصول. وهذا الاجتهاد على مستويات ومراتب تتحدد بحسب اعتبارات أصحابها ومسالك بحثهم وتحقيقهم وأدائهم المعرفي والمنهجي والتطبيقي. وربما أكتفي في

هذه الأثناء بإيراد مستوين اثنين؛ يمكن اعتمادهما في بيان رسوخهما في القرآن الكريم. وهذا المستويان هما:

المستوى الأول: تقرير الأصول:

ويُراد به تقرير القواعد الأصولية وصياغتها نظريا، وإدراجها كمبادئ يُرجع إليها في الاجتهاد والاستنباط. ومعلوم أن تقرير هذه القواعد يستند إلى النظر والتتبع والاستقراء، أو إلى الاستدلال والاستخلاص. ومثال ذلك: تقرير قاعدة «الأمر للوجوب» من خلال تتبع واستقراء النصوص والأحكام القرآنية وغيرها التي يكون موضوعها الأمر، أو من خلال الاستدلال بمجموع الآيات الداعية إلى اتباع أوامر القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ (النساء:٥٩)، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣). ومعلوم أن الجمع هو الأصل والأولى؛ فيكون الجمع بين طريقي الاستقراء والاستدلال الطريق الأوفى في تقرير قاعدة «الأمر للوجوب».

المستوى الثاني: إعمال الأصول:

ويُراد به تنفيذ القاعدة الأصولية وتنزيلها في الواقع والحياة، بأحد ضروب ذلك، كضرب التخريج عليها والإلحاق بها والتفريع عنها، أو ضرب ترسيخ بعض المفاهيم وتصحيحها وتنقيحها وتفعيلها وتعميمها وغير ذلك. ومثال ذلك: تطوير الطعام وتأمين الغذاء واستخدام التقنيات المعاصرة والآليات الفاعلة والسوية في ذلك؛ فإن ذلك يدخل ضمن دلالة الأمر بالنظر إلى الطعام والتفكر والتأمل فيه. أو أن الأمن الغذائي والمائي يُخرج أو يُلحق

أو يُفرع عن نص قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾(عبس:٢٤)، ويأخذ معنى الوجوب واللزوم؛ فيكون واجبًا على أولي الأمر والعلم والرأي تحقيق الغذاء الكافي والمناسب والنافع، ويكون لازمًا عليهم فعل ما به يتحقق هذا الغذاء ويتواصل ويدوم.

وكلا المستويين يشكلان أداء اجتهاديًا دقيقًا وبالغًا يقوم به المجتهد والمتفنن والمتقن الأصولي.

- رسوخ الاجتهاد الأصولي في القرآن الكريم:

الاجتهاد الأصولي بمستوييه المذكورين راسخ في القرآن الكريم أيما رسوخ. ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

أولاً: رسوخ مستوى تقرير الأصول وشواهده:

تقرير الأصول أمر راسخ في القرآن الكريم. وهو يعود إلى نفس الأصول من جهة أولى، وإلى طريق تقريرها من جهة ثانية. فالأصول هي القواعد التي يستند إليها في الاستنباط. ومثالها:

- **قاعدة الكتاب الكريم**، باعتباره أصل الأصول ومصدر المصادر. فهذه القاعدة هي دالة على القرآن ذاته، ورسوخها هو ثابت برسوخ القرآن نفسه.

- **قاعدة السنة الشريفة**، باعتبارها الأصل الثاني بعد القرآن، وبوصفها المصدر المبين والشارح والمفصل للقرآن الكريم. ورسوخها في هذا القرآن

تدل عليه آيات كثيرة وشواهد عدة؛ تأمر باتباع النبي ﷺ واقتفاء أثره والاحتكام إلى ما جاء به، وتحيل إلى بياناته وأقواله وأفعاله؛ من أجل فهم مطلق القرآن وعمومه ومجمله ومبهمه، وبغرض تأكيده وترسيخه وتقوية معانيه وتدعيم براهينه وأدواته وكيفياته البيانية والتعليمية والتوجيهية.

- **قاعدة الإجماع والاتفاق الجماعي**، باعتبارها الأصل الثالث الوارد بعد النص، كتابًا وسنة. وقد احتفى القرآن العظيم بحقيقة الإجماع وحجيته ورمزيته ودلالته على المعاني والأحكام، وأثره في الاتفاق والوفاق وتقليل الاختلاف والتنازع. ومن شواهد ذلك: نصوص مقيدة وعامة تدل - بدلالات تتفاوت بعدا وقربا- على حقيقة الإجماع ولزوم الصيرورة إليه، كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران:١٠٣)، وقوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ (طه:٦٤)، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥)، وقد عدت هذه الآية أحد أبرز الأدلة الشرعية على مشروعية الإجماع ودليليته. وكثيرًا ما يوردها علماء الأصول في ثنايا تدليلهم على مقولة الإجماع وحجيتها.

- **قاعدة القياس**، باعتباره أحد مسالك النظر والتعليل والبيان والاستنباط. ومعلوم أن القرآن قد احتفى بالقياس من خلال نصوصه الداعية إلى التفكر والتعقل والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (الحشر:٢)، ومن خلال شواهد القياس وإيراد مواضعه ومظانه، كقصة الذين خرجوا من ديارهم لأول الحشر، وقصة الذي ضرب مثلاً ونسي خلقه وقال من يحيي العظام وهي رميم، وقصة خلق عيسى المماثل لخلق آدم، فهذه

القصص والمواضع قد تطرقت إلى حقيقة القياس في بعض مسائله ومسالكه ومعلوماته. وهي تقرر بمجموعها مشروعية القياس واعتباره مسلكًا مهمًا ومنفذًا أصيلاً يُنفذ به إلى المعاني والمواقف والحلول والأحكام.

والنص القرآني لم يكتف ببيان القياس من جهة الإعمال والإقدام، بل بيّن القياس الفاسد وأوجب اجتنابه وإهماله، وذلك على نحو قياس إبليس لمّا قاس خلقه على خلق آدم؛ فامتنع عن أمر الله تعالى له بالسجود؛ فوقع في العصيان والضلال والخسران.

إن هذه التفرقة بين نوعي القياس تفيد بشمول نظرة القرآن للقياس، واعتباره القياس نوعين من حيث الطبيعة والمنطلق والمآل والكيفية: نوع مأذون فيه ومأمور به، ونوع محظور وممنوع وفاسد ومردود. وذلك يؤسس إلى نوط الأقيسة بحقائقها ومآلاتها وضوابطها. وكل هذا تأسيس قرآني لمشروعية القياس وحقيّته وكونه مُدركًا من مدارك الأحكام، وطريقًا من طرق الاستجلاء والاستنباط، إذا أحكمت بنايته وأعملت ضوابطه واستبعدت قوادحه.

- **قاعدة الاستحسان**، باعتباره أحد المسالك النظرية والاجتهادية، التي شكلت منطق الاستثناء من الأصل لمصلحة راجحة، أو لتوجيه مشروع ثابت بالدليل الشرعي أو بأحد الاعتبارات الشرعية الكلية أو الجزئية. ومثاله في القرآن: الوصية في تركة الميت؛ فهي استثناء من أصل التمليك في الحياة، إذ تمليك مُضاف إلى ما بعد الموت، والأصل أن هذا التمليك باطل ولاغ، لصدوره من ميت لا يحق له التصرف، ولكنه تصرف عده القرآن تصرفًا

مشروعًا في حكم تصرف الحي، لإنشاء وعده أثناء حياته وبرضًا منه، ولتقرير نفع إضافي ليس فيه تهمة أو شبهة أو تحايل أو غبن، ودون أن يمس من حقوق الورثة في ثلثي التركة.

وهكذا ترى أن الاستحسان منهج اجتهادي أصيل في القرآن، ويستند إلى حقيقة الاستثناء والعدول عن القياس الجلي إلى الخفي، أو العدول عن العزيمة إلى الرخصة، أو العدول عن الدليل إلى الدليل الأقوى. والحاجة ماسة إلى تجلية حقيقة الاستحسان في القرآن لكريم؛ بجرد أمثلته وشواهده، وعرض نواحيه وأوجهه وتحليلها وتحقيق القول فيها؛ من أجل ترسيخ منهج الاستحسان وتعميق الاحتجاج به والانتصار له، ولكن وفق منظور القرآن والسنة، وفي ضوء طبيعته وكيفيته وضوابطه، لا وفق الأهواء والأباطيل والشبهات وسوء التأويلات، كما يتوهم لفيف من أنصاف أهل العلم والفكر.

- وهناك حقائق قواعد أصولية أخرى ثابتة في القرآن وسارية في كثير من نصوصه ومعانيه وأحكامه، كقاعدة الاستصلاح، والذرائع والوسائل والحيل، وشرع من قبلنا، وخصال أهل المدينة وعملهم، وخصال الصحابة وأدائهم المعرفي والتربوي، والعرف والعادة، وثبوتها في القرآن لا يعني ثبوت تفاصيلها العلمية والدراسية أو بعض هذه التفاصيل، كما قد يظن الناظر لأول وهلة، وإنما يعني ثبوت أمور كثيرة منها، كثبوت أمثلتها وعباراتها وبعض أوجهها، كثبوت أمثلة الذرائع (منع سب الكفار سدًا لذريعة سب الله تعالى، ومنع البيع أثناء النداء لسد الذريعة أمام إدراك الجمعة...)،

وعبارات العرف ﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة:٢٣٦)، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ (الأعراف:١٩٩)، وغير ذلك.

هذا بالنسبة إلى القواعد الأصولية نفسها، أما بالنسبة إلى تقرير هذه القواعد، فيمكن القول: إنها قد تقررت بمسلكين اثنين:

- مسلك التنصيص المباشر على بعض أمور القاعدة، كالتنصيص على تدبر الكتاب الكريم، والذي يقرر قاعدة كون هذا الكتاب هو المصدر الأول اللازم اعتباره وتدبره في الفهم والتفسير والاجتهاد والاستنباط. وكالتنصيص على وجوب رد الأمر إلى الرسول ﷺ وإلى العلماء الذين يسنبطون، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء:٨٣)، والذي يقرر قاعدة السنة وصلتها بالقرآن وبيانها له من جهة أولى، وقاعدة الاستنباط بوجه عام من جهة ثانية، والتي قد تستوعب كافة قواعد الاستنباط التي يعود إليها المجتهد في الفهم والاجتهاد. وربما تكون هذه الآية إحدى أبرز الإشارات إلى موضوع الاستنباط وأهله وضابطه.

- مسلك الاستقراء والنظر في الجزئيات من أجل تقرير كلياتها. ومعلوم أن هذا المسلك قد دلت عليه شواهد كثيرة في آي القرآن وتوجيهاته. ومن ذلك:

- نصوص التدبر والتفكر والنظر الواقع في أحوال الوجود والحياة والإنسان، وفي أحوال الشرع والنصوص والأحكام.

- ثناء القرآن على القطع واليقين والحق والمعروف، واستنكاره للوهم والهوى والظن الفاسد والشك والباطل. ومعلوم أن هذا الثناء إنما يدل بالتضمين والإشارة على الاستقراء من جهة نتائجه التي يتوصل إليها، والتي تكون في الغالب الأعم حقًا وقطعًا ويقينًا، أو ظنًا غالبًا هو في حكم اليقين والقطع.

ثانياً: رسوخ مستوى إعمال الأصول وشواهده:

إعمال الأصول هو تطبيقها في الواقع الحياتي وتنفيذها في معالجة مشكلات الناس ونوازلهم. وهو الهدف من تقريرها وتحصيلها. ومعلوم أن الإعمال بوجه عام، وإعمال القواعد الأصولية بوجه خاص، إنما هو حقيقة قرآنية ثابتة وراسخة.

وشواهد ذلك كثيرة، نذكر منها:

- الدعوة القرآنية إلى العمل مع القول، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف:٣).

أن الدعوة إلى تدبر القرآن الكريم يستلزم العمل بما جاء فيه من أحكام وتوجيهات وآداب.

- أن العلم المدعو إليه في القرآن هو المصحوب بالعمل والمقرون بالتطبيق والامتثال، وليس مجرد تحصيل المعارف النظرية التي لا أثر لها في الواقع. ومن ذلك القواعد الأصولية المستخلصة من القرآن والسنة؛ فالمفروض أن

تُطبق وتُنفذ، وأن يُعمل بها في استنباط الأحكام وتوجيه الناس وإقامة شرع الله عز وجل.

- أن هناك آيات هي نصوص قواعد أصولية، وأن هذه الآيات يجب إعمالها كنصوص قرآنية أولاً، وكصيغ لمبادئ عقدية وتشريعية وأدبية ثانيًا، ومنها: آية ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، فيمكن اعتبارها قاعدة أصولية استنباطية تؤسس دليلية القرآن الكريم وكونها مصدرًا للهداية الأقوم والصلاح الأحسن، وآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، فهي آية أصولية دالة، موضوعها الكلي هو نفي التكليف بما لا يُطاق[1].

(١) وما ندعو إليه في هذا المقام: دراسة ما يمكن أن نسميه بالآيات الأصولية، أو نصوص القرآن الدالة على أصول الفقه. ودراسته يكون على مناح عدة:
- منحى جمعها وترتيبها وبيان موضوعاتها الأصولية.
- منحى تفسيرها تفسيراً موضوعياً تتقرر به النظريات الأصولية، وربما يتقرر به التفسير الأصولي للقرآن الكريم على غرار التفسير الفقهي والتفسير البلاغي واللغوي...
ويمكن أن تنهض بهذا المشروع مؤسسة علمية رائدة، أو نخبة من طلبة الدراسات العليا يقسمونه بينهم؛ وفقًا لرؤية منهجية محددة وخطة جامعية مُحكمة.

خلاصة البحث

١- القرآن الكريم مصدرُ الاجتهاد والنظر والفكر. وهو الإطار المرجعي للاجتهاد الفقهي والأصولي ولكثير من نصوصه وأحكامه وتفاصيله ومفرداته. ودلائل ذلك كثيرة.

٢- تأكيد مرجعية القرآن الكريم للاجتهاد الفقهي والأصولي سيقرر لدينا عدة أمور، منها:

- الأمر الأول: بيان عظمة الاجتهاد وقرآنيته وعقديته ومكانته وأثره في الواقع الشرعي والحياة الإسلامية، ودوره في الإسهام الحضاري والإصلاح الإنساني.

- الأمر الثاني: بيان ضوابط الاجتهاد ورسوخ ثوابته وقواعده في القرآن ذاته الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه.

- الأمر الثالث: تحقيق الاتفاق والوفاق، أو التقليل من الاختلاف والنزاع؛ بموجب ما للقرآن الكريم في نفوس المسلمين من قداسة وإجلال وتمثل وتدبر والتزام وامتثال.

٣- ربط الاجتهاد بالقرآن الكريم سوف يحث أهل العلم للاستزادة وتعظيم الإفادة، وسوف يوسع دوائر البحث والتفكير والتأليف والتحقيق، وسوف يكون الإطار الجامع لجمهور الفقهاء والأصوليين والمفسرين والمفكرين...

إن قرآنية الاجتهاد الفقهي والأصولي سوف تؤصل منهج النظر والفكر، وسوف تعيد الاعتبار للفعل الاجتهادي المعاصر المبني على آي القرآن وأحكامه، والموجه إلى إصلاح الناس وعونهم على حل مشكلاتهم، والمؤسس لإرادة الاستنباط وحسن إدارته.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين.

القرآن ودوره في نهوض الأمة

الدكتور عمر بن عبد الله بن محمد المقبل (*)

كلما مرّ بي أثر التجار العرب، الذين ذهبوا إلى شرق الأرض، وكان تأثيرهم كبيراً في نشر الإسلام يجعلني أتساءل: هذا أثرهم وهم تجار، وجد الناس منهم الصدق والعفّة، التي دعا إليها القرآن .. فماذا سيكون الأثر لو كان جميع المسلمين تجاراً بأخلاقهم وسلوكهم في أنحاء الأرض؟!

تمهيد:

الحمــــــد لله ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١)، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أكرمه ربه، فشرح صدره، ورفع ذكره، وحطّ عنه وزره، وآنسه بخير كتبه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين.

(*) باحث أكاديمي، عضو هيئة التدريس، جامعة القصيم (السعودية).

أما بعد:

فهذه أوراق حُرِّرت بهذه المناسبة التي تسر كل محب لكتاب الله تعالى - وهي حفل تدشين «مصحف قطر» - تدور حول موضوع جليل، ألا وهو «دور القرآن في نهوض الأمة».

شاكراً لمن أتاحوا لي هذه الفرصة للمشاركة بهذه الورقة، وراجياً من الله تعالى أن أكون قد وفقت لوضع النقاط على الحروف، مع يقيني بأن الموضوع يحتمل مجلدات لا عشرات الصفحات؛ لأنه حديث عن كلام العظيم جل جلاله وتقدست أسماؤه، نعم هو حديث عن هذا القرآن الذي وصفه مُنزِلُه بنحو من خمسين وصفاً، فأنّى لبشر - مهما أوتي من البيان- أن يوفي هذا الكتاب حقّه، لكن لا بد من إشارة عابرة، وحديث هو بمثابة التذكرة، راجياً أن يكون في هذه الإشارة ما يغني عن طول العبارة.

والحمد لله رب العالمين.

مدخل:

لن يجد الباحث والقارئ عناءً كبيراً إذا أراد أن يبين أثر القرآن في نهوض الأمة، إذ يكفي ليدرك المنصف - أيّاً كان دينه- أن ينظر في أحوال العرب قبل نزول هذا الوحي على قلب نبينا محمد ﷺ، ثم لينظر مرةً أخرى في أحوالهم بعد مضي أقل من ربع قرن فقط، وكم هو الفرق العظيم ما بين أداء الإتاوات من قبل سادات العرب إلى أكاسرة الفرس وقياصرة الروم وبين موقف ربعي بن عامر، رضي الله عنه، من رستم حين دخل عليه مبيناً حقيقة دعوة أهل الإسلام، ولا عجب! فالقرآن هو الذي نفخ فيهم تلك الروح[1]!

---

(١) وخلاصة قصته، رضي الله عنه: أن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، أراد أن يرسل جماعة من أصحابه -نحو تسعة نفر- قبيل معركة القادسية من أجل محاورة رستم، فقال ربعي بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وآداب، ومتى نأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم، فلا تزدهم على رجل، فخرج ربعي ليدخل على رستم عسكره، فاحتبسه الذين على القنطرة، وأرسل إلى رستم لمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون أنباهي أم نتهاون؟ فأجمع ملؤهم على التهاون، فأظهروا الزبرجد وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئاً ووضع لرستم سرير الذهب، وألبس زينته، وأقبل ربعي يسير على فرس له، ومعه سيف له، وغمده لفافة ثوب خلق، ومعه قوسه ونبله، فلما غشي الملك وانتهى إليه، قالوا: ضع سلاحك! فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم فقال: ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد؟ فأقبل يتوكأ على رمحه، يقارب الخطو، ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهكاً مخرقاً، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه! فكلمه، فقال: ما جاء بكم؟ قال: إن الله ابتعثنا وجاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله .... القصة بتمامها في: الطبري، تاريخ الأمم والرسل والملوك، ٢/٤٠١.

وكم هو الفرق بين تلك الأمة التي انتقلت من رعي الغنم إلى قيادة الأمم، وما كان السبب إلا هذا القرآن بلا ريب، فالصدر الأول من هذه الأمة «لم يكن صالحاً بالجبلة والطبع، فالرعيل الأول منهم - وهم الصحابة- كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصلحهم القرآن لما استمسكوا بعروته واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكموه في أنفسهم، وجعلوه ميزاناً لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكية، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف»[1].

وفي المقابل، فليتأمل المنصف حال الأمة حين هجرت هذا القرآن: تلاوةً، وتدبراً، وعملاً، وتحاكماً، كيف انحدرت في مهاوي الذل، ودركات الهوان!

ولن يجد الإنسان صعوبة في البرهنة على ذلك، بل يكفي أن يحيل إلى واقع العالم الإسلامي اليوم: اجتماعياً، وثقافياً، وسياسياً، وعسكرياً، ليرى نتاج بعدها عن مصدر عزها الذي نص القرآن عليه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤).

وإذا كان الفاروق، رضي الله عنه، يقول: إنما تنقض عرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية[2]، فإن الأمر كذلك إذا نشأ في الأمة من لم يعرف معنى العزة والكرامة، ولم يذقها يوماً من

(١) آثار البشير الإبراهيمي، ٤/٢٢٧.

(٢) مجموع الفتاوى، ١٠/٣٠١.

دهره! ولم يعش إلا حالة الذل والهوان، فكيف سيدرك أثر القرآن في إعادة ما فقدته الأمة من العزة والكرامة؟!

ومن هنا، كان لزاماً على أهل الإسلام أن يسعوا إلى بيان أثر هذا الموضوع بشتى أنواع البيان: القولي والعملي، وما يندرج تحت هذا من الوسائل صور لا تكاد تحصى.

ولعل هذه الورقة تساهم في التنبيه على بعض هذه الوسائل في بيان أثر القرآن في نهوضِ الأمة، من التركيز على بيان الوسائل والطرق التي يتمكن بها المسلمون - إذا أرادوا- من النهوض بالأمة انطلاقاً من بوابة العز والشرف الأولى - القرآن- : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤)، «وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هي تخلت عن الأمانة: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾»[1].

- سورة الضحى.. بداية الطريق:

مئات الملايين من المسلمين يحفظون سورة الضحى، ولكن كم هم الذين استوقفتهم هذه الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ (الضحى:٧)؟! وأحسن ما تفسر به الضلالة هنا هو ما قاله الله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ (الشورى:٥٢).

وقبل أن نتملى شيئاً من معاني هذه الآية الكريمة، فلنعد قليلاً إلى ما قبل النبوة، ولننظر في سيرته ﷺ!

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/٣١٩١.

لقد عرف صبيان المسلمين - الذين درسوا مبادئ السيرة النبوية- أنه ﷺ كان يعرف بين قومه وعشيرته بالصادق الأمين، وعرفه قومه بأحسن الخلال، وأطيب الخصال مع شرف النسب، وطيب الأرومة، عرفوه كما يعرف الناس أبناء قريتهم الصغيرة، التي تُعْرَفُ فيها أحوال النساء فضلاً عن أحوال الرجال، وكان هذا أحد الأدلة الدامغة التي احتج الله بها على الكفار الذين كذبوا دعوته: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ (يونس:١٦)، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ (المؤمنون:٦٩).

هذا النقاء والصفاء، وتلك الروعة والتألق في حياته ﷺ لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة إلى حياته بعد نزول الوحي، وأين الثرى من الثريا؟ ولستُ أجد أبلغ ولا أصدق من تعبير القرآن: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾!

بل تأمل حاله ﷺ حين انقطع الوحي عنه فترة من الزمن، جعلت ألسنة أعدائه تتفوه بما تفوّهت به؛ فضاق لذلك صدره، وحزن لانقطاع الوحي الذي ذاق لذته، واستشعر عظيم أثره عليه! فمن الناس بعده ﷺ؟!

إذا تبيّن هذا، فإن فهم هذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية العظيمة، والمحت إليه، لمن أبلغ ما يوضح خطورة البعد عن هذا المصدر، إذ إن هذا يعني: الجهل، والضلال، والعمى، والحيرة، والبؤس!

فمن لم يتضح له هذا المعنى، فليقرأ إذاً: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢)! وليقرأ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (ابراهيم:١)! والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

إن من المؤلم أن يسمع الإنسان - من بعض المنتسبين إلى هذه الأمة- من يزهّد في نصوص الوحي - قرآناً وسنة- بل ويصرح بعضهم بكلماتٍ خطيرة الدلالة والمآل تدور على أن زمنية الوحي، وأن صلاحيته محدودة بزمن معين، أو ظرف معين، بل - وهذا هو الكفر الصراح- من يرى أن سبب تخلف الأمة هو تمسكها بهذا القرآن، فأنى لهؤلاء أن يستضيئوا بنور الوحي؟!

ويزداد الألم ممزوجاً بالفرح حينما يسمع - في مقابل هؤلاء- من مفكرين مستقلين من الغرب والشرق ممن أسلموا بسبب قناعتهم بصدق ما جاء به هذا القرآن[(١)]!.

يقول المفكر الفرنسي «فنساي مونتاي»[(٢)]: «إن مثل الفكر العربي الإسلامي المبعد عن تأثير القرآن، كمثل رجلٍ أُفرغ من دمه!»[(٣)]، ونصوص مفكري الغرب في هذا الباب أكثر من أن تحصر!

- تثبيت الأصل.. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾:

إن من أهم المهمات - لمن أراد أن يتحدث عن مثل هذا الموضوع- أن لا يخلو حديثه من التركيز على قدسية النص القرآني، وشموله، مع السنة، لحل جميع مشاكل البشرية - عَلِمَ ذلك من علمه، وجهله من

(١) وقد حدثني أخي العزيز وصديقي د.عبد الرحمن بن معاضة الشهري، عن د.محمد السحيم (أستاذ العقيدة بقسم الثقافة الإسلامية في جامعة الملك سعود، وكان وكيلاً مساعداً بوزارة الشؤون الإسلامية) عندما كان يشرف على معرض لوزارة الشؤون الإسلامية بجنوب أفريقيا، أنهم شرحوا لأحد القسس تعاليم القرآن باختصار، وأهدوا له نسخة من ترجمة معاني القرآن، فعاد لهم بعد قراءته فقال: هذا ليس مجرد كتاب، إنه منهج حياة!.

(٢) هو صاحب بحثٍ ورحلات، تخصص بدراسة القضايا الإسلامية والعربية، أسلم عام ١٩٧٧م، ينظر: «قالوا عن الإسلام،٨٨».

(٣) رجال ونساء أسلموا، ٥/٥٠، عن «عظمة القرآن» لمحمود الدوسري، ٣٤٦.

جهله؛ ذلك أن ثمة كتابات يروّج لها ويراد منها سلخ القدسية من هذا الكتاب المقدس!

وليس هؤلاء ببدع من الناس، فقد سبقهم طوائف في تاريخ الأمة تنادت لهدم هذا الأصل العظيم - الذي لا قوام للأمة بدونه- بأساليب شتى[1]!

قد يبدو هذا التنبيه غريباً! لكن من عاش مع طوائف من شباب الأمة الذين انفتحوا انفتاحاً غير منضبط على جميع الكتب الفكرية بلا قيد أو شرط، رغم صغر سنهم، وحداثة تجربتهم، وضعف تحصيلهم الشرعي، ورأى الأثر السيئ لهذه الكتب والأطروحات أدرك يقيناً خطورة الواقع، وضرورة الحديث عن هذه المسألة المهمة بطرق متنوعة، خصوصاً أن هذا الضرب من الناس، يجدون من يحتضنهم ويرعاهم، بل ويرمّزهم - رغم صغر سنهم- وتفتح لهم من النوافذ الإعلامية التي يسوّقون فيها ما يريدونه أو يعتقدونه من أفكار، ما لا يتهيأ لأكابر أهل العلم.

صحيح أن خطاباً كهذا قد يوجّه لعموم المسلمين - الذين يقدسون القرآن- لكن ما المانع من التحصين قبل المرض؟! فالانفتاح التقني يجعل الإنسان عرضةً لهذه الأهواء والأدواء، وإذا كان الإنسان مُرغَّباً - شرعاً- في أكل سبع تمرات على الريق من أجل توقي داء الجسد قبل وقوعه[2]، فإن تحصينه من داء القلب والفكر أكثر ضرورة وحتمية، إذْ لا يمكن لأي متحدث عن القرآن وأثره في نهضة الأمة، أن يجد أثراً لحديثه عند أناس لا هيبة للقرآن في نفوسهم، ولا قداسة للنص في قلوبهم، ولن ينجع أي

(١) ينظر مثلاً: فتاوى ابن تيمية، ٢/١٩٨-٢٤٧.

(٢) ثبت هذا في الصحيحين من حديث سعيد بن زيد، رضي الله عنه.

حديث حتى يكون المخاطَبون على درجة كبيرة من اليقين بمثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:١١١)، وبمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس:٣٧).

ولعل من أنفع الطرق في هذا: تأمل الآيات الكريمة التي وصف فيها أعداء القرآنِ القرآنَ بأنه سحر ونحو ذلك من العبارات الفجّة التي تتضح كذباً وزوراً، مع دراسة مواقفهم العملية في السيرة، وكيف كشف القرآن حقيقة ما تنطوي عليه نفوسهم: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر:٣٥)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ (غافر:٥٦)، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣)، وغيرها من الآيات الكريمة.

- **شمولية الحل..** ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾:

إنها قاعدة عظيمة من أعظم قواعد التغيير بالقرآن، فهي تجعل المؤمن يزداد يقيناً بعظمة هذا القرآن، وأنه الكتاب الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان، وبهذا اليقين وتلك القناعة ينطلق لتغيير ما فسد من واقع الناس!

قال قتادة، مبيناً معنى هذه الآية والقاعدة القرآنية: «إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم: فأما داؤكم فالذنوب والخطايا، وأما دواؤكم فالاستغفار»[1].

وهذا التفسير من هذا الإمام الجليل هو تفسير بالمثال كما هو الغالب على تفاسير السلف، رحمهم الله، وفيه رسالة واضحة إلى شموله إلى علاج جميع الأدواء، وأن فيه جميع الأدوية، لكن يبقى الشأن في الباحثين عن تلك الأدوية في هذا القرآن العظيم.

«إنه يهدي للتي هي أقوم في ضبط التوازن بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله..

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى؛ ولا تميل مع المودة والشنآن؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض..

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام»[2].

(١) الدر المنثور، ٥/٢٤٥.

(٢) ينظر في: ظلال القرآن، ٤/٢٢١٥.

ومن أراد أن يقف على شيء من محاولات العلماء، رحمهم الله، في الوقوف على شيء من ذلك، فليقرأ ما كتبه العلامة الشنقيطي: في تفسيره لهذه الآية الكريمة، فقد كتب نحواً من ستين صفحة وهو يتحدث عن نماذج عالجها القرآن، وهدى لأقوم الطرق في حلها.

يقول: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله - جل وعلا- فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا - إن شاء الله تعالى- سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطريق التي هي أقوم؛ بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة...»[1]، ثم سرد، رحمه الله، جملة من المسائل العقدية والاجتماعية.

ونحن إذا تأملنا هذا الإطلاق في هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، أدركنا أنها آية تتجاوز في هدايتها حدود الزمان والمكان.. وتتجاوز كل الأنظمة والقوانين التي كانت قائمة والتي ستقوم بعد ذلك!

إنها قاعدة تقطع الطريق على جميع المنهزمين والمتخاذلين من أهل الإسلام أو المنتسبين له، أو من الزنادقة، الذين يظنون - لجهلهم- أن هذا

(١) أضواء البيان، ٣/١٧-٥٤.

القرآن إنما هو كتاب رقائق ومواعظ، ويعالج قضايا محدودة من الأحكام! أما القضايا الكبرى، كقضايا السياسة، والعلاقات الدولية، ونحوها، فإن القرآن ليس فيه ما يشفي في علاج هذه القضايا!!

وهذا الكلام فضلاً عن كونه خطيراً وقد يؤدي إلى الكفر، فإنه سوء أدب مع الله، ذلك أن ربنا - وهو العليم الخبير- يعلم حين أنزل القرآن أن العباد سيقبلون على متغيرات كثيرة، وانفتاح، وعلاقات، ومستجدات، فلم يتركهم هملاً، بل حفظ لهم هذا القرآن ليرجعوا إلى هداياته، وحفظ لهم سنة نبيه ﷺ لتكون شارحةً لما أجمل من قواعد القرآن، بل وجعل في السنة أحكاماً مستقلة، فمن أراد الهداية وجدها فيهما، ومن كان في عينيه عشى، أو في قلبه عمى، فليتهم نفسه، ولا يرمين نصوص الوحي بالنقص والقصور:

قد تنكرُ العينُ ضوء الشمسِ من رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماء منْ سَقَمِ

ومن المواقف التي لا أنساها - وأنا أتحدث عن هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، - أن أحد العلماء لما طُلِبَ منه أن يلقي محاضرة حول هداية هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، قال في نفسه: وماذا سأقول عن هذه الآية في ساعة أو أكثر؟! فقررت أن أراجع كلام بعض المفسرين حولها، فبدأت بتفسير السعدي، فوجدته يقول: «يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، أي: أعدل وأعلى من العقائد، والأعمال، والأخلاق»[1]، فقررتُ أن أبدأ بالحديث عن هداية

(١) تفسير السعدي، ٤٥٤.

القرآن للتي هي أقوم في أبواب العقائد، فانتهى وقت المحاضرة ولم أنته من الحديث عن هذه الجزئية فقط! فكيف بمن أراد الحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم في أبواب العبادات؟ والمعاملات؟ والأحوال الشخصية؟ والحدود؟ والأخلاق والسلوك؟ فعلمت أن من يريد الحديث عن هذه القاعدة، فسيحتاج إلى عشرات المحاضرات.

إنه القرآن كتاب ربنا، الذي يخبرنا فيه أنه يهدي للتي هي أقوم، فأين الباحثون عن هداياته؟ وأين الواردون حياضه؟ وأين الناهلون من معينه؟ وأين المهتدون بتوجيهاته؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة كفيلة بأن يقتنع العالم - وليس المسلمون فحسب- أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وتزداد هذه القناعة حين يوجد أناس يحملون هذا القرآن في صدورهم، ويطبقونه واقعاً في حياتهم.

إنني كلما مرّ بي أثر التجار العرب، الذين ذهبوا إلى شرق الأرض، وكان تأثيرهم كبيراً في نشر الإسلام يجعلني أتساءل: هذا أثرهم وهم تجار، وجد الناس منهم الصدق والعفّة، فماذا سيكون الأثر لو كان جميع المسلمين تجاراً بأخلاقهم وسلوكهم في أنحاء الأرض؟!

لقد كان من أعظم أسباب التأثير الذي أحدثه النبي ﷺ في واقع الناس هو الصفاء والنقاء الخُلُقي العظيم، الذي كان يمارسه في حياته وتعاملاته، والتي جعلت هرقل يقول بعفوية: «ما كان هذا الرجل ليدع الكذب على الناس ثم هو يكذب على الله!».

- **لا للضعف..** ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾:

هذه الآية الكريمة ترشد إلى منهج قرآني للأمة إن أرادت النهوض من كبوتها، والرقي في مدارج العز والكرامة، فإن القرآن بحروفه ما زال ولن يزال محفوظاً - بحفظ الله له- إلى يوم الدين، وما أُتِيَ المسلمون إلا من قبل ضعف أخذهم له بقوّة، تليق بقوة وعلو مصدره، وقوة بيانه وبلاغته، وقوة منهجه.

إن الحديث عن الأخذ بقوة لكتب الله ورسالاته يتكرر في مواضع عدّة من القرآن.

ومن تأمل القرآن وجد حفاوة ظاهرة بهذه القضية، خصوصاً في قصة موسى مع قومه، في سياقات مدهشة؛ لترسل لهذه الأمة رسالة واضحة الدلالة، في أنه لن تكون للأمة عودة صحيحة، وتمكين في الأرض إلا إذا كانت عودتها إلى كتاب ربها قوية.

لنتأمل هذه الآيات الكريمة التي خاطبت أتباع موسى، عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٦٣)، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ (البقرة:٩٣)، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:١٧١)، وفي خطاب الله تعالى لنبيه وكليمه موسى، عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ (الأعراف:١٤٥)، كما يأمر نبيه يحيى، عليه الصلاة السلام، فيقول: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ (مريم:١٢).

وفي مقابل هذا نجد الذم الصريح لعلماء أهل الكتاب، ومن سار في دربهم من محرفة النصوص، ومتبعي الشهوات، الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه الآخر، أو أخذوا ما يشتهون وتركوا ما لا يوافق أهواءهم، في خطاب مليء بالذم والقدح، ولا غرو! فإذا كان هذا حال الصفوة، ومن يسمون بالنخب، فمن دونهم رجعُ صدى لتحريفهم وانحرافهم.

ففي آية واحدة لا تتجاوز سطراً واحداً، يجد القارئ لها بيان السبب، والعقوبة، والأثر: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (المائدة:١٣)، ألا ما أوضحها من آيات تبين الداء والدواء لمن بحث طالباً للهدى!

ويقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأعراف:١٦٩).

وهذه الآية - كما تضمنت النعي على هؤلاء- فهي تشير إلى سبب من أهم أسباب انحرافهم وضلالهم، ألا وهو الانكباب على الدنيا، فلما ضعفت صلتهم بالآخرة، ضعفت قوة أخذهم بالكتاب، وأبى الله أن يجمع في قلوب أوليائه وحملة رسالاته بين الانكباب على الدنيا، وبين فهم الرسالات والقيام بها على الوجه المرضي: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾ (الأحزاب:٣٩)، ويوضح ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ

بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:٧٧).

إن من أعظم أسباب الخلل في أخذ الكتاب بقوة: ضعفُ أخذ الذين أوتوا نصيباً من علم الكتابِ كتابَ الله بقوة، وهذا يعني أن المشكلة تحتاج إلى علاج قوي يتناسب وعمقها: إما بتصحيح حال من كان حاله كذلك من أهل العلم، أو - وهو الأهم- أن يُعْتَنى بتربية ناشئة طلاب العلم اليوم - الذين هم علماء الغد- على هذه المعاني الكبار، وربطهم بكتاب الله تعالى على الوجه الصحيح: تلاوةً، وحفظاً، وتدبراً.

وفي كلمات السلف الصالح، رحمهم الله، ما يدل على إدراكهم لخطورة مثل هذه المشكلة، فهذا سفيان الثوري، رحمه الله، يقول: العالم طبيب الدين، والدراهم داء الدين، فإذا جذب الطبيب الداء إلى نفسه فمتى يداوي غيره؟![1].

وقال بعض العلماء: ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا كما يحمده على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه الله والحساب يأتي عليه إلى ما عافاه الله، ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه؟ فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه[2].

يا علماء الدينِ يا مِلْحَ البَلَدِ   مَنْ يُصلح الملحَ إذا المِلْحُ فَسَد

ومن تأمل في المواقف الإيجابية لأكابر العلماء - في عصور مختلفة-

(١) علي الزهراني، حلية الأولياء، ٣٦١/٦، وفي كتاب «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وآثارهما في حياة الأمة»، ٥٩٥/١-٦٢٧، ما يكشف صدق مقولة هذا الإمام الجليل، رحمه الله.
(٢) شعب الإيمان، ١١٧/٤.

من الانحرافات التي تظهر في صور شتى، أدرك عظيم أثر العلماء إن صلحوا، وأخذوا الكتاب بقوة، كما سيدرك أثرهم السيئ إذا هم ركنوا إلى الضعف والهوان ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج:١٨).

وكلُّ حديث عن أثر القدوة سلباً وإيجاباً، فإن من أعظم تطبيقاته التي تُشاهد بل وتقرأ في التاريخ: هي حياة العلماء، الذين إنْ هم أخذوا هذا الكتاب بقوة صاروا أئمةً ليس لمن يشاهدهم فحسب، بل لمن يقرأ سيرهم وتراجمهم في كتب التاريخ، وإن هم تركوه، ونبذوه وراءهم ظهرياً فقد نزلوا من علياء مكانتهم - ورثة للأنبياء- إلى أخس المنازل: ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ (الأعراف:١٧٦)، ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ (الجمعة:٥).

ولقد عبر العلامة البشير الإبراهيمي عن هذه المعضلة، بكلمات هي نفثة مصدور، وشكوى مكروب، ولوعة محزون، أشار فيها إلى وصف هذا الداء بكلام العالم المكتوي بهذه المصيبة، حيث يقول:

«وما زاد المسلمين ضلالاً عن منبع الهداية وعماية عنها، إلا فريق من العلماء وضعوا أنفسهم موضع القدوة والتعليم، وطوائف من غلاة المتصوفة، انتحلوا وظيفة التربية والتقريب من الله، فهم الذين أبعدوهم عن القرآن».

وأضلّوهم عن سبيله بما زينوا لهم من اتباع غير سبيله، وبما أوهموهم أنه عالٍ على الأفهام، وما دروا بأن من لازم هذا المذهب كفرٌ، وهو أنه إذا كان لا يُفهم فإنزاله عبث، وأنى يكون هذا؟! ومُنزلُه - تعالت أسماؤه- يصفه بأنه عربي مبين، وأنه غير ذي عوج، وأنه ميسر للذكر، وينعته بأنه يهدي للتي هي أقوم، وكيف يهدي إذا كان لا يُفهم؟

ومن عجيب أمر هؤلاء وهؤلاء أنهم يصدرون في شأن القرآن عن هوى لا عن بصيرة، فبينما يسدّون على الناس باب الاهتداء به في الأخلاق التي تزكي النفس، والعقائد التي تقوي الإرادات، والعبادات التي تغذي الإيمان، والأحكام التي تحفظ الحقوق، وكل هذا داخل في عالم التكليف، وكله من عالم الشهادة، بينما يصدون عن الاهتداء في ذلك بالقرآن، نراهم يتعلقون بالجوانب الغيبية منه، وهي التي استأثر الله بعلمها، فيخوضون في الروح والملائكة والجن وما بعد الموت، ويتوسّعون في الحديث عن الجنة والنار، حتى ليكادون يضعون لها خرائط مجسّمة، وسبيل المؤمن القرآني العاقل في هذه الغيبيات أن يؤمن بها كما وردت، وأن يكل علم حقيقتها إلى الله، ليتفرغ لعالم الشهادة الذي هو عالم التكليف»[1] انتهى.

- **بداية التصحيح.. ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:**

مع عظيم الثواب المترتب على قراءة القرآن، إلا أن الله تعالى - الذي نزل الكتاب- لم يجعل ذلك من مقاصد تنزيله، بل نص على مقاصد التنزيل في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:٢٩).

ونعى على أهل الكتاب اقتصارهم على مجرد التلاوة فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة:٧٨).

ونادى سبحانه جميع الطوائف لتحقيق هذه الغاية من التنزيل؛ لأنها الباب المشرع، والطريق الأقوى في الوصول إلى الحقيقة، وتثبيت الإيمان،

(١) آثار البشير الإبراهيمي، ٤/٢٢٨-٢٢٩.

وزوال الشُبَهِ، ورفع الريب، واكتساب العلوم، فنادى المنافقين في موضعين من كتابه - في سياق بيان فضائحهم- وأن ما اتصفوا به لا علاج له إلا بالإقبال على هذا القرآن تلاوةً وتدبراً، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:٢٤).

كما أن القرآن أمر المشركين - الذين كذبوا وعاندوا- بالتدبر؛ لتتضح لهم حقيقة الرسول والرسالة، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ (المؤمنون:٦٨).

فإذا كان هذا يُطلب ممن لا إيمان لهم، فكيف بمن معهم أصل الإيمان؟!

لقد تتبعتُ - منذ سنوات طويلة- سببَ الذل والهوان الذي أصاب هذه الأمة، وتأملتُ في كثرةِ الحلول المطروحة، فضلاً عن تلك الحلول التي جربتها الأمة عبر قرون طويلة - مع وجود كتاب الله بحروفه بين يديها- وكنت كثيراً ما أتمثل بقول شوقي:

بأَيمانِهِمْ نورانِ ذِكرٌ وَسُنَّةٌ فَما بالُهُمْ في حالِكِ الظُّلُماتِ؟!

إن البحث عن الإجابة على هذا السؤال الكبير تعني بداية التصحيح! والشعور بالمشكلة هو بداية الحل!

وأرى أن من أصح الإجابات، وأوضحها، وأقصرها أن نتأمل جيداً، ما سبقت الإشارة إليه في أول هذه الورقة، كيف كان الصحابة، رضي الله

عنهم، قبل الوحي؟ وكيف كانوا بعده؟ ثم كيف دبّ الضعف في هذه الأمة بداية من أواخر قرن الصحابة، رضي الله عنهم، إلى يومنا هذا؟!

لقد أدرك علماء الطبقة الثانية من جيل الصحابة، رضي الله عنهم، كابن عمر، وجندب بن عبد الله البجلي، وابن عباس، وغيرهم من أهل تلك الطبقة - الذين عاشوا وشاركوا زمن الفتوحات التي دخل معها مئات الآلاف من العرب والعجم في دين الله- أدركوا بدايةَ الخلل، فصدرت عنهم الكلمات التي تؤكد ضرورة العناية بالتدبر، بل وخطورة الاقتصار على مجرد التلاوة!

فهذا ابن عمر، رضي الله عنهما، (ت ٧٣هـ) يقول: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن»، ثم يقول: «لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره! ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»(١).

ويقول جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، (مات بعد ٦٠هـ): كنا مع النبي ﷺ - ونحن فتيان حزاورة(٢)- فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فازددنا به إيماناً(٣).

---

(١) رواه الطحاوي في «شرح المشكل»، ٤٤٤/٤؛ والحاكم في «المستدرك» وصححه، ٩١/١؛ والبيهقي في الكبرى، ١٢٠/٢.

(٢) جمع حزوّر، وهو الغلام إذا اشتد وقارب البلوغ، ينظر: تاج العروس، ٩/١١.

(٣) رواه ابن ماجه، ح ٦١، وصحح إسناده البوصيري.

ثم يأتي الحسن البصري، رحمه الله (ت ١١٠هـ) بعد أن رأى اتساع الهوّة، فحُفِظَتْ عنه كلمات كثيرات جداً، كلها تدور حول هذا المعنى، وذمِّ التعلق بمجرد التلاوة، ومن أجمل ما حفظ عنه، كلمته المشهورة: «إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لم يأخذوه من أوله، ولا علم لهم بتأويله، إن أحق الناس بهذا القرآن مَنْ رُئِيَ في عمله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:٢٩)، وإنما تَدَبُّرُ آياته إتباعه بعمله، يقول أحدهم لصاحبه: تعال أقارئك، والله ما كانت القراء تفعل هذا! والله ما هم بالقراء، ولا الوَرَعَة، لا كثر الله في الناس أمثالهم، لا كثر الله في الناس أمثالهم»[1].

وليس من قصدي هنا تتبع الآثار في هذا الباب، فهي كثيرة ومشهورة، بل أردتُ أن ألفت النظر إلى أن الخلل في التعامل مع كتاب الله بدأت بواكيره في زمن متقدم، وأن الصحابة والتابعين نبّهوا إلى هذا الخلل، وحذروا منه، ليقينهم بأن آثار هذا ستظهر على السلوك والمعاملة، وهل الأمة إلا جماعات؟ وهل الجماعات إلا أفراد؟

ولعمر الله! لقد كان وصفهم دقيقاً، وتشخيصهم للمشكلة وحلها عميقاً!

والشأن - هنا - في البحث عن علاج لهذه المشكلة الكبيرة، والاستفادةِ من الإمكانات المتاحة للمسلمين اليوم.

(١) سنن سعيد بن منصور، رقم ١٣٢.

ولعلي أشير - في ختام هذه الورقة- إلى جملة من الوسائل التي تعين على حل هذه المعضلة، على سبيل الإيجاز، فالورقة لا تحتمل التفصيل:

١- تكثيف التوعية بهذه الشعيرة العظيمة - شعيرة التدبر- وأنها فريضة لا فضيلة! ووسائل التفعيل كثيرة جداً، منها:

- تصنيف الكتب بلغة تناسب أهل العصر، وفي الساحة جهود مشكورة، ولا زال الباب مُشْرَعَاً، ولئن كان المفسرون ما زالوا إلى عصرنا - ولن يزالوا إلى أن يرث الله وما عليها- يجدون في كتاب الله تعالى من المعاني المتجددة التي تعالج واقعهم، فكيف بموضوع التدبر الذي لم يُفرد بالتصنيف كما أفردت كتب التفاسير؟! مع أن بابه أوسع من باب التفسير.

- تَرْجَمَةُ تلك الكتب إلى لغات المسلمين وغير المسلمين الحيّة؛ لتصل هذه الرسالة إلى مستوى العالمية التي هي حقيقة رسالة القرآن.

- الاستفادة من القنوات الفضائية في طرح البرامج التي تعتني بهذا الأمر.

- الاستفادة من الخدمات التي تقدم بواسطة الاتصالات، كالرسائل النصية والصوتية.

- إنشاء مواقع تليق بهذه العبادة العظيمة على الشبكة العالمية (الإنترنت).

- إقامة منتديات وملتقيات ومؤتمرات علمية تتنادى للبحث في هذا الموضوع من قبل المختصين، والمهتمين بهذا الموضوع من أهل العلم.

وأجد من المناسب أن أشيد بتجربة رائدة، قام بها مركز تدبر القرآن الكريم في الرياض من خلال تفعيل الوسائل السابقة جميعاً[1]؛ لترسيخ هذا المعنى الشرعي، والموضوع يحتاج إلى عدة مراكز، بل وهيئات عالمية تليق بعالمية القرآن[2]، وعالمية هذا الخطاب الإلهي الذي وجّه الخطاب إلى الناس في أكثر من عشرين موضعاً.

٢- البدء بتفعيل هذه الفريضة داخل البيوت، فهي - فيما أرى- أولى الخطوات العملية، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٤).

ومن البدهي أن يكون الوالدان أو أحدهما مهتماً بهذا الأمر، وحريصاً عليه، ففاقد الشيء لا يعطيه[3].

٣- تربيةُ الأجيال التي ارتبطت بحلق تحفيظ القرآن الكريم أو مدارس تحفيظ القرآن على هذه الفريضة، وهذا يعني السعي في إنشاء أجيال من

---

(١) يمكن الاطلاع على أنشطة المركز من خلال موقعه الإلكتروني: www.tadabbor.com

(٢) ومما يسر -ولله الحمد- اعتماد تأسيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن في هذا العام ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ومقرها الدوحة، وتضم عدداً من النخب العلمية التي لها عناية خاصة بهذه الشعيرة «تدبر القرآن».

(٣) يسر الله لي كتابة ورقة عنوانها: «برامج عملية لتربية الأسرة بالقرآن»، وقد ألقيتها في محاضرة، وهي متداولة.. وفي ذات الموضوع توجد كتابات جيدة، والساحة العلمية ما زالت بحاجة إلى المزيد.

المعلمين الذين يحملون هذا الهمّ، ويفعّلون هذا المعنى واقعاً في تدريسهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، وكم للمعلم من أثر؟!

وإذا كان من المفرح للنفس أن يرى الإنسانُ عشرات الآلاف من مدارس وحلق تحفيظ القرآن الكريم في طول العالم الإسلامي وعرضه، فإن من المحزن أن لا يسمع عن مدارس أو حلق تعتني بتدبر القرآن!

وبعد:

فهذا ما تيسر ذكره في هذه الورقة، وأنا موقن بأن الموضوع كبيرٌ جداً، ويحتاج إلى عشرات الكتب، لكن هي إشارات آمل أن تكون مفتاحاً للكتابة المحررة والموسّعة في هذا الموضوع.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن - الذين هم أهله وخاصته- العالمين بمعانيه، العاملين به، والدعاة إلى منهجه.

والحمد لله رب العالمين.

كيف يكون القرآن سبيل النهوض؟

الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات(*)

إن ما كتبه العلماء واستنبطه الفقهاء، يعتبر ثروة كبرى لهذه الأمة في مجال العلم والمعرفة. لا يمكننا أن نفرط فيها أو نتجاهلها. ولكننا في الوقت نفسه لا يمكننا أن نعتبرها بديلة للقرآن أو مغنية عنه، كما لا يمكننا أن نعتبرها الكلمة الأخيرة التي ليس بعدها مقال.

تمهيد:

من المعلوم أن هذه الأمة بدأت رحلتها الحضارية منذ أن تنزلت آيات القرآن على النبي ﷺ وهو يتحنث في غار حراء، حيث فجأه الوحي بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:١- ٥).

(*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن في عدد من الجامعات.

وانطلقت القافلة على حُداء الوحي تُنَقل خطاها في طريقها الطويل، المليء بالأشواك والصعاب، مسترشدة بالهدي الإلهي، ومستمدة قوتها من كلمات الله التي تحيي موات القلوب وتبعث الحياة والأمل في النفوس...

ولم يمض على هذه الأمة كبير وقت، حتى غدت على الجادة، ملتزمة بالتي هي أقوم في كل شؤون حياتها، فمكن الله لها في الأرض، وآتاها من الأسباب ما جعلها أمة شاهدة على الناس، تحمل الخير، وتشيع الهدى، وتفتح القلوب المقفلة، وتضع عن الناس الآصار والأغلال، وسارت بدعوة الله مشرقة ومغربة، فطَوي لها الزمان والمكان، فأصبحت في أقل من مائة عام تشرق شمسها على الصين شرقاً وعلى جنوب فرنسا غرباً...

غير أن الأمة لم تبق في هذا الخط الصاعد دائماً وأبداً...، فقد وقعت في مسيرتها أخطاء، وتعرضت من أعدائها لحروب ونكبات، مما أفقدها توازنها، وجعل حياتها بين مد وجزر، فمرة تنهض وأخرى تتعثر، واستمر الأمر على هذا فترة طويلة من الزمان... وعلى الرغم من كل ذلك بقيت الأمة محتفظة بهويتها، غير متنكرة لرسالتها إلى أن تم القضاء على الدولة العثمانية، آخر حلقة في سلسلة الخلافة الإسلامية...

ثم جاء الاستعمار الغربي، فأناخ بثقله على صدر هذه الأمة، وأخذ يعمل في تقطيع أوصالها، وتبديد ثرواتها، وتغيير قيمها، وتوجيهها بعيداً عن عقيدتها وتاريخها، فطرح لها بديلاً عن الإسلام، وأوهمها أن تقدمها ونهضتها مرهونان بقيمه وتقاليده، وأنشأ لذلك المدارس والجامعات، وأخرج مجموعة من النخب التي رباها على عينه، وأشربها من معين ثقافته، فجعلها حاكمة على الناس تسير في إطار ما خطط لها، بعيدة عن الإسلام وقيمه،

مما جعل الانتماء إلى الإسلام موضع نظر، ومثار جدل. وهكذا نشأت المذاهب والأفكار المغايرة للإسلام، وأصبحت الأمة أشبه بالطائرة المخطوفة، يتحكم بها خاطفوها، ويسيرون بها في الاتجاه الذي يرغبون، غير عابئين بوجهة الركاب الأصلية، وغير مبالين بما يصيبهم من أهوال وأخطار...

وإذ وصل الأمر إلى ما وصل إليه من هذا التردي والانحطاط، فكيف يمكن لهذه الأمة أن تنهض من جديد؟ وما هي الطريق التي ينبغي أن تسلكها؟ وما هي الخطوات التي لا بد منها للإقلاع نحو الهدف المنشود؟... هذا ما نحاول الإسهام في الإجابة عليه في الصفحات القادمة بإذن الله..

- الأمة والقرآن:

لقد بدأت هذه الأمة مسيرتها نحو مشرق الشمس يوم أن هبط جبريل الأمين على قلب محمد ﷺ وهو يتحنث في غار حراء، وكانت كلمة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق:١- ٥)، هي الإكسير الذي بدأ يفعل فعله في حياة النبي ﷺ، ثم في حياة من استجاب لدعوته من أمته، وانتقلت هذه الأمة بتأثير القرآن وقوته الفاعلة، من الجاهلية إلى الإسلام، فكانت أول أمة تولد من خلال نصوص كتاب، وتنبثق من بين حروفه وكلماته، وتقوم على إيحاءاته وتوجيهاته، ثم تخرج به إلى الناس وحياً إلهياً يحرك القلوب، ويهز النفوس، ويعيد صياغة الحياة وصناعة التاريخ.

ولقد كان النبي ﷺ حريصًا على هذه الطاقة الهائلة أن تتبدد، أو يقل تأثيرها في نفوس أصحابه، فقصرهم على الاستمداد منها، والاستقاء من معينها، و نهاهم عن الالتفات إلى غيرها والتطلع إلى سواها، ومن ثم فقد اشتد غضبه حينما رأى صحيفة من التوراة في يد عمر، رضي الله عنه، وقال: «**لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**». بل إنه ﷺ نهى أصحابه أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن وقال: «**لا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**»[1].

كل ذلك إدراكاً منه ﷺ لقوة كلمة الوحي التي يمحو الله بها ما يشاء ويثبت، وحفظاً لها من أن يشاركها ما يقلل من تأثيرها، أو يضعفها في مرحلة الانطلاق الأولى.

ولقد كان العرب في عصر نزول القرآن في مستوى يمكنهم من التفاعل مع النص القرآني، والاستجابة لإيحاءاته، والتأثر ببلاغته وسحر بيانه، ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ذلك، فقد كانوا يفهمون معانيه، ويتذوقون حلاوته، ويعرفون أساليبه، فعكفوا على قراءته ودراسته، وأمعنوا في تدبر آياته واستكشاف أسراره، فغاصوا في أعماقه باحثين عن درره، مستنبطين لأحكامه، مستلهمين لتوجيهاته، فوجدوا فيه حلاً لمشكلاتهم، وشفاءً لما في صدورهم، ونوراً لأبصارهم وبصائرهم، وهداية في كل شأن من شؤون حياتهم.

(١) أخرجه مسلم.

ثم بدأ هذا المستوى السامق يتدنى شيئاً فشيئاً بفعل اختلاط العرب بغيرهم، وبدخول الأمم والشعوب في دين الله أفواجاً، فتطرق الضعف إلى اللغة، وفشا اللحن في اللسان، وظهرت الحاجة إلى ضبط القراءة وإلى ضبط الفهم، والاستنباط، فنشأت لذلك علوم العربية، من نحو، وصرف، وبلاغة... ونشأت علوم القرآن من رسم، وقراءات، وتفسير، كما نشأت العلوم الشرعية الأخرى من حديث، وفقه، وأصول... إلى غير ذلك من علوم العربية وعلوم الشريعة والتي تهدف كلها إلى خدمة القرآن الكريم وتمكين المسلم من أن يرتع بمستواه للتعامل مع القرآن، والتفاعل معه، والتأثر به، وليكون قادراً على فهم معانيه واستنباط أحكامه، واستلهام توجيهاته.. كما كان الشأن في جيل الصحابة، رضوان الله عليهم...

وسارت الأمور في هذا الاتجاه الصحيح فترة من الزمن، وكانت كل تلك العلوم في خدمة القرآن الكريم والمساعدة على فهمه....

ثم بدأت هذا العلوم مع الزمن تتسع شيئاً فشيئاً، وتنحو منحى الاستقلال، وأصبح في كل علم من العلوم ما لا يحصى من الكتب والمؤلفات، وغدت الثروة العلمية والفقهية التي خلفها لنا علماؤنا ينوء بها العصبة أولو القوة وتفنى الأعمار دون الإحاطة بها، وإدراكها، وتمثلها، على الرغم من أنها تتفاوت صحةً وضعفاً، وخطأً وشذوذاً، وبعداً عن الجادة واستقامة عليها. ومع تطاول الزمن، واتساع العلوم، وتنامي استقلاليتها وتخصصها، أصبحت هذا العلوم محور الدراسة، وموضع الاهتمام، فبعد أن

كانت وسيلة مساعدة على فهم القرآن غدت غاية بحد ذاتها. ومن ثم انصرف إليها الدارسون وطلبة العلم يولونها كل اهتمامهم، ويوجهون إليها معظم نشاطهم، وينفقون في سبيلها جل أوقاتهم وأعمارهم.

ولم يعد الاهتمام بالقرآن والسنة في المقام الأول وإنما أصبح في المقام الثاني، ومن ثم ضعفت الصلة بالقرآن والسنة، ولم يعد لهما ذلك الأثر الفعال في تغيير السلوك الذي عرفناه في الأجيال السابقة، فتوقف العقل المسلم عن النشاط، وفقد كثيراً من فاعليته التي أفاضها عليه القرآن نتيجة تفاعله معه، وظهر من ينادي بإغلاق باب الاجتهاد نتيجة العجز العقلي الذي ألقى بظلاله على المجتمع الإسلامي.....

ثم في مرحله من مراحل تاريخ هذه الأمة يغدو القرآن في واقع بعض المنتسبين إلى العلم وسيلة يستعان بها على إيضاح بعض العلوم التي كانت وسيلة لإيضاحه، فكأن مهمته تقصر على تقديم شواهد لتوضيح القواعد النحوية والبلاغية وغيرها من العلوم الأخرى، ولو طلب إلى من يقرر هذه القواعد البلاغية أو النحوية أن يعرفنا بمعنى الآية التي يستشهد بها للاستدلال على قاعدته لوقف أمامنا فاغراً فاه متعجباً، ولألفيناه يقول: إن اختصاصه إنما هو النحو أو البلاغة، وأنه لا يعرف من الآية إلا موضع الشاهد....

وهكذا يغدو القرآن - في نظر أمثال هؤلاء- مجموعة من الشواهد التي يستخدمها علماء هذا الزمان لتوضيح قواعدهم....

ومثل هذا الذي قيل في شأن علوم العربية، يمكن أن يقال في بعض العلوم الشرعية، كعلم الكلام «علم التوحيد» الذي تأثر بمنطق أرسطو وفلسفة يونان، وتحول إلى مدارس فكرية واتجاهات مذهبية، تنحو مناحي مختلفة، وتتخذ طرائق قدداً. فغدت كل فرقة تبحث في القرآن عن شاهد يؤيد وجهة نظرها ويشهد لقولها ومذهبها، وبذلك وقعت الأمة في داء الفرقة والاختلاف، وكل يريد أن يقول بأن ما ذهب إليه هو الذي جاء به القرآن....

أما ما انتهى إليه الأمر في شأن هذه العلوم فقد تجاوز ذلك كله، حيث أصبحت كثير من هذه العلوم بدائل للقرآن، تدرس في غيابه وفي منأى عنه، ظناً منهم أن كل العلوم التي حواها القرآن قد استُخرجت منه، وأُفردت بالتأليف بكتب مستقلة، ومن ثم لم يعد في القرآن إلا نصوص تتلى بقصد البركة والثواب الأخروي....

إن ما آلت إليه الأمور من انحطاط في العقل، وجمود في الفهم، وعكوف على كتب المتأخرين حفظاً وتسميعاً، واختصاراً وتلخيصاً، أو شرحاً وتحشية، أو صياغة عل طريقة النظم، أو غير ذلك مما شغل به الناس أنفسهم في العصور المتأخرة، لن يحل مشكلة، ولن يبعث نهضة، ولا يمكن أن يكون سبيلاً لاستنقاذ أمة، ولا باعثاً على استئناف حياة جديدة.... إن الحياة لا يمكن أن تدب في هذه الأمة إلا بوحي الله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ (الشورى:٥٢).

ولا يمكن أن تكون إلا في الاستجابة لهذا الوحي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤)، فكلمات الله ووحيه هما القادران على بعث الحياة من جديد في هذه الأمة، وهما القادران على إمدادها بما تحتاجه من القوة والطاقة...

إن نصوص القرآن الكريم غنية بالمعاني التي لا تحد، والتوجيهات التي لا تنفد، والأحكام التي تلبي حاجة الأمة إلى يوم القيامة، ومن ثم فلا بد من العودة إليها ودراستها في سياقها واستلهامها في حل مشكلاتنا، ومعالجة قضايانا، وبدون ذلك لا يمكننا أن نفهم حكمة الأمر الإلهي بكثرة قراءة القرآن، وتدبر معانيه والتفكر في آياته، واستخلاص عبره وعظاته، وليس من حقنا أبداً أن ننهي مهمة القرآن ووظيفته الأساسية بقصره على مجرد التلاوة واحتساب الثواب على ذلك عند الله... ثم الاستغناء عنه بما كتبه الناس، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير...

إن ما كتبه العلماء واستنبطه الفقهاء، يعتبر ثروة كبرى لهذه الأمة في مجال العلم والمعرفة، لا يمكننا أن نفرط فيها أو نتجاهلها. ولكننا في نفس الوقت لا يمكننا أن نعتبرها بديلة للقرآن أو مغنية عنه، كما لا يمكننا أن نعتبرها الكلمة الأخيرة التي ليس بعدها مقال.

وإنما ينبغي دراستها في ضوء النصوص القرآنية والحديثية، وليس بمنأى عنها، وهذه الدراسة في ضوء النصوص كفيلة بتوسيع دائرة الرؤية، وتوضيح كثير من الجوانب التي لا يمكن أن تتضح في غيبة النصوص، مما يؤدي إلى ترجيح بعض الأقوال على بعض، أو ظهور فهم جديد نتيجة

لمراعاة سياق الكلام، أو لمراعاة مجموع النصوص الواردة في القضية، أو غير ذلك من المقتضيات التي تحكم الفهم والاستنباط.

ثم إن هناك جوانب كثيرة مما عرض له القرآن، لا تزال بكراً تحتاج إلى بحث ودرس، وذلك فيما يتصل بالدراسات النفسية والإنسانية، والتي لم تأخذ حظها الكافي من البحث والدرس في تراثنا الثقافي والعلمي، وما مس منها مس مساً رفيقاً، وما يزال بحاجة إلى مزيد من البحث والنظر، وبخاصة في ضوء الدراسات الحديثة التي توسعت كثيراً في هذه الجوانب، وأصبحت لها علوم مستقلة... ودراسات مستفيضة...

إن على الباحثين الإسلاميين أن يأخذوا هذا كله بعين الاعتبار، وأن تكون اجتهاداتهم في ضوء النصوص، وألا يكتفوا من النص بالجزء الظاهر الدلالة على الغرض، وإنما عليهم أن يوسعوا نظرهم في سياق الكلام وسباقه، وأن يتعرفوا على مناسبته التي نزل بها، ويراعوا مقاصده وحكمه، ويضموا إليه أشباهه ونظائره، إلى غير ذلك من الأمور التي لابد من مراعاتها لمن أراد أن يجانب الخطأ ويقارب الصواب.

هذا بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من ضرورة الاطلاع على كتب التراث والتعرف على ما قاله الأئمة العلماء والمجتهدون السابقون، وتفهم وجهة نظرهم وطريقة استنباطهم، فإنهم القدوة لنا في أصول الفهم ومناهج الاستدلال، وإن اختلفنا معهم في الاستنتاجات والمسائل، كما اختلفوا هم فيما بينهم...

- القرآن والعلوم الشرعية:

من المعلوم أن العلوم الشرعية وثيقة الصلة بالقرآن، وأنها تهدف إلى خدمته وتوضيحه... ولكن لا بد لنا من أن نبين كيف نشأت هذه العلوم، وما لابس هذه النشأة من أمور أدت إلى نوع من الخلل والقصور في بناء هذه العلوم؛ وخير من تعرض لمعالجة هذا الموضوع العلامة عبد الحميد الفراهي، ونحن مضطرون - هنا- إلى بيان وجهة نظره، وفي ذلك يقول:

«لا يخفى أن الدين معظمه ترقية النفوس وتربية العقول وإصلاح الأعمال الظاهرة، أي: الأخلاق والعقائد والشرائع».

والقرآن قد تكفل بكل ذلك على أحسن ما يكون، وكل ذلك متصل بعضه ببعض وبجميعه تحصل التزكية وهي الغاية والمطلوب.

ولهذه الثلاث نشأت ثلاثة علوم: علم الأخلاق والمواعظ؛ وعلم الكلام؛ وعلم الفقه...

ولما كان القرآن مصدر هذه العلوم، كان لابد لأصول تأويله أن تكون شاملة لكل هذه العلوم، ولكن ما حدث هو أن جعل علم التأويل مقصوراً على الفقه وهو ما عرف بعلم «أصول الفقه» ومن ثم أصبح علم الأخلاق وعلم الكلام بعيدين عنه فلا نجده مستعملاً فيهما.

أما علم الأخلاق فاتسع بأهله حتى تشبثوا بكل ما راقهم وأعجبهم، فمنهم من بناه على الحكمة العملية التي تلقوها من الفلاسفة، ومنهم من اعتمد على تجاربه، ومنهم من بناه على الروايات الضعيفة، وربما أخذوا من

القرآن حسب تأويلاتهم الركيكة، وذلك لظنهم بأنه لا حاجة إلى صحة الاستدلال في الترغيب والترهيب، ومدح الحسن، وذم القبيح.

ومنهم طائفة من المتصوفة تكلموا في العقائد يؤولون القرآن إلى ظنونهم لجهلهم بالعربية وبحقيقة هذا الدين، ويزعمون أنهم أعرف بالقرآن وأسراره، وتجد أمثلة ذلك في كلام ابن عربي.

وأما علم الكلام فأصحابه لاشتغالهم بالملاحدة قل اعتمادهم على النقل، وكان معظم احتجاجهم بما تجنح إليه العقول لكي يسلم لهم الخصم، وربما يؤولون القرآن إلى غير مراده فراراً من اعتراضات المعاند، إذ لم يهتدوا لصحيح التأويل وتوفيق المعقول بالمنقول فجعلوا للتأويل، لا نقول أبواباً بل ثلماً، يخرجون منه حين لا يمكنهم الدفاع على وجه مستقيم.

حتى قال بعضهم، كالرازي عفا الله عنه: «إنه لا اعتماد على ظاهر القرآن لعله يكون من المتشابهات».

فجعل القرآن كله ملتبساً، ولم يكن ذلك إلا لعدم تأسيس أصول التأويل العامة، التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن، سواء كان من فروع الشرائع أو الأخلاق والعقائد.

فإن جعلت القرآن أصلاً لتمام علم الدين - كما هو في الحقيقة- صار من الواجب أن يؤسس أصول للتأويل بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يؤخذ من القرآن»[1].

---

(١) الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ٣-٤.

- القرآن وعلوم اللسان:

وكما كانت للفراهي نظراته النقدية، في بناء العلوم الشرعية، كذلك كانت له نظراته في علوم اللسان، وفي ذلك يقول: «كما أن الله تعالى وعد بحفظ متن القرآن حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، فكذلك وعد ببيانه حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٩)؛ ومن بعض إنجاز وعده، حفظ اللسان العربي من الاندراس والمحو، وجعله حياً باقياً.

وكذلك حفظ الاصطلاحات الشرعية كـ «الصلاة» و«الزكاة» و«الجهاد» و«الصوم» و«الحج» و«المسجد الحرام» و«الصفا» و«المروة» و«مناسك الحج» وأمثالها، وما يتعلق بها من الأعمال المتواترة المتوارثة المأثورة من السلف إلى الخلف. والاختلاف في اليسير فيها لا اعتبار له...

فإذا نظرت إلى ألفاظ مصطلحة في الشرع، ولا تجد حدها وتصويرها في القرآن، فلا تجمد على أخبار الآحاد فتسقط في الريب... بل اقنع بالقدر الذي اجتمعت عليه الأمة، ولا تؤاخذ إخوانك فيما ليس فيه نص صريح ولا عمل، ولا عمل مأثور، من غير خلاف، فهذا هو السبيل الوسيع والمعنى الواضح من القرآن في اصطلاحاته الشرعية... فأما في سائر الألفاظ، وأساليب حقيقتها ومجازها، فالأصل فيه كلام العرب القديم، والقرآن نفسه.

وأما كتب اللغة فمقصرة، فإنها كثيراً ما لا تأتي بحد تام، ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى. فلا يدرى ما الأصل وما الفرع؟ وما الحقيقة والمجاز؟

فمن لم يتمرس بكلام العرب، واقتصر على كتب اللغة، ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله...

وأما باقي علوم اللسان كالنحو والمنطق والأصول والبيان والبلاغة والقافية، فالكتب المدونة فيها، مع كثرة فوائدها، أشد تقصيراً من كتب اللغة لفهم القرآن.

أما النحو فيحتاج إلى زيادات، بل ليس من شأنه إلا تأسيس أصول كلام وسيط بين السقط والرفيع، فلا ينبغي للمفسر أن يبالغ في تطبيق كلام الله على أصول النحو.... فيرممه ويؤوله فيظن الظان أنه جائر عن قصد السبيل. بل عليه أن يأتي بشهادة من أشعار العرب ليعلم الجاحد إنه لهو الأسلوب الأعلى».

وقد ذكر الفراهي بعضاً من هذه الإضافات في كتابه «أساليب القرآن»: «وأما المنطق فمداره التدقيق في استعمال ألفاظ التحديد والنفي والاستثناء وسوق الدليل... وأما علم البيان فحاله كحال النحو، لا يتصدى لكلام يتفجر من صدوع القلب الحي، وما أبعده مما يتصبب من سماء الوحي، فترى صاحب الوحي - بل كل داع إلى الحق- ينفث ما في قلبه كيف ما دعته الحالات، فطوراً يأتي بالمجاز، وطوراً بالحقيقة، ولا يراعي إلا فهم المخاطَبين والعادة الجارية في لسانه... فيفهمه المخاطَب.

ولكن الذي يجمد على علم البيان فإنه يدب كالنمل، ويخبط كالأعمى، ومن رأى الزبور وكتب الأنبياء السابقة علم أن المجاز له مجال وسيع في الوحي».

وقد وضح الفراهي كثيراً مما أراده في علم البيان في كتابه الذي خصصه لذلك وهو «جمهرة البلاغة»: «وأما الأصول: فلا نجحد فضل من أسس هذا الفن، فإنهم لم يأخذوه من اليونان ولا من الهند، ولا من غيرهما، بل دعت الحاجة إلى وضع أصول لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة، فهم قدوة في هذا الفن الشريف. ولكن الخلف لم يهتدوا إلى تهذيبه وإصلاحه، فبقي هذا الفن واهي القوى ضعيف الأركان، ولما يبلغ مبلغاً يستحق به اسم الفن، فترى فيه اختلافاً كثيراً ينجر إلى اختلاف الأحكام، وليس الأمر كذلك في النحو والمنطق وغيرهما من الفنون...

وأما البلاغة فاستخرجوها من أشعار العرب، والأشعار لضيق مجالها كانت مقتصرة على جودة السبك، ورشاقة اللفظ والبديع، أما حسن الاستدلال ورباط المعاني وضرب الأمثال، والاعتبار من القصص، وجر الكلام ثم العودة إلى عموده، والوعد والزجر، والتأكيد بشدة يقين المتكلم، والإعراض إعراض الترفع، والحسرة حسرة المعلم الناصح، وغير ذلك مما تجده في خطب البلغاء ووحي الأنبياء، فلم يذكروه في علم البلاغة»[1].

- لسان القرآن:

«الكتب المتعلقة بلسان القرآن من حيث دلالته على معانيه ثلاثة:

كتاب «المفردات» وكتاب «الأساليب» وكتاب «أصول التأويل».

ففي كتاب المفردات يبحث عن الألفاظ المفردة، ويكشف عن معانيها الخاصة، بحيث تتضح لها الحدود واللوازم، وما يتصل بها وما يفترق عنها، وما يشابهها وما يضادها فيحيط العلم بدلالة الألفاظ المفردة.

(١) الفراهي، فاتحة نظام القرآن،١٢-١٤.

وفي كتاب الأساليب يبحث عن دلالة التراكيب المختلفة الوجوه التي تدل عليها الأساليب المتنوعة، فيحيط العلم بما يدل عليه الكلام من المعاني حتى يحفظ عما لا دلالة عليه.

وفي كتاب أصول التأويل يبين ما يؤخذ من المعاني المختلفة وما لايؤخذ، وما يمكن بينها الجمع.

ثم بعد ذلك يستوي السبيل إلى فهم رباط معاني القرآن من القرآن»[1].

- علم الحديث والقرآن:

ويرى الفراهي أن السبيل السوي إنما يكون بتعلم الهدي من القرآن، وأن تبني عليه دينك، ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث: فإن وجدت ما كان شارداً عن القرآن - حسب بادي النظر أولته إلى كلام الله، فإن تطابقا قرت عيناك، وإن أعياك توقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن وقد أمرنا أولاً بإطاعة الله ثم بإطاعة رسوله، ولا شك أن الأمرين واحد، فإن لم يرد الله أن نقدم كلامه على ما روي عن رسوله فماذا إذن أراد بهذا الحكم[2].

- أصول التأويل:

قد جعل العلماء طرفاً من أصول التأويل جزءاً لأصول الفقه، أي فروع الشرائع، فلكونه جزءاً صار غير مستقل، ولم يعط من الاهتمام والإتمام ما يعطى لفن مستقل.

(١) الفراهي، مفردات القرآن،١.

(٢) التكميل في أصول التأويل، ٦٥-٦٦ .

ثم لكونه مستعملاً للفروع، لم يعط من التيقظ والاحتياط ما يعطى لأصول الدين، ومعلوم أن الاختلاف في فروع المسائل هين فهان أمره.

وكذلك لكونه مشتركاً بين الكتاب والسنة لم يختص بما هو أهله؛ إذ السنة معظم العناية فيها نقد الرواة، فلا يتعمق في متونها من قبل خواص ألفاظها وتراكيبها - إذ الروايات أكثرها بالمعنى- .

وأما القرآن فيعض عليه بالنواجذ، فيحافظ على حروفه وحركاته، ويعتمد على ما يستنبط من نظمه وإشاراته، وتنفى الاحتمالات الضعيفة عن تأويل آياته، ويرد ما اشتبه منه إلى محكماته، فلا يغتفر فيه الأخذ بالهوينى، لا في تأويله ولا في تنزيله.

فلو جعل هذا الفن من علم التفسير لعظم محله في الدين، ولأفرغ له الجهد التام، وأخذ فيه بالاحتياط من الآراء الضعيفة، وبعد ذلك يكون استعماله في الحديث وسائر الكلام على التبع والتطفل.

وبالجملة فإدخال أصول التأويل في أصول الفقه - بمعنى علم المسائل الفرعية- حط علم التأويل عن محله ومكانته بثلاث مراتب:

الأولى: كان حرياً بالبحث المستقل فصار له شركاء، فغدا مغموراً معها.

والثانية: أنه كان معظم علم التفسير، لكونه أصولاً لفهم القرآن، وإذ جعل من علم الفروع لم يبالغ في تنقيحه حتى يصير لعلم التأويل كالمعيار والميزان، مثل علم النحو والعروض، فما بلغ مبلغ الفن المنقح، بل كان قصاراه أن يكون أصولاً خاصة مثل قوانين الأمم المختلفة.

فيقال: إن أبا حنيفة، رحمه الله، جرى على هذه الأصول؛ والشافعي، رحمه الله، على تلك.

والثالثة: أن القرآن ليس مقصوراً على الفروع، بل معظمه يتعلق بالعقائد وبواطن الأخلاق.

وإذ جعل من أصول الفقه صار مقصوراً عليه. ومن هذه الجهة وقع خلل فاحش في بناء العلم الذي يهدي إلى فهم القرآن...»[1].

وهكذا نرى أن تدارك الخلل في بناء العلوم الشرعية ينطلق من إعادة النظر في بناء علم أصول الفقه بحيث يكون «علم أصول التأويل» ومن أجل ذلك وضع الفراهي مشروع كتابه: «التكميل في أصول التأويل».

ثم وضع كتابه: «القائد إلى عيون العقائد» لتدارك قصور علم الكلام.

كما وضع كتباً لتدارك تقصير علوم اللسان، منها: «مفردات القرآن»، و«إمعان في أقسام القرآن»، و«أساليب القرآن»، و«جمهرة البلاغة».

وأتبع ذلك بكتب متممة منها: «دلائل النظام»، و«فاتحة نظام القرآن» و«تفسير الفرقان بالفرقان»، وهي مقدمة تفسيره الذي طبع منه عدد من السور القرآنية.. كما وضع مذكرات خطية بين يدي تفسيره، وأشار بها إلى ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار والاهتمام عند تأليف هذا التفسير.

وتعتبر جهود الفراهي في هذه العلوم محاولة جادة في إعادة بنائها على أسس راسخة لتكون منطلقاً إلى مستقبل أفضل لهذه العلوم.

---

(١) الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ٢-٣، بشيء من التصرف.

- هيمنة القرآن:

لقد وصف الله القرآن بأنه المهيمن على الكتب الإلهية السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).

بمعنى أن ما جاء في القرآن أولى بالاتباع لأنه الصورة الأخيرة للوحي الإلهي، والناسخ لما خالفه من الشرائع السابقة، التي جاءت لفترات زمنية محدودة ولأقوام معينين. أما الصورة الأخيرة فهي الصورة المتوافقة مع الفطرة البشرية، والمتناسبة مع عموم الرسالة، وامتداد الزمان والمكان...

وإذا كان لا يقبل ما خالف القرآن من الرسالات السابقة، لأن القرآن مهيمن عليها، فكذلك ينبغي أن تكون للقرآن الهيمنة في مصادر الشريعة الإسلامية، وفي العلوم التي نشأت في الأصل لخدمته وتوضيحه وبيانه، ولا يجوز أبداً أن تعكس القضية، فيصبح القرآن وسيلة لتوضيح تلك العلوم، كما لايجوز أن تكون تلك العلوم هي المهيمنة على النص القرآني، ولو كانت الحجة أن هذه العلوم مستمدة في الأصل من القرآن.

ذلك أن دراسة هذه العلوم بمعزل عن القرآن أوجد خللاً في تصور بعض المفهومات والقيم الإسلامية، كما أوجد خللاً في العلاقات بين مفرداتها. وبذلك تضخمت بعض القيم على حساب البعض الآخر، مما أفقد التصور الإسلامي توازنه وتناسبه، وانعكس كل ذلك في سلوك المسلم الذي ما زال يعاني من أثر ذلك.

إن دراسة قيم الإسلام ومفهوماته، ومفرداته من خلال النص القرآني وترتيب آياته وسوره لا يكشف عن سر الحسن وسحر البيان - وهو أمر

مطلوب- فحسب، وإنما يتعدى ذلك إلى دلالات جمة، فكم من المعاني الدقيقة والحكم الغامضة مودعة فيه. والواجب على المتأمل في القرآن أن يتدبره كلمة كلمة، ويؤمن بأن تحت كل منها حكماً وفي نظمها سراً، وإذن يوشك أن يتجلى عليه بعض المكنون حسب استعداده..»[1].

ولقد أدرك أهمية هذه الحقيقة، حقيقة الدراسة للإسلام وقيمه ومفهوماته من خلال القرآن، وما يترتب على ذلك من تصور صحيح متوازن بعيد عن الإفراط والتفريط، بعض علماء النهضة المعاصرين. ونرى أنموذجاً لهم في ما كتبه العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي، وما كتبه بديع الزمان سعيد النورسي، وما كتبه سيد قطب في معظم مؤلفاته وبخاصة «مقومات التصور الإسلامي» و«في ظلال القرآن»، وسنقتطف فيما يلي فقرات مما كتبه هؤلاء الأعلام عن هذه الحقيقة:

- مع بديع الزمان النورسي:

يرى النورسي «أن القرآن الكريم قد حافظ على التوازن في بيانه التوحيد بجميع أقسامه، مع جميع مراتب تلك الأقسام وجميع لوازمه، ولم يخل باتزان أي كان منها.. ثم إنه قد حافظ على الموازنة الموجودة بين الحقائق الإلهية السامية كلها.. وجمع الأحكام التي تقتضيها الأسماء الإلهية الحسنى جميعها، مع الحفاظ على التناسب والتناسق بين تلك الأحكام.. ثم إنه قد جمع بموازنة كاملة شؤون الربوبية والألوهية.

(١) الفراهي، جمهرة البلاغة، ص٥٠ بشيء من التصرف.

فهذه «المحافظة والموازنة والجمع» خاصية لا توجد قطعاً في أي أثر كان من آثار البشر، ولا في نتاج أفكار أعاظم المفكرين كافة، ولا توجد قط في آثار الأولياء الصالحين النافذين إلى عالم الملكوت، ولا في كتب الإشراقيين الموغلين في بواطن الأمور، ولا في معارف الروحانيين الماضين إلى عالم الغيب.

بل كل قسم من أولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب، من أغصان الشجرة العظمى للحقيقة، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن وورقه، دون أن يلتفت إلى غيره من الأغصان؛ إما لجهله به أو لعدم التفاته إليه، وكأن هناك نوعاً من تقسيم الأعمال فيما بينهم.

نعم! إن الحقيقة المطلقة لا تحيط بها أنظار محدودة مقيدة، إذ تلزم نظراً كلياً كنظر القرآن الكريم ليحيط بها. فكل ما سوى القرآن الكريم - ولو تلقى الدرس منه- لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود إلا طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكاملة، فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه، وينحصر فيه، فيخل بالموازنة التي بين الحقائق ويزيل تناسقها إما بالإفراط أو بالتفريط»[1].

ويقول النورسي في مكان آخر: «إن من يتأمل في كتب حكماء الإشراقيين، وكتب المتصوفة الذين اعتمدوا على مشهوداتهم وكشفياتهم، دون أن يزنوها بميزان السنة المطهرة يصدق حكمنا هذا دون تردد. إذاً فعلى الرغم من أنهم يسترشدون بالقرآن ويؤلفون في جنس حقائق القرآن، إلا أن النقص يلازم آثارهم، لأنها ليست قرآناً»[2].

(١) الكلمات، ٥١٢.
(٢) الكلمات، ٥١٣.

- مع سيد قطب:

يرى سيد قطب أن للمنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي خصائص تميزه عن أي منهج آخر، وقد ذكر منها الخصائص التالية:

«أولاً: إنه يعرض «الحقيقة» كما هي في عالم الواقع، في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها، وكل جوانبها، وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها... وهو مع هذا الشمول لا يعقد هذه الحقيقة، ولا يلفها بالضباب، بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها..

ثانياً: إنه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات «العلمية» والتأملات «الفلسفية»، والومضات «الفنية» جميعاً، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب «الكل» الجميل المتناسق بحديث مستقل، كما تصنع أساليب الأداء البشرية.. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى.. في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده...

ثالثاً: إنه مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقه يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها - في الكل المتناسق- مساحته، التي تساوي وزنه في ميزان الله - وهو الميزان- ...... ومن ثم تبدو «حقيقة الألوهية» وخصائصها، وقضية «الألوهية والعبودية» بارزة مسيطرة محيطة شاملة، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة، وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي...

وتشغل حقيقة عالم الغيب بما فيه القدر والدار الآخرة، مساحة بارزة، ثم تنال حقيقة الإنسان، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة أنصبة متناسقة، تناسق هذه الحقائق في عالم الواقع...

وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق، ولا تهمل، ولا تضيع معالمها، في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق...

رابعاً: إنه يتميز بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية - مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم- وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض، ولا الأسلوب البشري في التعبير... ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة..

ولا يمكن أن نصف نحن، في الأسلوب البشري، ملامح المنهج القرآني، فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج... كما أنه لا يمكن أن نبلغ بهذا البحث كله عن «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» شيئاً مما يبلغه القرآن في هذا الشأن...»[1].

- مع الفراهي:

أما الفراهي فيرى في نظم القرآن دليلاً على نظم الديانة كلها وذلك حينما يقول: «القرآن هو الأصل للإسلام والإيمان، أي: الشرائع والعقائد، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ

(١) مقومات التصور الإسلامي، ٦٥-٦٨.

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾» (الشورى:٥٢).

وإذا كان القرآن على المطابقة التامة للدين صار النظر في نظامه باعثاً على النظر في الشرائع والعقائد، فما كان أصلاً وأساساً نبّه القرآن على كونه كذلك، فإذا تدبرت في القرآن هديت إلى حكمة الدين ونظام أموره»[1].

وهكذا يظهر لنا من خلال هذه الفقرات المقتبسة لأعلام النهضة المعاصرة مقدار الخلل الذي حصل في المفهومات والقيم الإسلامية نتيجة لدراستها بمَعزل عن القرآن، الأمر الذي يستوجب تصحيحاً، بالعودة بها إلى القرآن الذي يعيد إليها توازنها، ويعطي كلاً منها نصيبه الذي يستحقه في ميزان القرآن، فلا تطغى حقيقة على أخرى، ولا تدغم حقيقة في حقيقة غيرها.

- منهجية دراسة القرآن:

إذا كان لا بد لنا في فهم الإسلام وقيمه ومفهوماته من الاعتماد على القرآن، والارتكان إليه، ليكون فهمنا صحيحاً، وقيمنا متوازنة، ومفهوماتنا سديدة، فإن هذا الأمر يستدعي منهجية موحدة وأصولاً متفقاً عليها، ليكون القرآن حكماً يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، كما أراده الله أن يكون: ﴿...وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ...﴾ (البقرة:٢١٣).. أما إذا اختلفنا في القرآن، فكيف يمكن أن يكون حكماً؟

(١) دلائل النظام، ٤٦.

ومن ثم فلا بد لنا من منهجية موحدة، تمكننا من تحقيق هذا الهدف.

ولكن أنى لنا ذلك مع اختلاف العقول؟ واختلاف المشارب؟ واختلاف الدراسات والثقافات؟!!.. ومن الذي يملك أن يضع هذه الأصول والقواعد؟ وكيف يمكن أن تكون وسيلة للالتزام فضلاً عن الإلزام؟.

إن القضية كبيرة وتحتاج إلى جهود جماعية متضافرة، ويمكن أن يعقد لأجلها مؤتمر أو مؤتمرات، وذلك نظراً لأهميتها وما يمكن أن ينبني عليها، فهي تستحق أن تبذل فيها الأوقات والأموال، وأن تكد من أجلها القرائح والعقول، لأنها تجمع علماء الأمة على أصول وقواعد لفهم كتاب الله، بعيداً عن الزيغ واتباع الأهواء، وبذلك تلتقي كلمة الأمة على نهج سديد وكلمة سواء.

وريثما يتم مثل هذا المؤتمر نرى لزاماً أن نطرح بعض الأفكار والملاحظات للمناقشة بحيث يمكن البناء عليها فيما بعد، ولعلها تسهم في بيان المراد وإضاءة الطريق.

- هل القرآن حمال أوجه؟

من الأقوال المأثورة في تراثنا: «لا يفقه الإنسان كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهًا».

وقد تركت هذه الكلمة آثارها في كتب التفسير، وكتب العقائد والفرق، فكثيراً ما يجد القارئ لتفسير آية أقوالاً عدة، ووجوهاً مختلفة، يقف حيالها حيران، لا يدري ماذا يأخذ، وماذا يدع، وكذلك الآية الواحدة تستشهد بها الفرق المختلفة، وكل منها تحملها المعنى الذي تريد، وهي تود

نصرة قولها وتأييده بآية من القرآن، ليكون مقبولاً عند الناس، لا مجال للاعتراض عليه، حتى قال بعضهم:

إن القرآن قد وَسِع الفرق الإسلامية كلها، نظراً لأن كل فرقة تحاول جاهدة أن تجد مستنداً لما ذهبت إليه من القرآن.

والحقيقة إن هذا القول المأثور: «لا يفقه الإنسان كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً»، يمثل نصف الحقيقة، والنصف الآخر هو: «وحتى يستطيع أن يرجح واحداً من هذه الوجوه»، ذلك أن رؤية وجوه عدة لمعنى الآية، يدل على التبحر وسعة المعرفة الأفقية.

ولكن ترجيح واحد من هذه المعاني يدل على الرسوخ في العلم والتعمق في الفهم. والقرآن نزل ليكون حكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه، والحكم لابد أن يكون له قول واحد ليكون حجة وقابلاً للتنفيذ.

أما إذا تعددت أقوال الحكم ولم يمكن الترجيح بينها، فكيف يمكن أن تكون حكماً؟

وهكذا بدلاً من أن يحكم القرآن بين الناس فيما اختلفوا فيه، يختلف الناس في فهم القرآن. وينشأ عن ذلك فرقة وخصام، ومذاهب واتجاهات، على حين نجد القرآن يأمرنا بالاعتصام بحبل الله وينهانا عن التفرق: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

كما أن الرسول ﷺ بين لنا المخرج حين نزول الفتن بما رواه علي، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ستكون فتن، فما المخرج منها؟ قال: «**كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل**

ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الآراء ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثـرة الرد، ولا تنقضي عجـائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صـدق، ومن حـكم به عـدل، ومن عـمل به أجـر، ومن دعـا إليه هـدي إلى صراط مستقيم»[1].

والشاهد في هذا الحديث قوله: قلت: يا رسول الله، ستكون فتن، فما المخرج منها؟ قال: «**كتابُ اللهِ**». ثم قال: «**وهو الصراط المسـتقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الآراء ولا تلتبس به الألسن...**».

كما يبين لنا القرآن الكريم أن سبب اختلاف الناس منشؤه البغي بينهم مع وجود البينات والعلم والكتاب: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:٢١٣).

معنى الآية: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي على شريعة من الحق فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، فكان أول نبي بعث نوحاً، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما من طريق الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنـه، وفيه كلا، ويميل القرطبي إلى توثيقها، انظر تفسير القرطبي، ٥/١؛ وكنز العمال، ٤٥/١؛ وسنن الدارمي، بتحقيـق محمد أحمد دهمان، طبع دمشق، ١٣٠٩ هـ.

أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي من بعد ما قامت عليهم الحجج، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض.

كما ينهانا أن نتفرق ونختلف كما اختلف أهل الكتاب إذ قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

وخاطب نبيه ﷺ في شأن أهل الكتاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

وبين سبب العداوة والبغضاء بينهم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: ١٤).

فتحصل من ذلك كله أن منشأ الاختلاف لا يرجع إلى أصل الكتب المنزلة، وإنما يرجع إلى سلوك الناس تجاهها نتيجة بغيهم بينهم أو نسيانهم حظاً مما ذكروا به.

وقد بين لنا القرآن الكريم أن كونه من عند الله يقتضي عدم وجود الاختلاف فيه: ﴿...وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

فدل ذلك على أن الاختلاف فيه لا يرجع إليه وإنما يرجع إلى ما عند الناس. ومن ثم لابد أن تحكم آراء الناس بالكتاب، ولا يحكم الكتاب بآراء الناس.

- منهج صارم في التفسير:

وللوصول إلى فهم موحد لكتاب الله لابد من التزام منهج صارم في التفسير يقوم على أمرين:

الأمر الأول:

مراعاة نظام الكلام الذي يشمل تسلسل المعاني وترابطها الوثيق، والتناسب بين السابق واللاحق في نطاق الآيات والسور، فتظهر بذلك وحدة القرآن الموضوعية، وتتضح قاعدته البيانية، ويبدو القرآن بذلك كلاً موحداً، لا تفاوت في مبانيه، ولا اختلاف في معانيه.

الأمر الثاني:

اعتبار تفسير القرآن بالقرآن أصلاً في بيان معاني الكلمات القرآنية، واعتبار أسلوب القرآن قاعدة حاكمة في اختيار المعاني وترجيح بعضها على بعض، وذلك لأن تفسير القرآن بالقرآن تفسير صاحب الكلام لكلامه، ولا يمكن أن يقدم عليه أي تفسير مهما كان.

ومثل هذا المنهج الصارم لا يمكن الوصول فيه إلى نتائج قاطعة حاسمة إلا إذا أخذ مأخذ الجد في التطبيق، وهو يتطلب تعمقاً في الفهم، وتدقيقاً في النظر، وصبراً على التأمل الطويل، والتدبر الواعي. ولكن الثمرة لذلك كله فهم صحيح لكتاب الله، بعيد عن التكلف والتعسف، وتصحيح للأخطاء المتوارثة، ونظرات جديدة تدفع بالمسلمين خطوات واسعة إلى الأمام، وتكون منطلقاً لنهضة إسلامية حقيقية، حيث تؤدي إلى توحيد الفهم الذي يجمع المسلمين على صعيد واحد وكلمة سواء، وبذلك يكون

القرآن، كما أراده الله أن يكون حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه، فلا يقدمون بين يديه آراءهم، ولا يحملونه مالا يحتمل، وإنما يستلهمون مراده، وينتهون إلى حيث ينتهي بهم.

وهذا الكلام الوجيز في المنهج يحتاج إلى شرح وتوضيح لا يتسع له المجال هنا، وسنكتفي في هذه العجالة بضرب بعض الأمثلة الدالة عليه:

- **المثال الأول: قوله تعالى:**

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ (الماعون: ٤).

ذكر الخطابي، في رسالته عن إعجاز القرآن، عن مالك بن دينار قال: جمعنا الحسن لعرض المصاحف أنا وأبا العالية الرياحي ونصر بن عاصم الليثي وعاصما الجحدري فقال رجل: يا أبا العالية قوله تعالى في كتابه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(الماعون:٤- ٥)، ما هذا السهو؟ قال: الذي لا يدري عن كم ينصرف، عن شفع أو عن وتر. فقال الحسن: مه يا أبا العالية، ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم.

قال الحسن: ألا ترى قوله عز وجل: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ...﴾؟

ويعلق على ذلك الخطابي بقوله: «وإنما أتي أبو العالية في هذا حيث لم يفرق بين حرف «عن» و«في» فتنبه له الحسن فقال: ألا ترى قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ...﴾.. يريد أن السهو الذي هو الغلط في العدد، إنما هو يعرض في

الصلاة بعد ملابستها، فلو كان هذا المراد لقيل: في صلاتهم ساهون.. فلما قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ...﴾. دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت[1]!!!

وهذا الكلام الذي يقوله الحسن إنما قاله لأنه لم يتنبه لسياق الآية ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ذلك أن التوعد في الآية إنما هو ﴿لِّلْمُصَلِّينَ...﴾ أي المتلبسين بالصلاة، وهم قد سهوا عن حقيقتها وخشوعها، وبالتالي فلا تترتب على مثل هذه الصلاة آثارها العملية السلوكية، بدلالة قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون:٦- ٧)، فهذه الصلاة قصد بها المراءاة، ومن ثم فليس فيها معنى الإخلاص لله، والخشوع بين يديه. ومن ثم فصاحبها يمنع الماعون. ولا يسعى إلى فعل الخير، وهذا المنكر من المراءاة ومنع الماعون لم تحل مثل هذه الصلاة دون وقوعه، على حين الصلاة الحقيقية تمنع فعل ذلك: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥).

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أول السورة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون:١- ٣)، عرفنا أن هذه الأوصاف إنما تنطبق على المنافقين.

ثم إن هذه الصلاة التي لا تؤثر في سلوك صاحبها، وجودها وعدمها سواء، ومن ثم وصف الله الذين لا يصلون بمثل ما وصف به الذين يصلون هذه الصلاة حينما قال عن أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ٣٢-٣٣.

ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (المدثر: ٤٢- ٤٦).

وإذا ما أردنا تأكيداً أكثر فإننا نحتكم إلى أسلوب القرآن وبيان القرآن بالقرآن، فماذا نجد؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (المعارج: ١٩- ٣٤).

ويقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون:١- ٩)، ويقول أيضاً: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

وبالنظر في الآيات السابقة وسياقاتها نرى ما يلي:

- تكرار الوصف بالصلاة في سياق سورة المعارج وفي سياق سورة المؤمنون.

- وصف المصلون بسورة «المعارج» أنهم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، كما وصفوا بسورة المؤمنون بأنهم: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

- أما الوصف المكرر في السورتين فقد جاء بصيغة واحدة وهو: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

فلو وضعنا هذه الآيات على صورة معادلة رياضية لرأينا ما يلي:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ (المؤمنون).

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المعارج).

ولما كان الطرف الثاني للآيتين واحداً ﴿يُحَافِظُونَ﴾ كان لابد للطرف الأول: ﴿دَآئِمُونَ﴾، ﴿خَٰشِعُونَ﴾، أن يكون متساوياً، وهذا يعني أن المراد بـ ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي دائمو الخشوع في صلاتهم.

أما قوله ﴿يُحَافِظُونَ﴾ فالمراد به المحافظة على وقت الصلاة وعدم تضييعه.

وهكذا نرى أن القرآن إذا أراد التعبير عن «وقت الصلاة» جاء بلفظ المحافظة.

وإذا أراد التعبير عن حقيقة الصلاة جاء بلفظ «الخشوع» أو «الدوام» أو ما شابه.

وهذا ينطبق على قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة:٢٣٨) حيث يراد بها الوقت. أما الخشوع فقد عبر عنه بـ «القنوت» كما هو تتمة الآية: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

- وصف الإنسان في سورة المعارج بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ (المعارج:٢١-٢٦).

كما وصف المؤمنون الخاشعون في سورة المؤمنون بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ (المؤمنون:٤).

وهذه الصفات هي ضد الصفات الواردة في سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ (الماعون:١- ٧). فانظر إلى هذا التوافق العجيب. وصدق الله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

- المثال الثاني: قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (القصص:٧٤ - ٧٥).

يقول الطبري في تفسير هاتين الآيتين: ويوم ينادي ربك يا محمد هؤلاء المشركين فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أيها القوم في الدنيا أنهم شركائي؟

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: وأحضرنا من كل جماعة شهيدها وهو نبيها الذي يشهد عليها بما أجابته أمته فيما أتاهم به عن الله من الرسالة..........

وقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، يقول: فقلنا لأمة كل نبي منهم، التي ردت نصيحته وكذبت بما جاءها به من عند ربهم، إذ شهد نبيها عليها بإبلاغه إياها رسالة الله»: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

يقول فقال لهم: هاتوا حجتكم على إشراككم بالله ما كنتم تشركون مع إعذار الله إليكم بالرسل وإقامته عليكم بالحجج..».

وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ يقول: فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم، وأن الحق لله والصدق خبره، فأيقنوا بعذاب من الله لهم دائم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، يقول: واضمحل فذهب الذي كانوا يشركون بالله في الدنيا، وما كانوا يتخرصون ويكذبون.....[1].

هذا ما قاله الطبري في هذه الآية، وبمثل هذا القول أخذ معظم المفسرين.

غير أن الفراهي الهندي يقول في مقدمة كتابه «مفردات القرآن»: «...ثم سوء فهم الكلمة ليس بأمر هين فإنه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام، وكل ما يدل عليه من العلوم والحكم، فإن أجزاء الكلام يبين بعضها بعضاً للزوم التوافق بينها.

(١) جامع البيان، ١١/١٠٤-١٠٥، طبع دار الفكر.

مثلاً: كلمة «النزع»، في سورة القصص، تبين معنى «الشهيد»، هناك، فسوء فهمها صرف عن معنى غيرها..»[1].

يريد بذلك الذين فسروا «النزع» بالإحضار وما شابهه، كما ذهب إلى ذلك الطبري وغيره، والمعروف أن أصل النزع: جذب الأشياء من مقارها بقوة»[2]. ومثل هذا الخطأ في معنى «النزع» جعل من الممكن تفسير «الشهيد» بـ «النبي». وبذلك اضطر المفسرون إلى التكلف في معنى الآية، نتيجة الخطأ في معنى «النزع» ومعنى «الشهيد».

ولو أنهم تمسكوا بأصل المعنى «جذب الأشياء من مقارها بقوة» لعرفوا أن هذا لا يتناسب مع مقام «الشهيد» - الذي هو النبي- وأنه لابد للشهيد من معنى آخر.

وقد بين الفراهي معنى الشهيد في كتابه «مفردات القرآن» فقال: «الشهيد»: الذي يشهد ويحضر. ويحمل على وجوه:

١- من يشهد المشاهد العظيمة من القوم ويتكلم عن القوم، فهو لسان القوم، فما قال، كان ذلك قول القوم، فهو رئيسهم وهم يذعنون لما قال....

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (القصص:٧٥).

(١) مفردات القرآن، ٤.

(٢) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ٤/١٨٦.

وقد فسر الفراهي في مذكراته التي وضعها بين يدي تفسيره «الشهيد» - في الآية - بأنه إمامهم في الكفر.

ويؤيد هذا التفسير ما جاء في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ (مريم:٦٩). حيث استعمل نفس فعل «النزع» واستعمل «الشيعة» بدل الأمة، وبين معنى الشهيد بأنه «أشدهم على الرحمن عتيا».

وبناء على هذا يستقيم معنى الآية: ونزعنا من كل أمة شهيداً - إمامهم في الكفر وأشدهم عتواً - فقلنا - لهؤلاء الأئمة العتاة- : هاتوا برهانكم - على ما كنتم تزعمون لي من الشركاء- فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون - من الشركاء- .

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ (فصلت:٤٧- ٤٨).

ولو أننا تتبعنا الآيات التي تنتهي بقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، لرأيناها تؤيد هذا المعنى، مما لا يدع مجالاً للشك في صحة هذا التفسير.

أما التفسير الذي ذهب إليه معظم المفسرين، فقد اضطروا إليه اضطراراً، حيث ظنوا أن «الشهيد» في الآية هو كالشهيد في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾

(النساء:٤١)، ولما كان قوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ لا يتناسب مع مقام الشهيد الذي هو النبي، جعلوا الخطاب للأمم بدلاً من الأنبياء، غير أن الأمم فيها المؤمن والكافر، وحتى يصح الخطاب لابد من تخصيصه بالكفار، وكلها تكلفات وتجوزات.

ولو أنهم أخذوا «النزع» على أصل معناه لعلموا أنه لا يتناسب مع مقام الأنبياء ومن ثم بحثوا عن المعنى الآخر، والذي تكرر في عدد من الآيات ومنها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣)، ونكتفي بهذين المثالين على ما أردنا شرحه وتوضيحه لأن المقام لا يسمح بأكثر من هذا.

ومن أراد أمثلة أكثر فبإمكانه أن يرجع إلى ما كتبناه حول مفهوم «إرادة الله» و«القضاء والقدر» في افتتاحية العدد الرابع عشر من مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويتية، الصادرة في شهر ٨٩/٨، وما كتبناه في افتتاحية العدد الخامس عشر من نفس المجلة عن «مشيئة الله في الهداية والضلال» وما كتبناه في العدد السابع عشر عن التحقيق في معنى «الفقير» و«المسكين».

وغير ذلك من الدراسات في عدد من المفهومات والمصطلحات كالـ«الخلافة في الأرض»؛ و«فطرة الله التي فطر الناس عليها»؛ و«الذين في قلوبهم مرض»؛ و«الأمة في دلالتها العربية والقرآنية»؛ و«تأويل ثلاث آيات متشابهات: «آيات الصابئين» و«تأويل آية الزخرف: «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين»، وتأويل آية النساء: «لكن الراسخون في العلم منهم

والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة....».

ومن خلال هذه التجربة أرى أن هذه المنهجية تحل كثيراً من المشكلات، وتؤصل لفهم موحد ينفي التخاصم والتشاكس، ويؤدي إلى الائتلاف والتعاون..

وهكذا نرى أن نهضة هذه الأمة لابد أن تنطلق من القرآن، وأن تعول عليه، إذ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وقد قال الله تعالى في ماضي هذه الأمة: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(آل عمران:١٠٣).

وقال مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣).

وقال في مستقبل هذه الأمة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور:٥٥).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصدرية القرآن للثقافة
ومحوريته لكل أنواع النشاط

الأستاذة نورة سعادنة (*)

يخاطب القرآن الكريم الإنسان ويمنحه الثقة في نفسه؛ ويرقى به لأقصى درجات العطاء؛ حيث يصبح حارساً من حراس الأمة لبقاء الأمة نفسها بكامل خَيْرِيَّتها. وذلك بالذود عن مبادئها بين أفراد مجتمعها؛ ويصبح كل المجتمع يؤدي مهمة الحسبة والرعاية لبقاء الأمة. وهذا ما وصفه القرآن الكريم بأبلغ الأوصاف؛ وهذه أعلى الدرجات التي يعجز عن بلوغها أرقى فنون تطوير الذات والتنمية البشرية.

المصدرية القرآنية:

يهيم الباحث الجادّ بين مئات المصادر والمراجع ليمنح أفكارَه مصدرية أو مرجعية موثوق بها؛ وهو في ذلك يتحرى أكثر المؤلفين دقة وأجودهم أسلوباً وأبدعهم عطاءً، والأهم من ذلك كله أصدقهم علماً وأنصفهم قولاً

(*) باحثة أكاديمية.. جامعة العقيد الحاج لخضر، كلية العلوم الإسلامية، باتنة (الجزائر).

وأنصعهم هدفاً وغاية، وهذا قصد الاستشهاد بما يرفع من قدر بحثه علمياً؛ ويمنحه المتانة والصلابة الفكرية الكافية ليؤسس لرؤى جديدة، أو ليبث روح الإحياء في أفكار بناءة قد طواها غبار القرون والنسيان بعيداً عنا.

القرآن الكريم[1] هو الكتاب المنزل عن طريق الوحي على خاتم الأنبياء ﷺ، وهو كلام الله عز وجل المنقول إلينا بالتواتر، من هنا يبدأ الحديث عن مصدر آخر يختلف عن كل المصادر المعرفية المعهودة بين البشر، بما في ذلك الكتب السماوية السابقة؛ والتي تم تحريفها وإعادة صياغتها وفق الأنماط البشرية في التأليف.

وهنا أيضاً يبدأ الحديث عن خصائص مصدرية لا يمكن أن ترقى إلى ميزاتها ودرجاتها أياً من المصادر والمراجع المعهودة، سواء كان ذلك على الصعيد المعرفي العلمي؛ أو الصعيد الفكري والثقافي الاجتماعي.

- خصائص المصدرية القرآنية:

١- اليقينية:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢)، والرَّيْبُ في اللغة معناه: «الشَّكُّ والظِّنَّةُ والتُّهمة»[2]، فالقرآن هو كتاب الهداية الحق الخالي من أي ريب أو ظنّ.

---

(١) التعريف الشهير للقرآن الكريم هو: «الكلام المعجز المنزل على النبي، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته»، انظر محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م) ١/١٥.

(٢) محمد بن مكرم الإفريقي، ابن منظور، لسان العرب، ط١ (بيروت: دار صادر، د.ت) ١/٤٤١-٤٤٢.

لقد ابتليت البشرية بموجة عاصفة من الشكّ أيام السُّفَسْطَائِيَّة في العصر اليوناني، حين فُقِدَت الثّقة في أهم مصادر المعرفة البشرية وهما: العقل والحواس. ولم يعد للمنطق أي قيمة؛ وحلت بدلاً منه التركيبات الأغلوطية والمفارقات الشهيرة[1]، ووقتئذ ادّعى الشُّكَّاك أن لا وجود للحقيقة مطلقاً، وإن وجدت فلا سبيل إليها.

وقد اشتهر في التاريخ ثلاث فرق سفسطائية، هي:

- اللا أدرية، وتسمى البيرونية أيضاً نسبة إلى بيرون[2] صاحب المقولة الشهيرة «لست أدري، ولست أدري أنني لا أدري»[3].

- العنادية، وقد سُمُّوا بالعنادية لشدة عنادهم ونفيهم لكل الحقائق والموجودات، فهم يرون أن لا موجود أصلاً[4] في هذا الكون، وكل ما يُرى ويحس به ليس إلا وهماً. ويتزعم هذا المذهب جورجياس[5].

---

(١) من المفارقات الشهيرة مفارقة العداء والسلحفاة: فرضًا أن سلحفاة تتقدم عداء عدة خطوات، المسافة الصغيرة بينهما في الحقيقة تتكون من عدد لا نهائي من النقاط؛ فكيف يمكن للعداء قطع عدد لا نهائي من النقاط؟ من الناحية النظرية -عندهم- يستحيل على العداء تجاوز السلحفاة وهذا مخالف للواقع؛ إذن لا حقيقة.

(٢) بيرون: زعيم الشكاك اليوناني الشهير (٣٦٥ق.م-٢٧٥ق.م) صاحب مذهب اللاأدرية المنكر للعلم واليقين، لم يدون آراءه وإنما نقلها عنه تلاميذه، كان له قدر كبير بين مواطنيه إذ اعتبروه الكاهن الأعظم وأقاموا له تمثالا بعد موته، وليس لمذهبه أي أسس فكرية عميقة، وإنما لجأ إلى هذا الغلو في الشكّ هروبًا من أدنى مسؤولية قد تلقى على عاتقه في هذه الحياة، وقد تذرّع بالشكّ المطلق لما رأى في ذلك من نيل للسعادة الكبيرة في الحياة والتخلص من كل الهموم والويلات، واكتفى بتدعيم موقفه بثلاث أسئلة يرى أنه على كل عاقل أن يطرحها على نفسه، وهي: ما هي هذه الأشياء التي نراها من حولنا وكيف تكونت؟ ما علاقتنا بهذه الأشياء؟ كيف يجب أن يكون موقفنا إزاءها؟

(٣) أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، ط٢ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٥م) ص٣٠٩.

(٤) انظر الإيجي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، كتاب المواقف بشرح الجرجاني، الشريف علي بن محمد، ط١ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٧م) ١/١٨٧.

(٥) جورجياس: اختلف في تاريخ ميلاده ووفاته، قدم أثينا في٤٢٧ق.م، وتوفي عن عمر يقارب المائة أو يتجاوزها بقليل، له من البلاغة والفصاحة ما يجلب العقول إليه، يتلخص مذهبه في ثلاثة أقوال له: لاشيء موجود أصلاً في هذه الحياة؛ وحتى إن وجد أي شيء فلا يمكن معرفته؛ وإن عرف فلا يمكن إبلاغ ذلك للغير أبدًا (انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٦١).

- العِنْدية، وهم أتباع بروتاغوراس[١] القائل: إن حقائق الأشياء تابعة لما عند كل فرد من اعتقاد[٢].

ورغم تصدي الفلاسفة في ذلك العصر بالرد عليهم وتأسيس أرسطو[٣] لعلم المنطق الذي يحفظ قواعد التفكير، وكذلك ردود علمائنا الأوائل عليهم وخاصة المتكلمين منهم، إلا أن جذور الشك ما تزال تتغلغل في الفلسفة الغربية الحديثة، وخاصة بعد ظهور بعض النتائج الفيزيائية لنظرية الكوانتية[٤]، والتي أعادت فتح الباب على مصراعيه للشك؛ لِتَلِج معها

---

(١) بروتاغوراس: سوفسطائي يوناني(٤٥٠ق.م-٤٤٠ق.م)، اشتهر بتعليم فن النجاح في الحياة العملية والسياسية في مدن كثيرة مقابل الأجر، من آرائه أنه يمكن إطلاق عبارات متناقضة على أي موضوع، وعبارته الشكية الشهيرة: (الإنسان مقياس كل شيء)، تعني أن الحقيقة ليست حقيقة إلا عند صاحبها وما يحيطه من ملابسات تختلف بالطبع عن غيره، فلكل واحد حقيقته ومقياسه الخاص به في رؤية الأمور من حوله (انظر الموسوعة الفلسفية المختصرة،١٢٠-١٢٣)

(٢) انظر الجرجاني، التعريفات، ص ١٦٤، مادة العندية.

(٣) ينسب علم المنطق إلى اليوناني أرسطو طاليس، ومع ذلك نتحفظ في ما يخص الأبحاث الجديدة حول هذه المسألة، والتي تشير إلى أن الفلسفة اليونانية بأكملها كانت مأخوذة من التعاليم المصرية القديمة في المدارس الكهنوتية السرية التي تتلمذ فيها أرسطو وبقية فلاسفة اليونان، ولمزيد من الاطلاع على بعض أصحاب هذا الرأي يرجى النظر في: جورج جيمس، التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة، ترجمة شوقي جلال، (الإسكندرية: مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦م)؛ حسن طالب، أصل الفلسفة: حول نشأة الفلسفة في مصر القديمة وتهافت نظرية المعجزة اليونانية، ط.١ (مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣م).

(٤) الكوانتية: وتسمى الكمومية، نظرية نشأت عن مبدأ الكُوَانْتوم أو الكم (وهو أصغر جسيم طاقوي) للعالِم الألماني ماكس بلانك، وهي بخلاف نظرية النسبية العامة لألبرت أينشتاين التي تتلاءم مع الأبعاد السحيقة في الكون؛ فالكوانتية مجالها الأبعاد الدقيقة للمكونات الصغيرة من الذرة فما دونها، ولها من المفارقات الغريبة ما يدخل الشك في نفوس الباحثين، كوجود جسيم طاقوي واحد في مكانين مختلفين في لحظة واحدة، ... من نتائج النظرية الوخيمة على الصعيد الفكري (والفلسفي) مبدأ العشوائية وعدم اليقين في أحداث الكون، وأنها تنفي الوجود المادي لمكونات المادة وأن كل ما في الكون يسبح في موجات متداخلة، وكل ما نراه هو من صنع حواسنا فقط والتي لا تلتقط إلا اليسير مما حولها. (انظر تاريخ موجز للزمان (انظر من الانفجار الأعظم حتى الثقوب السوداء) ستيفن هوكنغ، ترجمة د.مصطفى إبراهيم فهمي، د.ط. (الهيئة المصرية العامة للكتاب: د.ت.)ص٥٧-٧٧؛ جيمس جينز، الفيزياء والفلسفة، ترجمة جعفر رجب،د.ط (القاهرة: دار المعارف، د.ت) ١٧٣-٢٩٠).. المهم من ناحية أخرى أن هذه النظرية كشفت وأكدت عجز العقل البشري عن الفهم الشامل للعوالم الأخرى المحيطة بنا، سواء المتناهية في الكبر أو المتناهية في الصغر، كما كانت سببًا في التسليم أن لكل عالم قوانينه الخاصة به، والتي تبدو لنا أحيانًا غريبة لشدة ما لم نألفها في عالمنا العادي الذي نحيا فيه، فسبحان من (عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم).

الداروينية والتطورية الحديثة إلى ساحة الفكر المعاصر بحلة ظاهرها البحث العلمي وباطنها النفي المطلق لبلوغ أي حقيقة واضحة عن الإنسان والطبيعة ونشأتهما ومصيرهما، فتم تسليم الولاء للفلسفة الوجودية، التي ولدت بلا أبوين وراحت تبحث عن أسرار الوجود أجمع وعن معايير ثابتة لا تتزعزع بالشك... إنه البحث عن اليقين مجدداً.

المصدرية القرآنية حفظت أول حقوق العقل البشري حتى لا يصادر نفسه بنفسه، منحته اليقينية المطلقة؛ لأن هذا الكتاب من رب العباد العليم الحكيم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، ويقول عز من قائل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (السجدة:٢).

إن أهم ركيزة للبحث في المجال العلمي والإنساني هو الاستناد إلى مصدر يقين لا شك فيه، وهذا باب مهم من أبواب مباحث نظرية المعرفة منذ القديم، ولو أخذ الوحي كمصدر من مصادر المعرفة مع مراعاة خصائصه المصدرية الأخرى لكانت الأبحاث تسير في وجهة أكثر صحة ويقينية.

٢- الشمولية:

وهي صفة لازمة لابد منها؛ كيف لا وهو من الخلاق العليم، إذ لا يمكن أن يكون الكتاب المسطور إلا شاملاً ومماثلاً للكون (الكتاب) المنظور ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:٣٨).

في عصرنا الحديث تم تصنيف معاجم موضوعية لآيات القرآن الكريم؛ حيث جمعت الآيات ورتبت بحسب مواضيعها في أبواب وفصول، والمتصفح لها يعجب من تنوع وسعة تلك المواضيع في القرآن الكريم، ولنذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر:

العقيدة وأركان الدين، وتنظيم العلاقات المالية، والعلاقات السياسية والعامة، والأحكام القضائية، والقصص، والإنسان والعلاقات الاجتماعية والأخلاقية، والديانات، والدعوة إلى الله، والعلوم والفنون (آيات الكونيات)... وغيرها من الأبواب التي تحوي فصولاً وتفريعات لا يتسع المقام لذكرها هنا[1].

وبعد ظهور التفسير الموضوعي كمنهج قائم بذاته من مناهج التفسير، أصبح من اليسير دراسة الكثير من المستجدات الموضوعية من خلال القرآن الكريم وخاصة في العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ وذلك بتتبع كل المفردات المتعلقة بالموضوع عبر كامل آيات القرآن، ومن ثم تجميعها وتفسيرها بحسب سياقها الذي وردت فيه، واستخلاص مفهوم قرآني حول ذلك قدر الإمكان.. ناهيك عن ما صنف في الإعجاز العلمي أو - كما يفضل بعضهم تسميته - التفسير العلمي لآيات الكونيات، مع استحداث قواعد خاصة بذلك حتى لا تُحَمّل الآيات ما لا تحتمل أو يقيد معناها باكتشافات قد يظهر بطلانها مع تطور التقنيات والمعارف البشرية.

إن جهود أسلمة المعرفة باب واسع، ما كان ليبصر النور لولا الشمولية المرنة لمصدرية القرآن لكافة أنواع النشاط الفكري البشري، بدءاً من

---

(١) انظر: مروان العطية، المعجم المفهرس لمواضيع آيات القرآن الكريم، الذي بسطه وهذّبه وكتب آيات المواضيع كاملة الأستاذ نوح أحمد محمد، وسماه: تجميع آيات الموضوع لآيات القرآن الكريم؛ وانظر: محمد فارس بركات، الجامع لمواضيع القرآن الكريم؛ صبحي عبد الرؤوف عصر، المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم...

أبسط أبجديات الحضارة إلى أقصى جوانب التنمية البشرية وتطوير الذات ومن ثم تشييد المجتمعات.

إن أهم ما في شمولية القرآن من ميزات هو إحاطته بالجوانب الروحية والإيمانية والأخلاقية والتشريعية والفقهية (سواء التعبدية أو المعاملاتية) التي تكفل للإنسان سيراً حضارياً صحيحاً متكاملاً ومتزناً، خال من أمراض الفكر والروح والنفس، وتفتح - مع ذلك- آفاقاً جديدة لكل عصر فتستوعب كل المستجدات، وهذه صفة انفرد بها كتاب الله تعالى، الذي لا تنقضي عجائبه في مصدريته الرفيعة.

٣- الثوابت والمتغيرات:

على العكس من الفلسفة التي تنطلق من تساؤلات وافتراضات وتدع لصاحبها مهمة البحث عن الحقائق بصورة عشوائية مما أدى إلى نتائج إلحادية وخيمة على العقل البشري، فإن الله سبحانه وتعالى العليم بحال عباده، وطبيعتهم التي جبلهم عليها، وعجز عقولهم عن الوصول إلى الحقائق الغيبية العظمى؛ بيَّن لهم في كتابه الكريم المبدأ والمعاد وما بينهما، فالمبدأ من الله: فهو الخالق وما سواه مخلوق، والمعاد إليه فثواب أو عقاب ولم يخلق الكون عبثاً، والطريق بين المبدأ والمعاد هو التزام شرعه ومنهجه.

هذه هي الثوابت القرآنية التي كفتنا مغبة الفلسفات الوجودية والتطورية، التي تاهت في منشأ الإنسان وفي مصيره بل وفي حقيقة الوجود بأكمله.

تمثل الثوابت القرآنية الحقائق الكبرى والنتائج السليمة التي ينبغي أن تصل إليها العقول البشرية، فالقرآن يمثل المصدر اليقين الأوحد لها، ولم يدع مجالاً للتيه فيها أو استبدالها بغيرها من النظريات أو الوهميات.

أما المتغيرات القرآنية والتي فَتَح كتاب الله فيها المجال للعقل البشري ليخوض فيها بقدر ما يمكنه؛ فهي المقدمات التي توصله إلى تلك الثوابت نفسها (أي النتائج القرآنية العظمى).. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ١٧- ٢٢).

فعلى خلاف الفلسفة، التي تضع لنفسها المقدمات ثم تبحث عن النتائج؛ فالقرآن الكريم منحنا النتائج الكبرى (الثوابت) وترك لنا مجال البحث بحرية عن المقدمات الموصلة لها (المتغيرات) سواء في عالم الآفاق أو عالم الأنفس؛ لأنه في الأخير حتى من لا علم له بالثوابت القرآنية من غير المسلمين وبحثَ بموضوعية وأخذ بمقدمات الكتاب (الكون) المنظور فستوصله أبحاثه حتماً إلى نتائج الكتاب (القرآن) المسطور[1]، فكلاهما من رب العالمين...

إنّ تميُّز المصدرية القرآنية بهذه الخصائص حفظ العقل البشري من الضياع وتضييع الوقت في ما يعجز عن التوصل إليه بمفرده وخاصة في مسائل الغيب كالإلهيات والسمعيات.

---

(١) ولعل فيزيائي العصر الشهير المُقْعَد ستيفن هوكنغ خير مثال على ذلك، أراد البحث عن نظرية رياضية شاملة للكون فما وجد سوى التسليم بعقل واحد كامل -حسب تعبيره- يدبر شؤون الوجود كله، سلم بالله الواحد الأحد، شاء ذلك أم أبى، رغم أنه كان قد نفى التسليم بأي فكرة ما ورائية (ميتافيزيقية) في البداية، انظر كتابه: تاريخ موجز للزّمن (من الانفجار الكبير إلى الثقوب السوداء)، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي.

٤- الهيمنة المعرفية:

المعروف منهجياً في الأبحاث الجامعية المتخصصة أن يأخذ الباحث المعلومة من المصدر قبل المرجع؛ لأن المرجع هو كتاب قد أخذ صاحبه فيه عن المصدر، كما يراعى الأخذ من المصدر السابق زمنياً قبل اللاحق إلاّ أن ينفرد الأخير بما ليس في الأول، وكلما تحرى الباحث الموضع الأصلي للمعلومة المقتبسة كلما كان أدق وأقرب لمصدرها الأصلي، فيتحاشى بذلك الوقوع في أخطاء اقتباسها أو سوء نقلها وتحريفها في المراجع الأخرى التي اعتمدتها.

أما بالنسبة للقرآن الكريم فهو المصدر المعرفي المهيمن على ما قبله وما بعده من كتب أو آراء ونظريات، كما أنه المهيمن على الكتب السماوية الأخرى التي قبله مع أنه خاتمها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة:٤٨). فكل ما يوافق نصوصه يرتقي لدرجة الصحة، وكل ما يخالفها ينزل إلى درجة الخطأ والبطلان، فهو المعيار المعرفي المهيمن، الذي يضمن لأي نشاط فكري الوجهة الصحيحة والسليمة.

القرآن الكريم.. هل هو كتاب متداخل المواضيع؟

اعتاد المؤلفون في مختلف العلوم على اتباع نمط واحد في التأليف، يتمثل في التسلسل المنهجي لمحتويات مؤلفاتهم، ومراعاة الوحدة الموضوعية لفصولها، حتى أن أي قارئ لها يمكن أن يحيط - بكل يسر- بالموضوع الواحد فيها من خلال قراءة الفصل الخاص به، أو على الأقل يمكن له أن يشعر بوجود نوع من الاستقلالية والانفصال حتى بين تلك الفصول المترابطة ارتباطاً وثيقاً، وهذه الاستقلالية والانفصال يمليهما المنهج العلمي، وكذا المنطق البشري في حد ذاته.

أما القرآن الكريم فإنه لا يخضع لهذه القاعدة المعهودة عند الذين أنـزل إليهم وخاطبهم من الجنس البشـري، حيث إنه «إذا عرض موضوعاً كثر ما يعرضه مجزأ القضايا، يعرض بعضها في سورة، ويعرض بعضها في سورة أخرى، ثم يعرض بعضاً آخر في سورة أخرى، وهكذا..»[1].

وهذه الظاهرة لفتت أنظار الكثير من الدارسين للقرآن: سواء من المسلمين؛ أو من المستشرقين الذين كانت بالنسبة لهم فرصة لوصف القرآن بأنه «مختلط الموضوعات، بلا رابطة»[2].

---

(١) محمد الزفزاف، التعريف بالقرآن والحديث، ط٤ (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٤م) ص١٣١-١٣٢؛ وانظر: موسى إبراهيم الإبراهيم، بحوث منهجية في علوم القرآن، ط٢ (عمّان: دار عمار للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م) ص١٥.

(٢) محمد قطب، دراسات قرآنية، ط٥ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨م)ص١٩.

اهتم علماؤنا الأوائل بهذا التداخل الظاهري لمواضيع الآيات وأولوه جانباً من الاهتمام الكبير، وأسسوا (علم المناسبات) كعلم من علوم القرآن[1]، قصد تعليل ومعرفة مناسبة الآية السابقة للآية اللاحقة، ومناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، فاكتشفوا عقدًا منظوماً من اللآلئ والدرر للمعاني القرآنية المتوافقة والمتناسبة فيما بينها، عكس ما قد يبدو لأول وهلة أنه تداخل ظاهري لمواضيع الآيات.

اهتم الإمام البقاعي، رحمه الله، في تفسيره المميز (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) بتعليل تداخل مواضيع الآيات والسور بالبحث عن مدى ارتباط الآية من حيث المعنى بما قبلها وما بعدها، وقد وفق في ذلك إلى حد كبير، رغم أن منهجه كان قائماً على تتبع جزئيات المعاني عبر كامل المصحف الشريف.

مثال عن ذلك: قوله بعد تفسير سورة الإسراء وانتقاله لسورة الكهف للربط بينهما: «لما ختمت تلك (أي: سورة الإسراء) بأمر الرسول ﷺ، بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك، بُدِئت هذه (أي:

---

(١) أفرد الإمام الزركشي، رحمه الله، في كتابه الشهير (البرهان في علوم القرآن) عنواناً خاصاً بعلم المناسبات، بل وجعله النوع الثاني الذي تنبغي معرفته من علوم القرآن بعد علم أسباب النزول، وله كلام طيب حول ذلك، كما له حديث جيد عن العلماء الذين اهتموا بهذا العلم الجليل رغم قلة من تعرض له لصعوبته ومشقة اكتشاف الروابط بين الآيات والسور وأسرار ترتيبها. انظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط. (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ) ٣٦/١. وأفرد الإمام السيوطي، رحمه الله، كتاباً خاصاً بعلم المناسبات عنوانه (أسرار ترتيب القرآن). وهناك من أقام تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم بناء على هذا العلم الجليل، مثل الإمام البقاعي، رحمه الله، في تفسيره المسمى (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وللإمام الفخر الرازي باع في ذلك، كما سيأتي بيانه على المتن.

سورة الكهف)، بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص»[1].

وإذا عدنا إلى صاحب التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، نجد أن الإمام فخر الدين الرازي، رحمه الله، قد قفز قفزة نوعية من هذه الناحية، فهو لم يعمد إلى تفسير سبب تداخل مواضيع الآيات عن طريق تتبع المعاني الجزئية وربط الآية السابقة باللاحقة فحسب، بل أسس لذلك إطاراً منهجياً مغايراً تماماً، حيث انطلق من الكليات بدلاً من الجزئيات.

لقد توجه مباشرة إلى المحاور الكبرى للقرآن الكريم، التي تأسس عليها كلام الله، ومن ثم تقرر لديه أنه مَهْمَا تداخلت الآيات موضوعياً فهي مرتبطة بالمحاور التي تنتمي إليها من حيث المعنى (الموضوع) أو من حيث المغزى (المقصود) الذي ترمي إليه؛ وبذلك تمكن الإمام الرازي، رحمه الله، من إيجاد وسيلة لتعليل الاختلاف والتمازج بين مواضيع الآيات القرآنية.

وأكّد الفخر الرازي في أكثر من موضع في تفسيره على وجود أربعة محاور كبرى للقرآن الكريم؛ حيث قال: «وقد ذكرنا كثيراً أنّ مدار القرآن على المسائل الأربعة، وهي: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، والقضاء والقدر»[2]، وأن الله سبحانه وتعالى بالغ في تقريرها في كتابه العزيز[3].

(١) البقاعي، أبو الحسن برهان الدين بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م) ٩/١١٥.

(٢) فخر الدين الرازي محمد بن عمر، التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م) ٢٠/١٧٩؛ وانظر: ١٣/١٧٣، ١٤/٨٠، ١٥/٦٥، ٢٠/٥١، ٢٦/١٠٩.

(٣) انظر المصدر نفسه، ١٣/١٧٣.

وأشار، رحمه الله، إلى أنّه سيشرح تلك المحاور بالاستقصاء في القرآن[1]، وهذا ما فعله حقاً؛ حيث إنّه كان في كل تفسيره يحاول ربط معاني آيات القرآن بالمحاور الأربعة، بل ويعلل تناسب الآيات في ما بينها بضرورة امتزاج تلك المحاور؛ لأنها تترابط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، ومن ذلك ما قاله في تفسيره للآيات (١٨٦- ١٨٧) من سورة الأعراف:

«(اعلم) أنّه تعالى لما تكلم في التوحيد والنبوّة والقضاء والقدر أتبعه بالكلام في المعاد، لِمَا بَيَّنَّا أنّ المطالب الكليّة في القرآن ليست إلاّ هذه الأربعة»[2].

ولعل الواحد منا يوجه نقداً بسيطاً لرأي الإمام الرازي حول المحاور الأربعة المذكورة؛ فيقول: إن القضاء والقدر هو مبحث من مباحث التوحيد (أو كما يسمى أيضاً الإلهيات)؛ فلماذا يجعله محوراً مستقلاً بمفرده، وخاصة أن المتتبع لآيات القضاء والقدر في القرآن يلاحظ أنها قليلة العدد مقارنة بما سواها؟

طبعاً لا ينبغي أن ننسى الظروف المحيطة بالفخر الرازي أثناء تأليفه لتفسيره، فقد كان يرد به على تفسير الإمام الزمخشري المعتزلي، رحمه الله، ولذلك تعمّد أن يُخصّص محوراً بأكمله لمسألة القضاء والقدر، وهو بذلك يرد على رأي الزمخشري في محاور القرآن نفسها، حيث إن هذا الأخير جعلها ثلاثة محاور هي:

---

(١) انظر المصدر نفسه، ١/١٤٥.

(٢) المصدر السابق، ١٥/٦٥.

١- الثناء على الله بما هو أهله (وفيه إشارة ضمنية واضحة إلى أصل العدل الإلهي وما يتبعها من مسائل القضاء والقدر).

٢- التعبد بالأمر والنهي (ويقصد بذلك محور الأحكام الشرعية، غير أنه استخدم مصطلحات قريبة من مصطلحات المذهب الاعتزالي، حيث إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول مذهبهم أيضاً).

٣- الوعد والوعيد (أي محور المعاد الأخروي كما عند الرازي، غير أن الاسم الذي استخدمه الزمخشري هنا مطابق أيضًا لأحد الأصول الخمسة لمذهب الاعتزال)[1].

رغم أن الإمام الرازي أكّد بصريح العبارة - وفي أكثر من موضع من تفسيره- أن مدار القرآن هو على المحاور الأربعة المذكورة؛ إلاّ أنّه أكّد في مواضع أخرى أيضاً على ثلاثة محاور فقط، وهي المحاور الثلاثة الأولى من الرّأي الأوّل: الإلهيات، النبوّات، المعاد، ولم يذكر المحور الرابع القضاء والقدر، وهذا في مثل قوله: «اعلم أنا ذكرنا في هذا الكتاب أنّ مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد»[2].

إنّ وجود آراء أخرى للإمام الرازي يقر فيها بوجود المحاور الثلاثة الأولى، ويُسْقِطُ فيها المحور الرابع، دليل على أن محور القضاء والقدر ليس معتبراً عنده بصورة أساسية، وهذا يرجّح ما سبق ذكره من أنّه لم يأت به إلاّ للرّد على المعتزلة. كما أن رأيه كان من الممكن أن يظل بعيداً عن مثل هذا

(١) انظر الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١ (بيروت: دار الفكر، د.ت، ١٩٧٧م) ٢٣/١.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ط١ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م) ٧٦/٧.

النقد لو لم يكن له رأيه الثاني وفي الكتاب نفسه، مما يشعر بأن الإمام، رحمه الله، كان يدرك أحياناً وهو في غمرة التفاعل مع كتاب الله تعالى أن المحاور الكبرى للقرآن كانت الثلاثة الأولى فقط، التي أوردها في الرأي الثّاني.

- وهو الذي رجّحناه- وهي: التوحيد، النبوّات، المعاد؛ والتي تمثّل الفروع الثلاثة الكبرى للعقيدة.

ما يهمّنا في الأخير من سرد هذا كله هو التنبيه إلى أمر أساس؛ وهو أن كلا الإمامين لم يذكرْ محوراً مهماً من محاور القرآن المعروفة، وهو محور (القصص القرآني) الذي يشغل مساحة كبيرة في القرآن؛ ففيه أخبار الأنبياء وأقوامهم وأخبار الصالحين وكذا بعض من سبقنا من الأمم، وقصة خلق آدم، عليه السلام... وغيرها.

وهناك من الأئمة من لم يذكر محور القصص في رأيه حول المحاور الكبرى للقرآن الكريم، كالإمام الطبرسي، وابن العربي، وابن القيم، والحرّالي[1]... وغيرهم[2].

---

(١) الحرّالي: هو علي أبو الحسن بن أحمد بن حسن التجيبي الأندلسي الحرالي، وحرالة من قرى مرسية. مفسر ومتصوّف مالكي. برع في العقليات، وخاض في علم الحروف والأعداد، وزعم أنّه تمكن من استخراج وقت خروج الدّجال وطلوع الشمس من مغربها، بهذا العلم .يضرب المثل به في حلمه، كما تكلم بعض العلماء في عقيدته. توفي بحماة سنة ٦٣٧هـ. من مؤلّفاته: تفسيره مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزّل، والإيمان التّام بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، والإلماع بطرف من الانتفاع وهو كتاب في علم الحروف(انظر الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، ٤٧/٢٣؛ السيوطي، طبقات المفسّرين،ص٧٦-٧٧؛ حاجي خليفة، كشف الظّنون،١/١٥٨،٢١٥،٢/١٧٦٨).

(٢) لمزيد من التفصيل حول آرائهم انظر نورة سعادنة، المحاور الكبرى للقرآن الكريم عند العلماء المسلمين، عرض ونقد، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

بينما نجد لمحور القصص القرآني ذكراً واسعاً ﴿ آراء العلماء المحدثين، سواء من خلال مَحْوَرتهم لأبواب المعاجم الموضوعية أو من خلال آرائهم الخاصة بهذا الجانب، كما هو الشأن بالنسبة لصاحب كتاب «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، والإمام الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد عبده... وغيرهم.

قد أوجز هنا وأشير إلى أنه بعد البحث والتقصي حول ذلك يمكن ملاحظة أمر بيّن ومهم، وهو أن العلماء المحدثين قد مَحْوَرُوا آيات القرآن محورة موضوعية، أي: اهتموا بجمع آيات الموضوع الواحد من خلال القرآن الكريم، واستقصاء ما أمكنهم من موضوعات فيه، ولم تشغلهم كثيراً ظاهرة التداخل بين مواضيع الآيات، وخاصة أنه قد استقر في نفوسهم التسليم بأن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي يختلف عن طريقة البشر في التأليف، وبالتالي لا حاجة للبحث عن هذا الأمر؛ لأنه كتاب سماوي له منهجه الخاص به، والمهم عندهم هو الإلمام بمواضيعه المحورية الكبرى ودراستها لاستخراج ما أودع الله فيها من حكم وأسرار.

أما العلماء الأوائل فكان يشغلهم علم المناسبات، أي: التداخل الظاهري لمواضيع الآيات. ومن خلال البحث في آرائهم المختلفة، أفضى ذلك إلى نتيجة مهمة؛ وهي أن لهم اتجاهاً مختلفاً في محورة آي القرآن: إنهم يمحورون القرآن محورة مقاصدية، وليس محورة موضوعية، إنهم يتحدثون عن مقاصد القرآن العظمى وليس عن مواضيعه الكبرى.

فالقصص القرآني محور موضوعي مهم، لكنه ليس محوراً مقاصدياً؛ أي ليس هو المقصود بذاته من ذكره في القرآن وإنما هناك مقاصد أخرى أعظم من خلاله، وهذا ما تنبه العلماء الأوائل إليه؛ حيث قال الإمام الرّازي عن محور القصص القرآني: «والمقصود من ذكر القصص إمّا تقرير دلائل التوحيد، وإمّا المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف»[1]، وبهذا يكون قد علّل لنا عدم اعتباره للقصص كمحور من محاور القرآن المقاصدية؛ وهو أنّ المقصود من هذا المحور الموضوعي هو: إمّا التّوحيد أو الإلزام بالأحكام الشّرعية.

فالإمام الرّازي أكّد هنا مسألة تعلّق محور موضوعي (كمحور القصص) بأكثر من محور مقاصدي، فالقصص القرآني – بحسب ما ذهب إليه- لا بدّ أن يمتزج بآيات التّوحيد حينما يكون مقصوده إثبات التّوحيد،كما أنّه لابد أن تمتزج آياته بآيات الأحكام الشّرعية حينما يكون مقصوده الإلزام بها من خلال أخبار من حاد عن تلك الأحكام، ولم يمتثل لأوامر الله تعالى ونواهيه. ولذلك أكّد لنا ضرورة اختلاط هذه المحاور الثّلاثة: التّوحيد، القصص، الأحكام ببعضها بعضاً في القرآن الكريم.

ويعتبر كتاب «جواهر القرآن» للإمام أبي حامد الغزّالي تجربة فريدة من نوعها في محورة القرآن بنوعيها؛ حيث سمى المحاور المقاصدية: السّوابق الأصول المهمة، وسمى المحاور الموضوعية: الرَّوادف والتوابع المُغْنية المتِمّة،

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، الصفحة نفسها.

واعتبر هذه الأخيرة تكملة وتوضيحاً للأولى[1]. وتفرد حجة الإسلام بين العلماء القدامى بذكر محور الكونيات (آيات الآفاق) ضمن أفعال الله تعالى التي تتجلى في كل ما خلق حولنا، ولا يتسع المقام هنا لبسط رأي الإمام الغزّالي، الذي تأثر فيه بالصوفية، التي لجأ إليها كمذهب له في أواخر حياته العلمية.

خلاصة ما نصبو إليه من خلال هذه الأمثلة هو أن القرآن كريم كتاب امتزجت موضوعاته خدمة لمقاصده العظمى التي نزل من أجل بيانها وهداية الناس إليها، وبتعبير، أكثر دقة ومنهجية، فإن المحاور المقاصدية العظمى للقرآن هي التي تتحكم في المحاور الموضوعية الكبرى له، لذا يمكن القول: إنه يخضع لمنهج مقاصدي رسالي وليس لمنهج التبويب الموضوعي المألوف عند البشر.

(١) انظر الغزالي (أبو حامد الطوسي)، جواهر القرآن، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، ط٣ (البليدة- الجزائر: دار قصر الكتاب، ١٩٨٩م) ص٢٣.

المحاور المقاصدية والمحاور الموضوعية للقرآن

- أولاً: المحاور المقاصدية:

وتتمثل في الثوابت المصدرية للقرآن، واختلف العلماء في حصرها، غير أن المحور المقاصدي المشترك بينهم جميعاً هو محور التوحيد الذي يمثل المقصود الأعظم للقرآن الكريم، ثم يليه محور الآخرة (أو المعاد)، ومحور النبوات (ثبوت الوحي، وسماوية القرآن، ونبوة محمد ﷺ وبقية الرسل)، وهذه المحاور الثلاثة هي الأبواب الثلاثة للعقيدة الإسلامية، أما محور الأحكام الشرعية فرغم أنه من الثوابت القرآنية غير أن هناك من لا يذكره ضمن المحاور المقاصدية لسببين:

- أولهما: أن آيات الأحكام قليلة في القرآن الكريم ولا تتعدى خمسمائة آية[1]، من ضمن ما يربو عن ستة آلاف آية في القرآن بأكمله، فمجموع آيات الأحكام أقل من عُشْر القرآن، ولذلك ربما لم تُشَكِّل محوراً كبيراً في نظر بعضهم.

- وثانيهما: بالنسبة لبعض العلماء فإن المقصود من الأحكام الشرعية هو توحيد الألوهية بالامتثال للأوامر والنواهي، وتوحيد الألوهية، كما هو معروف، قسم من قسمي التوحيد، الذي يشمله ويشمل (توحيد الربوبية)، ولذلك فمحور الأحكام مدرج ضمن محور التوحيد.

---

(١) انظر الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)، المحصول في علم الأصول، تحقيق د.طه جابر العلواني، ط.١(الرياض:منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ، ١٤٠٠هـ) ٣٣/٦؛ ابن أمير حاج الحلبي (محمد بن محمد)، كتاب التقرير والتحبير، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م) ٣٨٩/٣. ومن القائلين أيضاً: إن عدد آيات الأحكام خمسمائة الإمام أبو حامد الغزالي والإمام ابن العربي وغيرهما.

وفي الحقيقة لا عبرة بالعدد لآيات الأحكام وكثرتها وإنما العبرة بأهميتها في حياة الإنسان وإحاطتها بكل جوانب العبادات، والمعاملات: مالية (من عقود ومواثيق وزكاة وإرث...) واجتماعية (من زواج وطلاق وآداب...) وسياسية (من أحكام الولاية والإمامة، والمعاهدات والمواثيق، والحروب والأسرى وأهل الذمة...) وأخلاقية (من صبر وصدق وعزم واحتساب وإحسان وبر وزهد...)، مع أن باب الفضائل والأخلاق باب واسع يمكن أن تستقل أحكامه في محور مقاصدي خاص بها؛ لأنها من الثوابت التي لا تتغير بتجدد الأزمنة والعصور، بل هي روح الحضارة نفسها بعد العقيدة، إن جاز التعبير.

- ثانياً: المحاور الموضوعية:

وتتمثل في:

١- محور القصص (أخبار الرسل مع أوليائهم وأعدائهم، وأخبار الأمم السابقة، والصالحين من العباد...).

٢- ومحور آيات الآفاق (الكونيات، سواء ما يسمى بعلم الفلك من أجرام سماوية مختلفة، أو من عالم الحيوان، أو عالم النبات، أو حتى أحوال الكوكب الأم من جبال ووديان ورياح وأمطار ورعود وطقوس جوية... وهذا محور موضوعي كبير وعظيم الشأن في القرآن الكريم لما يقدمه من خدمة للمحاور المقاصدية وخاصة محوري التوحيد والمعاد الآخرة).

٣- ومحور آيات الأنفس (عالم الإنسان وحقيقته، من نشأته إلى اكتماله، وطبيعته النفسية المتقلبة، ومواطن القوة والضعف فيه، وجاهزيته لوظيفة الاستخلاف في الأرض، وحمله للأمانة دون ما سواه من المخلوقات، وأدواؤه النفسية وأدويتها).

٤- محور الاجتماع البشري (وفيه أصناف البشر الثلاثة وأوصافهم: المؤمنون، والكفار، والمنافقون، والعلاقات بينهم، والسنن الاجتماعية التي تحكمهم، من تدافع وغيرها).

٥- محور أهل الكتاب (من نصارى ويهود وعقائدهم، ومحاجتهم وإقامة الأدلة عليهم، وكشف مواقفهم من الدعوة الخالدة، ودعوتهم للإيمان بالرسالة الخاتمة... وغير ذلك).

٦- محور قيام القرى (الحضارات) وهلاكها وأسباب ذلك.

٧- محور الدعوة إلى الله (وهو محور مهم تتمحور آياته حول أسس الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونماذج الدعوة الفذة من رسل الله، عليهم السلام، ودعوة نبينا ﷺ للكفار وأهل الكتاب، والأسس النفسية اللازمة للداعية من صبر كصبر أولي العزم من الرسل) وهو أيضاً محور موضوعي يهدف إلى تحقيق المحاور المقاصدية العظمى.

ولا يمكن أبداً الجزم بعدد محدود من المحاور الموضوعية؛ فهي متجددة ومتفرعة بحسب حاجة كل عصر إليها، وبقدر تطور العلوم المختلفة التي تميط اللثام عنها، وقد أصاب صاحب كتاب (المحاور الخمسة في القرآن الكريم) الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، حينما تراجع عن حصره لعدد مواضيع القرآن في خمس محاور؛ فعدّد غيرها في كتاب آخر له (كيف نتعامل مع القرآن)؛ فأضاف محور النفس البشرية، ومحور الأخلاق، ومحور الإيمان، ومحور الفطرة الإنسانية[1].

(١) انظر محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، في مدارسة مع أ. عمر عبيد حسنه، د.ط (المنصورة: دار الانتفاضة للنشر والتوزيع؛ الجزائر: دار الوفاء، د.ت) ص٤٣، ٦١، ٨٥.

ومما تجدر الإشارة إليه دائما هو أن دراسة المحاور الموضوعية للقرآن لابد أن تتم في إطار النظر للمحاور المقاصدية التي ترمي إليها، حتى لا تُصَادرَ فائدتها وغايتها التي تسمو في الأخير إلى إقرار الثوابت القرآنية العظمى (المحاور المقاصدية)، ومن هنا تتحقق أسلمة العلوم والمناهج المتعلقة بها.

- القرآن والتنمية البشرية (تطوير الذات):

بعد بلوغ عالمنا المعاصر ذروة الفراغ الروحي وقمة الانغماس المادي؛ ظهرت مسميات حديثة كالطب البديل والدورات التكوينية في مجال التنمية البشرية، وذلك كحلول بديلة لاستدراك الجانب الطبيعي وكذا الروحي للحضارة الغربية؛ وطبعاً المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب - على حد تعبير العلامة ابن خلدون، رحمه الله- نجد تأثراً كبيراً بذلك في الأوساط العامة وكذا الفكرية منها؛ فظهرت مؤلفات عديدة حول ذلك، منها ما هو ناقل للفكرة الغربية، ومنها ما هو مؤسس لأفكار إسلامية مثيلة أو بديلة منطلقها الكتاب والسنة الشريفة.

جل من يسمع آيات الله تتلى عليه يشعر بسكينة وهدوء نفسي كبير، حتى وإن كان أعجمياً لا يفقه شيئاً من لغة الضاد؛ يجد لترانيم مخارج الحروف القرآنية هدوءاً روحياً عجيباً. أما إذا كان عربياً فاهماً لمعانيه وخاشعاً متدبراً فَشَتَّان بين هذا وذاك: القرآن يأخذ بيده ويقود عقله وروحه إلى مفاهيم أخرى، ويبعث في نفسه هدوءاً وحلاوة تعجز أكبر المدارس التدريبية في التركيز وتطوير الذات عن الإتيان بمثلها.

وهنا نعود بالحديث إلى المحاور الموضوعية وتداخلها في القرآن الكريم؛ فالقرآن يخاطب الإنسان ويتوجه إليه وفق نسق مرتب من المعاني

والموضوعات، هذا النسق الذي يُسمى «ترتيب التلاوة» يختلف عن نسق نزوله الذي يسمى «ترتيب النزول»، فقد نزل القرآن منجمًا (مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة تقريباً، ولم تنزل السور كاملة ولا مرتبة كما هي الآن في المصحف الشريف، بل الرسول ﷺ هو من أمر كتّاب الوحي بترتيبها على هذا النحو الذي وصلت به إلينا؛ أما في عهده، عليه الصلاة والسلام، كانت تنزل بحسب الوقائع والأحداث؛ لأنهم كانوا في مرحلة التأسيس والبناء لحضارة كبرى أعلن التاريخ عن ميلادها ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين.

فلماذا يا ترى لم يبق القرآن مرتباً كما نزل على الرسول ﷺ (ترتيب النزول)؟ لماذا أعاد، عليه الصلاة والسلام، ترتيبه ترتيباً وقفياً أملاه عليه الوحي من جديد (ترتيب التلاوة)؟

لقد كانت أغلب آيات العهد المكي (مرحلة التأسيس) تتحدث عن العقيدة والقصص القرآني، أما في العهد المدني (مرحلة البناء) فكانت أغلب الآيات تتحدث عن التشريع ومجتمع المدينة من أهل الكتاب وكذا فئة المنافقين، التي ظهرت كالوباء في المجتمع الإسلامي الحديث النشأة.. لقد اكتمل بناء الدولة الإسلامية المصغرة في عهده ﷺ، وكانت مثل النواة للحضارة العظيمة، التي ستنمو منها وتمتد ظلالها الوارفة إلى أصقاع الدنيا، لم تعد هناك حاجة لترتيب النزول، الذي رافق أحداث ووقائع البداية... إذن.. فهل من أمر ما في الترتيب الأخير ترتيب التلاوة؟ هل هو الترتيب الكفيل بحفظ بقاء الأمة إلى قيام الساعة فكراً ومنهجاً؟ هل من منهج معين فيه لم يكتشف بعد؟

القرآن لا تنقضي عجائبه... وقد رافق عصر الاكتشافات العلمية من الذرة وما دونها (العالم الميكروكوزمي)[1] إلى أقصى المفاهيم عن أقطار الكون من الأرض إلى السماوات العلا (العالم الماكروكوزمي)[2] وهذا ما عرف بالتفسير العلمي لآيات الكونيات (أو الإعجاز العلمي).

إذا تأملنا أولى صفحات المصحف الشريف نجد أن الحديث في سورة الفاتحة بعد الحمد وصفات الله واليوم الآخر خاتمة عن ثلاث طوائف من البشر: المنعم عليهم، المغضوب عليهم، الضّالين؛ ثم في سورة البقرة التي تأتي بعدها مباشرة، يتواصل الحديث فيها عن ثلاث طوائف مقابلة للتي ذكرت في الفاتحة: المؤمنين، الكفار، المنافقين؛ ثم يتحول الحديث إلى مخاطبة كافة الناس ودعوتهم للإيمان وتذكيرهم بنعم الله عليهم ودلائل قدرته في كونه... ثم تذكير بالآخرة والمعاد، ثم تأتي قصة الملأ الأعلى وخلق آدم، عليه السلام.. ثم بعدها أخبار بني إسرائيل أول الأمم المتلقية لأول كتب السماء[*].

---

(١) العالم الميكروكوزمي (microcosme): يعني العالم المصغر (انظر قاموس الكنز (فرنسي عربي) جروان السابق،ط.٣(بيروت: دار السابق، ١٩٨٥م) ص٦٢٤- مادة microcosme) هو عكس العالم الماكروكوزمي، فهو العالم المجهري الدقيق من: خلايا، وذرات، وبكتيريا، وفايروسات ومادونها من مكونات متناهية في الصغر كالإلكترونات، والبوزيترونات، والنيقاترونات، ومادونها من جسيمات طاقوية كالكوانتوم ومادونها مما لم يكتشف بعد، ويجزم العلماء بوجود ما هو أدنى وأصغر من ذلك، ولم تسعفهم أجهزتهم من اكتشافه رغم صحته نظريا من الناحية الرياضية والفيزيائية الموجية، وأصغر وحدة قياس فيه هي الأنغستروم. أبرز النظريات التي تتلاءم معه هي الكوانتية. وما بين العالم الماكروكوزمي والعالم الميكروكوزمي يوجد عالمنا العادي والذي تتلاءم مع قوانينه الفيزياء الكلاسيكية.

(٢) العالم الماكروكوزمي (macrocosme): وهو الكون الواسع المتناهي في الكبر (انظر قاموس الكنز، السابق،٥٧٦، مادة macrocosme)، من كواكب ونجوم ومجرات وسدم وأجرام سماوية، وما وراءها من عوالم لم يتمكن الإنسان من اكتشافها بسبب عجز التكنولوجيا التي توصل إليها؛ وهو من الكبر حتى أصبحت المسافات فيه تقاس بملايين السنين الضوئية ، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، وأبرز نظرية تتلاءم مع العالم الماكروكوزمي هي نظرية النسبية العامة لأينشتاين.

(*) نقول أول الكتب السماوية باستثناء صحف إبراهيم، عليه السلام، المذكورة في القرآن الكريم، والتي لم يرد أي خبر عنه أنه توجه بها إلى أمة من الأمم كما هو الشأن بالنسبة للكتب السماوية الأخرى، والله أعلم.

يبدو الحديث متسلسلاً، ليست هذه أول ما نـزل من الآيات، لكنها أول ما يتلى في المصحف، ومع ذلك جاءت منتظمة كدرر العقد النفيس...

القارئ لها بإمعان لمرات عديدة يشعر أن هناك صياغة مميزة ومقصودة - إن جاز التعبير- لإعادة تشكيل ذهن القارئ وفق مصدرية قرآنية، لا ريب فيها ولا جدال، للحقائق الإيمانية والاجتماعية والتاريخية معاً: التوحيد واليوم الآخر، ثم أصناف الناس، ثم قصة «أبو البشر»، ثم قصة أعتى أمم الأرض مع أول كتاب سماوي..

لو وسعنا الجهد والوقت وواصلنا القراءة لكامل كتاب الله تعالى متتبعين المواضيع القرآنية وترتيبها ومدى ارتباطها بالمحاور المقاصدية الكبرى، مراعين في ذلك أسلمة المستجدات الفكرية الحديثة كعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ... والأهم من ذلك التركيز على الجوانب التي تتغير في القارئ لكتاب الله خاصة الذهنية منها والنفسية والروحية؛ لوجدنا أن القرآن هو الكتاب الأوحد الذي يحمل بين طياته إمكان معاودة النهوض الحضاري للأمة الإسلامية بعد أفول طويل.

فالقرآن يبني للفرد إيماناً واضحاً، ويجيبه عن أعظم تساؤلات البشر الوجودية.. يجيبه أن له وللكون أجمع رباً واحداً لا معبود سواه.. وأنه غفور رحيم، شديد العقاب.. وأن هناك يوماً آخر فيه معاد بعد الممات.. وأن هناك خلوداً إما في نعيم الجنة أو جحيم النار.. وأن هناك شرعاً واضحاً من الله يشمل العبادات والمعاملات والأخلاق والعلاقات الاجتماعية يكفل له السير السليم في الحياة الدنيا.. وقد أورد له من أخبار من سبقنا ما يكفيه للاتعاظ.. ثم لم يحجر على عقله بل دعاه للتثبت واكتشاف تلك الحقائق بنفسه من

خلال السير في الأرض والنظر في أحوال ما خلق الله من أنفس وآفاق.. كل هذا وفق نسق مرتب يعالج الإنسان جزءاً جزءاً، متنقلاً بين مكوناته، التي جُبل عليها: تارة بالأدلة العقلية، وتارة بالترهيب والترغيب النفسي، وتارة بالراحة النفسية بالتجول بين النعم الكثيرة في الكون، وتارة يأمره بأن لا يكتفي بالجلوس والقراءة فقط لكتاب الله بل يقوم ليسعى للعبادات التي من أعظمهما مهمة الاستخلاف، التي من أجلها خلق آدم، عليه السلام..

يخاطب القرآن الكريم الإنسان ويمنحه الثقة في نفسه من خلال كل الجوانب المذكورة؛ فيرقى لأقصى درجات العطاء؛ حيث يصبح حارساً من حراس الأمة لبقاء الأمة نفسها بكامل خَيْريَّتِهَا، وذلك بالذود عن مبادئها بين أفراد مجتمعها؛ يصبح كل المجتمع يؤدي مهمة الحسبة والرعاية لبقاء الأمة، وهذا ما وصفه القرآن الكريم بأبلغ الأوصاف؛ حيث قال عز من قائل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ (آل عمران:١١٠)، وهذه أعلى الدرجات التي يعجز عن بلوغها أرقى فنون تطوير الذات والتنمية البشرية.

إن للقرآن منهجاً إصلاحياً ينطلق من الإنسان، فرداً ثم أسرةً، ومن ثم يتدرج إلى المجتمع فالدولة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤)؛ كما يحرص على تصحيح العلاقات الاجتماعية (الفردية والأسرية والعامة)، وهذه بداية تصحيح المسار؛ فهو ليس كتاباً نخبوياً لا يقرؤه إلا الخاصة من العلماء فحسب؛ ولم يتوجه إلى فئة معينة دون غيرها، إنه الكتاب الشامل المفتوح لكل أفراد الأمة، من أدناهم إلى أسماهم، هو الدستور، الذي تفردت به بين الأمم.

القرآن.. عطاء حضاري متجدد

الأستاذ أمين نعمان الصلاحي(*)

إن القرآن لا يدعو إلى صراع الحضارات، بل يدعو إلى التسابق الحضاري في تقديم ما هو أنفع وأصلح للإنسانية. وهذا هو الفرق بين خطاب القرآن الذي يوظف الاختلاف والتنوع توظيفاً إيجابياً نافعاً مثمراً، وخطاب أولئك الذين يريدون أن يجعلوا من التنوع الحضاري مدعاةً وسبباً للصراعات والحروب.

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله البشير النذير، وعلى آله وصحابته أجمعين.. وبعد:

(*) باحث أكاديمي.. مستشار إدارة التربية والتعليم (اليمن).

فمهما مرت الأيام وتعاقبت الأجيال يبقى القرآن محتفظاً بنضارته وطراوته وحيويته كما أنزل، ويبقى عطاؤه ثرياً ومتجدداً على الدوام، وتلك هي إحدى صفاته الإعجازية التي عبر عنها بعض الصحابة بقولهم: «**وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ**»[1].

- خلود الفاعلية والتأثير:

فالقرآن لا يخلق ولا يبلى أبداً، بل هو دائم التجدد في عطائه، وهذا التجدد في العطاء هو سر خلود النص القرآني؛ ذلك أن خلود النص القرآني ليس خلوداً تفرضه القداسة الدينية فحسب، ولكنه خلود يكتسب سره وضرورة وجوده من حاجة البشرية إليه؛ ومن هداياته المتجددة على الدوام.

إن القداسة الدينية قد توفر نوعاً من استمرار الوجود للنص الديني المقدس، وقد تمنحه نوعاً من الحضور في حياة الناس، كما هو الشأن مع جميع الكتب الدينية المقدسة عند أصحابها، ولكن تبقى ميزة القرآن أن خلوده وحضوره في حياة البشرية ليس لكونه مقدساً فقط، بل لأن له قيمة حقيقية، وتلك القيمة هي عطاءاته المتجددة على الدوام.

- لماذا لم يفسر النبي ﷺ القرآن؟

وإذا كان خلود القرآن قد ارتبط بعطاءاته المتجددة أمكننا أن نفهم الإجابة عن السؤال القائل: لماذا لم يفسر النبي ﷺ القرآن؟!

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في السنن: ح ٢٩١٥، والدارمي في سننه: ح ٣٣٣١،٣٣٣٢، والحديث روي مرفوعاً، وموقوفاً على علي وابن مسعود، رضي الله عنهما، والأشبه فيه أنه موقوف على علي، رضي الله عنه، وأما رفعه فلا يصح. انظر مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني، ح ٢١٣٨.

ذلك أن النبي ﷺ لو فسر القرآن فإنه كان سيأخذ منه عطاءً يتناسب مع مدارك المخاطبين في عصره، وكان سيأتي بعد ذلك من يقول لنا: لا يجوز أن نفسر القرآن بغير ما فسره النبي ﷺ! وكان هذا النوع من الفهم سيشكل عائقاً يحول بين الأجيال القادمة وبين عطاءات القرآن المتجددة، فالقرآن يعطي لكل جيل عطاءً يتناسب مع احتياجاته ومداركه، ومع ما وصلت إليه علومه ومعارفه، ومن أجل ذلك نعتقد - والله أعلم- أن النبي ﷺ قد أحجم عن تفسير القرآن، وإن كان هذا لا ينفي أن النبي ﷺ قد فسر بعض آيات القرآن القليلة بهدف توضيح المراد منها لا سيما عندما يُساء فهم تلك الآيات من قبل بعض المسلمين في عصره.. والسؤال المهم هنا: كيف نأخذ نصيبنا ونصيب عصرنا من عطاء القرآن الكريم؟

إن هذا السؤال يستبطن تقرير حقيقة مهمة، وهي أن في القرآن عطاءً غير محدود.. والقرآن كريم في عطائه كما يدل على ذلك أشهر أسمائه على الإطلاق: (القرآن الكريم).. فما مدى قدرتنا إذن على مد يد البصيرة لنغترف من عطاء القرآن؟

- الاهتمام المنقوص:

الحقيقة أن عنايتنا بحفظ النص القرآني، وإتقان تلاوته، وضبط ألفاظه، وتحقيق مخارج حروفه، قد فاقت كثيراً عنايتنا بفهمه وتدبره وتعقله، وبمعنى آخر: إن تعاملنا مع القرآن على أنه (كتاب محفوظ) قد فاق كثيراً تعاملنا معه على أنه (كتاب معقول)، مع أن القرآن كثيراً ما يؤكد أنه كتاب معقول، أنـزل لأولي الألباب، ولقوم يعقلون، ويتفكرون، ويتدبرون!

وهذا الخلل في التعامل مع القرآن طالما شكا منه رواد الإصلاح والتجديد في عالمنا الإسلامي، ومنهم الإمام ابن تيمية، رحمه الله، حيث يقول: «وأما في باب فهم القرآن فهو - أي المؤمن الذي عرف قدر القرآن- دائم التفكر في معانيه والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه.

ولا يجعل همته فيما حُجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما بالوسوسة في مخارج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك.. فإن هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم) وضم الميم من عليهم، ووصلها بالواو وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان، وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم، وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقويةً لقول إمامه، فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره..»[1].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/٥٠-٥١.

- التقديس الخاطئ والفهم المغلوط:

ويمكننا أن نضيف إلى تلك الإشكاليات التي ذكرها الإمام ابن تيمية إشكالية أخرى عانينا ولا نزال نعاني منها، وهي أيضاً مما يحول بين كثيرين وبين تفهم القرآن الكريم، والاستفادة من عطاءاته المتجددة، وأعني بها ذلك التقديس الخاطئ للقرآن؛ أي تقديسه عن الفهم!

فلقد أصبح في اللاشعور عند قطاعات واسعة من المسلمين خوف من الاقتراب من دائرة التفكر والتدبر، وأصبحوا يظنون أنها دائرة خطرة، ويستدلون لذلك - خطأً - بحديثين ضعيفين هما: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، و«من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[1]!

ولذلك هم يفضلون البقاء في الدائرة الآمنة؛ أي دائرة الحفظ والتلاوة المجردة الخالية من التفكر والتدبر!

وأصبحت قراءة القرآن عندهم هدفاً بحد ذاتها، مع أنها لا تعدو كونها وسيلة للفهم، وكل تشجيعٍ وحثٍ وحضٍ على قراءة القرآن فمقصود الشارع الحكيم منها تحقيق الهدف من القراءة، وهو الهدف الذي ذكره القرآن في

(١) قال الألباني عن الحديثين في رفع الأستار، ص١١١: رواهما الترمذي وغيره بسندين ضعيفين. انظر: رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار لمحمد بن إسماعيل الأمير، بتحقيق: الألباني، ط الأولى (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ)؛ وانظر السلسلة الضعيفة للألباني، ح ١٧٨٣. والحديثان رواهما البيهقي في شعب الإيمان، ح ٢٢٧٥ و ٢٢٧٦ و ٢٢٧٧ بلفظ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» و«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، وقال: «وهذا إن صح فإنما أراد -والله أعلم- الرأي الذي يغلب على القلب من غير دليل قام عليه، فمثل هذا الرأي لا يجوز الحكم به في النوازل، فكذلك لا يجوز تفسير القرآن به، وأما الرأي الذي يسنده برهان فالحكم به في النوازل جائز، وكذلك تفسير القرآن به جائز».

غير موضع، وحث عليه مراراً وتكراراً في الآيات البينات، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:٢٩)؛ وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)؛ وقوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢)؛ وقوله عز شأنه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:٢٤).

- الثقة المفقودة:

إن هذه الثقة التي يتحدث بها القرآن عن نفسه، وهذه الدعوات القرآنية المتكررة لإعمال العقل والتفكر والتدبر يجب أن تنعكس على نفوسنا فنتعامل مع هداية القرآن بثقة، ودونما خوف أو وجل؛ لأن القرآن كتاب هداية، ويجب أن نتعامل معه على هذا الأساس، وأن نستشعر في دواخلنا أنه لن يضل أبداً من جاء القرآن طالباً الهداية، بل إن الذي يقرأ القرآن ثم يضل فذلك دليل على فساد طويته، وسوء نيته؛ بحيث يمكننا القول: إن من ضل بالقرآن فهو فاسق، أخذاً من قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (البقرة:٢٦).

إن القرآن هو مأدبة الله للعالمين، كما في جاء في الحديث: «**إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وإن مأدبة الله هي القرآن**»[1].

(١) روي مرفوعاً وموقوفاً على ابن مسعود، رضي الله عنه. انظر ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم بتحقيق محمد حامد الفقي (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية) ص٢١٧؛ وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤/٤١؛ وانظر سنن الدارمي، ٣٣٠٧؛ ومستدرك الحاكم، ٢٠٤٠.

فالله تعالى يحب أن تتجه القلوب والعقول نحو مأدبة القرآن لتأخذ منها غذاءها النافع الملائم لها، ومأدبة القرآن هي مأدبة عالمية مفتوحة لكل بني الإنسان، وهي لذلك من أعظم مظاهر الرحمة الإلهية بالإنسانية، وهذا مغزى قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن:١- ٤).

- من جلد الذات إلى فتح آفاق التدبر:

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أن حديثنا عن هجر تدبر القرآن يجب أن يتجاوز مرحلة الإدانة وجلد الذات، إلى فتح آفاق التفكر والتدبر أمام الناس، ووضع الحلول والمعالجات المناسبة لمشكلة عدم التدبر، فلقد انتقد كثير من الفقهاء على طوائف من النساك والمتعبدة والمتصوفة انشغالهم عن القرآن بمجالس الذكر والسماع[١]، ولقد أعجبني تحليل ابن تيمية، رحمه الله، في هذه المسألة؛ لأنه ابتعد عن لغة الإدانة، وقدم رؤية تحليلية شخصت الداء، وقدمت الدواء، ففي سياق تقريره أن المفضول يكون أفضل في حق من لا يصلح له الأفضل يقول: «إن كثيراً من المتعبدة قد ينتفع بالذكر في الابتداء ما لا ينتفع بقراءة القرآن؛ إذ الذكر يعطيه إيماناً، والقرآن يعطيه العلم، وقد لا يفهمه، ويكون إلى الإيمان أحوج منه؛ لكونه في الابتداء، والقرآن مع الفهم لأهل الإيمان أفضل بالاتفاق...»[٢].

(١) انظر على سبيل المثال: ابن الجوزي، تلبيس إبليس (مصر: المكتبة التوفيقية) ص٣١٩-٣٢١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٢١/١٩.

ويتحدث عن (الذكر) و(الفكر)، ويبين الفرق بينهما من جهة أن الذكر متعلق بالله سبحانه وتعالى، والفكر متعلق بالمخلوقات، ويعلل كون الذكر متعلقاً بالله بكونه سبحانه الحق المعلوم، فحقه أن يذكر، ثم يقول: «ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة...»[1].

ويتحدث ابن تيمية عن عطاء القرآن، الذي يجمع بين العلم والإيمان، فالقرآن يقيم الإيمان على الحجة والبرهان، ومن أراد العلم النافع والإيمان الصحيح فعليه بالقرآن، وعن هذا العطاء يقول، رحمه الله: «والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبدالله البجلي وغيره من الصحابة: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً، ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق:١)»[2].

وهكذا نرى ابن تيمية يتجه نحو تفسير الظاهرة، ويتلمس أسبابها، ومن ثم يقدم رؤيته الهادفة للترشيد والتصحيح والتصويب، ولا يكتفي بالإدانة فقط كما يفعل بعضهم.

والذي يهمنا أن خطاب الإدانة تجاه قضية هجر تدبر القرآن لا يكفي لوحده، بل لابد أن يتوازى معه خطاب آخر يقرب معاني القرآن للأذهان، ويجتهد في الكشف عن مقاصد وكليات الخطاب القرآني، ويفتح مغاليق العقول والقلوب لتفهم رسالة القرآن، بحيث تصبح في متناول جميع الأفهام.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٤/٤٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٤/٣٨.

- كتاب يستوعب الحياة لا كتاب شعائر وطقوس:

إن الذي يتأمل في الخطاب القرآني سيجد أنه يوسع المدارك، ويفتح الآفاق الواسعة أمام العقل الإنساني، فالقرآن ليس كتاباً دينياً بالمعنى الديني الضيق (الإيمان الخاص + الشعائر والطقوس)، ولكنه كتاب جاء ليقدم الهداية بمعناها الشامل للبشرية، وعن هذه الوظيفة نقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (المائدة:١٥- ١٦).

- الهداية الحضارية.. عصمة من الانحراف وحماية من السقوط:

ومن هداية القرآن للإنسانية تلك المضامين الحضارية التي تضمنها خطابه، والتي تعتبر ضرورية لحماية المجتمع الإنساني من التراجع والهلاك والانهيار والسقوط الحضاري، فالقرآن يعصم من الضلال، ويحمي من الهلاك، وفي هذا يقول النبي ﷺ: **«إنّ هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً»**[1].

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/١٦٥) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (٧١٣).

– القرآن يندد بذوي العمى الحضاري:

إن القرآن يعيب على الذين لا يفقهون قوانين الحياة، ويصفهم بعمى القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦).

وعمى القلوب هنا ليس سوى انحطاط الأفهام عن أن ترتقي إلى مستوى المراجعة والتقويم لمسار الحياة، وبعبارة أخرى: غياب الوعي الحضاري اللازم للاستفادة من تجارب الآخرين، وأخذ العظة والعبرة مما جرى عليهم، وفقاً لسنة الله في المجتمعات البشرية.

– العلم.. كيف نستفيد منه في البناء الحضاري؟

ولما كان العلم هو الأساس الذي تتبني عليه الحضارات الراشدة، فقد اعتنى به القرآن أيما عناية، والعلم في مفهوم القرآن ليس هو العلم الديني فحسب، وإنما معرفة الأشياء، وإدراك حقائق الوجود، والمرة الوحيدة التي ذكر فيها اسم «العلماء» في القرآن كان في سياق الحديث عن الآيات الكونية، وعن تنوع الخلق الدال على القدرة الإلهية، وهم العلماء المذكورون والموصوفون بالخشية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨)، وهم علماء الكونيات، ويمكننا أن ندرك ذلك بقليل من التأمل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:٢٧- ٢٨).

ولما كان الغرور بالعلم من أخطر الآفات التي تعوق العقل الإنساني وتحبط ملكاته، فالقرآن يكبح جماح المغرورين بالعلم بتقريره لنسبية المعرفة الإنسانية كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٧٦)، وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥)، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤).

والقرآن يحذر من الاغترار بالعلم، ومن انفصال العلم عن الأخلاق، ويجعل ذلك من أسباب هلاك الأمم واندثار المجتمعات: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (غافر:٨٣).

- الفرق بين العقلية العلمية والعقلية المتخلفة:

وفي ذات السياق يلفت القرآن أنظارنا إلى أن المجتمعات التي تفقد وعيها وبصيرتها الحضارية، لا تهتدي إلى الأسباب الحقيقية لنكباتها ومآسيها، ولكنها تخطئ في التحليل والاستنتاج، وتعلق إخفاقاتها على مشجب الآخرين، بل وتغرق في الجهل والتخلف حينما تنسب ما حل بها إلى الأسباب الوهمية! وفي هذا المعنى نقرأ في القرآن قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا

لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:١٣١).

- تحرير التفكير من العوائد:

والقرآن يلفت أنظارنا إلى خطورة منطق الإلف والعادة حينما يسيطر على التفكير؛ لأنه حينئذ يُغيّب وعينا الحضاري، ويحول بيننا وبين اليقظة والتنبه والمراجعة؛ إذ تصبح تقلبات الحياة في نظرنا عادةً جاريةً، وأمراً مألوفاً، ومن ثم لا نأخذ منها عبرةً لتصحيح المسار، وتلافي الأخطاء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأعراف:٩٤- ٩٥).

- الترف داء الحضارات وهلاك المجتمعات:

ولما كان الترف هو داء الحضارات قديماً وحديثاً، فإن القرآن يحذر من خطورة الإغراق في متاع الحس والانغماس في الترف؛ إذ أنه يعطل مدارك الإنسان، ويطمس بصيرته، ويجعله متسرعاً في أحكامه، سطحياً في نظرته، سخيفاً في استنتاجاته، وهذا ما يمكن فهمه بقليل من التأمل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (الزخرف:٢٣- ٢٤)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٤- ٣٥).

والمترفون في كل أمة هم الذين يقودون ركب الانحطاط والسقوط الحضاري، وهم الذين يقودون مجتمعاتهم نحو الهلاك المحقق: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ (الإسراء:١٦)[1].

- تنافسٌ في الخيرات لا صراع بين الحضارات:

والقرآن عندما يتحدث عن الاختلاف بين الأمم والشعوب فإنه يتحدث عنه بلغة حضارية راقية جداً، فالقرآن يحث على جعل ذلك الاختلاف سبباً لإثراء الحياة الإنسانية بحيث تسعى كل أمة، ويسعى كل أصحاب ملة لكي يقدموا أفضل ما لديهم، ولكي يتسابقوا في الخيرات، تاركين أمر الخلاف الديني لله، ليقضي فيه بالحق يوم القيامة: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ (المائدة:٤٨).

وبقليل من التأمل في هذه الآية الآمرة باستباق الخيرات، سنرى أن الأمر فيها أتى عقب الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم السلبي من رسالة الإسلام، وأن الأمر باستباق الخيرات موجه لهم وللمسلمين، وأما الخلاف الديني فأمره إلى الله وهو الذي سيفصل فيه يوم ترجع جميع الخلائق إليه.

(١) ومعنى قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي أمرناهم بالطاعة فعصوا الأمر وفسقوا. انظر: فتح القدير للشوكاني، وتفسير الجلالين.

إن القرآن لا يدعو إلى صراع الحضارات، بل هو يدعو إلى التسابق الحضاري في تقديم ما هو أنفع وأصلح للإنسانية. وهذا هو الفرق بين خطاب القرآن الذي يوظف الاختلاف والتنوع توظيفاً إيجابياً نافعاً مثمراً، وخطاب أولئك الذين يريدون أن يجعلوا من التنوع الحضاري مدعاةً وسبباً للصراعات والحروب.

- اختلاف يثري الحياة الإنسانية:

وتتجلى الرؤية الحضارية للقرآن في نظرته إلى اختلاف الناس في قومياتهم ولغاتهم وألوانهم، فالقرآن يقرر أن ذلك الاختلاف هو سنة كونية يجب الاعتراف بها، والتعامل معها بروح إنسانية متجردة من الهوى والعصبية، وفي هذا المعنى نقرأ قول المولى سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

ومن أجل استقرار وإثراء الحياة الإنسانية يعلمنا القرآن أن التفاوت في القدرات والإمكانات هو سنة كونية، ومظهر لحكمة الله التي قد تقصر عنها بعض الأفهام، وبالتالي فإن على كل فرد في المجتمع أن يقنع بما له من قدرات وإمكانات تخصه، وأن يحسن توظيفها دون أن يتطلع بعين الحسد إلى ما عند الآخرين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ

وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء:٣٢)، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (الأنعام:١٦٥).

ويبين القرآن الحكمة من تفاوت أبناء المجتمع في قدراتهم وإمكاناتهم، وتلك الحكمة هي أن يسخِّر الناس قدراتهم وإمكاناتهم المتنوعة في عمارة الأرض، وترقية الحياة، وتبادل المنافع والخدمات: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:٣٢).

- علاقات تحكمها المبادئ لا المصالح:

وعلى مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب نجد القرآن يقرر أن العهود والمواثيق يجب احترامها ولا يجوز جعل المصالح ذريعة لنقضها والتملص منها: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل:٩٢).

- عطاء حضاري يكرم الإنسانية ويرتقي بها:

وهذه المضامين الحضارية في الخطاب القرآني تبين بجلاء أن القرآن يريد للمجتمع الإنساني أن يرتقي إلى مستوى التكريم الإلهي للإنسان، فالإنسان في المنظور القرآني هو مخلوق مكرم، خَلْقاً وإعداداً وإمداداً:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا﴾ (الإسراء:٧٠).

- إنسانية متساوية لا أجناس متمايزة:

وهذا التكريم الإلهي لبني الإنسان يتنافى مع تلك الدعاوى التي تزعم أن الشر صفة أصيلة في الإنسان؛ أي أن الإنسان شرير بطبعه، أو تلك التي تحاول أن تعمم صفة الشر على بعض المجتمعات الإنسانية بسبب الخلاف الديني أو القومي أو السياسي، وقد كان هذا النوع من التعميمات الجائرة سبباً لمآسٍ كثيرة حلت بالإنسانية، ومبرراً للظلم والعدوان والهمجية، وأما القرآن فهو يقرر أن المجتمعات الإنسانية فيها الخير وفيها الشر، وليس هنالك مجتمع إنساني متمحض للخير أو للشر، وفي تقرير هذه الرؤية الحضارية يقول القرآن: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمٗا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:٧٥).

فعلى الرغم من موقف أهل الكتاب السلبي من الإسلام، ومن نبي الإسلام ﷺ، نجد القرآن لا يعممهم بحكم واحد، بل يقرر أن منهم أناساً هم أهل أمانة يؤدون الأمانة إلى أهلها وإن كانت عظيمة، وأن منهم آخرين هم أهل خيانة يخونون في الشيء الحقير فضلاً عن الشيء الكبير.

قال الإمام الشوكاني، رحمه الله: «ومعنى الآية: أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدي أمانته وإن كانت كبيرة، وفيهم الخائن الذي لا يؤدي

أمانته وإن كانت حقيرة، ومن كان أميناً في الكثير فهو في القليل أمينٌ بالأولى»[1].

ويتحدث القرآن عن اليهود الذين قضى الله عليهم بالشتات فيقول: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف:١٦٨).

ثم يلتفت بالخطاب إلى اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ فيقول: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأعراف:١٦٩).

والقرآن يخبرنا أن أي مجتمع ومهما كان صلاحه وتقواه، فإنه لن يصل إلى درجة (المجتمع الملائكي)، ولكن سيكون فيه من هو سابق بالخيرات، ومن هو مقتصد، ومن هو ظالم لنفسه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢).

فالظالم لنفسه هو: المقصر التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات، وترك المحرمات، مع تقصير يقع منه في عمل المندوبات، وارتكاب منه لبعض المكروهات.

(١) الإمام الشوكاني، فتح القدير، ط الثانية (دمشق: دار ابن كثير، ١٩٩٨م) ١/٤٠٥.

والسابق بالخيرات هو: الذي يقوم بالواجبات، ويترك المحرمات، ويزيد على ذلك بفعل المندوبات، وترك المكروهات.

وهؤلاء الأصناف الثلاثة - على ما بينهم من التفاوت- يجعلهم القرآن من الأمة التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها الكتاب، وهو ما يعني عدم وجود مجتمع متمحض للخير بكل أفراده ونشاطاته وحركته في الحياة، بل مهما كان المجتمع خيِّراً وصالحاً فلا بد أن يوجد فيه الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات.

وينبني على هذه الرؤية الحضارية الراشدة سقوط كل دعاوى الاستعلاء والتميز السلالي والعنصري، فليس هنالك (شعب مختار) دون بقية الشعوب، وليس هنالك (جنس متفوق) على بقية الأجناس، وإنما مجتمعات إنسانية لديها القابلية للخير والشر، وللعدل والظلم، وللصلاح والفساد، ويتفاوت أفرادها في صعود سلم الكمال الإنساني بحسب استعدادهم وعزماتهم وظروفهم وما يتهيأ لهم من أسباب.

وانطلاقاً من هذه الرؤية الحضارية - أيضاً- رأينا المنهج القرآني يتدرج ويترفق بالنفس الإنسانية، ولا يجنح نحو المثالية الخيالية التي تتصور أن في وسعها أن تصب الناس كلهم في قالب واحد من المشاعر والسلوك، كما هو الحال لدى بعض الفلسفات والمذاهب الاجتماعية والفكرية، وقد نتج عن ذلك ما هو معروف من المآسي، ويكفي هنا التذكير بتجربة الأحزاب الشيوعية في العالم.

- عطاء حضاري يتجدد:

وبعد:

فتلك بعض عطاءات القرآن الحضارية، تلمسناها في قراءة أولية، وقد حرصنا من خلال عرضنا لها على ربط القارئ بالنص القرآني تأملاً وتفكراً وتدبراً واستنباطاً واستنتاجاً، حتى يتعود على تذوق النص القرآني، والتعامل المباشر معه.

ويبقى استكشاف عطاء القرآن الحضاري مما تمس الحاجة إليه في أيامنا هذه؛ إذ لا أحد يستطيع أن ينكر أن الحضارة المعاصرة قد بلغت شأواً كبيراً في الجانب المادي والتقني، ولكنها مع ذلك بحاجة ماسة للترشيد والتزكية والتصويب لكي يتحقق لها الانضباط بالقيم المعيارية الراشدة، حتى يتحقق لها الأمان في نفسها، وحتى لا تتغول على الإنسان وعلى القيم الأخلاقية النبيلة، والقرآن بقيمه ومبادئه الحضارية الراشدة يستطيع أن يمنح الحضارة المعاصرة ما تحتاج إليه من طمأنينة ورشد وأمان.

وإذا تأملنا في المبادئ والقيم الحضارية التي تضمنها الخطاب القرآني سنجد فيها دلالة واضحة على أن القرآن هو خطاب إلهي لرشد العقل الإنساني، وأنه كلما ترقى العقل الإنساني في مدارج الكمال كان أقدر على فهم الرسالة القرآنية، واستيعاب مضامينها الحضارية، وهو ما يعني بالضرورة بقاء عطاء القرآن الحضاري ثرياً ومتجدداً على الدوام.

هذا ويمكننا أن نلمح في عطاءات القرآن المتعددة والمتجددة مدى العناية الإلهية بالإنسان، وفي عطاء القرآن الحضاري مثال على تلك العناية؛

فما يحويه القرآن من مبادئ حضارية سامية، ومفاهيم راقية، وأحكام راشدة، يحتاجها الناس أشد الاحتياج، ويشعرون تجاهها بالطمأنينة الكاملة كونها تأتي منسجمة تماماً مع ما يقضي به العقل السليم، ومع ما ترشد إليه الفطرة السليمة، كل ذلك لا شك أنه يدل على اللطف الإلهي والعناية الربانية ببني الإنسان.

وختاماً:

فإن من تكريم الله للإنسانية أن جعل خلود القرآن منوطاً بالعقل الإنساني والفطرة الإنسانية، وبالتالي فإن خلود القرآن وعطاءه ووجوده الحي المؤثر باقٍ ما بقي عقل صحيح يتفهم، وفطرة سليمة تتقبل.

خلودُ الخطابِ القرآنيِّ ومقوِّماتُه

الأستاذ الدكتور صالح قادر الزنكي(*)

في مراحل التخلف والتراجع الحضاري يتم التعامل مع النص القرآني على أن الإسلام دين الآخرة، حيث ينصرف المسلم عن القيام بواجب الاستخلاف وعمارة الأرض، ويهجر المجتمع، ويزهد في علوم الدنيا، وينزوي في أماكن العبادة، وينكب على دراسة ما ينفع آخرته حسب تصوره، غافلاً أنّ الآخرة تمرُّ عبر بوابة الدنيا.

النَّقصُ في شيء ما، أيّ شيء؛ يكون باعثاً على البحث عن أسباب ذلك النَّقص، ومن ثمَّة البحثُ عن مكمِّلاته، والإنسان مجبول بفطرته على البحث عن الكمال، وأنَّ النَّفس لا تسكن بجوار ما لا يتَّسم بصفات الجمال والكمال.. وقيمةُ الأشياء وخلودها وعالميَّتها تكمن في قوَّتها الذَّاتيَّة على البقاء والاستمرار والانتشار، وفي ما تحملها من معانٍ قيميَّة، وما تدلُّ عليها

(*) رئيس قسم الفقه والأصول، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (جامعة قطر).

من حقائق ثابتة، وما تُبديها من مرونةٍ نشطة متجدِّدة، وما لها من طبيعةٍ خلاقةٍ قادرةٍ على مطاوعة المقابل المستجد، ولا يُنازعها في كلِّ ذلك منازعٌ، ولا يتمكن على طمس أركانها الماديَّة ومضامينها المعنويَّة أمرٌ آخر ذو بال.

وتعامل النَّاس وتعاطيهم مع الخطاب القرآنيِّ، أو أيِّ خطابٍ أو موضوعٍ؛ لا يكون على وفاقٍ ونسقٍ واحدٍ، بمعنى الجميع يسلِّمون به ويقبلونه، أو الجميع يجحدونه ويرفضونه، بل هم يتوزعون على أربعة أصنافٍ:

الصِّنفُ الأوَّلُ الرافضُ لهذا الخطاب والجاحدُ له، ليس هذا فحسب، بل قد أعلن حربَه عليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً.

الصِّنفُ الثَّاني وهم على خلاف الصِّنف السَّابق، مُعظِّمٌ لذلك الخطاب، ومُصدِّقٌ له، ومُؤمنٌ به، ومُدافعٌ عنه بكلِّ ما يملك من نفسٍ ونفيس.

والصِّنفُ الثَّالثُ، متردِّدٌ بين الصِّنفين، غيرُ حاسمٍ أمرَه، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهو لا يملك النَّظرَ الثَّاقب، ولا يُعمل عقلَه، ولا يحتكم إلى الفطرة والمنطق والبرهان، ينتظر أحداً يُسعفه، أو قوةً قاهرةً تدفع عنه حيرتَه وتردُّدَه يمنةً أو يسرةً، ويُحسم المسألة، فيكون له تابعاً ومقلِّداً.

والصِّنفُ الرابعُ لا يبحث عن شيء، ولا يريد أن يبحث عنه، وكأنَّه يعيش على كوكبٍ آخر غير كوكب الأرض، فلا محلَّ له في هذه الحياة الدُّنيا، لا هو متأثِّرٌ بها، ولا هو مؤثِّر فيها، همومُه تقتصر على البعد الماديِّ للحياة، وميزانه في تقويم مفردات الحياة ووزنها عبارة عن ما يحقِّقه الشيء من منافعَ ماديّةٍ محضة.

والصنف الرابع لا ينصبُّ عليهم كلامنا، فهم غير مستهدفين لنا؛ لأنَّ الغاية من الكلام كما هو معلومٌ إلزامُ جاحد وإقناعه بالحقّ (المختلف فيه)، أو ردُّ شبهةِ مشكّكٍ ومتردِّدٍ، أو تأكيدُ قناعةٍ راسخةٍ وتعضيدها ببراهين وحجج أكثر لزيادة الاطمئنان فيه والثبات عليه. وعليه فهؤلاء هم الشريحة المستهدفة لنا من وراء فتح هذا الملفِ، ملفِ خلود الخطاب القرآنيِّ.

وقبل الولوج المباشر في الحديث عن خلود الخطاب القرآنيِّ؛ حريٌّ بنا بادئ ذي بدءٍ أن نسلّط الضوء ولو باختصارٍ شديدٍ على المقصود بالخلود والخطاب القرآنيِّ، وهما اللفظان المحوريان والمركزيان في عنوان هذا المقال ويشكّلان الألفاظ الرئيسة المفتاحية.

الخُلْد في اللغة، كما ورد في «لسان العرب» لابن المنظور، هو دوام البقاء في دار لا يخرج منها. خَلَدَ يَخْلُدُ خُلْداً وخُلوداً: بقي وأَقام. ودار الخُلْد: الآخرة لبقاءِ أَهلها فيها.

وخَلَده الله وأَخْلَده تخليداً؛ وقد أَخْلَد الله أَهلَ دار الخُلْد فيها وخَلَّدهم، وأَهل الجنة خالدون مُخَلَّدون آخر الأَبد، وأَخلد الله أَهل الجنة إِخلاداً، وقوله تعالى: أَيحسب أَنَّ ماله أَخلده؛ أَي يعمل عمل من لا يظن مع يساره أَنه يموت، وخَلَد يَخْلِد ويخلُدُ خَلْداً وخُلوداً: أَبطأَ عنه الشيب كأَنما خلق ليَخْلُد. والخوالد: الجبال والحجارة والصخور لطول بقائها بعد دروس الأَطلال.

والمقصود هنا بخلود الخطاب القرآنيِّ هو استمرار بقائه وامتداده عبر الزّمان والمكان والأشخاص والأحوال، أي تعاليه على الممكنات الواقعة والمتوقعة زماناً ومكاناً وأشخاصاً وأحوالاً وظروفاً ما دامت البشريَّة تواصل حياتها على سطح الأرض، وما دامت السَّمواتُ والأرضُ على حالها قائمة.

والخطاب القرآنيُّ هو ذلك النصُّ الصَّادرُ من الله تعالى، المنـزَّل على النبيِّ الأميِّ محمَّدٍ بن عبد الله ﷺ، الواقع بين دفتي المصحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمختتم بسورة النَّاس، المعجز، المتعبَّد بتلاوته، المنقول إلينا بالتَّواتر ألفاظه وكلماته، وحركاته وسكناته.

فهذا الخطاب حيٌّ لا يعرف الموتُ إليه سبيلاً، وذو سلطان على النَّفس والفؤاد والجوارح لا يقوى على منافسته وإزاحته عن الحياة قوَّةٌ طاغية ولا تشريعٌ وضعيٌّ ولا سلطان ذو نارٍ وحديد، وساطع نوره لا يحجبه ظلمٌ ولا ظلام، وممتدٌّ حكمُه عبر الأزمنة المتلاحقة والأمكنة من دون أن يحدّه حدٌّ أو حدود، وأنَّه يجري كما يجري اللّيل والنّهار، وكما تجري الشّمس والقمر، ويجري على آخرنا (الباقين) كما جرى على أوّلنا(الماضين).

هذا، وإنَّ في الخطاب القرآنيّ من قوَّةٍ ذاتيَّةٍ ترشّحه للبقاء وللخلد، وتظلّ كلمتُه هي العُليا والكُبرى، وتجعل غيرها من الكلمات هي السُّفلى والصُّغرى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التَّوبة: ٤٠).

والخطاب القرآنيُّ لا بُدَّ وأن يكون خالداً باقياً؛ لأنَّه خاتمة الشَّرائع، ومكمّل الرّسالات، والمعبّر عن لطف الله ورحمته بخلقه، وهو صفةٌ من صفاته تعالى، وصفاته أزليَّة (لا بداية له) وأبديَّة (لا نهاية له).

وهناك أسباب وقفت وراء الخطاب القرآنيِّ وجعلته متصفاً بالدوام والخلود، ومن تلك الأسباب ما يأتي:

- مصدر الخطاب القرآنيّ:

إنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهذا من أعظم مزاياه وخصائصه، وعليه فستكون نصوصُه حتماً نصوصاً معصومة، منزَّهةً عن النَّقص والزَّلل، والعيب والهفوة والطيش؛ والقارئ الحاذق المنصف للخطاب القرآني لا يملك إلاّ الوقوف أمامه معظِّماً ومستسلماً، ومعترفاً بالفوارق الجوهريَّة العظيمة بينه وبين أيّ خطاب آخر، فلا يستويان أبداً، ويتخذ من سلامة النّصِّ القرآني دليلاً ساطعاً وبرهاناً دامغاً ناطقاً على صدق صدوره ممَّن ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله وخطابه، فعجائب نظمه، ودقَّة اختيار الألفاظ والعبارات، وجمال التنسيق والتناسب، وتدفق المعاني وتجددها، وسلس الأسلوب ورونق السرد، وخلوّه من الحشو، وغيره الكثير من المميزات الإيجابية تجعل الأخرس ناطقاً فصيحاً وشاهداً أميناً على أنَّ هذا الخطاب لا يصدر إلاّ من صاحب الكمال العليم بكلِّ شيء والقدير عليه والمحيط به.

وقد أكَّد سبحانه وتعالى تنزيله من لدنه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النِّساء: ٨٢)، ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(غافر:١- ٢)، ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (فُصِّلت:١- ٢)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فُصِّلت:٤١- ٤٢)، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ﴾ (الشُّورى:١٧).

وثبت صدق النَّبيِّ ﷺ في القرآن الكريم وفي حياته الكريمة، فمن القرآن الكريم ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (الفتح: ٢٩)، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النَّحل: ٦٤)، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (النَّجم: ١- ٥)، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عِمران: ١٣٢).

وقبل نزول الوحي عليه؛ كان، عليه الصلاة والسلام، معروفاً بالصدق والأمانة، فيصدق على كلِّ ما يقول، ويودع عنده كرائم الأموال، ولا أحد يجرأ على اقتراب داره وتسور جداره هيبة ووقاراً، عقلاء وسكارى.

وإذا تقرَّرت حقيقة نسبة القرآن الكريم إلى الله عزّ وجلّ، وثبت صدق النَّبيِّ ﷺ في نبوَّته فيتطلب ذلك اتصاف تلك النُّصوص بالصِّفات الكمالية، ويستلزم بُعدها عمَّا سواها من الصِّفات النَّاقصة، ضرورة استحالة اجتماع النَّقيضين في قضيةٍ واحدةٍ.

فمِن النُّصوص، الَّتي صرَّحت بعصمة الخطاب القرآنيّ قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مـــــريم:٦٤)، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

يقول الشَّيخ محمَّد متولي الشَّعراوي في شرح معنى «السَّلام» الَّذي هو اسم من أسماء الله الحسنى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ

﴿السَّلَٰمُ﴾(الحشر: ٢٣): «السَّلام اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يعني في اللغة البراءة من العيوب والنَّقائص، إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله؛ وجدت كلَّ صفةٍ سلاماً ممّا يضادّ كمالها. فحياته سلامٌ من الموت، ومن السِّنة والنَّوم، وكذلك قيُّوميَّته وقدرته سلامٌ من التَّعب واللُّغوب، عِلْمُه سلامٌ من عزوب شيءٍ عنه، أو عروض نسيان، أو حاجة إلى التَّذكُّر والتَّفكُّر، وإرادته سلامٌ من خروجها عن الحكمة والمصلحة، كلماتُه سلامٌ من الكذب والظُّلم، بل تمَّت كلماتُه صِدقاً وعدلاً، وغناه سلامٌ من الحاجة إلى غيره بوجهٍ ما، وقضاؤه وقدره سلامٌ من العبث والجور والظُّلم، وشرعُه ودينُه سلامٌ من التَّناقض والاختلاف والتَّضارب وخلاف مصلحة العباد، والرَّحمةِ معهم والإحسانِ إليهم، فشرعه كلُّه حكمةٌ ورحمةٌ، ومصلحةٌ وعدل»[1].

وعن أبي ثَعلبةَ الخُشَني، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ فَرَضَ فرائضَ فلا تَضيِّعُوها، وحرَّم حرمات فلا تَنتهكُوها، وحَدَّ حُدُوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياءَ من غيرِ نسيانٍ فلا تَبحثُوا عنها**»[2].

وتكلَّم الإمام الشَّاطبيُّ عن عصمة هذه الشَّريعة، من وجهين:

الوجه الأوَّل: وجود أدلة كثيرة دلَّت تصريحاً وتلويحاً على هذه العصمة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩). فهذا ضمان مؤكَّد في أنَّ آياته لا يخالطها غيرها ولا يداخلها التَّغيير ولا التَّبديل.

---

(١) الشَّعراوي، محمَّد متولي، أسماء الله الحسنى، د.ط (مطابع دار أخبار اليوم،١٩٩٣م) ٢/٥١-٥٢، نُقل عنه بتصرف يسير.

(٢) الدَّار قطني، علي بن عمر، سنن الدَّار قطني، تحقيق عبد الله هاشم يماني (القاهرة: دار المحاسن للطباعة، ١٣٨٦/١٩٦٦م) ٤/١٨٤.

الوجه الثّاني: الاعتبار الوجودي الواقع من زمن الرَّسول ﷺ حتَّى الآن، وذلك بتوفير الله تعالى دواعي الأمَّة للذب عن هذه الشَّريعة، فقد قيَّض له الحفظة، وجرى هذا الأمر في جملة الشَّريعة، فقيَّض الله لكلِّ علمٍ رجالاً حفظه على أيديهم[1].

- تكفل الله تعالى بحفظ خطابه وتخليده:

امتاز القرآن الكريم عن غيره من الكتب السَّماوية بكفالة الله عزَّ وجلَّ له، وحفظه من كلِّ تحريف وتبديل وتزيف، وقد نصّ في كتابه المجيد على هذا الحفظ والخلود بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩). قال أهل العلم: حَفِظَه الله من أن يزاد فيه أو ينقص منه، ولولا أنَّ الله سبحانه تولّى حفظه بنفسه لأصابه ما أصاب الكتب قبله من التحريف والتبديل، إذ أوكل الله حفظها إلى من أنزلت عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ (المائدة: ٤٤)، والحكمة من تفضيل القرآن بهذه الميزة العظيمة، كونه خاتم الكتب السماوية، والخطاب الخالد لله سبحانه.

وقد هيأ الله له من أسباب الحفظ ما لم يهيئه لغيره من الكتب، فمن تلك الأسباب ما فعله الخليفة الراشد أبو بكر الصِّديق، رضي الله عنه، من جمع القرآن في الصُّحف، وذلك لما كثر القتل في القرّاء يوم اليمامة، وخشي ضياع القرآن بضياع حفظته، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

---

(١) الشاطبيّ، الموافقات، ٢/٤٤ وما بعدها.

ومن أسباب حفظه أيضاً ما قام به الخليفة الراشد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بموافقة جميع الصَّحابة من جمع النَّاس على مصحف واحد، جمع فيه القراءات الثابتة، ثمَّ بعث به إلى الآفاق، وأحرق ما سواه، بعد أن ظهرت بوادر الاختلاف.

ومن أعظم أسباب حفظ القرآن الكريم ما يسره الله عزَّ وجلَّ من تسهيل حفظه في الصُّدور، حتَّى أقدر على حفظه الصَّغير والكبير، والجاهل والمتعلِّم، والعربيُّ والعجميُّ، لا يختصُّ بحفظه أحد دون أحد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

كما قيَّض سبحانه وتعالى لحفظه علماء من الجيل الأوَّل إلى يومنا هذا، بذلوا الجهد من خلال تأسيس علوم القرآن والتَّفسير وأصول الفقه وغيرها من العلوم بغية المحافظة على الخطاب القرآنيِّ من التأويل المرفوض، والتعسف في حمل معانيه على ما لا يحتمل ولامتداده إلى كلِّ مستجد، فبقي الخطاب محفوظاً بألفاظه ومعانيه. ناهيك عن اهتمام المؤمنين بكتاب ربهم يوماً بعد يوم، حفظاً وقراءة وتجويداً وطباعة، وتفسيراً واستنباطاً منه، وتحكيماً له في شؤون حياتهم.

- مرونة الخطاب القرآني:

من أسباب خلود الخطاب القرآني توافر عنصر المرونة والسعة فيه، وخاصية المرونة تفعِّل مفردات الحياة وتهذبها وتغربلها وتطوِّرُها، وتلوِّنُها بلونه الخاص. فالشريعةُ القادرة على تكيُّفِ الحياة بكيفيتها: هي الشريعةُ الخالدة والمستحقة للدوام والبقاء والبناء، فبالمرونة تجابه متغيرات الحياة

المتلاحقة، وفي مقابل ذلك فبالثبات التَّشريعيِّ يحافظ على مبادئ الدِّين وأصوله، ويمنعها من الذَّوبان والانصهار في الثقافات والتشريعات الأخرى.

والحق، أنَّ المبدأين، الثبات والتغيُّر، يعملان معاً في الكون والحياة. فبالثبات يستعصي هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء، أو الذوبان في المجتمعات الأخرى، أو التفكك إلى عدة مجتمعات، تتناقض في الحقيقة وإن ظلت داخل مجتمع واحد في الصورة. وبه أيضاً يستقر التشريع وتتبادل الثقة وتبنى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة، وأسس راسخة، لا تعصف بها الأهواء والتقلبات السياسية والاجتماعية بين يوم وآخر[1].

وبالمرونة التَّشريعيَّة يعلن القرآن الكريم استعداده للتعامل مع كلِّ تطور في الحال والمستقبل، وقد أنبأت الآيات القرآنية عن التطور الحادث في حياة النَّاس من خلال تركيزها على آيات الآفاق والأنفس، ودفع العقل إلى اكتشاف الجديد عن الإنسان ومحيطه الأرضيِّ والكونيِّ، وتكرار النَّظر فيها سيؤدي لا شكَّ إلى رفع السِّتار عن حقائق كانت مجهولةً من قبل، وفي ذلك برهان قاطع على إشادة الخطاب القرآنيِّ وثقته بالعقل المنضبط السَّويِّ، وتقديره له ولنتائجه في الأحكام والمسائل التي للعقل فيها نصيب وافر، وهذا بحدّ ذاته يُعدُّ نقطةً إيجابيّة تصبُّ في تحقيق المواءمة والانسجام بين الشَّرع باعتباره الإطار الموضوعيَّ وبين ما يقرِّره العقل، ويدفع إشكالية الصِّدام والتدافع بينهما، ويغدو الشَّرعُ مضفياً الشَّرعية على العقل، والعقل مؤكِّداً لما قد استقر أمره شرعاً، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ

(١) يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص٢٠٣.

أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات: ٢٠- ٢١)، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:٥٣).

وأحكام التشريع تنقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل التطور والمرونة، ولا حاجة إلى تطويره؛ وقسم يقبل التطور وهو مرن، وتدعو حاجة الناس إلى تطوره.

وممّا لا يتطوّر في الإسلام:

أ- **قضايا العقائد**: وقضايا العقائد تؤسَّس على الحقّ الذي لا يقبل الباطل، والحقُّ يبقى حقّاً مهما تبدّلت الأزمنة وتغيّرت، فوجود الله تعالى حقّ لا يقبل التغيير، وكذلك الجنَّة والنَّار، والحساب، وصدق الأنبياء والرُّسل وعصمتهم، وغيرها.

ب- **قضايا العبادات**: والمسائل التعبديَّة لا مجال للتغيير فيها، فالسُّجود في الصَّلاة بوضع الرأس على الأرض؛ فهذا لا يتطور إلى وضع اليدين على الأرض. والصوم هو الامتناع عن الأكل والشرب والممارسة الجنسية، ولا يتبدَّل إلى الامتناع عن النوم فقط مثلاً.

ج- **قضايا الأخلاق**: من الصِّدق والتعاون والتكافل وردِّ الأمانات إلى أهلها، والعفَّة وغيرها، هي مسائل ثابتة في المجتمعات، وهي من مقوِّمات الحياة، فلا حياة بدون هذه المعاني، والصدق مطلوب في كلّ حين وفي كلِّ مكان.

د- **جملة من الآداب العامة**، وهي التي تشكِّل البعد الخارجيّ الظاهريّ للإسلام، كإكرام الضيف، والاستماع إلى المتكلّم إلى

أن ينتهي من كلامه، والاستئذان من صاحب البيت قبل الدخول، وغضّ البصر عن الحرمات من النساء، وتوقير الكبير، وعدم الإسراف في الأكل والشرب، وفتح الطريق أمام المارة وغيرها، كلّ ذلك لا يقبل التغيير.

هـ - **المبادئ الشرعية،** كحرمة الغش والتدليس والحيَل، وحقّ المرأة في المهر والإنفاق عليها، وحل البيع وحرمة الرِّبا والاحتكار واستغلال حاجة الناس، والعمل بمبدأ الشورى في الحكم، وتحقيق العدل، والجنوح إلى السِّلم مع المسالمين، وردّ عدوان المعتدين، والوفاء بالعهود والمواثيق، وحماية السّكان المسالمين من أضرار الحرب كالأطفال والعجزة والنساء ورجال الدين المنقطعين للعبادة.

أما القضايا التي تقبل التطوير والتغيير حسب متطلبات العصر وحاجة الإنسان فهي:

أ- **جملة من الآداب العامة،** المؤسسة ابتداءً على العادات والأعراف كآداب الجلوس على المائدة، والمبيت في الفنادق، ودخول ما له العلاقة بالبيت من المصابيح والمغاسل في بيع الدار.

ب- **بعض الوسائل المتعلقة بأداء العبادات،** كالذهاب إلى بيت الله الحرام بالطائرة، والمتعلقة بنظام الحكم كاتخاذ المجلس النيابي لتحقيق الشورى في الحكم.

ج- الحاجات الاجتماعية الناشئة عن تطور الحياة والحضارة، فهذه تتطور مع الزمن. ويقرر الإسلام ضرورة الأخذ بها مما يتفق مع مبادئه العامة ولا يقف حائلاً دون الأخذ بها كاستخدام الهاتف والحاسوب وغيرها.

ويختصر الشيخ يوسف القرضاوي مجال الثابت ومجال المرن في شريعة الإسلام بقوله: «إنّه الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب. الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات. الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشؤون الدنيوية والعملية»[1].

ومن مظاهر المرونة في الخطاب القرآني:

أولاً: المرونة في مقاصد القرآن:

ومن مقاصد القرآن تحقيق:

أ- العدالة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ (النساء:٥٨)، وفي دفع الظلم قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:١٠٨). وإذا كانت العدالة مقصداً من مقاصد القرآن، فإنّ ذلك يمنح الدولة الحقَّ في تشريع القوانين المحققة للعدل حين تتطور حاجات المجتمع، ومادام الظلم محرماً فللدولة إصدار تشريعات رادعة تمنع ظلم الناس بعضهم لبعض.

---

(١) يوسف القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ص١٥١.

ب- **المصلحة**: نصوص الشريعة قاطعة على أنَّ الإسلام جاء لتحقيق مصالح النَّاس المادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية، والخطاب القرآنيّ قد تضمن تلك المصالح العاجلة والآجلة، وعليه فكيف لا يكون الخطاب القرآني خالداً وهو يحثُّ الفرد والمجتمع والأمة على تحقيق المصالح ودرء المفاسد؟!، فالبحث عن المصالح حاجة فطرية للإنسان، والقرآن وافق الفطرة بفتح المجال أمامها لاقتناص المصالح، والشرط الشرعيّ في قبول تلك المصلحة كونها مصلحة مشروعة أو غير مصطدمة بالشَّرع، وحقيقيَّة لا وهميةً، وواقعة أو متوقعة. وهذه المصالح قسمت إلى أقسام ثلاثة:

- **الضروريات**: وهي حفظ الدِّين والنفس والعقل، والنسل (العرض) والمال.
- **الحاجيات**: وهي التي تحمي تلك الضروريات، كإباحة الأكل والشرب والتداوي لحفظ النفس، وعقوبة السارق لحفظ المال، وتحريم المسكرات والشعوذة والسحر لحفظ العقل، وتشريع الجهاد وتحريم البدع لحفظ الدين.
- **التكميليات**: وهي ما كانت مراعاتها من مصلحة المجتمع في أخلاقه وآدابه، ويندرج تحتها قسم الآداب العامة في الإسلام.

ج- **التيسير ورفع الحرج**: قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨)، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ

﴿مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥).

ومن هنا كانت المشقة تُسقط الواجب كالسفر والمرض بالنسبة إلى الصيام، أو تخففه كقصر الصلاة في السفر، وكانت الضرورة تبيح المحرّم كأكل الميتة عند الاضطرار: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(البقرة: ١٧٣).

فما دامت طبيعة الخطاب القرآني طبيعةً مرنةً، راعت وقدّرت أحوال المكلفين الاستثنائية والطارئة، فشرعت أحكاماً للحالة العاديَّة والطبيعيَّة، وأخرى لحالات الضّيق والاستثناء؛ فبهذا سجل لنفسه الخلود والبقاء والفاعلية في الحياة، وضمن دخول العباد تحت سلطانه، ولا حاجة بعد ذلك للمكلف أن يفكّر في الحيل والخداع وصناعتها للخروج من سلطان النَّص، أو الامتثال له شكلاً وصورة دون الحقيقة والإيمان به، فهذه الأحكام الاستثنائية هي ضمانات عملية لديمومة أثر الخطاب واستمراريته في حياة المكلفين بها.

ثانياً: المرونة في النص القرآني:

قال تعالى في البيع: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩).

وقال تعالى في الشورى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

وقال في العدالة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(النساء: ٥٨).

وقال تعالى في لباس المرأة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(الأحزاب: ٥٩)، فإنه لم يعين فيه لوناً ولا شكلاً، وإنما طلب فيه الحشمة والعفاف.

وإنك لتجد في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(الشعراء: ١٨٣) نصاً عاماً شاملاً، وهو باب واسع يؤخذ منه ما يَحتاج إليه مجتمعنا اليوم من تشريع يصون حقوق العمال والفلاحين والموظفين وكل من يؤدي عملاً لغيره.

ثالثاً: المرونة بتعليل الخطاب:

دأب الأصوليُّون على استخدام مصطلح «التعبد» إزاء مصطلحٍ آخر وهو «التّعليل»، فكلّما أطلِق أحدُهما أستُحضِر الثّاني، وعلى أساس استحضار هذينِ البُعدينِ التّعبديّ والتّعليل؛ شُيِّد صرح أغلب مباحث علم أصول الفقه، وهما حقّاً البُعدانِ اللذانِ تكفّلا ببقاء الدِّين لله سبحانه وتعالى من جهة الوقوف عند تعبديَّاته، وعموميّة أحكامه وشموله أشخاصاً وزماناً ومكاناً وأحوالاً من جهة تعليله.

والخطاب التعبديّ هو ما لا يدلّ على معنى ظاهرٍ منضبطٍ مناسبٍ يصلح لترتيب الحكم عليه، ويتوقف متفهم الخطاب والمجتهد عند ما حدّ الشارع فيه من غير زيادة ولا نقصان[1]. والخطاب التعليليّ على خلاف ذلك، يتمكن متفهم الخطاب والمجتهد من فهم الوصف الظاهر المنضبط الذي أناط به الشارع الحكيم الحكم الشّرعيَّ، ويقول بالحكم كلّما كان تلك العلّةُ حاضرةً، ويقول بانعدامه إذا انعدمت تلك العلّة، كما يمكنه امتداد الحكم إلى المستجدات التي يشارك هذا الخطاب في علّته عن طريق القياس. ولإدراك علّة الخطاب ثمّة طرقٌ، منها منصوصة وأخرى مستنبطة، وتحدث عنها الأصوليون في مبحث مسالك كشف العلّة.

وقد تكلم العلماء عن تعليل خطاب الله تعالى وحكمه، وذهب جمهورهم إلى القول بتعليله لا سيما في شؤون المعاملات والعادات، وقالوا إنّ الأصل في العادات والمعاملات التعليل، والأصل في العبادات التعبُّد. والأحكام المعلّلة تصلح للقياس والتوسيع، وكون الخطاب القرآنيّ معلّلاً يفتح قنوات استنباط جديدة (المصالح المرسلة، الاستحسان، الذرائع فتحاً وسدّاً، والعرف، وغيرها) أمام المجتهد لتزويد الوقائع والنوازل بالحكم الشّرعيّ، وإرجاع المستجدات جميعها إلى سلطة الخطاب وسلطانه حتّى لا تخرج واقعة ولا تصرف عن حكم الله تعالى، وبهذا يخلد سلطان النصّ القرآنيّ[2].

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٢/ ٢٣٤، ٢٤١.

(٢) الزنكي، صالح، البعد التعبدي في التشريع الإسلامي من منظور أصولي، مجلة الدراسات الإسلامية (مجمع البحوث الإسلامية: إسلام آباد، العدد الرابع، ديسمبر ٢٠٠٧)، ١٦٣-١٩٧.

- المعاني القيمية[1] في الخطاب القرآنيّ:

ينطوي الخطاب القرآنيّ على مبادئ وأسس ومعانٍ تخلّده، وهذه المبادئ أو المعاني لها خصائص الثبات والبداهة، والضَّرورة والوضوح الذَّاتيّ، ومن هذه المعاني العدل والإنصاف، والإحسان والخير وغيرها.

والعدل في الحطاب القرآني هو أمُّ القضايا، وهو صلب الدِّين، وبه بعث الله الرُّسل والنَّبيِّين، عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهو عماد أحكام الشَّرع كلّها بلا استثناء، وعماد العمران، وبدونه يصبح العمل مبتوراً، وغير صالحٍ

---

(١) القيمة لغة: واحدة القيم، وهي مأخوذة من: قوم الشيء إذا قدر ثمنه. ومنه: قيمة الشيء أي ثمنه، والقَيِّم للأمور هو المقوِّم لها، والتقويم التعديل. ينظر: الفيومي، أحمد بن محمد المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير(القاهرة: المطبعة الأميرية ببولاق، ط١، ١٣٢١/ ١٩٠٣م)، مادة قوم، ص٦٢٩.

القيمة اصطلاحاً: تتدرج تعريفات الفلاسفة للقيمة تحت المعاني اللغويّة من عملية التثمين والتعديل والتقدير، وبيان مرتبة الشيء، وهم يعرفونها على أساس ماديّ، وآخر معنويّ؛ ويقصدون بالماديّ الخاصية التي تجعل الأشياء مرغوباً فيها، وبالمعنوي القيم الروحية. وهذه القيمة لها أقسام:

فمن حيث الموضوعية؛ قيم مطلقة، وهي إمّا يتصف بها الشيء عندما يكون مستحقاً للتقدير بذاته، كقيم الحق والخير والعدل والجمال، وقيمة إضافية، وهي ما يتصف بها الشيء بسبب أمرٍ خارجيٍّ عنه، كالقيمة التي تتمتع بها الوثائق التاريخية.

ومن حيث طبيعة النفع المؤدية إليه؛ قيم حقيقية، وهي القيم المادية المحسوسة كمنفعة الغذاء للإنسان، وقيم اعتبارية، وهي القيم المعنوية المقابلة للقيم المادية كالثقة والأمانة والإنصاف.

ومن حيث مطابقتها للواقع؛ قيم مثالية، وهي القيم الغائية الموجودة بالقوة في العقل فقط، وقيم وجودية، وهي القيم المتحققة بالفعل في العالم الخارجيّ؛

ومن حيث المدلول المادي لها؛ قيم استعمالية، وهي ما تحقّق منفعة أو فائدة، وقيم تبادلية، وهي ما لا تحقق منفعة، أو فائدة. ينظر: جميل صليبا، **المعجم الفلسفي** (بيروت: دار الكتاب، ط١، د.ت) ٢/٢١٢-٢١٤؛ الضاري، مثنى حارث، **التحسين والتقبيح عند الأصوليين وأثرهما في القيم والتشريعات** (رسالة ماجستير غير مطبوعة، مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، ١٤١٥/١٩٩٥م)، ص٢٣٤-٢٣٥.

بميزان القرآن والسُّنة، وليس محل دهشة إذا علمنا أنَّ كلمة العدالة ومشتقاتها قد ورد وتكرَّر ذكرها في القرآن الكريم في المرتبة الثالثة، إذ أنَّ الكلمة الأولى هي اسم «الله» سبحانه وتعالى، والكلمة الثانية هي «المعرفة»، أو «العلم»، أمّا الثالثة فهي «العدالة» ومشتقاتها، فقد تكرَّرت أكثر من ثلاث مائة مرَّة[1].

والتَّعامل بالعدل وتجسيده في الحياة ينسحب على غير المسلمين من أهل الأديان وغيرهم انسحابه على المسلمين سواء بسواء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾(النِّساء: ٥٨)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(المائدة: ٨)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾(النَّحل: ٩٠).

ومن أمعن النَّظر في نصوص التَّشريع تبيَّن له أنّ كلَّ نصٍّ من تلك النُّصوص حمل بين دفتيه قيمة العدل، ضرورة صدوره من الله سبحانه وتعالى الموصوف بصفة العدل المطلق، فلا يصدر عنه إلاّ ما فيه العدل، وأنَّ العدل في الخطاب القرآني ليس ترفاً فكريًّا مجرَّداً وبعيداً عن حقيقة التَّشريع، وفي هذا الصَّدد يقول الأستاذ محمَّد فتحي الدُّرينيُّ: «العدل في

(١) منذر قحف، الاقتصاد الإسلامي: علم أم وهم، ط١ (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ص١٠٨.

التَّشـريع الإسـلاميّ ليس فكـرةً فلسفيَّةً خيـاليَّةً مجـرَّدةً، ولا أمـراً خارجاً عن نصـوصـه ومقاصـده ونتـائج تطبيقه، بل هو مندمجٌ في كلِّ أولئك»[1].

وقد أكَّد هذا الأمر الأستاذ علال الفاسي، رحمه الله، بقوله: «إنَّ غاية الشَّريعة هي مصلحة الإنسان كخليفة في المجتمع الذي هو منه، وكمسؤول أمام الله، الذي استخلفه على إقامة العدل والإنصاف، وضمان السَّعادة الفكريَّة والاجتماعيَّة، والطمأنينة النَّفسيَّة لكلّ أفراد الأمة»[2].

والأمر لم يتوقف عند إقامة العدل فقط، بل تجاوز ذلك، ودخل في دائرة أخرى وهي أعظم وأدق منه، وهي تحقيق الإنصاف، يقول الفاسي في هذا الشَّأن: «وليكون الإنسان نفسه الحارسَ على ضمان العدالة ونشر الحقّ؛ لم يكتف الشَّارع بالتكليف بظاهر القانون والقضاء، بل كلّف الإنسان أن يُنصف غيرَه من نفسه، ولو كان القانون أو القضاء في جانبه»[3].

والعدل هو ضدُّ الظُّلم، والظُّلم محرّم، قليله وكثيره، ظلم الأقارب وظلم الأباعد، المظلوم كان مسلماً أم غير مسلم، رجلاً أم امرأة، عالماً أم جاهلاً، غنياً أم فقيراً، صالحاً أم طالحاً، أبيض أم أسود.

والشَّارع قد حرّم الظّلم على نفسه، وجعله محرّماً بين عباده **«يا عبادي، إنّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم محرَّماً، فلا تظالموا»**[4].

---

(1) الدريني، محمد فتحي، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، ط3 (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) ص٥.

(2) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ط٥ (دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م) ص١١.

(3) علال الفاسي، المصدر السابق، ص١٢.

(4) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث ٢٥٧٧.

والمسلم مأمور بتحقيق العدل على جميع المستويات، العدل في الحكم، والعدل في الأسرة، مع الزَّوجة، أو الزَّوجات، وبين الأولاد، بين الأبناء، وبين البنات، وبين الأبناء والبنات، ومع الموظفين، والعدل في توزيع الثَّروة، والعدل في توفير فرص العمل أمام الجميع من غير تمييز، فلا يحرم الخصوم السِّياسيون من أبناء البلد الواحد من فرص عملٍ هم أهل له، ولا توفَّر هذه الفرصة لمن لم يتأهل، فيضرّ ولا ينفع. هذا وأنَّ العدل مطلوب في أبسط الأمور حتَّى في الأكل والشُّرب، فلا إسراف فيه ولا تقتير، وهكذا فإنَّه روح سارية تسري في أحكام التَّشريع جميعها، عبر الزَّمان والمكان، وهو من مقومات خلود الخطاب القرآني، وكيف لا يخلد هذا الخطاب وهو يحمل دوماً هذه القيم التي يريدها الإنسان في كلّ زمان ومكان، وهذه المعاني اتفق على ضرورة حضورها ووجودها في الحياة جميع البشر، وشكلت مواد دستورية لكلّ دولة.

ومن تلك المعاني القيمية التي حملها الخطاب القرآني وكانت سبباً ذاتياً في تخليده «الخير»؛ الخير لا ينفك عن الخطاب القرآني، فهو خطاب جاء بالخير، ويطلب الخير، ولا يقبل غيره، ويريد أن يكون الخير مجسداً على الأرض، ويبقى عليها، وهذا الخير ينبغي أن لا يكون حصراً على شخص واحد بعينه، بل صفةً لاصقة بكل إنسان، ويكون حياةً للأمة التي يريدها هذا الخطاب، فالأمَّة القرآنيَّة هي أمَّة فعل الخير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ (الحج: ٧٧). ووصف الله سبحانه وتعالى الأمَّة الإسلاميَّة بخير أمَّة، لكونها

أمَّة خير، أخرجت للنَّاس، وإنَّها أمَّة لا تعيش لنفسها، ولا تتفرد بخيرات الأرض ومتاعها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران: ١٠٤).

والخير اسم جامعٌ لكلِّ نفع، فالخلق الحسن خير، والبر وصلة الرَّحم خير، ومساعدة النَّاس خير، وعمارة الأرض خير، وكلّ ما به صلاح العباد والبلاد فهو خير. وهو ضد الشَّر والفساد، سواء كان الفساد فساداً إداريًّا، أو سياسيًّاً، أو فساداً اجتماعيًّاً، أو تربويًّاً، فالخير المصلحة، والشَّريعة الإسلاميَّة ما جاءت إلاّ لاستجلاب المصالح وتكميلها، واستدفاع المفاسد وتقليلها.

وخيرية الأمة مرتبطة بفعل الخير، وليست ذاتية خَلقية، وهذه الخيرية لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تدفعهم إلى التَّكبُّر والتَّجبُّر على خلق الله، لأنّ ذلك هو المحرّم قطعاً، كما لا تحثُّهم على التواكل وترك العمل ومراجعة الذَّات، فمراجعة الذات وإصلاح حال الفرد والأمَّة، والنَّاس أجمعين؛ أمر مطلوب غير قابل للمساومة والتّساهل، فما تعاني منه الأمة الإسلاميَّة من تخلُّف تقنيٍّ وتربويٍّ وتعليميٍّ، وما عليه نظام حكمها من استبدادٍ وقسوة؛ لم تأت تلك المعاناة لأنّها شعرت بأنّها هي الأفضل والأحسن، بل كان كلّ ذلك نتيجة طبيعية لتركها الأخذ بالسّنن الإلهيَّة في الحياة، فإنّ المسلم كغيره من بني البشر يعيش في دنيا الأسباب، فمن أخذ بها فقد أفلح وتقدَّم، ومن تقاعس عن ممارستها، أو تهاون فيها وفرط؛ فقد

خسر وتأخَّر، وهذه السّنة الكونيَّة جاريةٌ على جميع البشر بغض النَّظر عن هويتهم الدِّينية والثَّقافية، وليس التأخُّر حِكراً على المسلمين، وليس هو القدر المحتوم المبرم الذي لا ينقض ولا يتخلّف، بيد أنَّ ثمة أقواماً أخرى من غير المسلمين يعيشون في أوضاعٍ أشدّ فساداً، وأكثر تأخُّراً ممَّا عليه حال المسلمين، والسَّبب في أوضاع هؤلاء لا يعود إلى معتقداتهم الدِّينيَّة من عبادة البقر والشَّمس، أو إلى لا إيمان، وللتأكيد على هذه السّنة الإلهيَّة الثَّابتة قال الشَّيخ ابن تيميَّة رحمه الله: «إنّ الله يقيم الدَّولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[1].

ومن تلك المعاني القيمية التي حملها الخطاب القرآني أيضاً «الإحسان»، فإذا كانت قيمة العدل تعني أخذ الإنسان كامل حقّه من غير وكسٍ ولا شططٍ، فإنَّ الإحسان يفيد معنىً فوق العدل بدرجةٍ أو بدرجاتٍ، يفيد تسامح هذا الإنسان وتنازله عن جزءٍ، أو كلّ حقّه لمن عليه الحقّ، وهو ما يرشد إليه الإسلام أتباعه، ويحثُّهم عليه في جميع تشريعاته، من غير إلزام وإيجاب، ولكن من باب التّرقية بالنَّفس وتزكيتها والعروج بها في مسالك الصّالحين المؤثرين الآخر على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. فالعفو عن القاتل أفضل من قتله قصاصاً، وإنظار المدين المعسر، أو إعفاؤه أفضل من مطالبته بالدَّين عند حلول أجله، وكظم الغيظ، هو ترك الانفعال بوجه من تصرَّف تجاهك تصرُّفاً خاطئاً، وهو أوَّل منزلة الفضل والخير، وإعفاؤه ومحو أثر ذلك التَّصرف في القلب

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨/١٤٦.

كليّاً؛ هو المنـزلة الثّانية من منازل الفضل، والإحسان إليه وإكرامه على الرّغم ممّا قام به؛ هو المنـزلة الأخيرة من تلك المنازل التي وجّه الإسلام المسلمين إليها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤).

وفقه هذه القيم وتطبيقها في الحياة كان حاضراً في العصور الإسلاميّة على الدّوام، وإن كانت النّسبة متفاوتةً من زمانٍ إلى زمانٍ، أو من شخصٍ إلى آخر، ولكنّ الخير والإحسان لم ينقطعا عن حياة الأمّة، ولئن كانت ثمّة تجاوزاتٌ على هذه القيم العالية من العدل والإنصاف والخير والإحسان وغيرها؛ فإنّما تعود إلى قصور المسلمين لا إلى الإسلام.

وقول الخليفة الراشد أبي بكر الصّدّيق رضي الله تعالى عنه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء الاستدلال على صحة مشروعه الكبير في جمع القرآن: «**هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ**»[1]؛ ينهض دليلاً صارخاً وصادقاً على ترسيخ مفهوم الخير في أذهان وأعمال هؤلاء الصّحابة، فإنّهم أدركوا جيداً ما دام في الأمر خير فهو مشروع، بل مرغوب فيه، وقد يكون واجباً عليهم، وهم كانوا يسألون الرسول الكريم ﷺ عن الخير، كما قال حذيفة، رضي الله عنه: «**كان النّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشّرّ مخافة أن أقع فيه**»[2]، وغير ذلك الكثير من الشّواهد النّصيّة والتّطبيقيّة الّتي تنطق بأنّ تلك المعايير القيمية هي معايير أصيلة إسلاميّة كان عليها الأوائل، ولا بُدّ أن يكون عليها الأجيال المسلمة في كلّ حينٍ، وفي كلّ مكان.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم الحديث٤٩٨٦، ٤١٥/٦.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة.

ومما خلد الخطاب القرآني أيضاً المعاني القيمية، التي أسس عليها الشارعُ التَّحليل والتَّحريم، كون الشيء طيِّباً أو كونه خبيثاً. لم يكن معيار التَّحريم دوماً في الشَّرائع السَّماوية السَّابقة ما يستقبحه العقل والفطرة، بل كانت المحرَّمات تقرر بمثابة عقوبات لأهل الدِّين جزاء انحراف اقترفوه، مثل بعض الأطعمة والأشربة التي حرِّمت في دين دون آخر، وعلى قومٍ دون آخرين ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾(النِّساء: ١٦٠)، وبيَّن هذه المحرَّمات في موضع آخر: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾(الأنعام: ١٤٦)، وجاء الإسلام فأعلن الأساس الموضوعي في التَّحريم ﴿...وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...﴾ (الأعراف:١٥٧)، فكون الشيء طيِّباً ونافعاً، وأثبتت الدراساتُ والتجاربُ صحةَ ذلك؛ يجعله حلالاً، وإذا كان خبيثاً وضارّاً فيكون محرّماً. وهذا الأساس هو المتجاوب مع العقل السليم والفطرة السليمة، ولا يسمح العقل السليم والفطرة - فضلاً عن الشرع في المقام الأول- أن يجري عليه تغيير أو تبديل.

- التوازن والاعتدال (الوسطية):

التوازن رديف الاعتدال وقرينه، ويعني التعامل بين الطرفين المتقابلين بحيث لا يطغى طرفٌ على آخر ولا يتفاوت عليه، ومن أمثلة ذلك في الكون الليل والنهار، الحرارة والبرودة، الماء واليابس.

وفي حياة الإنسان هناك مطالب الإنسان الجسمية والروحية، الدنيوية والروحية، الفردية والجماعية. قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا

تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾(الملك: ٣)، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

ومن مظاهر حضور التوازن والاعتدال في الحياة الإسلامية (الحياة تكون إسلامية إذا طبق فيها حكم الله تعالى بالفعل كما نزل وورد)، ما يلي:

- **التوازن والاعتدال بين العمل والعبادة:** قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الجمعة: ١٠).

- **التوازن والاعتدال في إنفاق المال،** قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩).

- **التوازن والاعتدال بإدارة الوقت** وتوزيعه بين الحقوق والواجبات، وفي الحديث: «**إنّ لربّك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه**»[1].

- **التوازن والاعتدال في مراعاة مصالح الفرد ومصالح الجماعة،** فلكلّ فرد الحرية في الكسب، بشرط أن لا يعتدي على أملاك الآخرين وحقوقهم، وله أن يبدي رأيه بكلّ حرية ما لم يطعن في قيم المجتمع وأخلاقه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم.

فالخطاب القرآني خطاب وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي بالغت في التحريم، وكثرت فيها المُحرَّمات، وبين النصرانية التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة، بل ليكمله[1].

ومع هذا أعلن رجال النصرانية أنَّ كلَّ شيء طاهر للطاهرين[2].

فالإسلام قد أحلَّ وحرَّم، ولكنَّه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق البشر، بل من حق الله وحده، ولم يُحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يُحل إلا الطيب النافع، ولهذا كان من أوصاف الرسول ﷺ عند أهل الكتاب أنَّه: ﴿ ... وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

والخطاب القرآني وسط في شؤون الأسرة، ووسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد، وبين الذين رفضوه وأنكروه ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة.

وتتعزز مكانة الإسلام بوصفه دين الحياة الدنيا كما هو دين الآخرة، وفي توازن البعدين الروحي والمادي فيه، وفي تلبيته لمعطيات التكوين البشري وحاجاته، فالله لم يخلق الإنسان بطبيعتين مادية وروحية ليستجيب دينه للجانب الروحي أو للجانب المادي فيه، بل جاء الإسلام لتلبية حاجات البشر المادية والروحية ولينظم العلاقة بين الجانبين في إطار التوازن بينهما.

---

(١) إنجيل متى، ٥/١٧.

(٢) رسالة بولس إلى تيطس، ١/١٥.

وتتعامل ثلة من المسلمين مع الإسلام باعتباره دين الموت أو الآخرة فقط، ويؤكدون هذه النزعة الانفصالية بين الدنيا والآخرة مما أدى بهم هذا التصور الخاطئ إلى الإحجام عن الحياة دون الإقدام عليها، والتعامل معها بإيجابية معتقدين أنّ ذلك يغلّب النزعة الدنيوية على الأخروية وهذا بذاته يفضي إلى غضب الله وعقابه.

ويسود في مراحل التراجع الحضاري هذا النمط من الفهم للإسلام وينصرف المسلم فيه عن القيام بواجب الاستخلاف وعمارة الأرض، ويهجر المجتمع ويترك الساحة، وينزوي في زوايا المساجد، ويزهد في تعلّم علوم الدنيا، وينكب على دراسة ما ينفع آخرته حسب تصوره، غافلاً أنّ الآخرة تمرُّ عبر بوابة الدنيا، وأنّ العمل الصالح رديف الإيمان وثمرة من ثمراته، وأنّ القرآن أمر المسلم بأخذ نصيبه من الدُّنيا:﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾(القصص: ٧٧).

وفي المقابل هناك مَن آثر الحياة الدُّنيا وانغمس في لذاتها، ونسي أو تناسى أنَّ قيمة الدُّنيا بما يحقّقه من خير لعباد الله على الأرض، وبما يخدم مصالح العبد في الآخرة، وأنَّ الدُّنيا ينبغي أن تكون في خدمة الآخرة، وغدا خبيراً بصغار أمور الدُّنيا وكبارها، ولا يتقن أمر دينه، فمنهم من يصلي ويصوم لأكثر من أربعين أو خمسين عاماً، وظلَّ لا يحسن أداء صلاته، ولا يقيم لسانه في قراءة سورة الفاتحة.

فالإسلام جاء موازناً بين الدُّنيا والآخرة، وأمرنا بالمحافظة على هذا التَّوازن بينهما، وإلاّ فالمجتمع الذي ينشده الإسلام لا يكون حاضراً، ويصبح ضرباً من الأفكار البراقة على غرار المجتمع المدني الذي تخيله أفلاطون في مدينته الفاضلة.. والإسلام يرفع شأن الآخرة، ويعدُّ الإيمان به واجباً: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (البقرة: ١- ٤).

وإذا كانت الحياة الآخرة لا تنفصل عن مبدأ الثواب والعقاب؛ فإنَّ الوعد بالجنة والوعيد بالنار لا يعني أبداً إعلاء قضية الموت وتوجيه الحياة تجاهه، ومعلوم أنَّ الشارع الحكيم حينما كلَّف عباده بالأمر لفعل المأمور به، وبالنهي لترك المنهيِّ عنه؛ فإنَّ ذلك الفعل وذلك التَّرك ينصبان على أرض الدُّنيا، ولا تكليف في الآخرة، وما الشَّريعة إلاّ أوامر ونواهٍ، أوامر بالإقدام على العمل الصَّالح (المصالح)، ونواه للإحجام عن العمل السَّيئ (المفاسد)، وهما قوام صناعة الحياة الراقية في مفرداتها، والراعية لأحكام الشريعة وآدابها، فالحياة الدُّنيا هي إذن بداية الطَّريق الذي ينتهي بالآخرة، ولا طريق سواه، وكفى بذلك حثاً وتوجيهاً للمكلَّف ليعيش الحياة بفاعليَّة وبإيجابيَّة، ويدع التَّهاون والتَّواكل، والتَّقاعس والتَّكاسل، والتَّقصير والتَّسويغ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

- عالمية الخطاب القرآني وشموله:

ومن المفارقات بين الخطاب الشَّرعيِّ وغيره من الخطابات ما يتمتَّع به الأوَّل من خاصيَّة العموم، زماناً ومكاناً وأشخاصاً؛ فهذه الخاصيَّة هي الأخرى رفعت من مستوى الخطاب الشَّرعيِّ، وضيَّقت مساحاتِ المقاربة بينه وبين ما سواه، فصلاحيَّة هذا الخطاب لجميع الزَّمان من زمن نزوله ووروده إلى يومنا هذا وإلى يوم الدِّين، وصلاحيَّته لجميع الأمكنة للجزيرة العربيَّة ابتداءً، ولجميع الأصقاع المعمورة انتهاءً، وصلاحيَّته لكلِّ النَّاس، هذه الأمور مجتمعةً توحي بما يكنُّه هذا الخطاب من قوَّةٍ وحيويَّةٍ، والخطاب مهما كان نوعه لا يمكن أن يكون على هذه القوَّة والفاعليَّة، والتأثير البعيد المدى والمتعدد الزوايا؛ لو لم يكن ثاوياً لمعانٍ ساميَّةٍ ثابتةٍ، وقيمٍ راقيَّةٍ راضيَّة، محبَّذة ومشتركة بين العالَمين في جميع الأعصار والأمصار على اختلاف طبائعهم وميولهم، ومستواهم الثَّقافيِّ، ومركزهم الاجتماعيِّ والسِّياسيِّ.

وكلُّ رسولٍ أرسل إلى قومه وحدهم، فنوح، عليه السَّلام، أرسل إلى قومه فقط: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾(نوح: ١)، وإبراهيم، عليه السَّلام، أرسل إلى قومه فقط: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾(العنكبوت: ١٦)، وكذلك لوط وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى، عليهم الصَّلاة والسَّلام، بينما رسولنا الكريم محمَّد بن عبد الله ﷺ أرسل إلى جميع النَّاس: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(التكوير: ٢٧)، ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (القلم: ٥٢)، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ :٢٨).

وفي الحديث، فقد روي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ»**، منها قوله: **«وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً»**[1].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْـوَدَ»**[2]. والعرب تسمّي الأبيض أحمر، أي أنّه بُعِث إلى البشر جميعاً. وكان الرَّسولُ ﷺ مدركاً واجبه الشّاق هذا، لذلك أخذ يراسل الحكّام من غير المسلمين يدعوهم إلى الدِّين الجديد الإسلام[3].

وعالمية الخطاب تعني بالضرورة استمرارية الدعوة إليه ووجوب هذه الدعوة، كما تعني ضرورة تضمُّنه أحكاماً صالحة لكلّ بشر، على اختلاف ألوانهم ولغاتهم، وزمانهم ومكانهم وأحوالهم، ولذلك جاء هذا الخطاب بتفصيل ما شأنه الثبوت وعدم التغيير لدى البشر جميعاً، وهو القضايا المشتركة بين جميعهم عبر الزمان والمكان، وجاء بأحكام عامة ومجملة في شكل مبادئ وقواعد عامة في القضايا المتغيرة عبر الزمان، والمتغيرة من شخص إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، وراعى أعراف جميع الأقوام في حدود المعروف المتضمن لمصالحهم والميسِّر لحياتهم دون إعنات واعتساف.

ويُقصد بشمول الخطاب القرآنيِّ احتواؤه وتضمنه لكلِّ ما يمكن أن يحتاجه الإنسان، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل: ٨٩). ويدخل تحت هذا الشمول:

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث (٥٢٣)،١/٣٧١.

(٢) مسند الإمام أحمد، ١/٢٥٠.

(٣) شوقي ضيف، عالمية الإسلام، ص ١٣- ١٦.

الشمولُ الزمانيُّ، حيث إنّ الخطاب القرآنيَّ شمل الماضي ويشمل الحاضر والمستقبل، كما يدخل تحته الشمول الموضوعيّ بمعنى أنّه يستوعب شؤون الحياة كلّها، الخاصة والعامة، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

والخطاب القرآنيُّ رسالة الإنسان كلّه، روحه وعقله، وجسمه وضميره، وإرادته ووجدانه، وأنَّ رحمة الله وهدايته تصحب هذا الإنسان أنَّى اتجه، وأنَّى سار في أطوار حياته، تصحبه طفلاً ويافعاً وكهلاً وشيخاً، وترسم له في كلّ هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل والأقوم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٩).

كما هو رسالة للإنسان في مجالات الحياة كلّها، وفي ميادين النشاط البشري كلّها، فلا يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلاّ كان له فيه موقف، يتمثل في الإقرار والتأييد، أو في التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل. وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتقنين، وقد يسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة، كلّ في موضعه بحقه وبمقداره، ويرعى هذا الإنسان ويوجّهه فكرياً، وعلمياً، وسياسياً، وأخلاقياً واقتصادياً، وأسرياً.

- فمن خطابه المنظّم للأسرة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٥).

- ومن خطابه المنظّم للعلاقة بين الوالدين والأولاد: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف:١٥)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٣١).

- ومن خطابه المنظّم للعلاقة بين الأقارب والأرحام: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠).

- ومن خطابه المنظّم للآداب العامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النساء:٢٧).

- ومن خطابه المنظّم للمعاملات: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين:١- ٣)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ (البقرة:٢٨٢).

- ومن خطابه المنظّم للسياسة والحكم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾(النساء:٥٨).

- ومن خطابه المنظّم لعلاقة الإنسان بالكون: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:٢٠).

- ومن خطابه المنظّم لعلاقة المسلم بغيره من أهل الأديان: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:١٢٥).

-ومن خطابه المنظّم لحالة الحرب: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١٩٤).

-ومن خطابه المنظّم لعقوبة الجاني: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة:٣٨).

-ومن خطابه المنظّم للتشريع الدستوري: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى:٣٨)، وغير ذلك الكثير.

السياقات القرآنية والأنساق العلمية
علاقة الاستيعاب والتجاوز

الدكتور محمد مجذوب محمد صالح (*)

الوحي المنزل والمحيط بالعلوم التجريبية من جهة وبالتجربة الإنسانية من الجهة الأخرى يؤسس لقيام بحث علمي شامل وراشد: علم يستطيع الإجابة عن السؤال القيمي: «لماذا؟» في الوقت الذي يجيب فيه عن السؤال العلمي «كيف؟» في آن واحد. وهو الوضع الذي يفتح التساؤلات واسعة حول طبيعة وظائف العلم.

تمهيد:

هذا البحث بحث في مجال فلسفة العلوم في منظورها الإسلامي، وهو عبارة عن دراسة تنطلق من اعتبار الخطاب القرآني مرجعاً معرفياً، للنظر وإعادة النظر في قضايا ومسائل الحياة الدافقة، أي بحث يعتمد الخطاب

(*) باحث أكاديمي، جامعة النيلين.

الإلهي، على المستوى المعرفي، عند العمل على إيجاد الحلول للمشكلات المعرفية والعلمية ومسائلها، في أهم أبعادها وتجلياتها، فالاعتماد هنا في المشروع بالنسبة لفعاليات العقل ونشاطاته تتقرر في ضوء هدى الوحي الإلهي، عند إدراك قضايا عالم الشهادة أو عالم الغيب، وهي فوق ذلك ليست نظرة مغلقة تتقيد بنموذج نظري جامد ومحدد، ذلك أن الوحي، كلام الله، سياق مطلق الدلالة على الحقيقة، مقارنة بتلك النماذج المعرفية التي تقدمها الأنساق العلمية البشرية الأخرى على اختلافها. فالمعرفة المؤولة من الخطاب القرآني معرفة تتصف بالموضوعية، في مقابل المعارف النسبية التي تقدمها الأنساق البشرية الأخرى، تجريبية كانت، أم عقلية، ونحو ذلك، وهذا يرجع لاتصافها بالصفات التالية:

أولاً: كون الخطاب القرآني خطاباً مطلقاً من جهة مصدره، بمعنى أن العلم المتضمن فيه ليس من إنتاج العقل أو الحواس أو الحدس أو التجربة وما شابه، بل هو علم منزل إنزالاً من قبل الله تعالى على الرسول ﷺ، أي أنه منزل من خالق عوالم الشهادة الطبيعية والإنسانية، ومفسر لها كما هي في حقيقتها في ذات الوقت.

ثانياً: أن الخطاب الشرعي علم كلي، لكل الناس، على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وهو بالتالي لا يعاني من ثنائية من أي نوع، كثنائية (الأنا) و(الآخر) والتمركز حول (الذات)، مما يتعالى به عن كونه ظرفياً أو نسبياً.

ثالثاً: هو علم ضروري، يحتاجه الإنسان، بمعنى أن حياة الناس على الأرض يصيبها الفساد والاضطراب إن هي لم تؤسس شؤونها عليه، عندها

تفقـد القـدرة علـى التمييـز بـين الخـير والـشر والحـسن والقبـيح والـصواب والخطأ، وعندها تفقد القدرة على الاطلاع على العدل والحق المطلقين.

رابعاً: هو علم خالد، لا يدخله التعارض والاختلاف والتبدل، مما يجعله صالحاً مع اختلاف الزمان وتبدل المكان.

هـذه الخـصائص تجعـل الخطـاب القرآنـي يمتـاز علـى سـائر النـصوص في الثقافة البشرية، منذ «أفلاطون» وحتى اليوم، فلسفية كانت، أم علمية، أم أدبية، أو نحو ذلك، وبالتـالي يمتـاز علـى الأيـديولوجيات الـسائدة في عـالم اليوم أو عالم الغد.

وعلـى هـذا فـإن «الإشـكالية» المثـارة هنـا، بـين دفـتي هـذه الورقـة، هـي محاولـة الإجابـة عـن الـسؤال عينـه، الـذي طرحـه فلاسـفة العلـم علـى أنفسهم وأجابوا عنه إجابات متفاوتة، بمعنـى الـسؤال عـن المنهجيـة العلميـة، بيـد أن هـذه الإجابـة سـتكون مختلفـة نوعـاً مـا، ممـا يمكننـا مـن اسـتيعاب وتجاوز الإجابات السابقة حول المنهجيـة العلميـة للخطـاب القرآنـي، وعلاقتـه بفقه الواقع الظرفي.

ففي الورقة «اقتراح» وتوضيح للرؤية العلمية التي تمكـن المـؤوِّل للخطـاب الـشرعي مـن أن يوسـع في قراءتـه الـسابقة للقـرآن، لتهديـه إلى الحقيقـة في سعيه لتفسير الحـوادث والنـوازل المتجـددة عليـه في الحيـاة والتـاريخ، ذلـك باعتبار أن الوحي «القران»، يقدم دائماً وباستمرار عدداً مطلقاً مـن الـدلالات والممكنات، بما يوجه ويهدي المستجدات والمتغيرات في الواقـع التـاريخي في صيرورته المتغيرة، لكونـه المـصدر الخالـد والمطلـق في التوجيـه والإرشـاد في أيما مكان وزمان، كما تقدم الكلام.

وبطبيعة الحال، هذا الزعم لا يعني إضافة نصوص جديدة على آيات وسور الخطاب القرآني، وإنما يرجع إلى كون الخطاب القرآني، كلام الله، ذا دلالة مطلقة مستوعبة ومتجاوزة لوقائع الحياة المتجددة، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩)؛ وباعتبار آخر، فإن الخطاب القرآني يقدم نفسه مشروعاً للرؤية وللكينونة، أي كون الإنسان في العالم والتاريخ، فالعقل، بوساطة تفسير الوحي،يدرك السنن الاجتماعية والطبيعية الكونية، ويتبين الغاية من الوجود وماهيته ومآلاته ومصيره، وكيف يحيا الإنسان فيه حياة راشدة على صراط مستقيم؟، دون أن يضل في الحياة الدنيا ويشقى في الحياة الآخرة.

والوحي في كل حال يعطي كل فرد هدايته وبركته، مهما كانت مشاربه واهتماماته، ومهما كان مستواه العقلي أو الحضاري، ولا يبخل على أحد، بل ولا يحتاج إلى وسيط، فالمسلم بقراءته ما تيسر من آيات الوحي، يتوصل إلى علاقة «وحي» و«إلهام» حميمة تخلق صلة عميقة بالله تعالى، تفسر له الوجود وتحدد له السلوك وتشرح له السنن والقوانين الاجتماعية، التي تهون عليه الحياة، حتى يصير الخطاب القرآني وكأنه لم ينزل إلا لهداية هذا الفرد بالذات: «اقرأ القران كما أنزل عليك»، وهو الأمر الذي يتحول معه القارئ المؤمن المهتدي بهدي الخطاب القرآني إلى حالة بشرية قرآنية ذات خصائص عالية.

ولذلك فإن مما تهدف إليه هذه الورقة هو عرض خصائص السياق العلمي في القرآن، من خلال المفاهيم القرآنية، مع ملاحظات فلاسفة العلم

المعاصرين، والمعضلات التي واجهت بناءاتهم وأنسقتهم العلمية، وبالتالي وقفت وتقف حجر عثرة أمام البحث العلمي الراشد، يكون ذلك بعرض المعضلات من خلال النسق العلمي في القرآن والذي يعتمده الباحث هنا في هذه الدراسة.

ذلك أنه ما من سبيل إلى إحراز إنجاز علمي راشد في عالم اليوم إلا بتجاوز تلك المعضلات الناتجة عن النظرة الثنائية للعلم، بمعنى النظرة القائمة على أساس الزوج العقل والواقع، إلى نظرة ثلاثية الأبعاد تقول بالوحي والعقل والواقع، وبالتالي تجاوز واستيعاب تلك المشكلات التي هي الشغل الشاغل لفلاسفة العلم المعاصرين، ومن ثم الاستناد على نسق الوحي العلمي لمواجهة مشكلات العلم وتساؤلاته المتمثلة حسب «فيرابند» و«كون» و«هانسون» و«بوبر» في النحو التالي[1]:

- إن آراء العلماء (السالفة) تمنع النظرية العلمية بعد النهضة من أن تشكل بديلاً مهماً للنظرية قبل النهضة العلمية.

- إن آراء العلماء في مجال فلسفة العلوم والبحث العلمي تحول بينهم وبين مراجعة اعتقاداتهم السابقة، الأمر الذي يجعل من المستحيل التوصل إلى إنجاز علمي راشد.

- إن وجهات نظر العلماء تظل مليئة بالمشكلات المتعلقة بعلاقة التداخل بين النظرية العلمية وبين ظواهر الواقع لتنتج العلم.

(١) راجع بتفصيل أكثر، عبد القادر، ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم المشكلات المعرفية (بيروت: دار النهضة العربية) ١١١/٢ وما بعدها.

- إنه إذا كانت وجهات النظر المعروضة صحيحة إذن فلن يُتمكن من اختيار أي نظرية أو تكذيبها عن طريق الملاحظات، ذلك أن الملاحظات وتقديراتها لن تقود إلى الرفض العقلي للنظرية العلمية المتضمنة، كما أنها لن تفضي إلى القبول العقلي للنظرية الجديدة.

هذه هي الإشكالات التي يعمد السياق القرآني إلى تجاوزها من خلال تحلّيه بالخصائص التالية:

- الخاصية الأولى: تفسير الوحي للواقع الظاهري:

يطرح معنى الآية في المفهوم القرآني باعتباره الأساس الراشد الذي ينطلق منه العقل في تفسيره للواقع ومن ثم وصفه والتنبؤ بمستقبله، وعلى هذا فإن العلم هنا ليس هو من إنشاء العقل، كما أنه ليس من انعكاس المادة لصالح واجب الاستخلاف؛ ومعنى هذا أن العلم هنا آتٍ من طرف ثالث، يخرج على الزوج الفكر والمادة، العقل والواقع؛ وهو العلم الذي يشرح ويفسر الواقعة الخلقية بما هي في حد ذاتها خارج العقل البشري لا كما يتصورها الفلاسفة ولا كما تقررها تجارب العلماء، وبالتالي فهو المصدر المطلوب ليمد العالم والفيلسوف بالنظرة الأكثر قرباً من الحقيقة الأصلية والمقررة في الوحي الأزلي الخالد المحيط والتي تتكشف بأكملها في اليوم الآخر.

إن العقل كما تقرر الدراسة وحتى يدرك ويحقق في الواقعة الظاهرة فإنه يحتاج إلى واسطة نظرية مطلقة ومحايدة متأتية من خالق الظاهرة لتقرب له حقيقتها وتيسرها له. والحق إن عدم الاعتراف بهذه الواسطة النظرية، أي بالسياق القرآني كمفسر للظواهر ولعالمها، مما يوقع في الكثير من الإشكالات العلمية عندما تنحصر مصادر المعرفة في العقل

والطبيعة فقط، وهي الإشكالية التي وقع فيها الفلاسفة النظريون قديماً كما وقع فيها فلاسفة العلم حديثاً. فالفيلسوف «كون»[1] مثلاً ينكر إمكانية وجود معطيات ثابتة يولدها العالِم أثناء التجديد العلمي، كما أنه يرى أن عالم العلماء محدد بطريقة متصلة بالأفكار السائدة وبالإنجاز والإجماع العلمي، وعلى هذا فـ«كون» يفترض أن الظواهر ذاتها ليست متأثرة بالنظرية وإنما العالِم هو المتأثر، فالواقع يتحد مع النظرية ليكون العالِم؛ وبهذا المعنى - حسب كون- فإنه يمكن القول: إن المعطيات لابد أن تكون متاحة بطريقة محايدة للعلماء خلال التجديد العلمي.

والحق أن هذا الوضع المعرفي - وحسب النسق الغربي للعلم- يخلق مشكلة متداخلة مع القول بوجهة نظر التغير الجذري الملاحظ، وهي الإشكالية التي يصعب الخروج عليها إلا بتجاوز النظر من خلال النسق ذاته لمسألة العلم والمعرفة، ذلك أنه تظهر عدة تساؤلات متعارضة[2] إذ كيف يمكن للتقليد العلمي المعتاد أن يعمل في الواقع ويغير فيه ليشكل بالتالي عالم العلماء؟ وكيف يمكن للنماذج أو النظريات أن تتداخل مع الواقع المألوف لتنتج المعطيات؟ وما طبيعة هذا التداخل؟ وما الذي يحدث عندما تنشأ معطيات جديدة؟ وإذا كانت هذه المواضيع مركبة فهل يكون المركب إذن في المشاهدة؟ وهكذا يظل السؤال قائماً: ما العلاقة بين الفكر والواقع، والواقع بالفكر، وأيهما يؤثر في (الآخر) ويوجهه؟ وكيف

---

(١) راجع بتفصيل أكثر كون شارس كون، تركيب الثورات العلمية، ترجمة ماهر عبد القادر (بيروت: دار النهضة، ١٩٨٤م) ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) راجع بتفصيل أكثر المصدر السابق، نفس الصفحة.

يكون هذا التأثير والتوجيه؟ وما هي درجته؟ ولماذا يؤثر أحدهم في الآخر؟ وغيرها من الأسئلة.

وهي الأسئلة التي انقسمت حيالها المدارس العلمية والفلسفية إلى قسمين: الأولى تقول بأولوية الفكر على الواقع، والثانية تقول بأولوية الواقع على الفكر، دون أن يسلم أيّ من الاتجاهين من النقد، وبالتالي القول بالتبريرات التي لا تجد سنداً منطقياً. فوقع القائلون بأولوية الواقع في الدور المنطقي الذي يستحيل إثباته، بينما وقع الاتجاه الآخر بالقول بالأفكار الفطرية التي تقدم خطؤها؛ وعند الباحث أن المشكلة يتم تجاوزها إذا اهتدى العقل بالوحي في نظرته للواقع الظاهري من خلال دلالات الهداية الواردة فيه.

بيد أن هذا الاتجاه، الذي تتبناه هذه الورقة، في تبنيها للنسق القرآني كإطار نظري في فهم الظاهرة الواقعية قد يتعرض للنقد الذي مفاده أنه ليس بالضرورة أن كل القضايا العلمية الموجودة في الكون وذات مغزى هي قضايا مثارة في السياق القرآني، بمعنى أن العالِم الذي ينطلق من الوحي كسياق نظري إنما تنحصر اهتماماته في التساؤلات والاهتمامات التي يهتم بها الوحي، والعكس ليس صحيح، والحق أن الأمر كذلك عند الباحث، فمنهج البحث العلمي الذي تقرره الدراسة في الانطلاق بفرضيات علمية من الوحي المنزل لهو منهج يهتم ابتداءً بمدى أهمية القضايا والبيانات العلمية المطلوب دراستها حتى تقرب أكثر من غيرها، من المعطيات والبيانات الأخرى، إلى الحقيقة الحقيقية للوجود.

وليس معنى هذا أن الدلالات غير المثارة في الوحي قد لا توصل إلى الحقيقة ولكن الدلالات والقضايا المثارة هي الأهم في الاقتراب منها. ذلك

أن الفاعلية والدلالة العلمية للوحي القرآني ليست عبارة عن سرد أعمى أو تراكم آلي للحقائق، كما في بعض المدارس والاتجاهات العلمية، وإنما الحقائق والعلوم في السياق القرآني هي حقائق وعلوم انتقائية تمثل الحقائق والعلوم الأكثر أهمية، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥)، ويرجع ذلك في تقدير الباحث إلى قيمتها الذاتية الأزلية الخالدة من جهة، وإلى أنها دلالات تشكل الأدوات الأكثر فاعلية من الجهة الأخرى، وبالتالي تجعل السياق القرآني ومن ثم المنطلقين من دلالاته يتحملون مسؤولية الأخطار والابتلاءات الراهنة للمعرفة العلمية في العصر الراهن وفي كل عصر قادم، تماماً كما تحملها بالنسبة للعصر الذي نزل فيه أول مرة.

إن الوحي إذن يهتم بمدى أهمية القضايا المثارة على صعيد وظائف العلم أكثر من اهتمامه بعدد الوقائع التي تؤيد هذه النظرية أو تلك، وعلى هذا فإن الباحث يعمد إلى البحث عن مغزى وغاية المشكلات العلمية ومدى أهميتها، وليس عن عدد الوقائع الكونية المؤيدة لنظرية بعينها، ومن هنا فإن أهمية النظريات العلمية تأتي من قدرتها على تأليف إجابات تكون حلولاً ذات مغزى للمسائل المثارة، وهي الأهمية التي يقررها كون القضية أو التساؤل العلمي مثاراً في الوحي أم لا؟ وما هو وجه إثارته؟ وما درجة أهميته بالنسبة للتساؤلات الأخرى في الوحي؟ يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢).

وفي هذا السياق يأتي التوجيه بالاكتفاء بتساؤلات الوحي دون الخروج عليه، وهو السياق الذي يقرره قوله تعالى مخاطباً الذين آمنوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (المائدة:١٠١- ١٠٢).

وليس معنى هذا أن النسق القرآني مصدر يعاني من الانغلاق طالما أنه يهدي للتي هي أقوم، أي يهدي العلماء مباشرة إلى القضايا التي توصلهم للتي هي أقوم؛ وهل يبحث العلماء إلا عن هذا؟ يقول تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ:٦)، فضلاً على كونه نسقاً لا يخلق عن كثرة الرد، ولا تشبع منه العلماء، كما تقرر، فهو يمد العالِم بدلالات لا متناهية عن حوادث العالم المتناهية، ولكن في سياق أهميتها ومغزاها، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩)، ويقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:٣٨).

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن اعتماد النسق القرآني في تفسير عالم الظواهر يستدعي القول بالنية الموجِّهة، التي تثير العالِم وتصبغ مفاهيمه عند النظر لأيٍّ من مشكلات عالم الظواهر، وتكون عنده مشكلة أولية يجب بحثها وهي المشكلة التي تسبق خطوات البحث الثلاث وتوجهها، أي التأويل والتجريب والتصديق، بيد أن هذه النية الباعثة ليست

مجرد اعتقاد شخصي يخص هذا العالِم أو ذاك وإنما هو توجيه صادر من النسق العلمي ذاته، كما تقدم القول، سوى أن مفهوم التوجيه القرآني بحسب نوع الخطاب الذي يرد فيه، مما يستدعي هو كذلك القول بمبدأ الإيمان، الإيمان بمصدر الدلالات والتوجيهات، وتصديقه كمصدر للقضايا والحقائق العلمية ذات الأهمية المطلوب بحثها وتجريبها دون غيرها من المشكلات، معنى هذا أن مبدأ الإيمان يعمد إلى جعل الوحي هو المصدر والنسق العلمي بألف ولام العهد، لا أي نسق آخر، وهو الأمر الذي مرده إلى إعجازه، أي إلى إعجاز السياق القرآني.

هذا المفهوم عن الإيمان هو الذي يبرر مدى التلازم بين مفهومي العلم والإيمان؛ فالعلم الحق يكون بالنسق الحق، وبالتالي الانطلاق منه، وهو التلازم الذي يظهر في كثير من آيات القرآن، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران:٧)؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (يونس:٩)؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ ...﴾ (الروم:٥٦)؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة:١١).

وعلى هذا ، فإن قيمة النسق القرآني تتأتى عند الوقوف منه ، من قبل العلماء، موقف الإيمان والتصديق بكل ما جاء به وعرض من قضايا ومشكلات؛ معنى هذا أن العلاقة بين العلم والإيمان هي علاقة جدلية ، فالعلم قد يؤسس الإيمان عند من لا إيمان له، كما أنه يرسخ ويزيد إيمان من له إيمان مسبق.

- الخاصية الثانية: السياق القرآني وتجاوز مفهوم الاعتقاد البشري:

من الثابت عند الباحث أن قضايا العلاقة بين العلم والخبرة والاعتقاد الخاص بالعلماء، المتعلق بالخبرة والملاحظات، قضايا تثار أكثر ما تثار عندما يتعلق الأمر بمصادر العلم ذاته وميزاته، بمعنى تلك القضايا التي تميز العلم، حسب المفهوم القرآني، عن مصادر المعرفة البشرية الأخرى، ذلك أن مصادر البشر المعرفية مثل العقل أو الخبرة مصادر يغشاها الظن والاحتمال، وبالتالي فإنها تؤسس على الاعتقاد؛ في حين أن المصدر المستقل بالعلم والنظريات العلمية مثل الوحي المنزل والمعجز لكافة المصادر البشرية من جهة كونه الحق المطلق، كما تقدم، مما يرفع الخلاف ويحل الإشكال حول مسألة الاعتقاد ، ويقوم على مبدأ الأيمان بالوحي وبالكتاب، بمعنى أن الإشكال الذي يواجهه فلاسفة العلم، أي إشكال مراجعة الاعتقادات، إشكال ينتج عن الاستناد على مصدري العقل والخبرة كمصادر نهائية للعلم اليقيني عندهم، وبالتالي لإحداث النهضة العلمية الشاملة والراشدة.

في حين أن الاستناد على مصدر مطلق ومحايد ، هو هنا السياق القرآني وهو الخالد والمحيط والمستقل في تفسيره لعالم الظواهر عن الظروف العلمية والبيئة العلمية التي توجه العلماء في بحوثهم العلمية، فإنه على هذا غني عن الأخذ بمبدأ الاعتقاد ، ذلك أن الإفادات القرآنية في أي من القضايا

العلمية محل الدراسة، سوءاً قبل أو بعد التجديد العلمي، هي إفادات صادرة عن الوحي المنزل، وبالتالي غير متأثرة بظروف التجديد ذاته، هذا فضلاً على كون السياق القرآني مصدراً لا يعاني من الاختلاف والتناقض في بنيته الداخلية وفي رؤيته ومنهجه الخاص في البحث العلمي، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

معنى هذا أن مشكلة الاعتقادات الخاصة بالعلماء وتغيرها تُحل عندما يتوفر للعالِم مصدر خارجي محيط وصادق تستخرج منه الفرضيات والنظريات العلمية، التي تفسر عالم الظواهر، كما هو في حد ذاته خارج عقول العلماء واعتقاداتهم الخاصة؛ يكون هذا متى ما تحصلنا على منهج التأويل الصحيح للدلالات القرآنية واستخراجها، ومتى تحققنا من هذه الإفادات بوساطة الخبرة وقمنا من بعد بمصادقة نتائجها بالدلالة العامة للنسق ذاته، أي بالدلالة العامة للنسق القرآني المنزل، كما تقرر ذلك سابقاً. هذا الاستناد على العلم القرآني يعطي التجديد العلمي رشده المطلوب، وتصبح معه مسألة مراجعة الاعتقادات مسألة لا مكان لها في النظرة الإسلامية.

هذه المسألة التي يتم تجاوزها هنا عند شرح بنية النسق العلمي في القرآن نجدها قد أعيت فلاسفة العلم المعاصرين باعتبار أن آراء العلماء تمنعهم من مراجعة العالم لاعتقاداته الأساسية من خلال الملاحظة إنما هو مراجعة لاعتقاده هو وليس مراجعة اعتقاداتهم في مقابل التجربة.. «فهانسون» مثلاً

يقف موقفاً مفاده أنها مراجعة لما شاهده في ذلك الوقت[1]. وهو موقف مطابق لموقف «فيرانيد» في ذات القضية، إذ يذهب إلى أنه من بين النظريات البديلة فإن كل نظرية سوف تفرض خبرتها الخاصة، ولن يكون هناك تداخل بين هذه الخبرات. كذلك فإن الفيلسوف «كون» يعتقد أن العلماء بعد التجديد العلمي يعملون في عالم ملاحظة مختلف، وأن ما خبروه قد تغير.

ويمكن شرح موقف هؤلاء على النحو التالي: أنه إذا قُبلت النظرية العلمية «ل» إذن فإن الخبرة منها هي «ل١»، هذه الخبرة الأخيرة ستختلف حتماً عن ما يمكن خبرته إذا قبلت نظرية علمية بديلة. فكيف إذن يمكن وبوساطة «العقل» أن تراجع النظرية والاعتقاد ليكون حول ما نحن على خبرة به؟

إن فلاسفة العلم هؤلاء يذهبون إلى أنه منذ اللحظة التي غيرنا فيها اعتقاداتنا فيما يتعلق بملامح الخبرة الأساسية فإنه سوف تتغير الخبرة ذاتها، وبالتالي من المستحيل مراجعة الاعتقادات الأساسية حول ما نحن قادرين على خبرته الآن، هذا فضلاً عن أن هذه المراجعة لن تجعلنا على حالتنا من الاعتقاد في الخبرة الراهنة. معنى هذا أن العالم، حسب رأيهم، إنما يراجع اعتقاداته الأساسية حول الخبرة السابقة في أي وقت وليس حول ما يخبره في أي وقت، وهنا يكون الإشكال العلمي بالنسبة للنسق العلمي الغربي القائم على أساس علاقة الزوج العقل/الواقع، وهي العلاقة التي تسعى الدراسة لتجاوزها من خلال التصور القرآني للعلم. ذلك أنه إذا كانت هذه الاعتقادات علمية فإنه لابد من تأكيدها أو تكذيبها، كما أنه لا بد وأن تعبر عن

(١) راجع بتفصيل أكثر، ماهر عبد القادر، مصدر سابق، ص ١١٢ وما بعدها.

الصدق تجاه ما نجده الآن، أما إذا كانت لا تعني شيئاً فإنه عندئذ لا يمكن تأييد هذه الاعتقادات أو تكذيبها.

والحق أن المفهوم حول الاعتقاد الذي يقدمه فلاسفة العلم ليس علمياً تماماً ولا يعبر عن الصدق حول ما يمكن أن نخبره الآن، حسب النسق العلمي في القرآن، ذلك أن هذه الاعتقادات التي لدى العلماء هي اعتقادات تتأثر بأفكار الشباب والبيئة والإجماع العلمي السائد، وبالتالي فإن المفاهيم الواردة عنها ليست بالضرورة مفاهيم نهائية وخالدة، بل هي وليدة الإجماع العلمي والفكر العلمي المسيطر، وبالتالي فهي وليدة ظروف محددة، وهو الأمر الذي لا يعطيها درجة الإطلاق والإحاطة المطلوبة لإنجاز التجديد العلمي الراشد المنشود.

والواقع أن قضية العلم وعلاقته بالاعتقاد من القضايا التي ناقشها الفلاسفة المسلمون، كما سبق القول، «فالمعتزلة» كانت ترى أن العلم ليس شيئاً آخر سوى الاعتقاد، وهو التعريف الذي رفضه «الغزالي» مؤكداً أنه ليس كل اعتقاد هو من باب العلم الحقيقي بل قد يكون الاعتقاد علماً في وقت ما وقد لا يكون علماً مطلقاً. فقد يُعتقد أن الطارق بالباب هو زيد بينما هو عمرو، وهكذا.

وعند الباحث، أن المفهوم القرآني يطرح مفهوم الإيمان ليتجاوز ويستوعب في آن مفهوم الاعتقاد المسيحي الجذور، باعتبار نوع المصدر في كلٍ؛ فالاعتقاد يكون متعلقاً بالرأي الفردي لهذا الشخص أو ذاك، بينما الإيمان يتعلق بالكتاب المنزل، وهو من عند الله تعالى.

- الخاصية الثالثة: اتساق التجديد العلمي عبر السياق القرآني:

إن جانباً من رشد البحث العلمي إنما يتأتى عندما تؤخذ الافتراضات العلمية المطلوبة وتستقى من السياق القرآني ومن دلالاته اللامتناهية وفقاً لمنهج تأويلي صحيح الدلالات، وهو الأمر الذي يضمن للافتراضات العلمية الأولية الاتفاق والتوحد وعدم الاختلاف فيما يتعلق بدور أي فرضية وأخرى في إحداث التجديد العلمي الراشد. هذه الميزة للفروض المستقاة من الوحي تنبع من كون الوحي المنزل، مصدر الدلالات والافتراضات، هو مصدرٌ، يتميز برؤية ومنهج وأدوات علمية متسقة وتوحيدية في تناولها لقضايا الإنسان والكون والعالم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الوحي يقدم إفادات تفسيرية صادقة حول الظواهر محل الدراسة والتجربة، مما يعطي الخبرة المؤسسة على إفادات الوحي مصداقية خاصة في عرض الوقائع والتقرب من معرفة حقيقتها وفقاً لمنهج البحث، وهي النظرة الإلهية لما يمكن أن تكون عليه الحياة على الأرض بعد عرض ما هو كائن منها، هذا الامتياز يوحد بين النتائج العلمية لهذه النظرية أو تلك بهذا الافتراض القرآني أو ذاك، قبل وبعد التجديد العلمي، بل ويجعل النظريات تؤكد وتعضد بعضها بعضاً وفقاً للمثال الأعلى للصلاح والخير، في تجديدٍ علمي شامل يتجه نحو مثله العليا المذكورة، دون تناقض أو تناسخ.

وعلى هذا فإن النظريات العلمية التي تتأسس على الدلالات القرآنية غير المتناهية تظل متآزرة ومتجددة دوماً أكثر فأكثر، بما يقرب من الحقيقة الحقيقية للظاهرة الطبيعية ولما وراءها من الغيب المستور، دون

الإحساس بأن هناك ثمة مشكلة تتعلق بكون إحدى النظريات بعد التجديد العلمي ليست بديلاً للنظرية العلمية قبل التجديد العلمي.

وهي المشكلة التي واجهت فلاسفة العلم المعاصرين على النحو التالي:

إن النظرية «ل٢» بعد التجديد العلمي ليست بديلاً للنظرية «ل١» قبل التجديد العلمي، ذلك أن فلاسفة العلم مثل «كون» و«هانسون» و«فيرابند» يرون أن النظرية «ل١» تحدد الخبرة «ك١»، وهذه الخبرة مختلفة عن الخبرة التي تحددها النظرية «ل٢» في الخبرة «ك٢»، فمثلاً «فيرابند» يقبل الموقف المتغير من الملاحظة، ويعتقد في المبدأ الذي يقول: اخترع، استخلص النظريات غير المتسقة مع وجهة النظر السائدة حتى إذا كان لوجهة النظر السائدة ما يؤيدها ويجعلها مقبولة بصفة عامة[1].

وهنا يكون الإشكال العلمي وفقاً لنظرة الزوج العقل/ الواقع، ذلك أن العالم الذي يقبل النظرية «ل١» على اعتبار أن لها بعض الجوانب التي لا تتفق فيها مع الخبرة «ك١» التي ليست متفقة مع قبول العالم للنظرية «ل٢»، والسبب في هذا أنهما لا يتحدثان عن نفس الخبرة أو عن نفس العالم، ولأن كل عالم من العلماء يتحدث فحسب عن خبرته الخاصة. ومن ثم فإن الاعتقادات حول الخبرة وحول العالم ليست إذن اعتقادات جديدة، وهنا لا يمكن القول: إن النظرية «ل٢» ليست بديلة للنظرية «ل١».

وبتعبير آخر يمكن القول: إن النظرية «ل١» ليست بديلاً للنظرية «ل٢»؛ لأن النظرية «ل٢» تتحدث عن شيء مختلف تماماً هو «ك٢» بدلاً من «ل١» التي تتحدث عن الخبرة «ك١»، وعند هذه النقطة فإن ما يحدث لا يمثل

(١) راجع بتفصيل أكثر، المصدر السابق، ص ١١٤.

اعتقادات بديلة؛ لأن العلماء يشاهدون أشياء مختلفة، ومن ثم فإن آراءهم الخاصة حول هذه الأشياء ليست آراء بديلة. كذلك الأمر عندما يختبر عالم من العلماء خبرات خاصة لأشياء مختلفة عن خبرات عالم آخر. معنى هذا أن الاعتقادات التي سيعبران عنها سوف تعبر بالضرورة عن أشياء الخبرة وليست بالضرورة اعتقادات بديلة[1].

والواقع أن هذا الإشكال الذي يناقشه هؤلاء يظل صحيحاً طالما تأسس العلم على اعتقاد العلماء وتأثر بوجهة النظر السائدة فيما يتعلق بالموقف من النظرية العلمية قبل وبعد التجديد العلمي. وعند الباحث، إنه إشكال يكون تجاوزه بالقول بضرورة وجود «نيَّة موجِّهة» توجه البحث والمنهج العلمي وتشكل إثارة دائمة للعلماء، وهي النية التي تصبغ العالِم بهمومها ومسائلها عند نظره في أي من مشكلات عالم الظواهر لتكون عنده نية أولية تسبق خطوات البحث الثلاث، أي التأويل، التجريب والتصديق.

بيد أن هذه «النية الموجِّهة» والهادية في ذات الوقت ليست مجرد اعتقاد شخصي يخص هذا العالم أو ذاك ولا هي وليدة البيئة المُشكِّلة له وإنما هي وليدة وصادرة عن السياق القرآني ذاته، كما رأينا من قبل، يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:١٠١)، وغيرها من الآيات. سوى أن مفهوم التوجيه القرآني الموجِّه للعلماء يستدعي القول بمفهوم ومبدأ الإيمان، الإيمان بمصدر الدلالات، أي الإيمان بالوحي وتصديقه كمصدر للقضايا والمشكلات العلمية ذات الأهمية المطلوبة.

---

(١) راجع بتفصيل أكثر، المصدر السابق، ص١١٤.

- الخاصية الرابعة: خلود العلم القرآني وتجدد معانيه:

لقد تقرر سابقاً أن تقرير الملاحظات حول صدق وكذب النظريات العلمية إنما يكون تقريراً ظنياً لا يفيد العلم اليقيني، ذلك أن الافتراضات المسبقة عن الملاحظات تكون طوعاً للجزئيات العلمية في أي وقت طالما حَكَم النسقَ العلمي مُحددي العقل/الواقع؛ وإلى هذا الرأي يذهب «هانسون» من فلاسفة العلم المعاصرين، معنى هذا أن الملاحظة وتقاريرها لن تفضي إلى الرفض العقلي للنظرية العلمية، كما أنها لن تحصل القبول العقلي لأي نظرية جديدة.

هذا القول لا يعني أن معطيات وبينات الملاحظة ليست محايدة بل هي معطيات محايدة ومقدرة، كما هي في حد ذاتها خارج الذهن البشري من جهة كونها جزءاً من الآيات المنصوبة في الكون، مما يجعلها من المتطلبات الأساسية لبناء المنهج العلمي. أما غير الثابت فيها فهو إدراك العلماء لها والذي يتشكل وفقاً للافتراضات المسبقة لهم ولاعتقاداتهم، الأمر الذي يعني أنه إذا جاءت الافتراضات من مصدر محايد ومطلق كذلك عن أذهان العلماء، هو هنا السياق القرآني، فإن البناء المنهجي العلمي يجد دعامته الأساسية الثانية، وبالتالي فإن العالم يستطيع التحقق من صدق وكذب النظريات العلمية الناتجة عن الفرضية والمعطيات المحايدتين باعتبار أن السياق القرآني المحايد هنا هو عينه معيار التصديق والتكذيب.

والحق أن الأمر كذلك، من خلال النسق العلمي في القرآن الذي تقرر خلوده العلمي وعدم تبدله أو تغيره، كما أن معانيه في ذات الوقت معاني

متجددة بتجدد الأفهام واختلاف الزمان والمكان؛ معنى هذا أن الكثير من البينات العلمية تظل قابلة للتعاقب والتكرار من الناحية التجريبية، فلفظة «الملائكة» مثلاً لا تعني شيئاً مختلفاً اختلافاً كلياً بالنسبة لأناس عاشوا في القرون السابقة منسوبة لمدلول ذات الكلمة بالنسبة للعصر الراهن.

إن كون كلمة «ملائكة» هي معنى ومعطى وبينة محايدة توجد خارج العقل العلمي فهو أمر مقرر، أما مدلولها من خلال الملاحظة عند العلماء فهو الأمر غير الثابت؛ ولذلك ليس من الضرورة أن يكون ما يدركه العلماء عن كلمة «ملائكة» هو معنى مكافئ ومطابق لها، إلى الدرجة التي تمكن من تأييد أو تكذيب نظرية عنها، الأمر الذي يعني أن الانطلاق في البحث عن ماهية «الملائكة» دون الاستناد على مصدر تعريفي محايد آخر[1] في وصفها وتفسيرها أمر يفتح الباب لإنتاج نظريات مختلفة حولها، تنتج خبرات مختلفة أيضاً عن «الملائكة»؛ ذلك أن قدرة الخبرة على التأييد والتكذيب إنما تتغير بتغير النظرية المعنية وبالطرق التي اتبعتها في التقسيم والتنظير والفقه وبالتالي بتغير التفسير والوصف؛ معنى هذا أيضاً أن الخبرة نفسها نظرية محتملة.

إن المطلوب في المنهج العلمي دعامتان محايدتان إذن، أولاهما المعطيات والبينات في الملاحظة، وهي المنتشرة في الكتاب المنظور؛ وثانيتهما أن هذه المعطيات والبينات تكون متسقة مع الفروض العلمية المحايدة والمناسبة للمعطيات والتي تستقى من المصدر المعرفي المحايد، أي من الكتاب المنصوص.

(١) راجع الآيات التي تحدثت عن طبيعة الملائكة في القرآن.

إن القضية إذن تتعلق بالنسق العلمي والنظرة التي يعالج بها العالم قضاياه، فإن خبرات العالِم يمكن تأييدها وتكذيبها بتصديقها بآيات النسق العلمي في القرآن، وبالتالي قيام التجديد والكشف العلمي المنشود والراشد.

والحق أنه لما كان المصدر المحايد للحقائق العلمية هنا هو السياق القرآني، وهو الذي يتصف بالخلود والإحاطة فإن ثمة خاصية أخرى ترافقها وهي خاصية تجدد دلالات الكلام الإلهي، أي تجدد دلالة الحدود التي ترد فيه بالنسبة لأذهان العلماء؛ إلا أنها في ذات الوقت تظل حدوداً وكلمات تحمل جذراً لغوياً واحداً لا يتغير ولا يتجوّز، أي لا يتحول إلى مجازيات، بيد أن هذا المفهوم هو على خلاف ما ذهب إليه فلاسفة العلم المعاصرون في مذهبهم في المعنى الجذري المتغير؛ إذ يذهب دعاة المعنى الجذري المتغير من أمثال «كون» و«هانسون» إلى أن الحدود التي ترد في القضايا تختلف اختلافاً جذرياً.. فما هي المعايير وما هي الحجج التي يناقشون بها مذهبهم في المعنى الجذري المتغير؟ وما مدى مقارنته بالموقف من الحدود داخل النسق النظري القرآني ذي الخلود والتجدد؟[1]

ينهض موقف المعنى الجذري المتغير على حجة أساس مفادها أن الحدود لا تملك معنى بمقتضى صورتها الخاصة بمعزل عن السياق الذي ترد فيه، ومعنى هذا أن المعنى الذي تكسبه الحدود داخل النسق إنما يكون بالإشارة إلى وظيفتها النسقية داخل النسق النظري ذاته؛ فمعنى الحد يعتمد على النظرية وعلى موضعه فيها. وإذا تغيرت النظرية فإن موضع الحد يتغير بالنسبة للحدود الأخرى وبالتالي يتغير معناه.

---

(١) راجع بتفصيل أكثر: ماهر عبد القادر، مصدر سابق، ص ١٢١.

وعلى هذا، عندهم، إنه عند تبني نظرية جديدة فإنه يلزم إعادة تحديد أدوار الحدود النظرية وحدود الملاحظة؛ هذا التغير عندهم إنما يكون تغيراً جذرياً في المعنى، الأمر الذي يعني استبعاد إمكانية القيام بمقارنات مهمة بين النظريات المختلفة من خلال الرجوع لنوع ما من المشاركة في المعنى للحدود المستخدمة؛ بمعنى أن النظرية الجديدة تكون غير متسقة مع، أو على اتفاق، أو هي بديل، أو ترتد إلى، أو متسقة من، أو نحو ذلك[1] من نظرية أخرى؛ فعندهم أن هذه المقارنات ليست ممكنة بالرجوع إلى معاني الحدود المستخدمة في نظريتين، ولهذا فهم يفضلون المبدأين التاليين:

الأول: أن معنى أي حد علمي يعتمد على السياق النظري الذي يرد فيه.

الثاني: أن معنى أي حد علمي يرد في نظرية سوف يتغير جذرياً إذا تعدلت تلك النظرية.

وفي الواقع، إن المبدأ الأول يجد معقولية إلى درجة كبيرة، كما تقرر ذلك عند تناول منهج التأويل، فمعنى حدٍ ما لا يعرف إلا في السياق النظري الذي يرد فيه، وبما يرد في السياق من ملاحظات واشتراطات وقرائن لفظية، وهو على هذا يمكن أن يتغير معنى الحد في سياق ونسق نظرية أخرى، بعبارة أخرى: أن الحدود لا يُعرف معناها إلا في سياق النظرية التي وردت فيها، حتى يعرف المقصود والدلالة العلمية لها، ذلك أن اللغة البشرية هي لغة نسبية في التعبير عن الواقع، ولذلك فإن معرفة الحدود تكون بوساطة الاشتراطات وملاحظات النظرية؛ فالحد المطلق من جميع القرائن والقيود لا أساس له ولا رصيد له في الواقع، إذ لا يدل على شيء موجود في الخارج.

(١) راجع بتفصيل أكثر المصدر السابق، ص١٢٢ .

ولكن، ليس معنى ذلك، كما يشترط هؤلاء الذين يأخذون بفكرة المعنى الجذري المتغير القائلة: إن قبول المبدأ الأول يفترض قبول المبدأ الثاني، ذلك أن المعنى ليس وظيفة للتكوين النسقي الإنشائي للنظرية فحسب، فالمعاني قد تكون متغيرة بالنسبة لنظرية ما معطاة، أي إنها نسبية، ومن ثم يمكن رفض الاعتقاد القائل: إن الحدود في النظريات المختلفة لا تشترك في نفس المعنى، الذي يشترط علاقة تناظر المعاني واحداً بواحد، وما يحدث من تغيير يكون رهيناً بالشروط والقرائن المصاحبة، وليس تغيراً جذرياً كاملاً للمعنى. وبالتالي فإن المبدأ الثاني لا يترتب بالضرورة على المبدأ الأول[1].

بيد أن هناك مواقف واتجاهات كثيرة حول نظرية المعنى والحد، وأبرز هذه الاتجاهات تظهر في جانبين اثنين: الاتجاه الأول، يتمثل في المعنى وامتلاك المعنى. والاتجاه الثاني، يتمثل في معنى الترادف، امتناعه وعدم امتناعه، في الاستخدام اللغوي؛ وهو الجانب الذي يتضمن المبدأ الثاني.. ولكن يبقى السؤال: كيف يكون لحدين مختلفين نفس المعنى؟ ولعل هذا التحديد لمحل النزاع على هذا النحو يمثل الإشكالية الأشهر التي شغلت الفكر الإسلامي قديماً، ألا وهي إشكالية دلالة الألفاظ على المعاني، بيد أن هذه المسألة قد أثيرت قبل هذا التاريخ بكثير وبمداخل متعددة حول الظروف التي يكون فيها لحدين في اللغة البشرية نفس المعنى[2].

فالمدخل الأول، وهو أقدمها، هو المدخل الإفلاطوني في نظرية «المثل»، التي تذهب إلى أنه يكون لحدين نفس المعنى إذا وإذا فقط استخدم الحدان

(١) راجع بتفصيل، المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) راجع بتفصيل أكثر، المصدر السابق، ص ١٢٢ وما بعدها.

للإشارة لنفس الماهية؛ أما المدخل الثاني فيقرر أن لحدين نفس المعنى المراد إذا وإذا فقط استخدم الحدان للتعبير عن نفس الصورة العقلية؛ وأما المدخل الثالث فيقرر أن لحدين نفس المعنى إذا وإذا فقط لم يكن بالمقدور تصور شيء ما يشبع الحد الأول ولا يشبع الحد الثاني؛ وأما المدخل الرابع فيقرر أن لحدين نفس المعنى إذا وإذا فقط لم يكن هناك شيء يشبع الحد الأول ولا يشبع الحد الثاني؛ في حين أن المدخل الخامس يقرر أن لحدين نفس المعنى إذا وإذا فقط كان لهما نفس «الما صدق»، كذلك نجد «كولين» و«توجمان» وهما يؤسسان مفهوم «الما صدق» على المعنى المتغير ويستنتجان أنه لا يمكن القول: إنه لا يوجد مرادفان تماماً، ومع ذلك فهما يقبلان بالفكرة القائلة: إن الترادف في المعنى يكون لدرجة ما.

وللورقة أن تقول مع «ابن تيمية» فيما يتعلق باللغات البشرية حين يقول: نجد أن أحدهم يأتي إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيدة فينطق بها مجردة من جميع القيود، ثم يدعي أن ذلك هو حقيقتها، من غير أن يعلم أنها نُطق بها مجردة، ولا وُصفت مجردة، مثل لفظ الرأس، يقولون: هو حقيقة في الإنسان، ثم قالوا: رأس الدب لأوله، ورأس العين لمنبعها، ورأس القوم لسيدهم، ورأس الأمر لأوله، ورأس الشهر ورأس الحول، وأمثال ذلك على طريق المجاز، وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجرداً بل يجدون أنه استعمل بالقيود في رأس الإنسان[1].

فالواقع أن الألفاظ والحدود لا يُنطق بها مجردة هكذا، وإنما يُنطق بها مقيدة بالقرائن، وهذا التقييد هو الذي يحدد المعنى، المقصود من الحد

(١) راجع بتفصيل، تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، ٩٨/٧.

المعني، في حين أن التجريد اللغوي المطلق للألفاظ لا وجود له في اللغة، هذا فضلاً عن أن الجذور اللغوية للمفردات اللفظية في اللغة هي محددة، على كل حال، وإنما تأتي القرائن والسياقات النظرية ومراد المتكلم فيحدد المقصود من الكلام.

وعند الباحث أن المسلّمات في اللغة البشرية إذا اشتركت في الحد واتفقت على كل وجه تماماً كان ذلك هو التماثل، وإذا اشتركت في الحد وفي المعنى، مع وجود التفاضل بينها كان ذلك تواطؤ بينها في المعنى، وإذا اشتركت في المعنى مع اختلاف في الحدود كان ذلك هو الترادف، أما إذا اشتركت في الحد فقط مع اختلافٍ في المعنى كان الاشتراك بينها لفظياً فقط، وليس له دلالة علمية.

والملاحظ أن الاختلاف والتأثير على المعنى وبالتالي على النظرية إنما يقع أكثر ما يقع في الكلمات المتواطئة والمشتركة؛ لأنها متفقة في الحد متفاوتة ومختلفة في المعنى، الأمر الذي يجعل استعمال العالِم للحد في أكثر من معنى مما يوقع في اللبس، فيضطر إلى القبول بمبدأ المعنى الجذري المتغير، أو يتوسط فيقول بالقدر المشترك بين المعنيين.

إن الحد الواحد في اللغة عند البشر قد يطلق على معنيين متباينين أو أكثر في المعنى ليس بينهما معان مشتركة، أو قد يطلق على معنيين لوجود قاسم مشترك بينهما في المعنى. وعلى هذا فإن الحدود قد تحمل أقداراً مشتركة بين النظريات، على عكس ما ذهب إليه دعاة المعنى الجذري المتغير؛ ذلك أن الحدود المستخدمة في أكثر من معنى تكون رهينة إزاء القدر

المشترك بين النظريات البشرية والذي يظهر في النسق العام لكل نظرية، وهو بالتالي ليس معنى جذرياً متغيراً من نظرية إلى أخرى، وهو ما تطلق عليه الدراسة مفهوم «التواطؤ بين الحدود».

فالحد قد يُطلق على هذا المعنى وعلى ذلك، فالعبرة تكون بالاستخدام العام والسياق الكلي والقرائن والملاحظات المصاحبة له. وعلى هذا فإن المخرج من المشكل وتجاوزه يتعلق وفي المقام الأول بمقصود المتكلم ومراده لا في الدلالة الجزئية للحدود على المعاني المقصودة، أي يظهر من خلال النسق العام والنظم الكلي للكلام، واستخدام الحدود بقدر التواطؤ، وامتناع الترادف، فلا معنى إذن والحال على هذا بالقول بالمعنى الجذري المتغير للعلم.

ومما يؤكد هذا الاتجاه عند الباحث اعتراضان اثنان(1):

الاعتراض الأول: وهو إنه إذا كان مذهب المعنى الجذري المتغير صحيحاً فإنه لن يمكن اختبار أو تكذيب أي نظرية علمية عن طريق الملاحظة وتقديرها. فإذا كانت هناك مثلاً الفيزياء الكلاسيكية تعبر عن النظرية «ل» وهناك الفيزياء الحديثة عند «اينشتاين» تعبر عن النظرية «ك»، فالعالِم إذا قَبِل الفيزياء الحديثة تحتم عليه أن ينكر الفيزياء الكلاسيكية؛ لأن النظريتين غير متفقتين، وإذا أنكر الفيزياء الكلاسيكية فعليه أن يشير إلى أن تقارير الملاحظة لتجارب العلماء في هذا المجال ليست صادقة وليست كاذبة، فإنه من الصعوبة أن يتبين كيف يمكن اعتبار الملاحظات والتجارب كأساس للقبول الفعلي للفيزياء النسبية بدلاً عن الفيزياء الكلاسيكية؟

(1) راجع، ماهر عبد القادر، مصدر سابق، ص١٢٣.

والحق أن التجربة والملاحظة العلمية تعطي أساساً عقلياً لقبول نظرية أخرى، إلا أن التجربة نفسها لا تقوى على إعطاء تصديق لنظرية ما مع الحق المطلق في المجال المعنى، وهو الذي يتطلب وجود معيار موضوعي ومستقل لتكذيب وتصحيح النظريات؛ هذا الوضع المفقود في الفلسفة المعاصرة للعلم يضاعف من الانتقادات التي توجه إلى دعاة المعنى الجذري المتغير.

الاعتراض الثاني: إنه إذا كان مذهب المعنى الجذري المتغير صحيحاً فإن عالِماً من العلماء يصبح معزولاً عن غيره من العلماء، وبالتالي فالعالِم يعيش في نسقٍ من المعاني خاص به. وعلى ذلك تكون المعاني مختلفة بين العلماء داخل الفترة العلمية الواحدة، وهو الأمر الذي يستحيل معه أن يتوصل عالِم من العلماء إلى فهم نظرية أو اكتشاف علمي آخر في مجال آخر خلال فترة التجديد العلمي طالما أن المعاني، التي يستخدمها كل واحد منهما مختلفة ومتباعدة عن المعاني التي يستخدمها الآخر.

ويترتب على كل هذا فقدان الاتصال بين الأنساق العلمية المختلفة، ويترتب على هذا أيضاً أن النقاش المثمر الذي يدور بين العلماء، الذين يتبنون نظريات مختلفة يفقد معناه من أساسه، ويصبح شأنه شأن حوار الأطرشان، ذلك أن كل عالِم، حسب مبدأ المعنى الجذري المتغير، سوف يكون حبيس معانيه الخاصة، وبالتالي يفقد التجديد والتنافس العلمي معناه، الأمر الذي يؤخر الثورة العلمية الراشدة[1].

(١) راجع بتفصيل أكثر، المصدر السابق، ص ١٢٣.

والحق أن هذه المشكلة، وقد نوقشت هنا على صعيد فلسفة العِلم، إشكالية تثار على مستويات أخرى، لغوية ومعرفية وأصولية وغيرها، وهي إشكالية تظهر بصورة حادة متى ما كان النسق العلمي محل الدراسة مصاغاً ومعبراً عنه بقدرة بشرية نسبية في استخدام اللغة، وبالتالي استخدام الحدود؛ أما إذا وُضع في الاعتبار أن هذه الأنساق العلمية أنساق بشرية تنظر إلى المسألة العلمية من خلال ثنائية العقل والواقع فإن الإشكال يزداد ويتضاعف، في حين أن النظر إلى مسألة العِلم من خلال النسق القرآني، ذي الصياغة اللغوية الإلهية المحيطة والدقيقة، تبين أن دلالة الحدود على المعاني توضع في ضوء سياق آخر، سياق البحث عن مقصود المتكلم ومراد الكلام، لا في دقة وعدم دقة الحدود في التعبير عن المعنى المراد بـ(الذات)، فهذه مسألة مفرغ منها، فمُنْـزِل الوحي هو الأقدر على البيان والإحاطة، يقول تعالى: ﴿... أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥)، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ (الحج:١٦).

وعلى هذا، فإن معاني الحدود في النسق القرآني إنما تُؤخذ من مقصود الكلام، من خلال الأخذ بالسياق العام للآيات موضوعات السور، والقول بامتناع الترادف في اللفظ القرآني بالأخذ بالمنهج الصحيح في تأويل الآيات، كما تقدم القول، ثم يعمد الباحث إلى تجريب دلالاته القرآنية ويصدقها بالوحي مرة أخرى، حتى يتأتى له تصديق أو تكذيب نظرية علمية ما معطاة، وهكذا يفتح الباب واسعاً أمام التجديد العلمي الراشد.

بكلام آخر، إن الاختلاف والتباين يظل موجوداً طالما استند العلماء على نسق علمي بشري أو على مجموعة منها، وهي العاجزة بطبيعة مصدرها، أي العقل أو التجربة، عن بلوغ غاية العلم وسموه كما هو، في حين أن الانطلاق من العلم المُنـزَل، أي من النسق النظري الإلهي المحيط والخالد، لهو الأساس لتجاوز مشكلات الأنساق البشرية واستيعابها، أي تجاوز الاعتقاد ومعيار تصديق النظريات ونحو ذلك، ومن ثم فإن دور العلماء يبدأ من إعادة تجديد فقههم لأشياء العالم من داخل النسق القرآني لا من خارجه.

إن كـون الـسياق القرآنـي نـسقاً علميـاً معنـاه أن العلـم والنظريـات والحقـائق العلميـة الـواردة فيـه تكـون نموذجـاً متماسـكاً، فهنـاك ارتبـاط ووحدة عضوية بين التصورات والمفاهيم الداخلة في إطاره كأنموذج، هـذا من جانب ومن جانب آخر فإن هذا الأنموذج العلمي هو أنموذج خالد ومحايد ومتجدد، كما تقدم القول، ولا نهائي من حيث القدرة على الدلالة العلمية بالنسبة لقارئة والتي تمده بالهداية والرشد المطلوبين للمنهج العلمي.

ومن ثم فإن المحاولات الضخمة في تأويله وامتلاك دلالته النهائية تظل رحلة هائلة نحو الاقتراب من الحقيقة الحقيقية التي نـزل بها ولأجلها السياق القرآنـي، يقـول تعـالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء:١٠٥)، ويقول: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان:٣٣)، وهو الأمر الذي لا يجعل العلماء ينتقلون إلى أنموذج علمي آخر وإنما إلى تجديد وإعادة تجديد فقههم لدلالته غير المتناهية، يقول تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:٢٧).

وبالتالي فإن العلماء يجددون في مجموعة الفروض والنظريات العلمية التي يستخرجونها منه بالقدر الذي يواجهون به مشكلاتهم العلمية محل الدراسة، ليبتدئ عندهم رحلة البحث العلمي بوساطة التجربة والتصديق وسائر خطوات المنهج العلمي، كما تم تقريرها من قبل.

وهكذا، فإن جملة النظريات والفروض العلمية التي تؤول منه تؤثر تأثيراً مباشراً على غاية ومغزى المنهج العلمي، أي غاية الحصول على تفسير أقرب واقتراب أدق من الحقيقة المطلقة الكلية، وبالتالي فإن ما يتم تجديده ومراجعته هو جملة المفاهيم والتصورات التي يتم بناؤها من قبل العلماء، بمعنى مراجعة المسلّمات وأصول الفقه المستخرج وأسانيده من جهة، إلى معرفة وإدراك التغيرات المصاحبة التي تحدثها جملة المفاهيم والتصورات المستخرجة على سائر العلوم الأخرى المرتبطة بالعلم موضوع الدرس في نظرة كلية تنطلق من مبدأ وحدة العلوم وتداخلها، كما تقرر سابقاً.

وهكذا، فإن محاولات التجديد العلمي، طوال التاريخ العلمي، حسب المفهوم القرآني، هي رحلة خلّاقة نحو تحقيق الأنموذج العلمي القرآني في كل فروعه المتعددة، والاندماج بالتالي فيها، مشيِّداً بذلك تصوره الخاص عن جلال الله وعلاقته بالإنسان والعالم ودور الإنسان في هذا العالم، بمعنى أن كل حركة تجديد علمي لتحقيق العلم القرآني في أي زمان ومكان هي محاولة مفتوحة ومتصلة ومتجددة، ويمكنها أن تكون أفضل وأضخم من جملةٍ من المحاولات السابقة لها.

وعلى هذا، فإن العبرة بالنسبة لكل محاولة تجديد تكمن في مدى قدرتها على تحقيق وتحصيل أكثر هداية لدلالات الوحي، وبالتالي في مدى قربها من الله تعالى، وتسخير العالم الظاهري، على النحو التالي:

أن كل محاولة تجديد علمي تستوفي من الدلالات القرآنية ما يمكنها منه اجتهادها ومثابرتها، وعلى هذا فالمحاولات تتفاوت درجاتها في تحقيق مثالات القرآن، في حين يظل الباب مفتوحاً لمحاولات تجديد قادمة؛ وليس معنى هذا أن كل تجربة تبدأ بداية صفرية وإنما تبدأ مستصحبة كل ما في المحاولات التجديدية السابقة.

- الخاصية الخامسة: التخليص من أوهام الأيدولوجيا:

أصبحت مسألة الأيدولوجيا، التي تميز الاتجاهات العلمية الحديثة كالمادية والليبرالية والبراغماتية ونحوها، مسألة تشغل بال العلماء والفلاسفة باعتبارها اتجاهات تلحق بالاكتشافات العلمية وتصبغها بصبغة خاصة؛ بتعبير آخر: إن الأيدولوجيا وما يترتب عليها من مواقف حياتية هي ذات ارتباط بدرجة ما بما تقدمه النظريات العلمية من نتائج، وبالتالي تقرر عليها الأيدولوجيات اتجاهاتها ومذاهبها في النظرة إلى الحياة والعالم.

فنظرية «أفلاطون» مثلاً في عالم المُثُل قد صدرت بصورة ما عن رياضيات «فيثاغورس»؛ وفلسفة «ديكارت» هي الأخرى مدينة في الكثير من أصولها لما توصلت إليه التجربة على يد «جاليلو» ومعاصريه؛ وأن مذهب «ليبنتس» يرتبط بما توصلت إليه النظريات العلمية في حساب التفاضل والتكامل في عصره؛ ومذهب «كانط» ارتبط بصورة مصيرية بقوانين

«نيوتن» في الجاذبية والحركة والسكون، فالارتباط يكون قوياً بين الأيدلوجيات والنظريات العلمية.

بيد أن هذه الاتجاهات والمذاهب الأيدلوجية تظل على ما هي عليه معرفةً محدودة عن إدراك الحقيقة الحقيقية في الكون، بل ومعزولة عن بعضها، شأنها في ذلك شأن الجزر المتباعدة عن بعضها بعضاً، وتظل اتجاهات قد ينقض بعضها بعضاً، وينسخ بعضها الآخر، الأمر الذي يُظهر الحاجة إلى نسق علمي متسامٍ وشامل ومتماسك، يعيد ترتيب وتنسيق الخيارات البشرية في الحياة ويستوعبها.

وإذا كانت هذه الأيدلوجيات هي وليدة النظريات العلمية التي تتبناها، فإن الأمر يقتضي إذن إعادة الرشد والوحدة إلى النظريات العلمية، من قبل، وإلى نسقها العام، وهو الأمر الذي يتأتى بوساطة إعادة النظر في أصول المنهج العلمي من خلال الوحي المنزل، كما سعت الدراسة إلى تناوله، ومن ثم ترشد الأيدولوجيا التي تتولد عنه، بمعنى أن الأيدلوجيات هنا تأتى بمعنى المعرفة الظاهرية السطحية، في حين أن العلم الإلهي المنزل عبر الوحي هو المعرفة الموضوعية المطّلعة على كُنْه الأشياء كما هي، في حد ذاتها، خارج عقل الإنسان.

فإذا كانت التجربة العلمية لوحدها لن تكتمل في يوم واحد وتكتشف حقيقة الوجود ككل حتى يتثنى بناء مثل هذا النسق، فإن الحاجة إلى مصدر الوحي كنسق علمي محيط وهادي تظل ضرورة علمية عاجلة لأجل إيجاد خيارات إنسانية راشدة، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة:٢- ٣).

إن السياق القرآني، وفضلاً عن أنه يعطي سياقاً علمياً لا اختلاف فيه على الإطلاق، فإن له حكمةً وغاية ومثلاً أعلى يوحد به بين الخبرات العلمية والإنتاج العلمي مع القيم الروحية والأخلاقية والإيمانية الخالدة بالنسبة للبشر. فالقرآن يقرر ذلك في مفهومه عن التوحيد، وفي توضيحه لتداخل العلاقات بين الإنسان والعالم وجلال الله تعالى، مما يحل وفي آن واحد مسألة النسق العلمي ومسألة المثل العليا المطلوبة للحياة والمنهج العلمي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الاتجاهات الأيدلوجية التي يضمِّنها العلماء ذيل نظرياتهم وتطبيقاتهم العلمية للتأليف بين فروع المعرفة عندهم نجدها غالباً ما تجئ ضعيفة ومتهافتة لا تتناسب وحجم التجارب العلمية التي بنوا على أساسها أيدلوجياتهم، فهي كذلك قلما تكون خلاصة أمينة للعلم في المجال المعين، وليس أدل على ذلك من أن العالِم عندما يعمد إلى وضع مذهب أيدلوجي يجمع فيه شتات معارفه العلمية فإنه يصوغ فلسفته هذه وفقاً لاعتقادات فكرية قديمة، مما يجعل هذه الاتجاهات في حالة ضعف، الأمر الذي يعرض حقائقه العلمية ذاتها إلى الشك، كما هو الحال مع نظريات «داروين»، التي فتح بها باباً للإلحاد كاتجاه وجودي.

وعلى هذا، فإن النظريات العلمية ومن ورائها الاتجاهات الأيدلوجية تظل دائماً تستنجد بالنسق المطلق الراشد، أي الوحي، من أجل فهم وإعادة فقه ما يُكشف من خبرات علمية جديدة، ويعطيها مثلها العليا المطلوبة، فلا غنى للنظريات والكشوف العلمية من الوحي المنزل، الذي يعطيها نظرتها التوحيدية وعللها الغائبة الخالدة.

الخاتمة

الحق أنه إذا أعيد إلى الاعتبار أن التجربة الإنسانية في المفهوم القرآني هي مقدمة عن التجربة الطبيعية نظرياً، باعتبار أن الطبيعة ذاتها قد خُلقت لأجل الإنسان، خليفة الله، فإن المنهج العلمي التجريبي يظل عاجزاً عن الإحاطة بالتجربة الإنسانية وتعقيداتها، وعندئذ تصبح التنظيمات الآلية المبسطة التي لا تراعي الفروق والتي يدعو لها «ديكارت» مثلاً عاجزة عن فهم الظاهرة الإنسانية، ومن ثم يأتي دور الوحي المنزل والمحيط بالعلوم التجريبية من جهة وبالتجربة الإنسانية من الجهة الأخرى ليتسنى به قيام بحث علمي شامل وراشد؛ علم يستطيع الإجابة عن السؤال القيمي: «لماذا؟» في الوقت الذي يجيب فيه عن السؤال العلمي «كيف؟» في آن واحد. وهو الوضع الذي يفتح التساؤلات واسعة حول طبيعة وظائف العلم.

القُرآنُ الكَريمُ
بيْنَ خُصوصِ اللّسانِ وعُمومِ الرِّسالَةِ

الدكتور عبد الرحمن بودرع(*)

إنّ القرآنَ الكَريمَ يُخاطبُ البشريّةَ جميعَها بالمبادئِ والمُثُل، وهو كتابُ العربية الخالد؛ وما من إهمالٍ يلْحَقُ باللسانِ العربيّ إلاّ ويُصيبُ عقيدَةَ المسلمينَ وكتابَهُم ودينَهُم بالمِثْلِ، فقد كان لسانُ القرآنِ ركناً مكيناً في بناءِ وحدةِ الأمّةِ، ولا بدّ أن يعودَ هذا اللّسانُ إلى ما كان عليْه، لتعودَ لهذه الأمّة مكانتُها وريادتُها في حملِ الرّسالَة وتبليغِ الأمانة.

تقديم:

نزل القرآن الكَريمُ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وخاطَبَ النّاسَ كافّةً، واستوعَبَ حاجاتِ البشرِ المادّيّةَ والرّوحيّةَ في كلّ زَمانٍ ومكانٍ، ولم يُغادرْ صغيرَةً ولا كبيرةً من أمورِ النّاسِ إلاّ واعتنى بها، فقد جمعَ بينَ شموليّةِ

(*) باحث أكاديمي.. جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب، تطوان (المملكة المغربية).

الخطابِ وعربيّةِ اللّسانِ، ونسخَ الشّرائعَ السّابقةَ التي جاءت لتُعالجَ ناحيةً من النّواحي؛ فقد جاءتْ دعوةُ موسى، عليه السلامُ، لمواجهةِ الوثنيّةِ والدّعوةِ إلى التّوحيدِ، وجاءَت دعوةُ عيسى، عليه السّلامُ، لمواجهةِ حبِّ الدُّنيا والدّعوةِ إلى إصلاحِ الرّوحِ والأخلاقِ. ثمّ خُتِمَت الرّسالاتُ السماويّةُ بدينِ الإسلامِ المُتكاملِ الذي يُعالجُ قضايا الإنسانِ كلَّها ويضعُ لَها الحُلولَ الشّاملةَ[1].

- رسالَةُ القرآن الكَريم عالَميّة إلى النّاسِ كافّةً:

من خصائصِ رسالَة القرآنِ الإنسانيّةِ أنّها حلّ وسطٌ لجميعِ مطالبِ الرّوحِ والجَسَدِ، ومصالحِ الدّنيا والآخِرَة، وهو ما نصّ عليه القرآنُ الكريمُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ (البقرة:١٤٣).

ومن خصائص رِسالَة القرآنِ الإنسانيّةِ أنّها جاءَت لإسعادِ الإنسانِ في الدّارَيْنِ، ولا يحصلُ الإسعادُ إلاّ بتوجيهاتِ القرآنِ الكريمِ نحو تزكيَةِ النّفسِ والإيمانِ باللهِ الواحدِ والعملِ الصّالحِ ومَكارمِ الأخلاقِ.

ومن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الإنسانيّةِ تحقيقُ التّعارُف بينَ البشرِ؛ فقد امتازت أمّةُ محمّدٍ ﷺ بالإيمانِ بسائرِ الرّسُلِ، وقَصَّ القرآنُ الكريمُ قصصَ الأنبياءِ، ودَعا إلى الألفةِ والأخوَّةِ بينَ البشرِ، وتلكَ حجّةُ القرآنِ الكَريمِ على الأممِ لتكونَ الأمّةُ الإسلاميّةُ جديرةً بالإمامَةِ.

(١) للتّوسّع في معرفَة خصائص الرّسالَة القرآنيّة التي هي رسالَة عالَميّة، يُنظَرُ في كتاب: السيد محمّد رشيد رضا، الـوحي المحمّدي (بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر) ص٢٢١-٢٥١.

ومن خصائصِ هذا الدّين الخاتمِ الذي دَعا إليْهِ القرآنُ الكريمُ أنّه دينُ اليُسرِ ورفعِ الحَرَجِ والمشقّةِ والإعناتِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ (البقرة:٢٨٦)، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ (البقرة:١٨٥)، ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ (الحجّ:٧٨)، فالمُكلّفُ يسقُط عنه الواجبُ الذي فيه حرجٌ ومشقّةٌ حتّى ترتفعَ المشقّةُ.

ومن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الإنسانيّةِ أنّها حَمَلت منهجَ التّوسّطِ في الأمورِ وعدم الغلوّ في الدّينِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ (النساء:١٧١)، فقد أباحَ القرآنُ الكريمُ الطّيّباتِ بلا إسرافٍ، وأباحَ الزّينَةَ بلا كِبْرِياء: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢).

مِن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الكريمِ قلّةُ التّكاليفِ وبساطتُها؛ فقد كان النّبيّ ﷺ يُخاطِبُ النّاسَ بخطابِ التّيسير، ويُعلّمُهم أمورَ دينِهم، فَكان هذا المنهجُ النبويّ الذي رسَمَه القرآنُ الكريمُ من أهمّ أسبابِ إقبالِ النّاسِ كافّةً، عَربِهم وعَجَمِهم، على دعوةِ القرآنِ.

ومن خصائصِ رِسالةِ القرآنِ الكريمِ أنّها تُراعي درجاتِ تفاوتِ النّاس في العُقولِ والأفهامِ وعلوّ الهمّةِ وضعفِها، وقد جاءَت نصوصُ القرآنِ الكريمِ منها القطعيّ العامّ ومنها غيرُ القطعيّ الذي تتفاوتُ فيه أفهامُ البشرِ فيأخذُ

كلّ واحدٍ بما هَداه إليه اجتهادُه؛ فالفرائضُ الدّينيّةُ العامّة والأحكامُ القطعيّةُ لا تثبتُ إلاّ بنصّ قطعيّ يفهمُه جميعُ النّاس ولا يملكُ أحدٌ حقَّ الاختلافِ فيه، أمّا الآياتُ الظّنّيّةُ الدّلالَة فهي مَوْكولَة إلى اجتهاد النّاس.

ومن خصائص رِسالةِ القرآنِ الكريمِ أيضاً مُعاملةُ النّاسِ في المُحاسَباتِ والحُدودِ، بظواهرِهم وتفويضِ أمرِ البواطنِ والسّرائرِ إلى الله.

ومن خَصائصِ رسالةِ القرآن الكريم أنّها عالميّةٌ شاملةٌ، فمن الطبيعي أن تكونَ رسالةً خاتمةً تستوعب أصولَ الرسالات السابقة وتتحدث عن أنبيائها وأقوامها. ولكنّها في شموليتها واستيعابها تمتازُ بالسماحة وعدم الإكراه في الدّخول في الدّين، بل تمتاز بالأمر بالإحسان للمخالِفينَ.

ومن خَصائصِ الرّسالَة العالميّة الخاتمةِ أنّها تَدعو إلى العلم وتأمرُ به، ولا تعتمد على خوارق العادات، بلْ تعتمدُ على التّأمل والتّفكر والنظر في الكون الفسيح. وهذه المعجزة برهان على عالمية رسالة القرآن الكَريم.

لقد أثبتَ القرآن الكريمُ أنّ أهلَ الكتابِ يعرفونَ القرآنَ كما يعرفونَ أبناءَهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأنعام:٢٠).

ونزلَ القرآنُ الكريم بخطابٍ صريحٍ لكلّ مَن أدركَتْه دعوةُ محمّد ﷺ: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ (الأنعام:١٩)، فمَن بلغه القرآن بلغة يفهمها ويحصل منها مقصودُه، فقد قامت عليه الحجة به وبلغه الإنذار.

لقد وردَ خبر الرسالَة الخاتمة في الكتب السابقَة، وهذا الوُرود بشارةٌ ودليلٌ على عالميّة رسالةِ القرآن وخاتميتِها: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

فجاءَ الأمرُ باتّباعِ خاتم الأنبياء والمرسلينَ ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:١٥٨).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفُرقان:١)، فبعثَ النبي ﷺ رُسُلَه إلى عُظَماءِ الأقوام ورؤسائهم في العالَم؛ بعثَ دحيةَ الكلبيَّ إلى هرقل الروم، وحاطبَ بنَ بلتعةَ إلى مقوقس مصر، وعبدَ الله بنَ حذافة السهميَّ إلى كسرى الفرس، وعمرو بن أميةَ الضمريَّ إلى نجاشي الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث الغساني حاكم دمشق. بُعِثَ هؤلاءِ الصّحابَةُ، رضي الله عنهم، لنشرِ دينِ الله في الأرضِ.

لقد تضمّنَت رسالةُ القرآنِ أهدافاً وغاياتٍ إنسانيّةً عامّةً، فاستحقّت أن تُدعى إليها سائرُ أممِ الأرض؛ فالعقيدةُ التي تدعو إليها رِسالةُ القرآنِ والأخلاقُ التي تُنادي بها، والتّشريعات التي تُعلنُها، كلّ ذلك له طابعٌ إنسانيّ ويُوجّه إلى البشريّةِ كافّةً؛ لأنّ النّاسَ كلّهم عبادُ الله، خَلَقهم من ذكرٍ وأنثى وجَعَلَهُم شُعوباً وقبائلَ ليتعارفوا، وخلقهم في أوّلِ الأمرِ من طينٍ ثمّ جعلَ نسلَهم من سُلالةٍ من ماءٍ مَهين.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن نماذجَ من المجتمعاتِ البشريّة التي سادَت ثمّ بادَت، بعدَ أن أصابَها الهلاكُ لكُفْرها بالرسُل، ورسَمَ مَلامحَ المجتمع البشريّ المنشود الذي ينبغي أن يولَدَ في كلّ وقتٍ وحينٍ وفي كلّ زمانٍ ومَكانٍ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤).

وحذّر من التشبّه بالأمم والأقوام الهالكة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٠٥).

وعرضَ القرآنُ الكريمُ لجميع المبادئ والقيمِ التي يعيشُ بها البشرُ وتؤثّر في حياته، وحدّدَ موقفَه منها، وهي القَرابةُ والنّسبُ والمالُ والتّجارةُ والمسكَنُ والأرضُ، وبيّنَ للنّاسِ كيفَ ينبغي أن يعيشوا بها من دونِ أن تُهيْمنَ عليْهم وتصرِفَهُم عن حبّ الله ورَسوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التّوبة:٢٤).

بل إنّ القرآنَ الكريمَ عالجَ قضيّةً كُبرى تقضّ مضجَعَ الإنسانيّة، وهي هاجِسُ مَصير هذا الكوْن، ونهايَة الحَياة، وقد عالجَ القرآنُ الكَريمُ هذه القضايا العُظْمى مُتجاوِزاً حدودَ الزّمانِ والمَكانِ وبيئةِ نزولِ الوحي، ليشمَلَ كلَّ زمانٍ وكلَّ مكانٍ يُظلّ البشريّةَ في هذه الحياةِ، ولهذا خَلا القرآنُ الكَريم من ذِكْرِ الخُصوصيّاتِ كأسماءِ الأعلام والبُلْدانِ إلاّ ما اتّصلَ بالقَصَص التّاريخيّ وبالغَزَواتِ وغيْرِ ذلِك من المَحطّاتِ الحاسمَةِ في تاريخِ الإسلام، ممّا سَيكونُ لَه ما بعْدَه، ولهذا أيضاً لم يبدأ القرآنُ الكَريمُ بالعربِ لينتهيَ عندَهُم، ولكنّه بدأ عندَهُم ليُحمّلَهم المسؤوليّةَ الثّقيلَةَ والأمانةَ الجسيمَةَ، وليُكلّفَهُم بنشرِ الرّسالَة إلى الإنسانيّةِ كافّةً، فاخْتارَ من أنفُسِهم النبيَّ الخاتمَ، واختارَ من الألسنَة اللّسانَ العربيّ، حتّى «أصبَحَ بيْنَ القرآنِ والأمّةِ العربيّة ولُغةِ العرب صلةٌ لا تنفصمُ ورابطةٌ لا تنحلّ، هي الصّلةُ بينَ رسالةٍ إنسانيّةٍ وأمّةٍ مُبلّغةٍ و لُغةٍ مُعبِّرَةٍ»[1].

وذلِك لأنّ غايةَ الرّسالَة القرآنيّة الخاتِمَةِ ربطُ الإنسان بخالقِه وتنبيهِه على مسؤوليتِه وتحريرِه من أن يضيعَ في المتاهاتِ والتّفاصيل، حتّى تستقيمَ حياتُه ويعمّ الأمنُ والاستقرارُ والعَدالَةُ سائرَ البشرِ على اختلافِ ألوانهم وأجناسِهِم وألسنتِهم.

إنّ القرآنَ الكريمَ نقلَ الإنسانَ من ضيقِ القُرى والبيئاتِ المحلّيّةِ إلى سعَة الكونِ والبشريّةِ الشّاملَة، ومن عبادةِ الأوثانِ إلى عبادَة ربّ البشرِ.

---

(١) محمّد المُبارك، دراسة أدبيّة لنصوص من القرآن، ط٤ (دار الفكر، ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م) ص١٣٢.

ولكنّه، وهو يُؤدّي هذه الرّسالةَ الخالدةَ انطلقَ من بيئةِ العربِ ومن لسانهم، فلا ينبغي إهمالُ هذا الاختصاصِ الذي للعربيّةِ في البناءِ الجديدِ وهذه المنزِلَة لأهلِها في تنفيذِ المبادئ.

وهكذا فإنّ خَصائصَ هذا الدّين لم تَدَعْ شيئاً من حياةِ الإنسانِ الدّنيا إلاّ وضعَت له النّظامَ الأمثلَ الذي ينسَخُ كلَّ نظامٍ صنَعَه البشرُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥). وما تركَت دعوةُ الله أرضاً إلاّ بلَغَتها وشملتْها بخيري الدّنيا والآخِرَة.

وبذلِك فإنّ للقرآن الكَريم تأثيراً كونياً، والعودةُ إلى فهمِه على الوجه الصّحيحِ وإحياءِ تجربتِه من جديدٍ سيُعيد هذا التأثيرَ الكونيَّ في تاريخ الحضارة الإنسانيّة، ولكن من غيْرِ أن ننسى أنّه ربّانيّ المصدرِ، بشريُّ المبادئ والرّسالَة، عربيّ الخطابِ واللّسانِ.

- القرآنُ الكَريمُ عربيٌّ اللّسانِ عالميٌّ الرّسالَة:

الحقيقةُ أنّنا لن نتمكّنَ من فهمِ القرآن الكريم فهماً دقيقاً حتّى نسترجعَ السّياقَ الذي نزلَ فيه ونبعَثَه بالطّريقةِ التي يتفاعلُ بها مع نفوسِنا، ونسترجعَ تَجربَةَ الوَحيِ غضّةً طريّةً، ونستعيدَ تجربَةَ التّفاعُلِ النّفسيّ والتّجاوُبِ الرّوحيّ حيّةً، فإذا تمكّنّا من الاسترجاعِ ورجعْنا إلى شروطِ فهمِ النّصّ الأُولى ومنها شروط اللّسان العربيّ المُبين، استطعْنا أن ننقُلَ هذه التّجربَةَ إلى غيْرِنا من النّاطقينَ بغيرِ لسان العربيّة، فنبلّغَ القرآنَ الكَريمَ كما أنزِلَ، ينبغي أوّلاً أن نتّخذَ اللّغةَ التي كانت مُتداوَلةً في عصر التّنزيل

المَرْجِعَ في تفسيرِ القرآن الكريم واستنباط الأحكام منه، دون الالتفات إلى اللّغة الحادثة[1] وما طرأ عليها في العصور التالية من تطوّر في دلالات الألفاظ، ممّا لا ينبغي تحكيمه في فهم القرآن الكريم، وبعيداً عن الرّواسب الفكريّة التي يحملُها المفسِّر فيُسقِطها على القرآن الكريم، بما يُخرِج النّصّ عن بلاغته وأصالته، ومعنى ذلك أن لغة التنزيل تُرافق سياق التنزيل وتُلازمها[2] ولا تحيد عنها، فلا ينبغي إخراج المصطلح الشّرعي عن مدلوله الأصلي وإلا فسيصير «لفظُ الشّارع غير مُطابقٍ لمسمّاه الأصلي»[3]، «وهذا أمر يوجِبُ الجهلَ بالحقّ والظّلمَ للخَلق»[4].

وبعدَ أن نفهَمَ القرآنَ الكريمَ باللغة التي نزلَ بها، ننقلُه إلى الأمم الأخرى، على النّحو الذي نزلَ به، أي باعتبارِ مقاصدِه من النّزول، وهو الطابعُ الإنسانيّ العالَمي الشّامل الذي يصحّح المناهج ويقوّم الطرقَ والمسالِكَ، وهذا أمر لا يُحسِنُ تبليغَه إلاّ مَن أحسَنَ قراءَةَ القرآنِ وفهمَه بشروطه الأولى، والأمّة المسلمَة مُطالبَة بالنّهوض بهذه المهمّة الجَسيمَة؛ يُعينُها

(١) انظر في تفصيل الكلام عن هذا الشّرط كِتاب: محمّد جمال الدّين القاسمي (ت.١٣٣٢هـ)، محاسن التأويل، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، ط٢ (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م) ١/٢٣٦.

(٢) انظر أمثلة من الكلمات التي لها مدلولات جديدة غير مدلولاتها التي كانت لها في العصر الأول، في كتاب: يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط٢ (دار الشّروق، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م) ص٢٣٢؛ وانظر أيضاً: عبد الرّحمن بودرع، منهج السّياق في فَهْم النّصّ، منشورات كتاب الأمّة القطريّ، عدد: ١١١، السّنة: محرّم ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٣٦.

(٣) أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم، ط. المكتب التّعليمي السّعودي بالمغرب، الرّباط، مكتبة المعارف، ٣٥/٣٩٥.

(٤) المرجع نفسُه، ٣٥/٣٩٥.

على ذلك أنّ القرآن الكَريمَ عربيّ اللسان والخطاب، عالَميّ الدّعوة والمبادئ، وكلّ حيلولَة دونَ تبليغه بهذه الطّريقة فهو إخراج لَه عن إطارِه الصّحيح وإقصاء للأمّة عن دورِ التبليغ، سواء أكان عُدوانُ الإقصاء من داخلِ الأمّة أم كانَ من خارِجها[1].

فقد كان الملوكُ والرؤساءُ آنذاكَ يتّخذونَ مَن يترجمون لهم الرّسائلَ الوارِدَةَ عليهم من النبيّ ﷺ بالعربية فيُترجمونَها إلى لغتهِم، بَلِ لَقَد كانَ اليهودُ وكثيرٌ من النصارى يعرفونَ اللسانَ العربيَّ، ومنَ النَّصارى مَن كانوا عَرباً خُلصاً كنصارى نجران، كما أن العجم من الفرس والروم كان من بينهم عرب يعايشونهم ويقيمون بينهم.

ولَمّا انتقَلَت الدعوةُ من مرحلة الدعوة بالرسائلِ والوُفود، إلى مرحلة الفتح، كانَ الجنودُ المسلمون ينشرونَ اللغة العربية كما ينشرون الإسلامَ نفسَه. وما من أرض فَتَحَها الإسلامُ إلا وحلّت بها اللغة العربية تُؤازرُه وتشدُّ عضُدَه، فظهَرَت اللغةُ العربيةُ على أكثرِ لغات الأمم والشعوب وحلّت مَحلّها، كالقبطية فى مصر والفارسية فى الشام...

- القرآنُ الكَريمُ عربيٌّ اللّسان:

المقْصودُ ههنا أنّ القرآنَ الكَريمَ عربيٌّ اللسانِ والخِطابِ، ولا يعني ذلِكَ أنّه ينتمي إلى العربِ، فقد نزلَ إلى النّاس كافّةً ولكن بلسانٍ عربيّ مُبين: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢)؛ ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ

(١) انظر مزيداً من التفصيلِ في كتاب: دراسَة أدبيّة لنصوص من القُرآن، ص١١٦-١٣٣.

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النّحل:١٠٣)؛ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشّعراء:١٩٣- ١٩٥)؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (طه:١١٣)؛ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزُّمَر:٢٧- ٢٨)؛ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فُصّلت:٣)؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشّورى:٧)؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزّخرف:٣)؛ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف:١٢).

وممّا تجدرُ الإشارةُ إليه في بابِ الاصطلاحِ أنّ الواردَ في القرآنِ الكَريمِ هو مُصطلحُ اللّسانِ؛ فقد كان للعربِ لسانٌ واحدٌ ولُغاتٌ كثيرةٌ[1]، عبّر عنها ابنُ جنّي بقولِه: «بابُ اختلافِ اللّغاتِ وكلُّها حُجّةٌ»[2]، فلقبائلِ العربِ لُغاتُهم[3]، واللّغَةُ أصواتٌ يُعبّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم، وللقرآنِ الكَريمِ

(١) اللّسانُ أعمُّ من اللغة، واللُّغةُ أخصُّ، فاللّغةُ تُطلَقُ على ما يلفظه اللّسانُ من قولٍ صادرٍ عن مجموعةٍ لغويّةٍ، ويُمكن أن تُطلقَ مجازاً على كلِّ ما يُتوصلُ به إلى التّفاهُمِ والتّواصُل. أمّا اللّسانُ فما به يكونُ البيانُ بصفةٍ أعمّ وأشمل، وتندرجُ تحته لُغاتٌ، وقد تُدعى اللغةُ لساناً كما في قوله تعالى: ﴿ومنْ آياتهِ خَلْقُ السّماواتِ والأرْضِ واخْتِلافُ ألْسِنَتِكُمْ وألْوانِكُمْ إنّ في ذلكَ لآياتٍ للعالمين﴾ (الرّوم:٢٢).

(٢) أبو الفَتح عُثمان بن جنّي، الخصائص، تحقيق مُحَمَّد عَليّ النَّجّار، ط٢ (بَيْروت: دارُ الْهُدى).

(٣) كلُغةِ هُذيل ولُغة قُريشٍ وغيرِهما...

لسانُه الخاصُ ليتّصلَ باللّسانِ العربيّ كَما يشاءُ[1]، ويتصرَّفَ فيه بالانفصالِ عنه، أو بالهيْمَنَة عليْه، أو بغيرِ ذلِك من وجوه التّصرُّفِ والتّحكّم، فقد انفصَل لسانُ القرآنِ عن لِسانِ العربِ وهو من جِنْسِه، بما كانَ من أمرِ التّحدّي والإعْجاز في النّظمِ والبَيانِ والفَصاحَة، ومع ذلكَ فَلا يُفهَمُ إلاّ باللّسانِ العربيّ المُبينِ.

فالقُرآنُ الكَريمُ عَربيّ اللسانِ، أيْ جارٍ في ألفاظِه وتراكيبه وأساليبه وبلاغتِه مجرى العَرب في لغتهم، وفهمُ ألفاظِه وتراكيبه يعتمدُ على ألفاظِ العربيّة وتراكيبها في معاجمها وأشعارها، أي يكونُ فهمُه من طريقِ لسانِ العرب، وفي ذلِك قال الإمام الشّاطبيّ: «إنّ هذه الشّريعةَ المُباركةَ عربيّةٌ، لا مدخلَ فيها للألسُنِ الأعجَميّة... وأنّ القرآنَ نزلَ بلسانِ العرب على الجُملَة، فطلَبُ فهمِه إنّما يكونُ من هذا الطّريقِ خاصّةً؛ لأنّ الله تعالى يقولُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا.....﴾ (يوسف:٢)، إلى غيرِ ذلِك ممّا يدلّ على أنّه عربيّ وبلِسانِ العربِ، لا أنّه أعجميٌّ ولا بلِسانِ العجَم، فَمَن أرادَ تفهُّمَه فمِن جهةِ لسانِ العربِ يُفهَمُ، ولا سبيلَ إلى تطلُّب فهمِه من غيرِ هذه الجهةِ»[2].

ويقول: إنّ القرآنَ «أنزِلَ على معهودِ العربِ في ألفاظِها الخاصّة وأساليبِ مَعانيها».

لقد كان للعربِ اعتناءٌ بعلومٍ ذكَرَها النّاسُ، وكان لعُقَلائهم اعتناءٌ بمكارِمِ الأخلاق، فصحّحت الشّريعةُ منها ما هو صحيحٌ وأبطلَت ما هو

(١) طه جابر العلواني، لسانُ القُرآن ومُستقبَل الأمّة القُطب، سلسلة دراسات قرآنية (٤)، ط١ (القاهرة: مكتبة الشّروق الدّوليّة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ص١٩-٢٠.

(٢) أبو إسحاق الشّاطبيّ، المُوافقات في أصول الشّريعَة، ضبط محمّد عبد الله درّاز (بيروت: دار المعرفَة) ٢/٦٤.

باطلٌ، وخاطبَهُم القرآنُ بدلائلِ التّوحيد فيما يعلَمونَ من سماء وأرضٍ وجبالٍ وسَحاب ونباتٍ، وبدلائلِ الآخرةِ والنّبوّةِ كذلك، وأخْبروا بما أنعَم الله عليهم ممّا هو لديهم، وأخْبِروا عن نعيم الجنّة بما هو مَعْهودٌ في نِعَمهم الدّنيويّة ومُتداوَل، كالماءِ واللبن والخمر والعسلِ والماءِ والنّخيل والأعناب[1].

لقد ذكَرَ الله سُبْحانَه وتعالى للقرآنِ الكريمِ خمسَ صفاتٍ يمتازُ بها الكتابُ الكَريمُ، في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ (الزّمر:٢٣)؛ ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ (الزُّمَر:٢٧- ٢٨).

فمنْ صِفاتِ القرآنِ الكَريمِ أنّه أَحْسَنُ الْحَديثِ، وأنّه يُضرَبُ فيه الأمثالُ للنّاسِ تخويفاً وتحذيراً، وأنّه قرآنٌ متلوٌّ إلى يومِ القيامَة، وأنّه عربيُّ اللّسان، وغَيرذي عِوَج، أي بريء من التناقُض والتعارُض. وصفةُ عُروبةِ اللّسانِ في القُرآن الكَريم تَعني أنّه كلّه عَربيّ اللّسانِ، فَصيح البيانِ، ليسَ مُلفَّقاً من عَربيّة وأعجميّة، وذلِك ليؤدّيَ مهمّته على الوجهِ الأكمَلِ.

فالعربيّةُ لسانُ القرآنِ الكَريمِ، ثمّ إن محمداً ﷺ عربي اللسان؛ قالَ الإمامُ الشّافعيُّ في فضلِ لِسانِ النبيِّ ﷺ: «وأوْلى النّاسِ بالفَضلِ باللّسانِ

(١) انظر تفاصيلَ كثيرةً عن الأسلوب القرآني في المُخاطَبَة: أبو إسحاق الشّاطبيّ، في مواضعَ كثيرةٍ من الجزء الثّاني من كتابِ المُوافقات في أُصول الشّريعَة.

مَن لِسانُه لسانُ النّبيّ، ولا يجوز أن يكون أهلُ لسانه أتباعاً لأهلِ لسانٍ غير لسانِه... بلْ كلُّ لسانٍ تبعٌ لِلسانِه، وكلُّ أهلِ دينٍ قبلَه فعليهم اتّباعُ دينِه»[1].

والبيانُ النبويّ العربيُّ من لوازمِ تبليغِ الرّسالَة وإبانَتِها وإخراجِها للنّاسِ، ولا يُعقَلُ أن يُحافَظَ على عربيّةِ القرآنِ الكريمِ مِن غيرِ الحِفاظِ على بيانِه الذي هو البَيانُ النبويُّ؛ لأنّ البيانَ النبويَّ يَعصِمُ النّصّ القرآنيَّ من تَحريف الكلِمِ عَن مَواضعِه وفسادِ تأويلِه، ومِنْ ثَمَّ ذهَبَ عُلَماءُ الحديثِ إلى أنّ روايةَ الحديثِ بالمَعْنى لَمِمّا يُعَرِّضُ الحَديثَ أحياناً للرّدِّ وعَدَمِ التّسويغ[2]، والمَعْلومُ مِن الحَديثِ الصَّحيحِ أنَّ الرّاوِيَ يَنْبَغي لَه أن يُؤدّي الحَديثَ كَما سَمِعَه[3]، وأن يَلْتَزِمَ أمانَةَ التَّلَقّي والرِّوايَةِ ويُراعِيَ اللّفْظَ العربيّ الفَصيحَ الذي سُمِعَ عن النبيّ ﷺ، في النَّقْلِ؛ لأنّ التّبديلَ لا يُؤمَنُ فيه التّحريفُ أو الزِّيادةُ[4].

---

(١) محمّد بن إدريس الشّافعي، الرّسالَة، تحقيق أحمد محمّد شاكر (بيروت: دار الفكر) ص٤٦.

(٢) انظر: عبد الرّحمن بودرع، الإيجاز وبَلاغَة الإشارَة في البيانِ النبويّ (تطوان، المغرب: مط الخَليج العربيّ، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م) ص٨٤-٨٥.

(٣) رَوى الزّهري عن محمد بن جبير بنِ مطعمٍ عن أبيه جبير قالَ: قامَ رَسول الله ﷺ بالخيف فقالَ: «**نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقالَتي فَوَعاها ثُمّ أدّاها إلى مَن لم يَسمَعها، فرُبَّ حاملِ فقه إلى مَنْ لا فقهَ له ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقَه منه.** ثَلاثٌ لا يُغَلُّ عليهنّ قلبُ مؤمنٍ: إخلاصُ العَملِ لله، والطّاعةُ لذَوي الأمرِ، ولزُومُ جَماعةِ المسلمين؛ فإنّ دَعوتَهم تُحيطُ من ورائهم». قالَ الحاكمُ النّيسابوريّ: هذا حَديثٌ صَحيحٌ على شَرطِ الشّيخين. انظر: أبو عَبْد الله الحاكمِ النّيسابوريّ (ت.٤٠٥)، المستدرك على الصحيحين، تَحْ مُصْطفى عَبْد القادِر عَطا، ط١ (بَيروت: ١٤١١هـ-١٩٩٠م) ١/١٦٢.

(٤) ذَهَبَ كَثيرٌ مِن العُلَماء إلى أنّه «يَنْبَغي سَدُّ بابِ الرّوايَةِ بالمَعنى لئلاّ يَتَسَلّطَ مَنْ لا يُحْسِنُ مِمّنْ يَظُنُّ أنّه يُحْسِنُ، كَما وَقَعَ للرُّواةِ كَثيراً قَديماً وحَديثاً، وعلى الجَوازِ الأَوْلى إيرادُ الحَديثِ بلَفظِه دونَ التّصرُّفِ فيه، ولا شَكَّ في اشْتِراطِ أنْ لا يَكونَ ممّا تُعُبِّدَ بلَفظِه، ويُشْتَرَطُ أنْ لا يَكونَ مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ. وهَذا الخِلافُ إنّما يَجْري في المُصنَّفاتِ ولا يَجوزُ تَغْييرُ شَيءٍ مِنْ مُصنَّفٍ وإبدالُه بِلَفظٍ آخَرَ وإنْ قطعا؛ لأنَّ الرّوايَةَ بالمَعنى رَخَّصَ فيها مَنْ رَخَّصَ لِما كانَ عليهِم في ضَبْطِ الألفاظِ مِنَ الحرجِ مَوجودٌ فيما اشْتَمَلَت عليه الكُتبُ ولأنّه إنْ ملَكَ تَغْييرَ اللّفظِ فَليسَ يَملِكُ تَغْييرَ تَصْنيفِ غَيرِه. ويَنبَغي للرّاوي بالمَعنى أنْ يَقولَ عَقيبَه: «**أوْ كَما قَالَ**» أو «**نَحْوَه**» أو «**شِبْهَه**» أو «**ما أشْبَه هَذا مِنَ الألفاظِ**»، وقَدْ كانَ قَومٌ مِنَ الصّحابَةِ يَفعَلونَ ذلكَ وهُمْ أعلَمُ النّاسِ بمَعاني الكَلامِ خَوفاً مِنَ الزّلَلِ لِمَعْرِفَتِهم بِما في الرّوايَةِ بالمَعنى مِن الخَطَرِ»، تَدْريبُ الرّاوي، ٢/٩٩-١٠٢.

فالمُحدِّثُ، إلى جانبِ ثقتِه في الدّينِ وصِدقِه في الرِّوايةِ وعقْلِه لِما يُحدِّثُ به، يُؤدّي الحديثَ بحُروفِه كَما سَمِعَ، ولا يُحَدِّثُ به على المَعْنى؛ فلا يَدري لَعلَّه يُحيلُ الحَلالَ إلى حَرامٍ، كَما نَبّه عَلى ذلِكَ الإمامُ الشّافعيُّ[1]، فإذا أدّاه بحُروفِه انْتَفى احْتِمالُ الإحالةِ[2].

وما العنايَةُ بروايَة الحديثِ بلفظِه كَما سُمِعَ عن النبيّ ﷺ إلاّ للاطمئنانِ على صحّةِ البيانِ النبويّ للنصّ القرآنيّ. وهذا السمْتُ العربيّ الفصيحُ ينبغي المُحافظةُ عليه، وعروبَةُ لسانِ القرآنِ الكَريم لا تنفي عالميّةَ التوجيه والتشريع والسلطان. ووحدة اللغة في الإسلام مثل وحدة العقيدة فيه. وعُروبةُ لسانه - ولسانِ الرّسولِ ﷺ- لم تحُلْ دونَ انتشار الإسلام بين الأمم والشعوب غير العربية.

أمّا عن وجودِ ألفاظٍ غيرِ عربيّةِ الأصلِ، في القرآنِ، فلا تعارضَ بينَ كونِ القرآنِ الكريمِ مُنزّلاً «بلِسانٍ عربيّ مُبينٍ» وبينَ وجودِ كلماتٍ غيرِ عربيّةٍ فيه؛ لأنّ هذه الكلماتِ الدّخيلَةَ خضعَت لمقاييسِ العربيّةِ فأصبَحَت مُعرَّبَةً[3] وفقدَت عُجمَتَها.

---

(١) الإمام محمّد بن إدريس الشّافعي، الرّسالة، ص٣٧٠-٣٧١.

(٢) هذا وقَدْ ضيَّقَ العُلَماءُ مَجالَ الرِّوايَةِ بالمَعْنى، وقيَّدوها تَقْييداً يَمْنَعُ التَّزيُّدَ والوَضْعَ، وقَصَروها على أهْلِ العلْمِ، فَذَهَبوا إلى أنّ «الأَصحّ أنّ الحَديثَ إنْ كانَ مُشْتَرَكاً أو مُجْمَلاً أو مُتَشابِهاً أو مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ لَمْ يَجُزْ نَقْلُهُ بالمَعْنى، أو مُحْكَماً جازَ للعالِمِ باللُّغَة، أو ظاهِراً يَحْتَمِلُ الغَيْرَ، كَعامّ يَحْتَمِلُ الخُصوصَ، أو حَقيقَةً يَحْتَمِلُ المَجازَ، جازَ لِلْمُجْتَهِدِ فَقَط»؛ قَفْوُ الأثَرِ في صَفْوِ عُلومِ الأثَرِ، ٨٣.

(٣) انظر مسألةَ تأصيلِ الكلماتِ المُعرّبَة في القرآن الكَريم، كتابَ محمّد السيّد علي بلاسي، المُعرّب في القرآن الكَريم، ط١ (ليبيا: جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالَميّة، ٢٠٠١م).

ونشرُ رِسالَة القرآنِ الكَريم في العالَم لا يَعني بحالٍ من الأحوالِ ترجَمَةَ ألفاظِ القرآنِ وتراكيبه وتنزيلِ التّرجَمَة منزلَةَ الأصلِ؛ لأنّ التّرجمَةَ ضربٌ من تحويلِ معاني النصّ الأصليّ من بيئتِها اللغويّة الأولى إلى بيئةٍ لغويّةٍ جديدَة بما في هذه البيئَة من مصطلَحاتٍ ومَفاهيمَ وحمولاتٍ ثقافيّةٍ وعقديّةٍ واجتماعيّة، تختلفُ عن مَفاهيمِ النّصّ بل تُناقِضُها أحياناً مناقضةً تامّةً، وهذا نوعٌ من «الضّلالِ الثّقافيّ، والانْتقاصِ لعمليةِ البَلاغِ والإبانَة، التي جُعِلَت العربيّةُ وِعاءً لَها»[1]، فالمُحافَظَةُ على عربيّة القرآنِ الكريمِ مُحافظةٌ على المرجعيّة والوِعاءِ، وتبليغٌ للمعاني والمضامينِ تبليغاً صحيحاً، بعيداً عَن تَحريفِ الغالينَ وانْتِحالِ المُبْطِلينَ وتأويلِ الجاهِلينَ. فكلُّ لُغةٍ تُخفي وراءَها عاداتِ أهلِها وأساليبَهُم في تصوّرِ المَفاهيمِ، وأقوالَهُم وأحوالَهم... ألا تَرى أنّ العربَ دأبوا على اتّخاذِ الآلِهَة في الأرضِ وإن كانوا مُقِرّينَ بالإله الواحدِ الحقّ، فَجاءَت الآياتُ بتعيينِ الفرقِ بين آلهتِهم والإله الواحدِ الحقِّ تنبيهاً على نفيِ ما ادّعَوه في الأرضِ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ (النّحل:٤٩- ٥٠)، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (المُلك:١٦).

ولَوْ أذِنَ للنّاس أنْ يُترجموا القرآنَ الكَريمَ وأن يَكتُبوه بغير الحرف العربي ويتعبّدوا بنصّ التّرجَمَة؛ لأفضى ذلك إلى تَحريفِ النّصِّ الكَريم

---

(١) انظر مُقدّمةَ الدّكتور عمر عبيد حسَنه لكتاب «في شرف العربيّة»، د.إبراهيم السّامرّائي، كتاب الأمّة، العدد ٤٢، جمادى الأخرة ١٤١٥هـ، ص١٠.

وضَياع ما يحمله من هُدىً ونور، ولأفضى أيضاً إلى إسقاط واجبِ تَعلُّم العربية، بيْنَما العلمُ بالعربيّةِ وتعلُّمُها واجب على كل مسلم ومسلمة؛ لأنه لا يمكنهم الفهم عن ربهم ونبيهم إلا من طريق اللسان العربي؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والوَسائلُ تُعطى حُكمَ الغاياتِ، شَرعاً وعقلاً[1].

هذا، وإنّ العربيّةَ ليست وسيلَةَ تبليغٍ وبيانٍ للنّصّ القرآنيّ، فقط، ولكنّها جزءٌ من علومِ الشّرعِ؛ ومعرِفَةُ الأحكام الشّرعيّة واستنباطُها من القرآن الكَريم يتوقّفُ على معرِفَة لسانِ العرب؛ لأنّ «ما لا يتمُّ الواجبُ إلاّ به فهو واجبٌ»[2]، وعليْه فإذا كانت اللغةُ العربيّةُ تُفضي إلى معرِفَةِ الدّين فهي من الدّينِ، وإنّ اللّه عزّ وجلّ «لَمّا أنزلَ كتابَه باللّسانِ العَربيِّ، وجعلَ رَسولَه مُبلغاً عنه الكتابَ والحكمةَ بلِسانِه العَربيّ، وجَعلَ السّابقينَ إلى هذا الدّينِ مُتكلّمينَ به، لم يكنْ سَبيلٌ إلى ضَبطِ الدّينِ ومَعرفتِه إلاّ بضبطِ هذا اللّسانِ، وصارَت مَعرفتُه منَ الدّينِ، وصارَ اعتيادُ التّكلُّم به أسْهلَ عَلى أهلِ الدّينِ في مَعرفةِ دينِ اللّه، وأقرَبَ إلى إقامَةِ شعائرِ الدّينِ، وأقْرَبَ إلى مُشابهتِهم للسّابقينَ الأوّلينَ، مِن المهاجرينَ والأنْصارِ، في جَميع أمورهِم»[3].

وهكذا، فإذا كان علم العربية يُفضي إلى فهم نصوصِ الدّين فهو الدّينُ عينُه، كما قالَ أبو عمرو بنُ العَلاء: «لَعلمُ العربية هو الدّينُ

(١) صالح علي العود، تحريم كتابة القرآن الكريم بحروف غير عربية، ط١ (المملكة العربيــة الـسعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٦هـ).

(٢) انظر ابن حَزم الظّاهريّ، الإحكام في أصول الأحكام، ط١ (بيروت: دار الكُتب العلميّة، ٢٠٠٠م).

(٣) أحمد بن تيميّة، اقتضاء الصراط المُستَقيم، مُخالَفة أصحاب الجَحيم (بيروت: المكتبَة العصريّة).

بعينِه». فَبِعِلم العَربية يتمّ «الوصولُ إلى التّكلّم بكلامِ العرب على الحقيقةِ صوابًا غيرَ مبدّل ولا مغيّر، وتقويمِ كتابِ الله الذي هو أصلُ الدّين والدّنيا والمُعتمَدُ، ومعرفةِ أخبارِ النّبي ﷺ، وإقامةِ معانيها على الحقيقة»[١]، والعربيةُ من الدّين؛ لأن فقهَها مِن فقه الشّريعة.

إنّ القرآنَ الكريمَ عربيُّ اللّسان، في لغتِه ومنهجِ خطابه، ولا يعني ذلك أنّه يُخاطبُ العربَ وحدَهُم، ولكنّه عربيّ في ألفاظه وتراكيبه وتَناسُق أصواتِه وإحكامِ نظْمِه وتأثيرِه البَلاغيّ وإعجازِه البيانيّ، فالنّظمُ القرآنيّ من الخصائص التي استأثرت باهتمامِ علماءِ اللغة والبلاغَة، فقد درسوا أساليبَ القرآنِ وعلاقاتِ جُملِه بعضها ببعض من النّاحيةِ التّركيبية، ودرسوا أصواتَه وإيقاعاتِه وتناسُبَ فواصلِه ومقاطعِه، ومناسبةَ ألفاظه لمعانيه، ودرسوا صوَرَه البيانيّةَ، وأوجهَه النّحويّةَ والصّرفيّةَ، ودلالاتِ ألفاظِه المعجميّة.

وتوصّلَ العلماءُ إلى أنّ القرآنَ الكَريمَ لا يُدرسُ ويُشرَحُ إلاّ بمنهج شموليّ يُراعي أنواعَ السّياقِ التي تتدرجُ فيها الآياتُ؛ فإنّ التّحليل بالسياق يُعدّ وسيلةً من بين وسائل تصنيف المدلولات[٢]، لذلك يتعيّن عرض اللّفظ القرآنيّ على موقعه لفهم معناه ودفع المعاني غير المرادة. وللسّياق أنواع كثيرة منها[٣]:

---

(١) أبو القاسم الزّجاجي، الإيضاح في علل النّحو، تحقيق: د.مازن المبارك ط٣ (بيروت: دار النّفائس، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) ص٩٥.

(٢) توصّل علماءُ الدّلالة في العصر الحديث إلى تصنيف المدلولات بالاعتماد على عدة طرق: الطّريقة الشّكلية أو الاشتقاق الصرفي، والطّريقة السّياقيّة، والطّريقة الموضعيّة (تصنيف المدلولات بحسب موضع المتكلّم وموقفه)، والحقول الدّلاليّة (القرابة الدّلاليّة بين المدلولات)، والتّحليل بالمؤلّفات التي تتألّف منها الكلمة. انظر في تفصيل هذه الطّرق: موريس أبو ناضر، «مدخل إلى علم الدّلالة الألسنيّ»، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، مارس١٩٨٢م، ع١٨-١٩.

(٣) انظر: بسط الموضوع في كتاب: عبد الرحمن بودرع، منهج السّياق في فهم النّصّ، كتاب الأمة، ع١١١، المحرّم١٤٢٧هـ-فبراير٢٠٠٦م.

- السّياق المَكاني ويعني سياق الآية أو الآيات داخل السّورة وموقعها بين السّابق من الآيات واللاّحق، أي مراعاة سياق الآية في موقعها بين السّابق من الآيات واللاّحق، أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السّورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية، فيجب أن تُربَط الآية بالسّياق الذي وردت فيه، ولا تُقطَع عمّا قبلها وما بعدها.

- والسّياق الزّمنيّ للآيات، أو سياق التّنزيل، ويعني سياق الآية بين الآيات بحسب ترتيب النّزول.

- والسّياق المَوضوعيّ، ومعناه دراسة الآية أو الآيات التي يجمعها موضوع واحد، سواء أكان الموضوع عامّاً كالقصص القرآنيّ أو الأمثال أو الحِكم الفقهية، أم كان خاصّاً كالقصة المخصوصة بنبيّ من الأنبياء أو حُكم من الأحكام أو غير ذلك، و تتبّع مواقعها في القرآن الكريم كلّه.

- والسّياق المَقاصديّ ومعناه النّظر إلى الآيات القرآنيّة من خلال مقاصد القرآن الكريم والرؤية القرآنية العامّة للموضوع المُعالَج، وهو ما اختصّت به دلالات الألفاظِ والأساليبِ في أصولِ الفقه.

- والسّياق التّاريخيّ بمعنييه العامّ والخاصّ؛ فالعامّ هو سياق الأحداث التّاريخيّة القديمة التي حكاها القرآن الكريم والمُعاصرة لزمن التّنزيل، والخاصّ هو أسباب النّزول.

- والسّياق اللّغويّ، وهو دِراسةُ النصّ القرآنيّ من خلال علاقاتِ ألفاظِه بعضها ببعض والأدواتِ المستعملة للرّبط بين هذه الألفاظ، وما يترتّب على تلك العلائق من دلالات جزئية وكلّية.

وينبغي تحكيم كلّ هذه الأنواع من السّياق عند إرادة دراسة النّصّ القرآني بمنهج سياقيّ متكامل، وكذلك فَعَلَ كثيرٌ من المُفسّرينَ؛ لأنّهم أيْقَنوا أنّ الاقتصارَ على السياق التّاريخيّ وحدَه سيحومُ حولَ النّصّ ولا يعدوه، وأمّا الاقتصار على السّياق اللغويّ وحدَه دون الالتفات إلى الأحداث التّاريخيّة المحيطة به أو المصاحبة لنزوله فسيجعل من النّصّ بنيةً لغويّةً مغلقةً تقتصر على ما تفيده الألفاظ من معانٍ ودلالات[1].

رسالَةُ القرآنِ الكَريمِ عربيّةُ اللّسانِ أوّلاً، والنّصّ القرآني بادئ ذي بدء نصٌّ لغويٌّ منسوجٌ من جنس كلامِ العرب، مؤلّفٌ من جمل مترابطة تشكّل عناصر ذات دلالات خاصّة بها، وتتضافر هذه العناصر لتؤلّف كلاماً يفيد قصداً دلالياً معيناً.

وهذه قاعدة ثقافية ثابتة لفهم النصّ القرآني، واقتضت هذه القاعدةُ من عُلماءِ التّفسير الوقوفَ عند ظاهر اللّفظ باعتباره أساساً لفهم المعنى، ولم يُلتفَت إلى الجوانب التّاريخيّة أو النّفسيّة أو الثّقافيّة إلا في إطار ضيّق وبحذر شديد خشية الوقوع في محظور التفسير بالرأي، وتبيّن أنّ للنّصّ القرآني ثابتاً يُلتزَم بالوقوف عندَه ومتغيراً يكونُ عُرضة للاجتهاد والتّأويل والفهم المجازيّ.

ولقد أدركَ العُلَماءُ أنّ القرآن الكَريمَ جاء معرِّفاً بالأحكام الشّرعيّة، وجاء تعريفه بهذه الأحكام كلّيّاً لا يختصّ بشخص أو حال أو زمان أو شرط أو ركن أو غير ذلك بل يعمّ كلّ زَمانٍ وكلَّ مكانٍ وكلَّ شرْطٍ ورُكنٍ، وجاءت تلك الأحكام الكلّية مستوعبةً كلَّ الظّروف والأحوال

(١) منهج السّياق في فهم النّصّ، ص٢٩-٣١.

والطّاقات، وكلّما أحسن الفقيه وتمكّن من تنزيل تلك الأحكام الكلّية - المجرَّدة من ظروف زمان بعينه أو مكان بعينه- على الوقائع والأقضية، أدرك المقاصد العليا للشريعة، ولكن بشرطِ إتقانِ العلمِ بلسانِ العربِ.

ولقد أدركَ عُلماءُ التّفسيرِ والفقهِ والأصولِ أنّ من خصائص لغة القرآن الكريمِ ودلالات ألفاظِه أنّه قد يكون للدّالّ أكثرُ من مدلول، ويتحدّد المدلول وفقَ السياق اللّغويّ، ويرى بعض اللغويين الغربيين أنّ للكلمة أكثرَ من معنى سواء أكان هذا المعنى حقيقياً تصريحيّاً أم كان مجازياً إيمائياً، وذلك بالنظر إلى التّداعيات الدلالية التي يمكن أن تُحدِثها الكلمة في أثناء الاستعمال، فأي كلمة قد تستدعي قيما اجتماعية وثقافية أو انفعالية، تعكس صورة قائلها وتحدّد بعض ملامحه النفسية[1]، ولا يمكن استخراج المدلول المقصود من بين المدلولات المحتمَلة إلا بعرض الكلمة على السياق وإخراجها من عُزلتها المُفترَضة والكشف عمّا تتلفّع به من الحالات النفسية والظّلال الدّلاليّة والتّجارب البشرية والرّصيد التّاريخي الطويل.

ولقَد ورَدتْ في القرآنِ الكَريم أفعالٌ كثيرةٌ تتّخِذُ معاني مختلفةً بحسب مواقعِها من السّياقِ، فليس مَعنى الكلِمة المعجمِيُّ هو المعنى الرّئيسُ، كما درَجَ على تقريرِه اللّغويّون وعلى تصوّرِه علماءُ المعجم، عندما بنوا معاجِمَهم على وحدة محدَّدة هي الكلمة، ولكنّ لكلّ كلمة معانِيَ شتّى، عالِقةً بها، والسياق هو الذي يستدعي المعنى المناسبَ من بين تلك المعاني

(١) بيير كيرو، علم الدّلالة، ترجمة د. منذر عياشي (دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨م) ص٦١؛ منقور عبد الجليل، علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي (دمشق: منشورات اتّحاد كتّاب العرب، ٢٠٠١م).

الكثيرة. إنّ الكلمةَ مَعِينٌ من الدّلالات التي لا تنضُب، ولا ينبغي استئصالُها من مساقاتها والادّعاء أنّ لها معنى رئيساً ومعانِيَ فرعيّةً، وهذا هو النّهجُ الذي الْتَزَمَ به كثيرٌ من عُلماءِ الفقه والتفسيرِ؛ لأنّهُم كانوا مُلزَمينَ باستنباطِ المَعاني والأحكامِ التي تُوافِقُ المَقاصدَ العُلْيا للشّريعَة ولا تُعارِضُها ولا تُخالفُها، وتُحقّقُ جلْبَ المَصالح النّافعَةِ للعبادِ، ودَرْءَ المفاسد والمضرّاتِ عنهم.

وأدركَ عُلماءُ اللغةِ والتّفسيرِ أيضاً أنَّ الجملةَ وحدةٌ أساسٌ، في إعرابِ الكلامِ وتحليلِه...

أمّا في القرآن الكَريم فالوحدةُ الأساسُ هي الآيَةُ، وليسَت الآيةُ وحدةً نحويةً أو دلاليّةً، ولكنّها لبِنَةٌ في صرحِ البناءِ القرآنيّ المُعجِز، سواء أكانَت الآيةُ الواحدةُ جُملةً تامّةً، نحو قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (النبأ:٨- ١٣)، أم كانتْ مؤلّفةً من أكثرَ من آيةٍ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون:٥٧- ٦١)، وقدْ تأتي الآيةُ الواحـدةُ مؤلَّفةً منْ جُملٍ كثيرةٍ عُطفَ بعضُها على بعضٍ، أو استُؤنِفَ بعْضُها بعدَ بعضٍ، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحُجُرات:١٣).

ويقفُ القارئُ عندَ آخرِ كلّ آيةٍ إن لم يختلّ المَعْنى، أو يقفُ عند متمّ كلّ معْنىً، فيجعلُ الآيةَ أو الوحدةَ المعنويّةَ فقرةً من فَقراتِ السّورَة.

وقد تأتي الآيةُ كلمةً واحدةً، خاصّةً في أوائلِ السّوَرِ، للَفتِ النّظر، كما في قولِه تعالى: «الحاقّةُ» و«القارِعَةُ»، وقد تأتي السّورةُ على هيئةِ سلسلةٍ من تتابُعِ كلمتيْن بعدَ كلمتيْن أو ثلمّ ثلاثٍ ثمّ أربعٍ، كما في سـورةِ الرّحمن[١].

ومن بابِ التّنبيه أنّ الجُملةَ المركّبَةَ في القرآن الكريمِ قد تَطولُ طولاً لافتاً للنظرِ، وتتركّبُ من عناصرَ وأجزاء غيرِ قابلةٍ للانفصال والتّجزيء؛ لأنّها تُعبّر عن فكرةٍ واحدةٍ ذاتِ أوجهٍ متعدّدَة وجوانبَ كثيرةٍ، وهي ظاهرةٌ أسلوبيّةٌ لا تصدرُ إلاّ عن فكرٍ رفيعٍ وقدرةٍ عاليةٍ على التأليفِ بين العناصرِ، وهذه خصيصة لم تكن مألوفَةً في النّثرِ قبلَ القرآنِ الكَريمِ ولا بعدَه ولكنّ هذا الضّربَ من الأساليبِ بدأ يظهرُ مع تطوّر الفكرِ في العصرِ الحديثِ، وتطوّرِ النثرِ الفنّي في الأدب العربي، ولا يُناسبُ هذه الأساليبَ العاليةَ المركّبَةَ - من مناهجِ التّحليلِ- إلاّ ما يُدعى اليومَ بلسانياتِ النّصّ أو نحو النّصّ[٢].

---

(١) انظر تركيب الآيات والجمل القرآنيّة في: دراسة أدبيّة لنصوص من القُرآن، ص١٣٩ وما بعدَها... فقد تنـاولَ الكاتبُ بالبحثِ الجُملةَ البسيطةَ القصيرةَ والجملةَ البسيطةَ الطّويلةَ والجُملةَ الطّويلةَ المُسلْسَلَةَ والجُملةَ الطّويلةَ المُركّبَةَ.

(٢) ظهرَتْ أواخرَ السّنوات السّتّينَ وبداية السّبعينيّات أعمالٌ لسانيةٌ تَصبّ في ميدانِ لـسانياتِ الـنّصّ وتَـستوعبُ النّصوصَ ميدَاناً لغوياً جَديداً يتجاوزُ الجملةَ وما وُضِعَ لها من قواعدَ. انظُرْ في التّعريفِ بلسانيات النّصّ: محمد الشّاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تونس: المؤسسة العربية للتوزيع، ٢٠٠١م)؛ أحمد المتوكّل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفيّة، بنية الخطاب، من الجملة إلى النّصّ (الرّباط: دار الأمـان للنشر والتّوزيع، ٢٠٠١م).

خُلاصَة

وهكذا، فبعدَ التّنبيه على بَعضِ خَصائصِ الجُملَة القُرآنيّة والنّظمِ القُرآنيّ والبَلاغَةِ القُرآنيّة، نقولُ: إنّ القرآنَ الكَريمَ يُخاطبُ البشريّةَ جميعَها بالمبادئِ والمُثُل، وهو كتابُ العربِ الخالدُ الذي يربطُهم بالإنسانيّة ويَرْقى بهم إلى خالقِهم.

وما من إهمالٍ يلْحَقُ باللسانِ العربيّ إلاّ ويُصيبُ عقيدَةَ المسلمينَ وكتابَهُم ودينَهُم بالمِثْلِ، فقد كان لسانُ القرآنِ ركناً مكيناً في بناءِ وحدةِ الأمّةِ، ولا بدّ أن يعودَ هذا اللّسانُ إلى ما كان عليْه، لتعودَ لهذه الأمّة مكانتُها وريادتُها في حملِ الرّسالَة وتبليغِ الأمانةِ.

لقد أكّدَ القرآنُ الكريمُ على عالَميّة رِسالتِه وخُلودِها، بالقدرِ الذي أكّدَ فيه على عربيّةِ لسانِه، أي نسبَ لسانَه إلى لسانِ العربِ، ونسبَ نفْسَه إلى الفصاحَة والبلاغةِ والبيانِ، في الوقتِ ذاتِه.

وهذه النّسبةُ تفرضُ على الأمّةِ أن تعودَ إلى إحياءِ لسانِها وبيانِها بقدرِ ما هي مدعوّةٌ إلى تصحيح تصوّرِها واعتقادِها ونشرِ رِسالة الإسلام الخالدَة بين الأمم.

وآخِرُ دَعْوانا أن الحَمْد لله ربِّ العالَمين.

القرآن محور النشاط الفكري

الأستاذ الدكتور محمد عثمان شبير (*)

بيّن القرآن مقومات وجود الحضارة الصالحة وهي: توافر الناحية المادية من بيئة صالحة، واقتصاد قوي، ووجود نظام سياسي، ووجود الناحية المعنوية من إيمان بالله، وأخلاق فاضلة، وقيم معتدلة؛ كما بيّن أسباب اندثار الحضارات من طغيان الجانب المادي، والغرور الفكري والمادي.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن نزول القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ يعدُّ من أجلِّ نعم الله تعالى على الناس؛ فهو نور الأبصار والبصائر، وهو طريق الهداية إلى الله تعالى؛ يهدي

(*) باحث أكاديمي، كلية الشريعة، جامعة قطر.

به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويُخرج من سار على دربه من الظلمات إلى النور، وهو ينبوع العلوم الدينية والدنيوية، فمن أراد الحصول على السلام، والظفر بالحقيقة، والإطلاع على كليات الشريعة ومقاصدها فعليه بتدبر القرآن وفهمه. لكن هذا الفهم لا يتحقق إلا بالنظر في السنة النبوية؛ لأنها المفصلة والمبينة له، وهي الراجعة في معناها إليه.

فمن الشواهد على تبيين السنة للكتاب قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٦٤)، وقوله ﷺ: «**ألا إنّي أوتيتُ القُرآنَ وَمِثلهُ مَعَهُ**»[1].. ومما يدل على رجوع السنة إلى القرآن أنه لا يوجد في السنة أمر؛ إلا والقرآن قد دلَّ على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية. فخلق الرسول ﷺ الذي وصفه الله بالعظيم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) قالت عنه أم المؤمنين، السيدة عائشة، رضي عنها: «إن خلقه القرآن»، فدلَّ على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن والوحي. فلا يستغنى عن السنة في فهم القرآن.

فما حقيقة هذا القرآن؟ وما الأدلة على مصدريته؟ وما أثار هذه المصدرية في النشاط الفكري للإنسان؟

هذا ما سأجيب عنه، إن شاء الله تعالى، في هذا البحث.

وفيما يلي بيان لذلك:

(١) مسند أحمد بن حنبل، رقم: (١٧٣٠٥) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

المبحث الأول

حقيقة القرآن الكريم

سوف يخصص هذا المبحث لبيان معنى القرآن، وأسمائه، وخصائصه. وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: تعريف القرآن الكريم:

القرآن في اللغة: مصدر قرأ، وهو في الأصل يدل على الجمع والضم، ثم اكتسب هذا اللفظ معنى الإظهار والبيان، ثم تخصص بمعنى التلاوة والترتيل لما فيهما من الإظهار والتبيين. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة:١٧- ١٨)، ثم نقل لفظ القرآن من المعنى المصدري، وجعل علماً على كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ المعجز؛ من باب إطلاق المصدر على مفعوله[١]، وهو في **الاصطلاح:** «كلام الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سورة منه»[٢].

ثانياً: أسماء القرآن الكريم:

سُمي القرآن بأسماء كثيرة، ووصف بصفات أكثر؛ منها: القرآن، والكلام، والنور، والهدى، والرحمة، والفرقان، والشفاء، والموعظة،

---

(١) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص٨٥٢.

(٢) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان، ١/١٥-١٦.

والذكر، والمبارك، والعلي، والحكمةٌ، والحكيم، والمصدق، والمهيمن، والحبل، والصراط، والمستقيم، والقيم، والقول، والفصل، والنبأ العظيم، وأحسن الحديث، والمتشابه، والمثاني، والتنزيل، والروح، والوحي، والعربي، والبصائر، والبيان، والعلم، والحق، والهدي، والعجب، والتذكرة، والعروة الوثقى، والصدق، والعدل، والأمر، والمنادي، والبشرى، والمجيد، والنور، والبشير، والنذير، والعزيز، والبلاغ، والقصص، والصحف المكرمة، والمرفوعة، والمطهرة[1]. وهذه الكثرة إن دلت على شيء فهي تدل على شرف المسمى، أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد؛ دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة؛ دلت على كمال شدتها وصعوبتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته. وفيما يلي بيان لبعض الأسماء[2]:

١- الكتاب: دل عليه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١- ٢).. وسمي بذلك، لأنه مدون في الصحف.

٢- الفرقان: دل عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، وسمي بذلك، لأنه فرّق بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والصالح والطالح.

(١) الزرقاني، مناهل العرفان، ١/١٨- ٢٠.

(٢) مجد الدين الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ١/٩٩.

٣- الذكر: **دلَّ عليه قوله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، سمي بذلك؛ لما له من مكانة ومنزلة عند الناس فهم يذكرونه، أو لأنه يذكّر الناس بربهم.

٤- **المصحف**: أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ (عبس:١١- ١٦)، سمي بذلك؛ لأنه مدون في صحف.

ثالثاً: خصائص القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥- ١٦)، فقد وصف الله تعالى القرآن بعدة صفات وخصه بعدة خصائص[1] نذكر منها:

١- إنه وحي أنزله الله تعالى بمعانيه وألفاظه العربية على رسول الله ﷺ. قال تعالى فيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٣)، وقال تعالى في لغته: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٢- ١٩٥)، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣)، وهو بذلك يختلف عن الكتب السماوية السابقة: كالتوراة،

(١) انظر: الشيخ محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى،ص ٦١، وما بعدها؛ القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن، ص١٧، وما بعدها.

والإنجيل؛ لأنها نزلت بغير العربية. كما أنه يختلف عن الأحاديث النبوية؛ لأن معانيها ملهمة للرسول ﷺ من الله، ويعبر عنها الرسول ﷺ بألفاظ من عنده[1].

٢- وهو مصون من التحريف والتبديل، إذ نقل بطريق التواتر الذي يفيد قطعية الثبوت، حيث نقله عن الرسول ﷺ جموع من الصحابة يستحيل تواطؤهم على الكذب أو الوهم أو الخطأ، ونقله عن هذه الجموع جموع أخرى يستحيل تواطؤهم على الكذب. وهكذا تم نقله في كل عصر حتى وصل إلينا مكتوباً في المصاحف محفوظاً في الصدور بلا تحريف ولا تبديل. وهو مما تكفل الله بحفظه، وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، أما الكتب السماوية السابقة فلم تسلم من التحريف والتبديل وانقطاع السند[2]؛ لأن الله لم يتكفل بحفظها، بل وكل حفظها للناس من الأحبار[3]. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ (المائدة:٤٤).

٣- وهو متعبد بتلاوته في الصلوات وغيرها؛ لما روي عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ (ألم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ»**[4]. وهو بذلك يختلف عن الأحاديث النبوية والقدسية.

(١) مالك بن نبي، القرآنية الظاهرة، ص١٣٩.
(٢) انظر: الظاهرة القرآنية؛ وعلاء الدين المدرس، العقل: دراسة مقارنة للكتب المقدسة، ص١١، وما بعدها.
(٣) دراز، النبأ العظيم، ص ١٣؛ والظاهرة القرآنية، ص ١٠١.
(٤) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب من قرأ حرفا، (٢٩١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

٤- وهو معجزة لغوية، وعلمية، وتشريعية، وغيبية للبشر على مر العصور، ففي مجال الإعجاز اللغوي أفحم القرآن الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، ولو اجتمعوا، وكان بعضهم لبعض ظهيراً[١]. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، وهو بذلك لم يخرج عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب، وهو ميسر للفهم وإدراك معانيه لمن يملك الملكة اللغوية. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧).

٥- وهو شامل لكل قضايا الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، فقد جعل الله تعالى القرآن منهاج حياة كاملة دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج مع جزئية أخرى؛ قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، كما أن هذه الجزئيات تنسجم مع الفطرة الإنسانية ولا تصطدم واحدة منها معها، أو تقصر عن تلبيتها.

٦- وهو خاتم الرسالات السماوية المنزلة إلى الأرض، فليس بعده كتاب أنزل؛ لأنه بنزول آخر آية فيه اكتمل الدين، وانقطع الوحي. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «هذه أكبر نعم الله، عز وجل، على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء»[٢].

(١) دراز، النبأ العظيم، ص ٧٩، وما بعدها.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٣/٢.

٧- وهو كتاب الله الخالد، الباقي إلى آخر الزمان، أنزله الله ليكون مناراً ومرجعاً للأجيال المتعاقبة، ولا يختص بجيل نزوله أو بفترة معينة. ولا يرفع من الأرض إلا في آخر الزمان عند قيام الساعة؛ وبعد مجيء العلامات الكبرى التي تعقبها الساعة مباشرة مثل: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة؛ كما قال السيوطي. ومما يؤيد ذلك: طبيعة آياته وما تحويه من العقائد الصحيحة، ومكارم الأخلاق، والتشريعات المتعددة المجالات والمنسجمة مع الفطرة الإنسانية، والصالحة لترتيب شؤون الإنسان وتنظيم علاقاته مع الآخرين. ومما يؤيد ذلك أيضاً: ما رُوي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ألا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**»؛ فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...**»[1].

٨- وهو المصدق والمهيمن لما قبله من الرسالات السماوية السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨).

(١) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب من اقرأ حرفا، (٢٩٠٦) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

٩- وهو كتاب عالمي النزعة، حيث إنه جاء ليخاطب بتكاليفه العقائدية والأخلاقية والتشريعية جميع الناس، من عرب وعجم، وممن اعتنقوا رسالة سماوية سابقة، وممن لم يعتنقوا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ:٢٨)، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقال ﷺ: «**كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**»[1]. وقال ﷺ: «**وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»[2].

١٠- وهو كتاب هداية للإنسان؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.. السلام الغائب في هذه الأيام. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾. فهداية القرآن للإنسان شاملة لكل ما يحتاج إليه في الدنيا والآخرة. وهي من شأنها أن تربط بين العقيدة والعمل، وبينها وبين النظام، وهي تحرر العقل من الوهم والخرافة، وهي تقدم للإنسان عبادة متوازنة بعيدة عن التكاليف الشاقة، التي تعمل على تعذيب الجسم، وبعيدة عن التكاليف السهلة التي تشيع في النفس الاستهتار وعدم المبالاة. وهي تقدم له شريعة تتسم بالوسطية؛ بعيدة عن التطرف، والتأثر بالهوى والمصلحة الشخصية.

وفي الجملة، فهي هداية تدفع الطاقات البشرية الصالحة للعمل والعطاء والبناء.

(١) صحيح مسلم ، كتاب المساجد، باب ابتناء مسجد النبي، رقم: (٥٢١).

(٢) المرجع السابق رقم: (٥٢٣).

المبحث الثاني

الأدلة على مصدرية القرآن

لم يتعرض كثير من علماء الأصول القدامى للأدلة على مصدرية القرآن الكريم أو حجيته؛ باعتبار أنها كانت في عصرهم بدهية، ومعلومة من الدين بالضرورة[1]، لكن وجد في هذا العصر من أشار إليها، وأبرز بعض الأدلة[2]؛ وذلك لتغير اهتمامات الناس واختلاف عصورهم. ونحن سنذكر هذه الأدلة بشيء من التفصيل في القرآن، والسنة، والآثار، والإجماع، والمعقول. وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: فمن القرآن وردت عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:٤٠)، فهي تقرر أن الله تعالى هو مصدر التشريع والحكم والتصرف والمشيئة. وهي مقصورة عليه بحكم ألوهيته. إذ الحاكمية أولى خصائص الألوهية. فكل من ادعى أن له الحق في التشريع والحكم؛ سواء أكان فرداً، أم جماعة فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته[3]؛ ولأن العبادة أو الدينونة لا تكون إلا لله وحده، سواء تعلقت بشعيرة تعبدية، أو بتوجيه أخلاقي، أو بشريعة قانونية. وهذا هو الدين القيم

---

(١) انظر: البابرتي، التقرير لأصول البزدوي، ١/١٣٠.

(٢) انظر: خلاف، علم أصول الفقه، ص٢٤؛ وبدر المتولي، تيسير أصول الفقه، ص١٠٨؛ والزحيلي، أصول الفقه، ص٢٤.

(٣) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٣٠٩.

الذي دعانا إليه الله سبحانه وتعالى، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بحقيقة هذا الأمر.

ثانياً: وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٦- ٥٩)، فالخطاب في هذه الآيات موجه إلى الرسول ﷺ: بعد أن عرض عليه المشركون أن يوافقهم على دينهم، فيوافقوه على دينه! وأن يسجد لآلهتهم، فيسجدوا لإلهه!. فطلب الله منه: أن يواجه هؤلاء المشركين، ويفاصلهم في ذلك الأمر الذي لا يقبل المساومة، وأمره بأن ينتهي عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله، ويتخذونهم أنداداً لله؛ لأن ذلك لا يصدر من المشركين إلا عن الهوى، ومن يفعل ذلك فقد ضل ولا يهتدي[1].

ثالثاً: وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة:٢١٣)، هذه الآية تقرر حقيقة أساسية: وهي تحديد جهة تلقى الناس تصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وشرائعهم التي تفصل بينهم في كل ما يشجر

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦٤؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣ / ٥٥.

بينهم من خلاف في شتى صور الخلاف الذي هو من طبيعة البشر. هذه الجهة هي جهة واحدة، لا تتعدد؛ وهو الله سبحانه وتعالى الذي أنزل الكتاب بالحق على رسله؛ وهي في الأصل واحدة لا تتعدد لكن الكتب السماوية السابقة امتدت إليها يد التحريف والتزييف، ولا يمثل هذه الجهة اليوم إلا القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه. وأما ما عداه من الكتب السابقة فهي محرفة، واختلطت فيها كلمات الله تعالى بأقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم. فلا حق فيها، ولا تستقيم بها الحياة؛ ولا ينتهي الناس بها مما حلَّ بهم من خلاف وفرقة؛ ولا يقوم بها على الأرض السلام[1].

رابعاً: وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥) قال ابن كثير في بيان معنى قوله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: «سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه»[2]. ويتجلى في ذلك: السمع لكل ما جاء الناس من عند الله، والطاعة لكل ما أمر به الله. فهو إفراد الله بالسيادة والحاكمية، والتلقي منه في كل أمر؛ كما بينا من قبل. فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله، وإنفاذ لنهجه في الحياة. ولا إيمان لمن أعرض عن أمر الله في الكبيرة والصغيرة من

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن،١/١٩٤.
(٢) تفسير ابن كثير،١/٧٢٩.

شؤون الحياة، وأنكره؛ أو أقر بغير شريعته، أو تلقى تصوراته عن غير الله في الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة. فالإيمان ما وقر في القلب، وصدقه العمل. والمنطق السليم يقتضي أن ترجع الأحكام والتصورات إلى مصدر ثابت لا يميل مع الهوى حيث مال، ولا تغلبه النزوة، ولا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى[1].

خامساً: وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، فإذا حكم الله ورسوله في أي أمر من الأمور؛ فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار له، وإنما عليه تنفيذه والتسليم به. قال سيد قطب: «فقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة. منهج حياة واقعية. جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها. ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب»[2].

سادساً: وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١)، فقد أخبر تعالى عن صفة من صفات المؤمنين المفلحين، وهي الاستجابة لله ولرسوله، فهم لا يبغون دينًا سوى كتاب الله وسنة رسوله، ويؤكدون ذلك بقولهم: ﴿سَمِعْنَا

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦١/١.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٧٣/٢.

﴿وَأَطَعۡنَاۚ﴾[1]؛ وذلك لأن حكم الله هو الحكم العادل والمبرأ من مظنة الحيف. فلا يظلم أحداً، ولا يحابي أحداً، وكل خلقه أمامه سواء. أما حكم غير الله من البشر فهو مظنة الحيف؛ فهم لا يملكون أنفسهم، وهم يشرعون ويحكمون؛ أن يميلوا إلى مصالحهم. سواء أكانوا أفراداً، أم طبقة، أم دولة. وحين يشرع الفرد أو يحكم؛ فلا بد أن يلحظ في ذلك حماية نفسه وحماية مصالحه. وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة، وحين تشرع دولة لدولة. أو كتلة من الدول لكتلة. فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة. إنما هي العدالة المطلقة، التي لا يطيقها تشريع غير تشريع الله، ولا يحققها حكم غير حكمه. من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر؛ ولا يحبون للحق أن يسود[2].

سابعاً: ومن السنة قول الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به**»[3] فلا يؤمن أحدكم: الإيمان الكامل، الذي وعد الله أهله بدخول الجنة، والنجاة من النار، حتى تكون نصوص هذه الشريعة المطهرة الكاملة من قرآن وسنة مقدمة على الرأي والهوى، وما تميل إليه النفس.

ثامناً: ومن الآثار ما رُوي عن عُبَادة بن الصامت، رضي الله عنه، أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: «ألا أنبئك بماذا عليك

(١) تفسير ابن كثير، ٧٥/٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٩٠/٥.

(٣) ابن بطة، الإبانة الكبرى، ١ / ٢٩٨. وقال ابن حجر في الفتح (ج ٢٠ / ص ٣٦٤): أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

وَمَاذا لك؟ قال: بلى. قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومَنْشَطك ومكرهك، وأثرةً عليك. وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمرَ أهله، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فاتبع كتاب الله»[1]

تاسعاً: ومن الإجماع ما ذكره القرطبي: «وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إن هناك طريقاً آخر يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر، يُقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب»[2].

عاشــراً: ومن المعقول أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي ظل سليماً وخالياً من أي تحريف أو تبديل. ويشـهد لذلك إعجازه البياني. فبالرغم من أن هذا القرآن قد تعرض في زمن الفتن ونشوء الفرق لمحاولات التحريف والتغيير؛ لتثبت كل فرقة دعواها، إلا أن نصوصه ظلت محفوظة كما أنزلها الله؛ حجة باقية، ومعجزة خالدة، يتحدى ببيانه البلغاء والفصحاء[3].

(١) تفسير ابن كثير، ٦/٧٥.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٣٤٥٦.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/٤٢١.

المبحث الثالث

آثار مصدرية القرآن الكريم في النشاط الفكري

شهد العالم بنزول القرآن الكريم تحولاً هائلاً في حياة الناس، حيث نشطت له نفوس لبت نداء ربها، فأحياها وجعل لها نوراً تمشي به في الناس وسارت معه قافلة الحياة على هدى ونور، وتفجرت به ينابيع الحكمة، وامتدت به أنهار المعرفة، وعرف به النشاط الفكري طريقه، فسار على منهج واضح، وخطوات مرتبة؛ ووصل الإنسان إلى حد الفاعلية.

وقد ترتبت على ذلك آثار متعددة في المجال الفكري منها التغيير في الثقافة السائدة، والمصطلحات المتداولة، والحضارة والمدنية، والتشريع والأنظمة، واللغة المحلية.

ولكن المنطق يقتضي التعرض للأسباب الداعية إلى تلك الفاعلية، التي اكتسبها الإنسان، قبل بيان تلك الآثار.

وفيما يلي بيان لكل من تلك الأسباب، وآثار هذا القرآن في صور النشاط الفكري:

أولاً: القرآن والأسباب الداعية لفاعلية الإنسان في النشاط الفكري:

الناظر في القرآن الكريم يجد أنه يتضمن الأسباب الرئيسة لفاعلية الإنسان في النشاط الفكري، والقيام بالدور الحضاري المنشود. وتتمثل هذه الأسباب في عدة توجيهات قرآنية وهي:

١- تذكير الإنسان بمركزه في الكون:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠) فمنذ أن خلق الله تعالى الإنسان: (آدم عليه السلام) وأهبطه إلى الأرض أخبر الملائكة أنه سيكون خليفة الله في الأرض، فأشاروا عليه بعدم فعل ذلك؛ لئلا يفسد في الأرض، ويسفك الدماء. لكن الله تعالى لم يلتفت إلى تلك المشورة، وأنفذ ما قرره، وسلم إلى الإنسان منذ ذلك الوقت زمام هذه الأرض، وأطلق فيها يده، وطالبه بإبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وأسرار، وكنوز وخامات. وزوده للقيام بهذه المشيئة الإلهية والمهمة الضخمة بطاقات واستعدادات وقوى قادرة على تحقيق ذلك. كما أنه تعالى سخَّر للإنسان كل ما تحتويه هذه الأرض من غير الإنسان.

وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على أن القرآن الكريم لا يقدم الحياة الآخرة بديلاً عن الحياة الدنيا، ولا العكس. وإنما يقدمهما معًا في طريق واحد، وبجهد واحد، ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة؛ دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج. ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل والتصور الإسلامي[1].

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٧/ ٣٧.

ويترتب على ذلك أن المسلم يعتبر ما يقوم به من الإبداع الفكري والثقافي والعلمي، والإنتاج المادي والتنمية الاقتصادية مما يؤدي إلى تحسين واقع الحياة المادية؛ مكملاً لما يقوم به من العبادة والإيمان والتقوى.

٢- تعريف الإنسان بوظيفته في الحياة:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦- ٥٨)، هذه الآيات تقرر حقيقة كبرى وضخمة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، وهي تحقيق العبودية لله تعالى في الحياة وهي تتمثل في توحيد تلقي العقائد والعبادات والشرائع والقوانين والقيم والموازين، بحيث تكون من الله تعالى وحده. ويترتب على ذلك حرية المسلم وانطلاقه في الحياة دون قيود وأغلال من: الأهواء والشهوات، والأوهام والخرافات، والأعراف والعادات، والكهنة والطغاة وغير ذلك[1].

٣- الدعوة إلى إعمال العقل والنظر والتأمل:

دعا القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى إعمال العقل بالنظر والتأمل والتفكير والإدراك، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ

(١) المرجع السابق، ١/٣٢٨.

ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٤- ١٨٥)، والتفكير مطلوب من المسلم على سبيل الوجوب أو الفرض[١]، قال الشافعي، رحمه الله: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»[٢] وفي آلية التفكير قال ابن القيم: «الفكر هو إحضار معرفتين في القلب؛ ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثال ذلك: إذا أحضر في قلبه العاجلة (الدنيا) وعيشها ونعيمها، وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها، ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين؛ أثمر له ذلك علماً ثالثاً، وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة»[٣]

ويترتب على إعمال الإنسان للعقل بالنظر والتفكير نفض الغبار عن الفطرة الإنسانية، وإيقاظ المشاعر من غفلتها، والبحث عن الحجج والبراهين لما هو مطروح على الإنسان، وعدم الركون إلى **التقليد الأعمى** للآباء والأجداد وغيرهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة: ١٠٤).

---

(١) انظر: القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم، ص١٣، وما بعدها؛ العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص٧، وما بعدها.

(٢) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ١/١٨٠-١٨١.

(٣) المرجع السابق.

٤ – الدعوة إلى العلم:

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ١- ٥)، فقد كانت كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ أول ما نزل من القرآن الكريم، وهي في الحقيقة تعد مفتاح العلم أياً كان نوعه. ولم يقف القرآن عند هذه الكلمة، وإنما رفع من قدر العلم والعلماء، وأعلى من شأنهم، وجعلهم في درجات عليا قريبة من ربهم. قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، وقد اعتبر النبي ﷺ طلب العلم فريضة شرعية في قوله: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1]. وجعل العلماء هذه الفريضة على مرتبتين:

الأولى: فرض عين: كتعلم أحكام العقيدة والعبادة على القدر الذي تصح فيه، وتعلم حسن المعاملة، وحدود المنكرات، وتعلم العلوم المسلكية لكل فرد بحسب ما يقوم به: كتعلم أحكام المعاملات المالية التجارية للتاجر، وأحكام الزراعة للمزارع وغير ذلك.

وأما المرتبة الثانية: فهي فرض كفاية: ويندرج تحتها بقية العلوم الأخرى، من الطب والهندسة والكيمياء والكهرباء والذرة والعلوم الصناعية والحربية. وهذا يدل على ضرورة التخصص في هذه العلوم، فإذا لم يوجد متخصصين في المجتمع الإسلامي أثم جميع أفراده.

(١) سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب فضل العلم، (٢٢٤) وهو صحيح.

فالمسلم بحمله العلم يحيا حياة ملؤها الحيوية والحركة والنشاط والاستشراف للمستقبل، ويمشي به في الناس وفق نور القرآن: يهدي الضال، ويطمئن الخائف، ويحرر المستعبد. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

٥- الدعوة إلى إعمال الحواس للإثبات والتثبت:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء:٣٦)، وشبيه بهذه الآية في النهي عن إتباع ما لا علم للإنسان به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٦٨- ١٦٩)، فلا يقول اللسان كلمة، ولا يروي حادثة، ولا ينقل رواية، ولا يحكم العقل حكماً، ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية، ومن كل ملابسة، ومن كل نتيجة، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها، بل لا بدَّ أن تكون مستندة إلى دليل يدعمها؛ وبمقدار صحة الدليل وقطعيته تكتسب القضية الصحة والثبوت. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة:١١١).

لكن ينبغي ملاحظة أن لكل قضية من القضايا، ولكل دعوى من الدعاوى نوع من الأدلة العلمية يناسبها، فالدعاوى المتعلقة بطبائع الأشياء

المادية يستدل عليها بالبراهين التجريبية المحسوسة. وأما الدعاوى المتعلقة بالمجردات فلا يقبل معها إلا براهينها المسلمة، وأما الدعاوى المتعلقة بحقوق الأفراد والجماعات فلا يقبل فيها إلا الشهادات المثبتة لها؛ وهكذا لا تصبح القضية حقيقة علمية إلا بوجود الدليل المناسب لها. ويترتب على استخدام وسائل البحث والتجريب والتطبيق، والوقوع في الخطأ والصواب بناء شخصية الإنسان وضميره وعقله وتفكيره. ويساعده في ذلك المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه، فهو يهيء له كل الوسائل التي تؤهله للقيام بالنشاط العلمي.

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا الصدد أن هذه التوجيهات لقلب المسلم لم تثمر ثمرتها إلا إذا كان هذا القلب يرتكز على قاعدتين أساسيتين وهما: العقيدة، والأخلاق.

القاعدة الأولى: هي العقيدة الإلهية، التي تقوم على أساس التوحيد والإيمان بالغيب واليوم الآخر. فعقيدة اليوم الآخر تلقي في روع المسلم أنه سيحاسب على كل عمل يقوم به في الآخرة؛ إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٨،٧)، وقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف:٢- ٥)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٥)، فإذا التقت

هذه التوجيهات مع تلك العقيدة انقلبت إلى قوة دافعة وطاقة متفجرة تبدع كل ما ينفع الناس في الأرض ويعمل على استقرار حياتهم وتقدمها. إذ أن هذه العقيدة تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية، وتمنحه الثقة والطمأنينة، والقدرة على مواجهة الصعاب، بقوة اليقين في التغلب عليها، وقوة الثقة في الله. وتجمع طاقاته وقواه كلها، وتدفعها في اتجاه واحد. وهي تدفع كلاً من الفرد والجماعة إلى التضحية في كل ما يملكون في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى[1].

وأما **القاعدة الثانية: فهي مكارم الأخلاق،** التي بعث النبي ﷺ ليتممها، حيث قال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2]. وهي لم تستمد من البيئة، ولا من العرف، ولا من الاعتبارات الأرضية؛ وإنما تستمد من السماء ومن القرآن والكتب السماوية الصحيحة، والتي قال النبي ﷺ فيها: «**إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأولى إذَا لمْ تَسْتَحْي فاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[3]. كما تستمد من صفات الله تعالى المدونة في القرآن والسنة والمراد تحقيقها في البشر؛ كي يحققوا بها إنسانيتهم العليا.. كما تستمد هذه الأخلاق من سيرة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى وصف أخلاقه بأنها عظيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).. وهذه الأخلاق مستقرة في شعور الإنسان وسلوكه، وفي أعماق ضميره. وهي تجعله أميناً على كل ما يصل إليه من عقائد وتوجيهات وتشريعات ونتائج البحوث والدراسات.

---

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٩/٧.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، ١٠/ ١٩٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي، (٦١٢٠).

ثانياً: القرآن وصور من النشاط الفكري التي تأثرت به:

كان للقرآن الكريم آثار واضحة في كثير من صور النشاط الفكري للإنسان،سوف اقتصر منها على المنهج العلمي، والثقافة، والحضارة، والتشريع، واللغة العربية. وفيما يلي بيان ذلك:

١- أثر القرآن في المنهج العلمي:

يعدّ القرآن الكريم نقلة نوعية في مجال المنهج العلمي، فبعد أن كانت الأمم السابقة تعتمد في تقرير الإيمان بالله على النقل والتقليد للآباء والأجداد جاء القرآن ليبنى الإيمان بالله على النقل والعقل والنظر في الكون ومخلوقات الله البديعة[1]. ومن الأدلة على ذلك ما جاء في قصة، إبراهيم عليه السلام، مع قومه في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٥- ٧٩)، فقد خلص إبراهيم، عليه السلام، من الدرس بأن هذه العوالم لا تملك من أمرها شيئا،فضلاً عن أن تملكه لغيرها، وأن لها خالقًا، وعلى الناس أن يتوجهوا إليه.

---

(١) انظر: أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص٢٠٠، وما بعدها؛ والدسوقي، منهج البحث في العلوم الإسلامية، ص١٥، وما بعدها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فنجد في القرآن بلورة علمية للمنهج التجريبي، وبالرغم من أن التعلم بالتجربة قديم قدم الإنسان، إلا أن تحول التجربة والملاحظة إلى منهج علمي، وإبرازه إلى صوامع العلم جرى في العهد الإسلامي[1]، فبدأ القرآن بإيحاءات له في الآيات التي تتحدث عن العبرة والاعتبار. ففي قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (الحشر: ٢)، إشارة إلى أنه ينبغي العمل على أساس أن رصد ظاهرة ما لنأخذ منها درساً، أو فكرة. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف:١١١)، فعلى الإنسان أن يعيش تجارب الآخرين، حتى يستطيع أن يستنتج من تجاربهم فكراً يمكن أن يتحرك من خلاله لاستنتاج فكر آخر أو لإغناء فكر آخر. وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذا المنهج في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (البقرة:٢٦٠).

ولما توسعت العلوم وازدهرت في العالم الإسلامي استعمل العلماء المسلمون المنهج التجريبي، واستخرجوا المجهول من المعلوم، واستنبطوا العلل من المعلولات، ولم يسلموا إلا بما يثبت بالتجربة والترصد. ومن العلماء المسلمين الذين برزوا في هذا المجال واعتمدوا التجربة منهجاً أساسياً في المعرفة؛ جابر بن حيان (ت:٢٠٠هـ=٨١٥م)، والحسن بن الهيثم (ت: نحو ٤٣٠هـ= نحو ١٠٣٨م).

---

(١) انظر: عبد الكريم بكار، مفاهيم قرآنية في البناء والتنمية، ص٩٧، وما بعدها؛ وقاموس القرآن الكريم، ص٨٠، وما بعدها.

والحقيقة، يعد هذا المنهج من أفضل مناهج البحث العلمي؛ لأنه يعتمد بالأساس على التجربة العلمية القائمة على قواعد المنهج العلمي، وإدراك المحسوسات مما يتيح فرصة عملية لاختبار الاستنتاجات للتأكد من تطابقها مع الحقائق الموضوعية، الأمر الذي يقدم أسساً لوضع القوانين عن طريق هذه التجارب. وقد دلت الفطرة على أن إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية.

٢- أثر القرآن في الثقافة:

كان القرآن الكريم المؤثر الأول في ثقافة الأمة العربية التي نزل فيها، فقد صاغها صياغة جديدة، فغيّر كثيراً من مفاهيمها وطبائعها ومثلها وقيمها وعاداتها وتطلعاتها، بعد أن كانوا يعيشون حياة جاهلية، يسجدون فيها للحجر والشجر والحيوان، وتهضم فيها حقوق الناس، ولا يثاب فيها المحسن على إحسانه ولا يعاقب العاصي على معصيته، وكان الدين فيها سطحياً، ليس له سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم، ولا تأثير له في أخلاقهم واجتماعهم. كما بيّن ذلك ربعي بن عامر، رضي الله عنه، الذي ذهب إلى لقاء (رستم) بناء على طلب منه، ولما دخل عليه وجد الحرس قد زيّنوا مجلسه بالنّمارق المذهّبة، والزّرابي الحرير، واليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتِكم،

وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإما تركتموني هكذا، وإلا رجعت. فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النّمارق فخرّق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعودُ الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي»[1].

وبهذا استطاع القرآن الكريم بما فيه من تصورات وأخلاق وتشريعات أن يغير ثقافة الجاهلية العربية في بنائها الروحي والخلقي والاجتماعي والسياسي، ويتفوق عليها، لتحل محلها الثقافة الإسلامية الأصيلة التي تقوم على أساس التوحيد والأخلاق الفاضلة، والتورع عن المعاصي والآثام، فترك العرب الشرك، والكذب، والظلم، ووأد البنات، وأكل الربا، والميسر، وشرب الخمر وغير ذلك، وأخذوا بالعقيدة الصحيحة، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأقروا بحقوق الإنسان، ورعاية البيئة وغير ذلك. ولم يقتصر هذا على العرب في الجزيرة العربية، وإنما تعدى ذلك إلى غير العرب من الفرس والروم وغيرهم، حيث تأثروا بثقافة القرآن الكريم.. ومن الشواهد على ذلك تأثّر الأدباء الفرس من الشعراء والكتاب به، فقد كانوا في مختلف المواضيع والأطوار والأساليب الشعرية الفارسية - على مدى التاريخ- يلجأون إلى المفاهيم والتعاليم القرآنية لنقل أفكارهم. وألف الدكتور محمد شهاب العاني كتاباً في أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي، حيث أثبت

(١) الكاندهلوي، حياة الصحابة، ١/٢٣٧.

فيه حقيقة الأثر القرآني في الشعر الأندلسي وطبيعتها. ومن أقوى الشواهد على ذلك أن القرآن الكريم استطاع أن يغير ثقافة الغزاة التتار، فدخل كثير منهم في الإسلام[1].

٣- أثر القرآن في الحضارة:

الحضارة كلمة جامعة تعنى بنشاط الإنسان في مجال العلوم الطبيعية والفنون والآداب والسياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك. فهي تختلف عن الثقافة التي تعني المعرفة بصفة عامة. أما أثر القرآن الكريم في الحضارة فيظهر من خلال عرض القرآن للحضارات التي اندثرت مثل **حضارة ثمود**، التي قال الله تعالى فيها: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء:١٤٦- ١٥٢)، **وحضارة سبأ** التي قال الله تعالى فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (سبأ:١٥- ١٧)، **وحضارة الفراعنة** التي قال الله تعالى فيها: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ

(١) انظر: أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص٤٧، وما بعدها.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص:٧٦- ٧٧)، وقد بيّن فيه مقومات وجود الحضارة الصالحة وهي: توافر الناحية المادية من بيئة صالحة، واقتصاد قوي، ووجود نظام سياسي، ووجود الناحية المعنوية من إيمان بالله، وأخلاق فاضلة، وقيم معتدلة. كما بيّن فيه أسباب اندثار الحضارات من طغيان الجانب المادي، والغرور الفكري والمادي، والظلم للناس، وفساد نظام الحكم وغير ذلك[١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما أسهمت الحضارة الإسلامية في تقدم البلاد المفتوحة، وعملت على جعلها مشاعل نور تحمل العلم والمدنية، ويؤمها رواد العلم والتحضر. ومن هذه البلاد: الأندلس، التي كانت قبل الفتح الإسلامي لها تعيش في ظلام دامس وجهل مطبق، ومما يؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في وصف الجلالقة الذين كانوا يسكنون شمال أسبانيا بأنهم:

«أهل غدر، ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد. ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تَنعُم به أجسامهم وتصح أبدانهم، وثيابهم أضيق الثياب وهي مفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم..»[٢].

---

(١) عبد الحكم الصعيدي، حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص٣١ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص ٣٠.

أما بعد الفتح الإسلامي للأندلس فقد ظلت بقية أوربا تزخر بالجهل والأمية والحرمان، بينما أصبحت الأندلس تحمل إمامة العلم وراية الثقافة. ومما يدل على ذلك ما قاله المستشرق الهولندي «دوزي» (ت: ١٨٨٤م) في وصف البلاد الأوربية: «إن في كل الأندلس لم يكن يوجد رجل أمي، بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفة أولية إلا الطبقة العليا من القُسس»[١].

وقد ازدهرت العلوم في جامعات الأندلس في كل من قرطبة وأشبيلية، ومالقة وغرناطة كما ازدهرت في غيرها من البلاد الإسلامية، وكان التعليم في الأندلس شاملاً لكل أنواع المعرفة من الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والعمارة والهندسة، والصناعة، والفلك، والطب، والصيدلة، والزراعة وعلم النبات. وقد أصبحت جامعات الأندلس منارة لطلاب العلم، حيث يفدون إليها من كل أنحاء أوربا حتى بلغوا عدة آلاف، وكان من بين هؤلاء الطلاب الراهب الفرنسي «جربرت» الذي تقلد منصب البابوية في الفاتيكان تحت اسم «سلفستر الثاني»، حيث قضى ثلاث سنوات في جامعات الأندلس يدرس على أيدي العلماء المسلمين الرياضيات، والكيمياء، والفلك وموضوعات أخرى، وحينما عاد إلى وطنه بعد أن بلغ من العلم مبلغاً خيل لعامة فرنسا إذ ذاك أنه ساحر. ومن الأندلس انتقلت الحضارة الإسلامية إلى باقي الدول الأوربية[٢].

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق؛ وخالد العبيدي، القرآن منهل العلوم، ص٥١ وما بعدها.

٤- أثر القرآن في التشريع:

التشريع مصدر شرَّع كالشرع مصدر شرَع، المراد به: وضع أحكام للناس ليعملوا بها، ولتطبق على ما يصدر عنهم، فإن كان واضع هذه الأحكام هو الله تعالى سمي شرعاً أو تشريعاً إلهياً، وإن كان الواضع لها الناس سمي شرعاً أو تشريعاً وضعياً. والأحكام التي جاءت في القرآن الكريم تتنوع إلى أربعة أنواع وهي: العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات. والنوع الأخير هو ما يتعلق بالارتباطات التعاملية بين الأفراد والجماعات، وهو الذي يطلق عليه التشريع، وهو يقابل القوانين الوضعية على اختلاف أنواعها. وقد جاء القرآن الكريم في مجال التشريع بعدة مباديء أساسية كان لها تأثير واضح في التشريعات اللاحقة، ومن ذلك:

أ- جاء القرآن الكريم بمنهج للتشريع يتضمن الرد إلى النصوص، وبالقياس والاجتهاد فيما لا نص فيه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء:٥٩)، فهي تقتضي رد المتنازع فيه من قضايا التشريع إلى نصوص القرآن والسنة التي تنطبق عليه ضمناً. فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فيرد إلى المبادئ الكلية العامة الموجودة في الكتاب والسنة. وهي تغطي كل جوانب الحياة الأساسية[1].

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/ ١٦٤.

ب- القرآن في تشريعه يقرر المساواة بين الناس، فلا محاباة فيه لفرد، ولا لطبقة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لجيل من البشر على جيل؛ لأن واضعه هو الله رب الجميع، الذي على مسافة واحدة من جميع الناس. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات:١٣)، وهو بذلك يختلف عن القانون الروماني الذي يقرر أن للرومان دون غيرهم الحقوق، أما الواجبات فتكون على جميع السكان.

ج- تشريع القرآن يسوي في أحكامه الإنسانية بين الرجل والمرأة، إلا ما يوجبه النظام الاجتماعي من تفرقة جزئية؛ ليست بكلية. فهو يعترف بالشخصية الإنسانية الكاملة للمرأة، ولها ذمة مستقلة عن والدها أو زوجها. قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ (النساء:١٢٣- ١٢٤)، وهو بذلك يختلف عن القانون الروماني الذي لا يعترف للمرأة بالشخصية الكاملة ولا بالشخصية الناقصة، فهي أَمَة في بيت أبيها، ثم تصير أمة في بيت زوجها.

د- تشريع القرآن يبيح البيع ويحرم الربا. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(البقرة:٢٧٥).

هـ- تشريع القرآن يعترف بالولاية الكاملة لكل من بلغ الرشد، وكمل عقله. قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء:٦)، في حين أن القانون الروماني لا يعترف للرجل بالولاية ما دام أبوه على قيد الحياة؛ إلا إذا منحه أبوه الولاية.

و- تشريع القرآن جاء بتوزيع عادل لتركة المتوفى، وهو ينسجم مع الفطرة الإنسانية، ويحقق تفتيت الثروة بين قرابة المتوفى جميعهم، دون حصرها في بعضهم. قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١١)، وهو بذلك يختلف عن القوانين اليونانية التي تجعل التركة للابن الأكبر فقط.

٥- أثر القرآن في اللغة العربية:

إن اللغة العربية هي أقدم اللغات على الإطلاق، كما رجحت الدراسات الحديثة، وأنها اللغة التي علّم الله بها آدم الأسماء كلها، وهي لغة أهل الجنة؛ كما رُوي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال : قال

رسول الله ﷺ: «**أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**»[1].

وقد كان للقرآن الكريم آثار كثيرة في اللغة العربية، نذكر من أهمها[2]:

أ- خلود اللغة العربية والمحافظة عليها من الضياع، حيث اكتسبت الخلود والبقاء من خلود القرآن؛ فكل عدوان على اللغة العربية يعتبر عدواناً على القرآن. وقد تكفل الله بحفظه، وهيأ له العامة والخاصة من العلماء للتصدي لكل المؤثرات التي تحاك ضد اللغة باعتبارها لغة القرآن، يدافعون عنها، ويذودون عن حياضها، ولذلك فإن بقاء اللغة العربية إلى اليوم وإلى ما شاء الله راجع إلى الدفاع عن القرآن.

ب- القرآن عمل على تقوية اللغة والرقي بها نحو الكمال؛ عن طريق إضافة المعاني الفياضة، والألفاظ المتطورة، والتراكيب الجديدة، والأساليب العالية الرفيعة، فأصبحت بذلك محط جميع الأنظار، والاقتباس منها، وغدت هذه اللغة تتألق وتتباهى على غيرها من اللغات بما حازت عليه من محاسن الجمال وأنواع الكمال، وفي هذا يقول الرافعي، رحمه الله: «نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين مع تعليقات الذهبي في التلخيص،٦ /٤٤.

(٢) انظر: أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن في اللغة العربية، ص ٢٨، وما بعدها.

طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض».

وقال المستشرق «جورج سارنوت»: «ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة، وقد وهبها الرسول ﷺ مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد».

وقال «بروكلمان»: «بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا».

ج- القرآن عمل على توحيد لهجات اللغة العربية وتخليصها من اللهجات القبلية الكثيرة، فقد اقتصر نزول القرآن على سبعة أحرف (لهجات) وعندما قام عثمان، رضي الله عنه، بجمع القرآن رُوعيت في أغلبه لغة قريش؛ وذلك لأنها أسهل اللغات وأعذبها وأوضحها وأبينها، وكانت تحتوي على أكثر لغات العرب، وقد أدى إقبال المسلمين على تلاوة القرآن بلغة قريش إلى توحيد هذه اللغة واللسان.

د- القرآن عمل على تحويل اللغة العربية إلى لغة عالمية، فبعد أن كانت اللغة العربية لغة محلية، لا يتعلمها غير العرب؛ لأنه لم يكن للعرب قبل نزول القرآن شأن يذكر في مجال الحضارة أو الصناعة. وقد ظلت اللغة العربية كذلك، حتى جاء القرآن الكريم، فحمل المسلمون الدعوة الإسلامية إلى

غير العرب، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان أول ما يجب على من يدخل في الإسلام هو تعلم اللغة العربية لإقامة دينه، وتصحيح عبادته، فأقبل الناس في جميع البلاد المفتوحة في العالم على تعلم اللغة العربية، ووجدت فيها مراكز علمية لتعليمها، حتى برز فيها علماء متخصصون من غير العرب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عالمية الخطاب القرآني

الدكتور عبد الكريم حامدي (*)

لا تعني عالمية الوحي الاستحواذ والاستلاب والانغلاق، فلم يُلغ القرآن خصوصيات الشّعوب الثقافية واللغوية، بل حافظ على أعرافهم ومتطلّبات بيئاتهم فيما يتعلّق بأمور دنياهم، وفتح أبواب التفكير والابتكار والإبداع في مختلف العلوم والصّنائع والتّجارب بما يتلاءم وبيئاتهم وطبائع معايشهم.

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله، ويكافئ عظيم نعمه، ومنها نعمة القرآن الكريم، الذي أنزله تبياناً لكلِّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. هذا القرآن الذي جاء للعالمين مصدِّقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه، ففتح الله به قلوباً غلْفاً، وآذاناً صمًّا، وعيوناً عميًا، وانتشر هُداه شرقاً وغرباً حتى عمَّ نورُه المعمورة كالشّمس في رابعة النّهار وكالبدر

(*) أستاذ محاضر بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة باتنة (الجزائر).

في اللّيلة الظلماء. إنه القرآن الذي جاء خطاباً لكلّ النّاس لا فرق بين الأجناس والشّعوب والأقوام، يخاطب العقل والضّمير والوجدان في كلّ زمان ومكان على وجه البسيطة. فهو خطاب عالمي في دعوته، وفي إعجازه وتحدّيه، وفي رحمته وهدايته، وفي تشريعه وتكليفه، وفي حكمه وحاكميته، وفي ظهوره وشهوده.

وفي هذه الدّراسة سأتناول بالتّوضيح والتّحليل مظاهر عالمية الخطاب القرآني من خلال المحاور الآتية:

أولاً: نعمةُ القرآن وحاجة العالم إليه.

ثانياً: عالمية الدّعوة في الخطاب القرآني.

ثالثاً: عالمية الإعجاز والتحدّي في الخطاب القرآني.

رابعاً: عالمية الهداية والرّحمة في الخطاب القرآني.

خامساً: عالمية التّشريع والتّكليف في الخطاب القرآني.

سادساً: عالمية الحكم والتّحاكم في الخطاب القرآني.

سابعاً: عالمية الظّهور والشّهود في الخطاب القرآني.

أولاً: نعمة القرآن وحاجة العالم إليه:

لا شك أنّ القرآن من أكبر النِّعم التي أوتيها الإنسان؛ لما فيه من أسباب الهداية والإرشاد إلى معالم الخير والصَّلاح التي تسعد الإنسان في حياته الأولى والآخرة. فقد عرَّف الإنسانَ بربِّه وأسمائه وصفاته، وأرْشده إلى دلائل التّوحيد والإيمان، ومكّنَه من المعرفة الإيمانية القائمة على البرهان الصّادق والدّليل القاطع الموصل إلى اليقين، وأزال عن قلبه وعقله نوازغ الشّك والظّنون والأوهام. كما عرّفه بأنواع العبادات المزكّية لنفسه والمطهِّرة لروحه، من أذكار وصلوات وصيام وغيرها من ألوان العبادة القائمة على الحقِّ، ودعاه إلى الإخلاص في الطّاعة والقرْبة، وتجنّب الشّرك والعُجْب والرّياء لتحقيق العبودية الكاملة. كما هداه إلى محاسن الأخلاق ومكارمها سواء منها الفردية أو الجماعية؛ ليعيش مع غيره من أفرد المجتمع حياة قائمة على التآخي والتعاون والتسامح، ونهاه عن الأخلاق السيّئة التي تجلب الشّحناء والبغضاء بين الناس وتؤدي بهم إلى القطيعة والتدابر والخصام. ولعلَّ أجمع آية دلّت على هذه المعاني مجتمعة آية البرّ، في قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧).

فالقرآن هو النّعمة الكبرى التي تجلّت فيه رحمة الرّحمن بالإنسان[1]، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن:١- ٣)، فقد قرنت الآية بين تعليم القرآن وخلق الإنسان، في إشارة إلى هذه النّعمة التي تعرّف الإنسان من خلالها على قوانين الكون ونواميس الوجود، وفتحت عقل الإنسان على أنواع العلوم والمعارف، وسخّرت له ما في السّموات وما في الأرض. والقرآن هو النّعمة التي تنزلت بأنواع الكرامة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ (الواقعة:٧٧)، وأفاضت بألوان المجد والتّكريم على الإنسانية: ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ (الإسراء:٧٠).

فالعالم قبل نزول القرآن كان يعيش تحت وطأة الجهل، وطغيان الغرائز والشّهوات[2]: فالأولى حرمته من معرفة حقائق الإيمان وصدق الاعتقاد، فعاش في ضَلال الشّرك وعبادة الأوهام والخرافات، والثانية صدّته عن الحقّ والعدل والقسط، فعاش تحت وطأة الظّلم والاستعلاء، ولم يسعد الناس قبل مجيء القرآن بهذه النّعمة التي سعدوا بها من بعد مجيئه، فسَادَ الجهل والظّلم والعصبية والحمية القبلية. وكان من الممكن أن يعيش الناس قبل مجيء الوحي بأحسن مما عاشوا لو أنّ أهل الكتاب حافظوا على أصول التّوراة والإنجيل، ولم يمسّها التّحريف والتّزييف، لكن ما أصابها على أيدي الأحبار والقسّيسين جعلها كتُبًا بلا نُور ولا هداية، ففقدت بذلك سلطانها الدّيني والدّنيوي، ولم يكن بدّ من نزول القرآن ومجيء رحمته

(١) انظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط.١٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ٦/٣٤٤٦.
(٢) الغزالي، نظرات في القرآن (باتنة: دار الشهاب) ص: ١٩٠.

للعالمين ليحسِّن الحسن ويقبِّح القبيح، ويقيم الحقّ وينشر الخير والعدل والإخاء الإنساني.

ولا ريب أنّ نزول القرآن كان نعمةً ورحمةً للعالمين: للعرب وغيرهم من أهل الكتاب، أما العربُ فتجلّت تلك النّعمة في كوْن القرآن أوّل كتاب هداية يصلهم من لدن حكيم عليم، فلم يسبق أن نزل فيهم كتاب يعلّمهم ويرشدهم ويبني مجتمعهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (العنكبوت:٤٨)، إنما كانوا يحتكمون إلى أعرافهم وأهوائهم وما اجتمعت عليه كلمة رؤسائهم. أما غيرُهم من أهل الكتاب فكان القرآن نعمةً عليهم ورحمةً لهم؛ لأنه كشف أباطيل وزيف ما كانوا يعتقدون، فأمرهم بالرّجوع إلى القرآن الذي أقرّ ما جاء في كتبهم قبل التّحريف من الأصول وقواعد الاعتقاد الصّحيح، والاحتكام إليه في العبادات والمعاملات والقضاء والتشريع؛ لكون ما جاء في كتبهم أصبح لا يستجيب للمرحلة الجديدة. وبذلك دعا القرآن إلى وحدة دينية قائمة على الأصول التي جاء بها الأنبياء من قبل : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى:١٣). وهذا المسلك الجديد الذي انفرد به القرآن يمتاز بالإنصاف والأدب والحرص على إقامة أخوّة دينية نقية[١] بين المتديّنين من كلّ الأجناس والأعراق، فلا يشعرون بالفرقة والاختلاف، ولا بالتّمييز والعنصرية، ولا بالطّائفية والعرقية المقيتة؛ ذلك لأنّ رحمة القرآن تسعهم جميعاً ولا تفرّق بين أحد منهم.

---

(١) المرجع نفسه، ص١٣٥ .

ومن الدّواعي لإنزال القرآن حاجةُ العالم إلى رسالة تروي عطش النّفوس وظمأها الرّوحي[1] بعد أن أفلست الدّياناتُ السّابقةُ بفعل التّحريف والتّأويل الذي زاغ بالعقل البشري نحو الفساد والإفساد، وكذا حاجةُ المجتمع الإنساني إلى نظام تشريعي قادر على مواكبة التطوّر الإنساني والمعيشي والفكري؛ إذ لم يكن في إمكان الدّيانات السّابقة استيعابُ ذلك بفعل محدوديتها الزّمانية والمكانية. فحافظ القرآنُ على أصول التّوحيد مع تنقيتها من الشّوائب التي لحقته، كما أفاض في أوجُه الدّلائل الكونية والعقلية لإثباته والإقناع به، وشرَّع جملة من العبادات ثابتة الأصول في الدّيانات السّابقة مع تكييفها مع الواقع الجديد، وبين أصول الحلال والحرام في باب المعاملات والأخلاق والاجتماع البشري.

وقد حفظ الله هذا الوحْي العالمي مما تعرَّضت له الكتب السّابقة من التّحريف والتّبديل؛ ليكون خاتمة الحقائق العقدية والشّرائع العملية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وكي لا يكون التغير والتطوّر داعيًا لكتاب آخر قد يدّعيه المدّعون، ويتنبّؤه المتنبّئون، فجاء خطابه وافياً بمصالح الناس وحاجاتهم على مرّ العصور والدّهور. فمراد الله إذًا من وحيه قد تمّ بتمام النزول، وكمل بذلك الدّين، وتمت النّعمة الإلهية على العالمين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣)، فلا معقّب لأحد بعده.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٠.

وهكذا فإنّ العالم اليوم لا يحوي إلا خطاباً واحداً[1] من الله لعباده، هو الكلم المسطور، المنزّل من روح القدس على النبي محمد ﷺ، المنقول بالتواتر، المتعبَّد بتلاوته، المجموع بين دفتي المصحف الشّريف، المحفوظ على الدّوام: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (الأنعام:١١٥). ولا يسمع اليوم في القارّات الخمس إلا نداءات الوحي الشّجية، المتعالية من حناجر القرّاء الزّكية، تتلو على العالمين الحقائق الإلهية، وتنشر أنوار الهداية الربّانية.

إنّ عالمية الخطاب القرآني لا تعني الإكراه والقهْر الدّيني للشّعوب وإلغاء (الآخر)،كما يدّعيه الأفّاكون: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف:٥)، بل فتح للناس أبواب الهداية وتركهم يختارون ما يشاءون: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩)، كما لا تعني عالمية الوحي الاستحواذ والاستلاب والانغلاق، فلم يُلغ خصوصيات الشّعوب الثقافية واللغوية، بل حافظ على أعرافهم ومتطلّبات بيئاتهم فيما يتعلّق بأمور دنياهم، وفتح أبواب التفكير والابتكار والإبداع في مختلف العلوم والصّنائع والتّجارب بما يتلاءم وبيئاتهم وطبائع معايشهم، فهو يبارك ما جاد به العقل الإنساني عبر التاريخ البشري، ويحثّ على التّواصل الحضاري الموصل إلى كمال العمران: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات:١٣)، فعالمية القرآن قائمة على التّعارف لا التناكر، والتّواصل لا التقاطع، والتّعاون لا التّدابر.

(١) الغزالي، هذا ديننا (عنابة: دار المعارض) ص٢٠٤.

ثانياً: عالمية الدّعوة في الخطاب القرآني:

تجلّت عالمية الخطاب القرآني في دعوته التي لم تقتصر على جنس دون جنس ولا قوم دون قوم، بل جاء خطاباً مستوعباً وشاملاً للكلّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١)، بخلاف خطاب الكتب السابقة التي جاءت خاصّة لأقوام وشعوب مخصوصة الزمان والمكان. ومن هنا كانت دعوته العالمية إنسانية لا تعصّب فيها لقبيلة أو لأمّة، إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرّابطة القومية والعصبية[1] التي تجمع المؤمنين به وغيرهم من الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب:٧٠)، فالخطاب بالتّقوى في الآية للمؤمنين، ولم يستثن خطاب الناس أيضاً بالتقوى فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ (النساء:١)، فالناس كلهم مخاطبون بالتّقوى.

ولم تتأثر دعوة القرآن العالمية باللّغة التي نزل بها، ولا بالبيئة التي نزل فيها، ولا بالأشخاص الذين نزل فيهم، كما هو الحال بالنّسبة لعامّة الكتب والمؤلّفات، بل كانت الحقيقة المطلقة والمجرّدة وحدها هي المهيمن على خطابه، سواء في ذلك الخطاب العقدي، أو التشريعي، أو الخلقي.

فالخطاب العقدي جاء دعوة عامّة للعالم كلّه دون تمييز بين جهة وأخرى، ودون تخصيص لأقوام دون آخرين، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة:١)، وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الجاثية:٣٦)، وخاطب العالمين ببعثة رسوله ﷺ على اختلاف البيئات والجهات: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، وقرّر

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/٢١٩٠.

عبودية الإنسان لله رب العالمين من غير نظر إلى اختلاف الأعراق والأجناس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، ودعا العقول والأنظار والأفكار إلى البحث والنّظر في أدلّة عظمته ووحدانيته وربوبيته وألوهيته، من غير تمييز بين العالم والجاهل، والقارئ والأمي، والبدوي والحضري، والمؤمن والكافر: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:١٧- ١٩).

وجاء الخطاب التّشريعي أيضاً دعوة عامّة لكلّ البشر، بخلاف القوانين الوضعية توضَع لتعكس طبيعة البيئة والأعراف والحاجات السّائدة في أيّ مجتمع دون نظر إلى ما وراء ذلك، أمّا التشريع القرآني فجاء إنسانياً في نزعته وأغراضه، ومبادئه وأحكامه، ومثال ذلك ما جاء في سورة النّساء، حيث نجد الخطاب التّشريعي المتعلّق بنظام الزواج، وحقوق اليتامى، ونظام الإرث، وحقوق المرأة، وحقوق القرابة، ونظام الحكم، كلّ ذلك جاء دعوة عالمية مجرّدة عن البيئة التي نزل فيها، والأشخاص الذين نزل فيهم، فجاءت نصوص تلك الأحكام خالية من الإشارة إلى خصوص الزمن والبيئة التي نزلت فيها، وكأنها نزلت في أزمان متعدّدة، وتخاطب الإنسان في أوقات متباعدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١).

وكذلك الخطاب الأخلاقي في القرآن جاء دعوة عامّة إنسانية، أفراداً وأسراً وجماعات وشعوباً وقبائل، ولم يتأثر بعامل الزّمن أو المكان

أو الأشخاص، فجاءت قيم العدل والإحسان والمساواة والتّكافل والسّلم والسّلام والعفو والصّفح والإيثار، عامة في دعوة القرآن ومطلقة تخاطب العقل والرّوح والضّمير والوجدان[1].

وجاءت دعوة القرآن عالمية أيضاً؛ لما في الوحي من تحقيق لمطالب النّاس وحاجاتهم في كلّ زمان ومكان، فطالب الحقيقة الإيمانية يجد حاجته في خطاب القرآن ما يحقّق به الإيمان الصّادق القائم على الشّواهد والبيّنات، ويدفع به الشّك والارتياب، وطالب الحقيقة الرّوحية يجد حاجته في القرآن ما يحقق رغباته وأشواقه وأذواقه، وطالب الحقيقة الأخلاقية يرجع إلى القرآن فيجد ما تزكو به نفسُه وتتطهّر من الأرجاس، والباحث عن العلم والمعرفة يجد في القرآن ما يرشده إلى أصول المعرفة الكونية مما خلق الله في الأرض والسّماوات، وطالب القيم الجمالية يجد في القرآن ما ينمّي حاسّته الجمالية ويغذّي مشاعره الفنّية[2].

من هنا كان القرآن خطاباً دعوياً عالمياً لكلّ الناس، له بعد في الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، وله بعد في المكان حيث يمتدّ ليشمل العالم كله[3]. فهو في ترتيبه النزولي يشكّل منهجاً لتأسيس دعوة قائمة على الحجة والإقناع، والتبشير والإنذار، ودفع شبهات الكفر والإلحاد، وهو في ترتيبه المصحفي يشكّل دستوراً عالمياً[4] لم يترك صغيرة ولا كبيرة من حاجات الناس ومطالبهم إلا أحاط بها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النّحل:٨٩).

(١) انظر: البوطي، من روائع القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ٢١٦.
(٢) انظر: القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن، ط.٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ص٦٦.
(٣) انظر: الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص ٢١٤ .
(٤) انظر: عبد القادر عطا، عظمة القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية) ص ١٣٢.

ثالثاً: عالمية الإعجاز والتحدّي في الخطاب القرآني:

جاء الخطاب القرآني عالمياً في إعجازه وتحدّيه في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو كتاب أعجز العقل الإنساني أن يأتي بحديث مثله على مرّ العصور: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٣- ٢٤)، فالآية وإن نزلت تتحدّى العرب الذين نزل فيهم القرآن، إلا أنها عامّة لكلّ زمان، بدليل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾، فهو تحدّ مستمرّ ومتواصل، والجزم بعدم إمكانيته عبر الزمان أعجب، والخطاب للناس جميعاً ولو أنه كان في مواجهة العرب وقت النزول. [1] فالقرآن جاء ليفْصِل بين كلام الله تعالى المعجز وبين كلام غيره من الخلق، فلا تشابه ولا تماثل سواء في النّص والعبارة أو في الدّلالة والمعنى، مصداقاً لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٣- ٣٤)، فالتحدّي هنا قائم على أمرين عظيمين: [2]

الأول: أنّ كلمة (حديث)، تعني الكلام المتضمّن لحقائق مطلقة سبق بها القرآن، ويعجز العقل عن محاكاتها؛ ذلك أنّ الاختلاف الحاصل في كلام البشر، والتّداعي الذي يجعل بعضه يهدم بعضاً، والعجز الذي يحدّه عن البيان القاطع، والتّكرار الذي تتفاوت به النّسب في معرفة وإدراك

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤٩/١.

(٢) محمد العفيفي، القرآن القول الفصل بين كلام الله وكلام البشر (الكويت: دار السلاسل،١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص١٤٣.

الحقيقة، كلّ ذلك يجعل الحقيقة- إنْ ظهرت في أيّ كلام بشري- مسبوقة سبْقاً دائماً بالحقيقة القرآنية.

والثاني: أنّ كلّ حديث لا يكون حديثاً إلا إذا كان صادقاً صدقاً مطلقاً، وعادلاً عدلاً مطلقاً، وصادراً عن علم مطلق، وأنّى لكلام بشري أن يحمل هذه الخصائص، وبهذا يثبت انفراد حديث القرآن عن أحاديث البشر.

وإذا كان القرآن أعجز العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فكيف أعجز غير العرب الدين لا يعرفون هذا اللّسان؟

والجواب: أنّ العرب أعجزهم القرآن بالنّص والمعنى معاً؛ لأنهم يجيدون قراءة النّص ومعرفة أساليب البيان ويعقلون أيضاً معاني النّص ويتذوّقونها، أمّا غير العرب فإنهم وإنْ لم يجيدوا قراءة النّص بسبب العجمية، غير أنهم أدركوا المغزى العظيم الذي أنزل لأجله القرآن وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النّور. كيف كان حال العرب قبل مجيء القرآن؟ وكيف ارتقى بهم وبنى منهم أمّة قوّية متماسكة البنيان، عظيمة الشّان، دكّت حضارتين عظميين هما: حضارة الفرس والرّوم. كلّ ذلك بفعل القرآن الذي أحْدث التغيير وأحْكَم البناء وأنشأ أمّة من العدم أعادت إلى الوجود قيم العدل والحقّ والمساواة والإخاء الإنساني. فإعجازُ القرآن لم يكن فقط في عباراته وألفاظه وبلاغته وبيانه؛[1] لأن هذا متعذّر على غير العرب، وحتىّ في العرب مَنْ لا يتقن ذلك، وإنما كان الإعجاز الأكبر في معانيه ومقاصده الكبرى، وهي لا تخفى على العالمين.

ومن هنا فإنّ إعجاز القرآن لم يكن لغوياً فحسب، بل تعدّاه إلى ألوان أخرى، منها:

(١) عبد القادر عطا، عظمة القرآن، ص:٩٥ .

- **إعجاز النّص المجرّد:**[1]

فالنّص القرآني جاء مجرّداً ومطلقاً عن حدود الزّمان والمكان، ولم يذكر أسماء الأشخاص وأعيان الذّوات، ولا أسماء الوقائع والأحداث، ولا أحوال الطبائع والأعراف، وإنما اهتم بتصوير القيم الثّابتة والسّنن الباقية، التي لا تنتهي بانتهاء الحوادث، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى شاهدة وقائمة وماثلة لكلّ جيل ولكلّ قبيل. وسبب ذلك أنّ النّص جاء مطلقاً ومجرّداً للعمل به في كلّ الأوقات ولكلّ الناس، متى واجهوا مثل تلك الأحداث والوقائع على المدى الطويل. فالنّصوص ليست عبارات وقوالب جامدة، بل هي معاني متحرّكة متجدّدة الفهم يستنطقها العقل والفكر كلّما حاورها، فتفتحُ له عن رصيدها الكامن المذخور، وتتحوّل من كلمات مسطورة إلى طاقات مفعمة بالمعنى والمعاني، والحكم والأحكام. ولهذا فإنّ النّص يُقْرَأ قراءات متباعدة في الزّمان، فيأتي بمعاني جديدة لكلّ جيل ولكلّ قضية، ويوحي بما لم يوح به من قبلُ، وهذا هو سرّ تعدّد معاني القرآن وتفاسيره عبر العصور، فلو كان النّص جامداً لتوقّف المعنى عن المزيد، وهذا لوْن من عالمية إعجاز النّص القرآني.

- **إعجاز التّناسق وعدم الاختلاف**[2]:

جاء النّص القرآني منسجماً من بداية النزول إلى نهايته في أكثر من عشرين سنة، فلم يتأثر باختلاف الزّمان والمكان، ولا بالأحداث والوقائع، مع

(١) انظر: في ظلال القرآن، ٢٨٣٦/٥.

(٢) المرجع نفسه، ٧٢٣/٢.

أنه نزل متفرّقاً ولم ينزل مجموعاً كالكتب السابقة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء:١٠٦)، وتتجلّى ظاهرة الانسجام والتّناسق من ناحية الأداء، وطرائقه الفنّية، بخلاف كلام البشر فتجد فيه القمم والسفوح، والتوفيق والتعثر، والقوّة والضعف، والتحليق والهبوط، والرّفرفة والثقلة، والإشراق والانطفاء، إلى آخر الظّواهر التي تظهر في سمات البشر وكلامهم. ويبدو ذلك من خلال النّظر في أعمال الأديب الواحد، أو المفكّر الواحد، أو الفنّان الواحد، أو السّياسي الواحد، أو القائد العسكري الواحد، أو أيّ كان في صناعته التي يبدو فيها الوسم البشري، وهو التغير والاختلاف وعدم الانسجام. وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة البشر واضحة في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني فإنها أوضح من ذلك في جانب التّشريع والأنظمة التي جاء بها القرآن لبناء المجتمع، كنظام الأسرة، ونظام المال والاقتصاد، ونظام السياسة والحكم، إلى غير ذلك. وهذا لون من عالمية الإعجاز في الخطاب القرآني، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

إعجاز التأثر والتأثير:

لم يكن إعجاز القرآن وتحدّيه للعالمين قاصراً على النّص والتعبير الفني والأسلوب البلاغي، بل تجاوز ذلك إلى المعنى والمعاني، ويتجلّى ذلك في تأثر من تلاه وقرأه وتأمّل فيه، فكم من ضالّ هداه، وكم من غافل أيقظه، وكم من منحرف عن سواء السّبيل استقام على صراطه، وكم من طاغية متّبع هواه رجع إلى حكمه. إنه سلطان القرآن الروحي، وسرّه الكامن في

معانيه، وأثره على النفوس والقلوب: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ (الزمر:٢٣).

إنّ هناك سرّاً وراء النّص القرآني، ينسكب في الحسّ والشّعور بمجرّد سماعه، يدركه البعض واضحاً، ويدركه البعض الآخر غامضاً، ويصعب تحديده: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصّور والظلال التي تشعّها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المميز من إيقاع القول المصوغ في اللّغة؟ أهي هذه العناصر كلّها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟

ذلك سرّ مودَع في كلّ نصّ قرآني يشعر به كلّ من يواجه نصوص القرآن ابتداءً، ثم تتضح تلك الأسرار الكامنة والخفية بالتدبّر والنّظر والتّفكير في بناء القرآن كلّه، وهي من سمات الإعجاز القرآني المطلق في جميع العصور، والتي لا يماري فيها إنسان يحترم حسّه ويحترم نفسه.[1]

- **إعجاز التغيير:**

إنّ من أهم أنواع الإعجاز القرآني الممتدّ عبر الزّمن، قدرته على التغيير والارتقاء بالإنسان إلى سلّم الكمال، ويرجع ذلك لطبيعة القرآن، فهو يحتوي على قوّة خارقة نافذة، يحسّها كلّ من له ذوق وبصر وإدراك، فكم غير القـرآن من وجـه الأرض، إلى جـانب ما غير من وجه التاريخ وحقائق الوجود. لقد صنع القرآن بالعرب وبغيرهم أمجاداً لم تمح من ذاكرة التاريخ الإنساني: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ (الرعد:٣١)،

(١) المرجع نفسه، ٣٣٩٩/٦ .

لقد صنع القرآن وأهله بهذا الوحي العظيم ما لم يصنعه كتّاب من قبل، ولا حضارة من بعد، قطعوا به من هو أصلب من الجبال، وهو جمود الأفكار والتقاليد، وأحيوا به ما هو أخمد من الأموات في قبورهم، وهو الشعوب التي قتل روحَها الطغيانُ والأوهام. إنّ ذلك التّحوّل والتغير هو سرّ إعجاز القرآن وتعاليمه السّمحة وتشريعه الأخّاذ بذوي البصائر والألباب، وكان تحوّلاً أضخم من تحوّل الجبال عن رسوخها، وتحوّل الأرض عن جمودها وتحوّل الموتى عن الموات.[1] والعرب اليوم لا ينقصهم سوى الأخذ بتعاليم القرآن وهديه لاسترجاع المكانة المفقودة والمجد الضّائع والشّهود الحضاري الغابر، فقوّة التغيير ما زالت في النّص القرآن ما دام القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى.

رابعاً: عالمية الهداية والرّحمة في الخطاب القرآني:

جاء القرآن هداية ورحمة للعالمين؛ لما فيه من صلاح البشر في آجلهم وعاجلهم، فلم تكن هدايته للعرب وحدهم، ولا لزمان دون زمان، بل جاءت عامّة لكلّ النّاس. إنّ هداية الله صحبت العالم الإنساني منذ القدم، ثم تدرّجت في أطوار شتىّ ومراحل متعدّدة، إلى أن انتهت إلى صيغتها الأخيرة التي استوت واكتملت في وضعها الأخير الثابت في القرآن الكريم.[2] فهُدى الكتب السّابقة كان ناقصاً ولم يكتمل إلا بنزول القرآن: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران:٣- ٤)، فتقديم ﴿مِن قَبْلُ﴾ على ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ للاهتمام به، وأما ذكر هذا القيد فلكي لا يتوهّم إنسان أنّ هدى التوراة والإنجيل

(١) المرجع نفسه، ٤/٢٠٦١.

(٢) انظر: الغزالي، نظرات في القرآن، ص١٣.

مستمرّ بعد نزول القرآن، وفيه إشارة إلى أنها كالمقدّمات لمجيء القرآن، فالهدى السّابق عليه غير تامّ. وفي التعبير عن القرآن بـ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ دليل على تفضيل هدايته على هُدى التّوراة والإنجيل؛ لأنّ من صفات القرآن أنه ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي مفرّق بين الحقّ والباطل، وهو أعظم أحوال الهدى لما فيه من البرهان والبيّنات وإزالة الشّكوك والشّبهات التي تعترض العقول.[1]

أما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ (الأنعام:٩٠)، فالمراد بالهدى الواجب اتّباعه هو ما كان راجعاً إلى أصول التّشريع، وإلى زكاة النّفس وحُسن الخلق التي لم تختلف فيها الأديان السّماوية قبل التّحريف، ولم يرد من الآية الاقتداء في أحوال التّشريع العملية؛ لكونها كانت مرتبطة بالزّمان والمكان.[2]

ومما يؤكّد أفضلية القرآن على غيره من الكتب السّابقة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، حيث جاءت هذه الآية عقيب قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الإسراء:٢)؛ لبيان أنّ هدى القرآن أقوم مما في التّوراة والإنجيل من الهدايات. والأقْوَم: تفضيل القويم، والمعنى:[3] أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل. فالقرآن لم يترك مسلكاً من مسالك الأخلاق والطبائع إلا سلكه، تحريضاً أو تحذيراً، وهذا وصف فيه من معاني الإعجاز الدالّ على عالمية هدايته للبشر جميعاً، فكل ما هو أقوم فقد هدى إليه القرآن.

---

(١) انظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م) ١٤٩/٣.

(٢) المرجع نفسه، ٣٥٧/٧ .

(٣) المرجع نفسه، ٤١/١٥ .

فالقرآن هداية ورحمة عامة لا تستثني أحداً ممن أراد الاهتداء به والدّخول في ظلال رحمته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٥٧)، فالتّقييد بالمؤمنين لا يدلّ على التّخصيص، ومنع غيرهم من النّاس، بل ذكر المؤمنين للدّلالة على أنهم أكثر النّاس اهتداء بالقرآن واستجابة لرحمته. فالقرآن خاطب النّاس جميعا في إشارة لما فيه من المنافع الصّالحة لهم، ولاختلافهم في مقدار الانتفاع به.[1] كما أن قيد الإيمان في الاهتداء بالقرآن له أبعاده ودلالته التي لا تخفى على كلّ متدبّر في خطاب القرآن، ففي تخصيص المؤمنين بالاهتداء به تكمُن حقيقة ضخمة عميقة[2]، وهو أنّ القرآن ليس كغيره من الكتب النّظرية والعلمية والتطبيقية ينتفع به كلّ من يقرؤه ويستوعب معانيه وأفكاره، وإلا فالنّاس اليوم يقرؤونه آناء اللّيل وأطراف النّهار. كلاّ فالقرآنُ كتابٌ لا ينتفع بهداياته وأسراره إلا من امتلأ قلبُه بنور الإيمان واليقين، وكلّما كان القلب ندياً طرياً بالإيمان زادت أشواقه وحلاوته للقرآن، وأدرك من معانيه مالا يدرك منه القلب الغليظ الصّلد الجافّ، واهتدى بنوره ما لا يهتدي إليه الجاحدون والأفاكون. إنّ في القرآن كنوزاً ضخْمة من الهدى والمعرفة والحركة والتّوجيه، ومفتاحُها هو الإيمان، ولقد تحقّقت على أيدي المؤمنين فتوحات القرآن وهداياته عندما تمكّن الإيمان من قلوبهم، ففتحوا به القلوب والعقول قبل أن يفتحوا الأرض، ولما أصبح القرآن كتاباً يُترنم بآياته وحروفه وأصواته، ضاعت هدايته ولم تتمكّن أمّة القرآن من الدّخول إلى التّاريخ مجدّداً.

(١) المرجع نفسه، ١١/٢٠٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، ٥/٢٦٢٦.

والقرآنُ وإنْ جاء رحمةً للمؤمنين به والعاملين بأحكامه، فإنه رحمةٌ كذلك لغير المؤمنين به من أصحاب الأديان الخاضعين لأحكامه، فالقرآنُ يوفّر لهم الأمْن والسّلام في أنفسهم وأعراضهم، ويكونون أحراراً في عقائدهم وعباداتهم مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم. هذا في الدّنيا، أما في الآخرة فإن مصيرهم إلى الله، بخلاف المؤمنين الموعودين برحمة الدّنيا والآخرة معاً.(١)

وفي القرآن شفاءٌ ورحمةٌ من جميع الأمراض الظّاهرة والباطنة:(٢) فهو شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة والشّك، وهي أمراضٌ تصيب القلوب فتُوهِنُهَا. وهو شفاءٌ من الهوى والدّنس والطمع والحسد ونزغات الشّيطان، وهي من الآفات التي تضعفُ القلوب وتتعبُها، وتدفع بها إلى البلى والانهيار. وهو شفاء من الاتجاهات الفكرية والشّعورية الشاذّة والمنحرفة، فالقرآن عاصم للعقل من الشّطط والزّلل فيما يعجز عن الخوض فيه مما لا يعلمه إلا الله تعالى. وهو شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء المجتمعات في ظلّ نظامه الاجتماعي وعدالته الشّاملة، ومن ثم فالقرآن رحمة للمؤمنين؛ لأنه حفظهم من جميع الأمراض الظّاهرة والباطنة، النّفسية والعقلية، الفردية والاجتماعية.

إنّ هداية القرآن للنّاس أكبر مقصد على الإطلاق من نزوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ (إبراهيم:١)، فتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات إلى النّور دليل

(١) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار (بيروت: دار المعرفة) ٢٠٥/٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، ٢٦٢٦/٥.

على أنّ الهداية هي مُراد الله تعالى من النّاس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها.[1] ومَردُّ عالمية الهداية وعمومها للنّاس؛ لما في القرآن من ألوان المصالح التي لا غنى للبشر عنها: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩)، فـ«كلّ شيء» يدلّ على عموم ما في القرآن من الخير والمصالح، ففيه بيان واسع للتّوحيد وتفصيل لأدلّته، وفيه ألوان من التّشريع المصلح للنّفوس والمزكّي للأخلاق، والمقيم لأركان المجتمع المدني، وغير ذلك مما يحتاجه الناس. وتلازم الرّحمة لما في القرآن من الهداية، دليل على أنّ من أخذ بهدايات القرآن نال رحمة الله المتمثّلة في السّعادتين الدّنيوية والأخروية[2].

خامساً: عالمية التشريع والتّكليف في الخطاب القرآني:

جاء القرآن هادياً للنّاس، كما سبق ذكره، ومن ثم شرع لهم ما تقوم به هدايتهم من الأحكام والقوانين، فجاء تشريعه وافياً بحاجات النّاس الفردية والاجتماعية في كلّ زمان ومكان، لا يضيق بشيء مما يحتاجونه، ولا يعجز عن الوفاء بحقوقهم؛ لأنّه تنزيل من حكيم حميد. وقد شرع القرآن ما يحتاجه النّاس في الجوانب الأساسية، مثل: العقائد، والعبادات، والأخلاق، وشؤون الأسرة، والمعاملات المالية، والجنايات، وشؤون الحكم، والجهاد، وغيرها من الأحكام الكلّية والتّفصيلية التي جاءت وافية بمصالح النّاس في العاجل والآجل، دالّة على مُراد الله من خلقه، بأوضح عبارة وأدقّ أسلوب، وأحسن بيان.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ١٧٩/١٣.

(٢) المرجع نفسه، ٢٥٤/١٤.

وكذلك جاء التّكليف عاماً لكلّ الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٢١)، فالخطاب للنّاس كلّهم لا فرق بين من نزل فيهم القرآن وغيرهم، فالكلّ مأمور بعبادة الخالق الذي تفرّد بالخلق والإيجاد؛ لينالوا تقواه ويحققوا مرضاته.[١] فالإنس والجنّ كلّهم مكلّفون بعبادة الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، ففي النّص إشارة إلى أنّ هناك غاية معيّنة لوجود الجنس والإنس وهي القيام بعبودية الله تعالى، فمن قام بها فقد حقّق الغاية من وجوده، ومن أعرض عنها فقد أبطل تلك الغاية، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد[٢].

وقد اتّفقت كلمة المسلمين، سلفاً وخلفاً، على وجوب العمل بالقرآن والامتثال لأحكامه، حتى أنه « قد انعقد إجماع المسلمين على أنّ القرآن الكريم هو أساس الدّين والشريعة حتىّ صار ذلك عندهم مما علم من الدّين بالضّرورة، لا فرق في ذلك بين عصر وعصر، وإقليم وإقليم، فهو حجّة الله العامة على النّاس أجمعين في كلّ زمان ومكان، في عقائده وأحكامه وأخلاقه، ومَنْ زعم أنه حجة خاصة بقوم دون قوم، أو بعصر دون عصر، فهو خارج عن ربقة الإسلام»[٣]

وقد نادى الله تعالى في القرآن جميع النّاس بأساليب مختلفة لحثّهم على العمل بما في القرآن، ونوّع من أسلوب النّداء عناية وتكريماً واهتماماً

(١) انظر: في ظلال القرآن، ٤٧/١.
(٢) المرجع نفسه، ٣٣٨٧/٦.
(٣) محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ط.١٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م) ص٩٤.

بالمنادى، فنادى الأشخاص والطوائف، والشّعوب، ونادى الناس جميعاً، ونداؤه للعقلاء أفراداً أو جماعات نداء تكليفي، إما بطلب فعل أو ترك نهي. والملاحظ أنّ النّداء بوصف الإنسانية: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ كان أكثره فيما يختصّ بالأصول العامّة للدّين، من التّوحيد والعقائد، وما يرجع إليها من عبادة الله تعالى. وأما النّداء بوصف الإيمان فكان أكثر من غيره إذ بلغ سبعًا وثمانين نداء، كلّها نزلت في المدينة، ولم يقع منها نداءٌ واحدٌ في مكّة. وناداهم بوصف الإيمان تنبيهًا على أنهم مكلّفون بما في القرآن من تكاليف، ناداهم بهذا الوصف في العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام جميعاً"[1].

إنّ القرآنُ ليس كتاب أذكار وتراتيل ومواعظ فحسب، وليس كتاباً جاء لخصوص الأفراد، كلاّ فهو كتاب مجتمع فيه التّشريع والقوانين الملزمة للفرد والجماعة على حدّ سواء. ويستطيع أيّ قارئ للمصحف الشّريف من أيّ قارة على ظهر الأرض أن يدرك بيقين أنّ الإسلام ينتظم الحياة العامّة والخاصّة، والنّفس والمجتمع. ومن الجهل بعد مطالعة المصحف أن يزعم زاعم أنه كتاب مواعظ نفسية محدودة، فأوامر الله تعالى ونواهيه جاءت تخاطب الإنسان نفسه كما تخاطب البيئة التي يعيش فيها الإنسان على حدّ سواء. والقرآن يتّجه بأوامره ونواهيه حتىّ القصص وأخبار الأولين فيه، إلى الفرد والمجتمع معاً، فلا انفصال بينهما في منظور القرآن، فالعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحجّ يظنّها الظانّون أنها أعمالاً فردية موكولة لأصحابها، لا علاقة للدّولة بإقامتها أو تركها، وهذا غير صحيح، فإنّ إقامة الصّلاة مفروضة على الحاكم في ديوانه كما هي مفروضة على كانس الطريق.[2]

(١) المرجع نفسه، ص ٩٤.

(٢) انظر: الغزالي، معركة المصحف (الجزائر: دار هومة، منشورات العالمية للإعلام) ص ١٦.

وليس في المصحف سورة تؤثر وأخرى تهدر، وليس فيه حكم نرضى ونعمل به، وآخر نسخطه ونهجره.كلا، فالوحي كلّه نظام إلهي متكامل يتّسم بالقداسة والعصمة في جملته وتفصيله.[1]

وقد انفرد القرآن بنهج تشريعي، بوّأته لأن يكون أوّل مصدر تؤخذ منه الأحكام، وتسنّ القوانين في مختلف المجالات: الدّينية والدّنيوية، فلم يضقْ بثرائه التّشريعي عن سدّ حاجات النّاس وكفاية متطلبّاتهم العقلية والنّفسية والجسمية، الفردية والاجتماعية والعالمية. ومع مرور ما يزيد على أربعة عشر قرناً من نزول القرآن، ما يزال غضّاً طريّاً وافياً بمصالح النّاس الضّرورية والحاجية والتّحسينية، ولم يعجز أمام التطوّر الحضاري المذهل في إيجاد الحلول الممكنة للوقائع والأحداث الطارئة والمستجدّات.

كلّ ذلك يرجع إلى النّهج التّشريعي الفريد، الذي لا نظير له عند المؤلّفين الذين يكتبون للأغراض التّربوية والاجتماعية ولا عند واضعي القوانين الذين يقنّنون لما يحتاجه الناس من قوانين في مختلف شؤونهم، حيث راعى في تشريعه ما يضمن صلوحيته لكلّ زمان ومكان، مهما اختلفت أحوال النّاس العلمية والعمرانية والاجتماعية والبيئية.. ومن هذه الخصائص والميزات نذكر:

- **إجمال ما يتغير وتفصيل مالا يتغير:**

سلك القرآنُ في تشريع الأحكام أسلوباً متميّزاً، حيث لم يفصّل جميع الأحكام تفصيلاً جزئياً، بل آثر الإجمال في معظم الأحكام ولم يفصّل إلاّ في القليل منها.

(1) المرجع نفسه، ص ١١٠.

فمن الأحكام المجملة: العبادات، حيث ذكر القرآن أصولها، فأمر بإقامة الصّلاة دون التعرّض لبيان أوقاتها، وأعدادها، وأقوالها، وأفعالها، إلا إشارات لطيفة في بعض الآيات عن استقبال القبلة، وأوقات بعض الصّلوات. وأمر بالزّكاة مبيّنا بعض أحكامها، كوجوبها، وجزاء تاركها، وبعض مواردها، ومصارفها، وآداب إنفاقها دون التّفصيل في شروط وجوبها، وموانعها، ومقاديرها. وأمر بالحجّ مبيّناً بعض أحكامه كوجوبه على المستطيع، ومواقيته، وبعض شعائره، كالطواف، والسّعي، والوقوف بالمشعر الحرام، والهدي، وترك بعض المحظورات، كالحلق. وأمر بالصّيام مبيّناً بعض أحكامه كوجوبه، وميقاته الزّماني وجواز الإفطار للمريض والمسافر والعاجز، وإباحة الأكل والشّرب وغشيان النّساء في اللّيل دون النّهار، غير أنه لم يفصّل في شروط وجوبه وموانعه، ومحظوراته .

ومن الأحكام المجملة: المعاملات، حيث نجد القرآن اكتفى بالإشارة إلى أصولها، تاركاً البيان والتّفصيل للسنّة، واجتهاد الفقهاء، ففي الأحكام المدنية كالتصرّفات المالية، وضع القرآن قواعدها العامّة، كحلّ البيع وحرمة الرّبا، والنّهي عن الكسب غير المشروع،كأكل أموال الناس بالباطل، وجعل أساس المبادلات التّراضي، وأمر بالوفاء بالعقود والعهود، ونهى عن الرّشوة والخيانة والخديعة والغصْب وجحْد الحقوق، كما وضع قواعد لحفظ الحقوق، كطرق التوثيق، من كتابة وإشهاد ورهن.

وفي الأحكام الجنائية: وضع القرآن أصولها، حيث أوجب القصاص في النّفس وفيما دون النّفس، وأوجب الدّيات في القتل الخطأ وعند العفو،كما أوجب الحدود،كحدّ السرقة، والحرابة، والزّنا، والقذف، دون التعرّض إلى أركانها وشروطها ومسقطاتها.

وفي أحكام المرافعات:كرفع الدّعاوى، وإقامة البيّنات، أمر القرآن بالعدل بين المتخاصمين والتثبّت من الأخبار واختيار العدول من الشّهود، ونهى عن التمييز بين النّاس؛ لأسباب ظاهرية:كالغنى، والفقر، والقرابة.

وفي الأحكام الدّستورية: أشار القرآن إلى قواعد السّلم والحرب،كبدء القتال وانتهائه، وأرشد إلى الوفاء بالمعاهدات الحربية، واتفاقيات السّلم وآثار الحرب كأحكام الأسرى.

أمّا الأحكام التفصيلية: فهي قليلة مقارنة بالأحكام المجملة، فمن ذلك أحكام الأسرة،كالزّواج والطّلاق، حيث فصّل فيها القرآنُ في الغالب، فرغّب في الزّواج ودعا إليه، مبرزا منزلته الدّينية ومقاصده النّفسية والاجتماعية، وبين بعض أحكامه كالخطبة، والرّضا، والعدّة، وأصناف المحرّمات من النّساء،كما أشار إلى آثار الزّواج، كوجوب الصّداق، والنفقة، والسّكن. كما دعا إلى قيام الحياة الزّوجية على المودّة والرّحمة والعشرة الحسنة، والتّعاون بالمعروف، وأرشد إلى سبل حلّ الخلافات الزّوجية بسبب نشوز أحد الزّوجين، فدعا إلى الصّلح ،كما أباح الطّلاق عند الضّرورة والحاجة، فبيّن أنواعه وشروطه وآثاره، كما أرشد إلى عدد الوارثين والوارثات، وحدّد أنصبتهم، وبيّنها بياناً كافياً، عند موت أحد الزّوجين.(1)

أما الحكمة من إجمال العبادات فيرجع إلى:

- كون العبادات قربات عملية تحتاج إلى بيان عملي من الرّسول صلى الله عليه وسلم ولأنها مبنية على محض التّعبّد والاقتداء، فقام الرسول ببيان

(1) انظر: محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ط.3 (القاهرة: دار الشروق، 1421هـ/2000م) ص481.

أحوالها وكيفياتها أمام مرأى ومنظر الصّحابة، رضي الله عنهم، ليأخذوها عن طريق الاتّباع بالسّماع والمشاهدة، وذلك درءا لمفسدة الابتداع، المنافية للمقصد من تشريعها، فقال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» (١) و«**خذوا عنّي مناسككم**» (٢)، فالحديثان يدلان على أنّ العبادات قائمة على التعبّد الخالص بالاقتداء والاتّباع.

- كون العبادات من الأحكام الثّابتة، التي لا مجال للعقل والاجتهاد فيها نصيب بالزّيادة والنّقصان؛ لأنّ دوامها وثباتها على أشكال وأحوال قارّة لا حرج فيه ولا ضرر على المكلّفين، مع توالي العصور والدّهور، وفي هذا الشّأن، يقول ابن عاشور: «قد تتبّعت تفريع الشّريعة في زمن الرّسول ﷺ فوجدت معظمه في أحكام العبادات، حتى أنك لتجد أبواب العبادات في مصنّفات السنّة هي الجزء الأعظم من التّصنيف بخلاف أبواب المعاملات؛ ذلك لأنّ العبادات مبنية على مقاصد قارّة، فلا حرج في دوامها ولزومها للأمم والعصور إلاّ في أحوال نادرة تدخل تحت حكم الرّخصة» (٣).

وأمّا الحكمة من إجمال المعاملات فيرجع إلى سببين:

- كون هذه المعاملات لا تأخذ أشكالاً وأحوالاً ثابتة مع امتداد الزّمن، بل تختلف باختلاف أحوال الناس العلمية والعمرانية والاجتماعية، فكان من رحمة الله تعالى بالخلق أن أجملها تاركاً تفصيلها لاجتهاد الفقهاء بحسب ما يجدّ من وقائع وأحداث فلو فصّلت لوقع الناس في الحرج والضّيق، المنافيين لمقاصد الشريعة وروحها العامة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب الأذان للمسافر، رقم: ٦٠٥، ١/٢٢٦.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب الإيضاع في وادي محسر، رقم: ٩٣٠٧، ٥/١٢٥ .

(٣) انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب) ص ١٣٧.

- كون هذه المعاملات معقولة المعنى، مما يسعها الاجتهاد، فلا ضرر في الاختلاف فيها، يقول ابن عاشور: «فأمّا المعاملات فبحاجة إلى اختلاف تفاريعها باختلاف الأحوال والعصور، فالحمل فيها على حكم لا يتغير حرج عظيم على كثير من طبقات الأمة؛ لذلك كان دخول القياس في العبادات قليلاً نادراً، وكان معظمه داخلا في المعاملات»[1].

أما الحكمة من تفصيل بعض أحكام المعاملات في القرآن، مع كونها معقولة المعنى، وليست من العبادات، كأحكام الزواج والطلاق والميراث والحدود، فترجع إلى سببين:-

- كون المصلحة في ثباتها ودوامها كما شرعها القرآن؛ لأنّ الاختلاف فيها مفسدة ومَضرّة للفرد والمجتمع، وذلك لتعلّقها باللّبنة الأولى لقيام الأمم والمجتمعات، وهي: الأسرة.

- ولأن تعدّد البيئات واختلاف أحوال المجتمعات وتقدّم العمران لا أثر له في المقصود من تشريعها، فكانت بذلك أحكاماً قارّة، لا قبل لأحد بتغييرها. يقول شلتوت: «لم يكن القرآن في أكثر أحكامه مفصّلاً يذكر الوقائع والصّور والجزئيات، ولكنه يوثر الإجمال، ويكتفي في أغلب الشّأن بالإشارة إلى مقاصد التّشريع وقواعده الكلّية، ثم يترك للمجتهدين فرصة الفهم والاستنباط على ضوء هذه القواعد وتلك المقاصد، وكثيراً ما تساعد السنّة، وإن كانت آحادية في بيان ما أجمله أو تشريع ما تركه، على أنه فصّل نواح لابدّ فيها من التفصيل، سموّاً بها عن مواطن الخلاف

(١) المرجع نفسه، ص ١٣٧.

والجدل، كما في العقائد والعبادات، أو لأنها يريدها مستمرّة الوضع الذي حدّده لا بتنائها على أسباب لا تختلف ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة كما نراه في تشريع المواريث، ومحرّمات النكاح، وعقوبة بعض الجرائم. وفي غير هذين النّوعين آثر الإجمال وترك التفصيل ليحكم فيه أهل الرّأي في دائرة ما بين لهم من مقاصد أو أشار إليه من قواعد»[1].

- ورود الأحكام الثابتة في صيغ قطعية والأحكام المتغيرة في صيغ ظنية:

إنّ المتتبّع لأحكام القرآن يرى أنّ نصوصه تنقسم باعتبار دلالة المعنى إلى قسمين:-

نصوص قطعية: وهي التي لا تحتمل إلا معنى واحداً، كالنّصوص المبيّنة للفرائض، من صلاة وزكاة وصيام وحجّ وجهاد، وكالنّصوص المبيّنة للمقدّرات، كأنصبة الميراث، ومقادير الحدود، كحدّ الزّنا والقذف، وكالنّصوص المبيّنة للحلال والحرام، كحلّ البيع، وحرمة الرّبا، وحرمة أكل أموال النّاس بالباطل، وحرمة القتل، وحرمة الزّنا. فهذه النّصوص صيغت بشكل لا مجال فيه لاختلاف الرّأي، ولذلك كانت من الأحكام الثابتة المتفق عليها.

نصوص ظنية: وهي التي تحتمل أكثر من معنى، كمقدار مسح الرّأس في الوضوء، ومفهوم الصّعيد الطيّب من أجل التيمّم، ومقدار الرّضاع المحرم، ومقدار نصاب السّرقة، ومقدار القرء، وغيرها مما يحتمل أكثر من دلالة. فهذا هو مجال اختلاف المفسّرين والفقهاء، فتباينت آراؤهم، وتعدّدت مذاهبهم، تبعاً لاختلاف أصولهم.

---

(١) انظر: شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٨٨.

والفرق بين القسمين: أنّ الأوّل لا يحتمل الاختلاف، بل يجب العمل بمدلوله، ويكون بمنزلة من أنكر معلوماً من الدّين بالضّرورة. وأما الثّاني فقابل للاختلاف، ولا حرج في تعدّد الآراء فيه، وللمجتهد أن يأخذ بما يراه صواباً.[1]

- ورود الأحكام في الغالب مقرونة بعللها وأسبابها ومقاصدها:

لم يسلك القرآن في تشريعه سلوك المقنّنين الذين يهتمّون بوضع القواعد القانونية مجرّدة عن بيان عللها وأسبابها ومقاصدها بل نهج منهجاً مغايراً، اعتنى فيه ببيان ذلك، ولم يسر في التّعليل على شكل واحد، بل نوّع في أساليب التعليل بما يتلاءم مع المقصد من تشريعه.. وهذه نماذج من النّصوص التّوضيحية:

فمن الأحكام المقرونة بأسبابها، قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ (الحج:٣٩)، فبين أنّ سبب الإذن للمقاتلين بالدّفاع عن أنفسهم، هو الظّلم المسلّط عليهم من أعدائهم؛ وقوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ (النساء:١٦٠)، حيث بيّنت الآية أنّ سبب عقابهم بتحريم ما أحلّ الله عليهم من الطيّبات، هو الظّلم والصدّ عن سبيل الله والتعامل بالرّبا، وأكل أموال النّاس بالباطل، فالباء للسّببية والعلّية[2]؛ وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا

(١) انظر: المرجع نفسه، ص:٤٨٥.

(٢) انظر: محمد سالم محمد، التعليل في القرآن، ط.١ (مصر: مطبعة أولاد عثمان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص١٣٨.

﴿قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ (الأحزاب:٣٧)، حيث علّل إباحة زواج الرّسول ﷺ من زينب بنت جحش، التي كانت تحت عصمة زيد بن حارثة، رضي الله عنه، برفع الحرج عما كان متعارفاً في الجاهلية من حرمة الزواج بزوجة المتبنى؛ وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة:١٠٣)، حيث علّل الأمر بالدّعاء للمزكّين أموالهم بأنّ ذلك يعود عليهم بالسّكينة وطمأنينة النفس،[1] وعلّل الأمر بإتمام العهود والمواثيق بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:٤)، والأمر بتخلية سبيل التائبين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:٥)، وعلّل الأمر بإجارة المشرك المستجير لسماع كلام الله تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٦)، والأمر بقتال المشركين النّاكثين للعهد بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ (التوبة:١٢).[2]

وأما الأحكام المقرونة ببيان مقاصدها من جلب للمصالح ودرء للمفاسد، فمثالها بيان ما في غضّ الأبصار وحفظ الفروج من الطّهارة وزكاتها في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور:٣٠)، وبيان ما في طلب الإذن قبل الدّخول على الأجانب من الخير والمصلحة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور:٢٧)، وبيان ما في الرّجوع وعدم الإلحاح في طلب الدّخول بعد المنع منه، من زكاة وخير في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾

(١) انظر: مصطفى شلبي، تعليل الأحكام (بيروت: دار النهضة العربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص١٤.
(٢) انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، ١٠٢/١١.

(النور:٢٨)، وبيان ما في شرب الخمر ولعب الميسر من المفاسد والأضرار في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة:٩١)، وبيان ما في إعداد القوّة للجهاد من مصلحة الهيبة وإرهاب الأعداء في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٦٠)، وبيان ما في تشريع القصاص من الحفاظ على حياة النفوس في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٩)، وبيان ما في التوثيق والإشهاد على البيع من دفع الرّيبة والشّك في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ (البقرة:٢٨٢).

وسلك القرآنُ هذا النّهج والأسلوب في التّشريع لتحقيق الأغراض الآتية:

- تقوية الإيمان وإصلاح النفوس، يقول الشيخ رشيد رضا: «ونحن نعلم أنّ الأحكام العملية إنما تشرع لتقوية الإيمان وإصلاح النفوس، ولذلك كان من سنّة القرآن أن يبيّن مع كلّ حكم حكمة تشريعه، وفائدته في تقوية الإيمان، ويمزج الكلام فيه بما يذكّر بعظمة الله تعالى، ويعين على مراقبته والتوجّه إليه ويثبت الإيمان به ... ويا ليت فقهاءنا اقتدوا بهدي القرآن فلم يجعلوا كتب الأحكام جافّة مقصورة على ذكر الأعمال البدنية، كأن الدّين دين ماديّ جسماني، لا غرض للقلوب والأرواح فيه»[1].

المسارعة إلى الامتثال والتّنفيذ ودوام العمل بالتكاليف الشّرعية، يقول الشيخ شلتوت: «وهكذا نجد القرآن في معظم تشريعاته - إن لم يكن في

(١) المرجع نفسه، ٢/١٦٧-١٦٨.

كلّها- موجّهًا ومعلّلاً ومرشدًا إلى الحكمة التي كان لأجلها التّشريع والتي تدفع النّاس إلى المسارعة في التّنفيذ والامتثال»[1].

إقامة الحجّة على المخاطبين بهذا التشريع؛ ذلك أنّ «في عناية الله بتوجيه هذا التّشريع وبيان حكمته إيماء قويّ بأنّ من تمام قيام الحجّة على النّاس فيما يفرض عليهم من تشريع أن يقدّم التشريع إليهم مصحوباً ببيان حكمته والدّواعي التي تقتضيه وتدعو إليه، أو الثّمرات التي ترجى منه، ويكون التّشريع وسيلة إليها، ومن هنا لا نكاد نجد تشريعاً في القرآن إلا وأرْدفه الله بحكمته وأشار إلى فائدته التي تعود على النّاس في حياتهم ونظامهم»[2].

- **اقتران الأحكام بالتّرغيب والترهيب:**

من أسلوب القرآن في تشريع الأحكام أن يقرنها بما يحفّز على الامتثال من ترغيب وترهيب:

كالتّرغيب في تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه بالعمل الصّالح، عقب ذكر أحكام المحاربين في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة:٣٥)، حيث «خاطب المؤمنين بالترغيب بعد أن حذّرهم من المفاسد على عادة القرآن في تخلّل الأغراض بالموعظة والتّرغيب والتّرهيب، وهي طريق في الخطابة لاصطياد النفوس»[3].

وكالتّرهيب من عقاب الآخرة، عقب ذكر أحكام الرّبا والمرابين، في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

(١) شلتوت، تفسير القرآن، ص٦٢٥-٦٢٦ .

(٢) نفسه.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨٧/٦.

﴿يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١)، حيث «جيء بقوله- واتقوا يوماً- تذييلاً لهاته الأحكام؛ لأنه صالح للترهيب من ارتكاب ما نهى عنه والتّرغيب في فعل ما أمر به؛ ولأن في ترك المنهيات سلامة من آثامها، وفي فعل المطلوبات استكثار من ثوابها، والكلّ يرجع إلى اتقاء ذلك اليوم الذي تكثر فيه السّلامة وكثرة أسباب النّجاح»[1].

وكالتّرهيب من الاستهزاء بأحكام الله تعالى والتّرغيب في الأخذ بها؛ لما فيها من الفوائد والمصالح،كما جاء عقب ذكر أحكام الطلاق في قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (البقرة:٢٣١)، حيث جاء «التّحذير من التّهاون بحقوق النّساء وجعل العابث بأحكام الله فيها مستهزئا بآياته، وفي ذلك من الوعيد والترهيب مافيه، أراد تعالى أن يقرّر هذه الأحكام في النّفوس بباعث الترغيب فيها بالتذكير بفوائدها ومزاياها ببيان المنّة في هداية الدّين التي هي منها»[2].

وكالتّرهيب من الإعراض عن حدود ما شرعه الله تعالى في أحكام العدّة في قوله: ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ (البقرة:٢٣٥)، إنّ «هذا التّحذير راجع للأحكام التي تقدّمت من التّعريض وغيره، جاء على أسلوب القرآن في قرن الأحكام بالموعظة ترغيباً وترهيباً تأكيداً للمحافظة عليها والالتفات إليها»[3].

---

(١) المرجع نفسه، ٩٣/٣.
(٢) تفسير المنار، ٣٩٨/٢.
(٣) المرجع نفسه، ٤٢٨/٢.

وكالتّرغيب في العفو والتّرهيب في المشاحّة في الحقوق في قوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٣٧)، حيث «ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ جرياً على السنّة الإلهية بالتّذكير والتّحذير بعد تقرير الأحكام؛ لتكون مقرونة بالموعظة التي تغذّي الإيمان وتبعث على الامتثال، وفي التّذكير باطلاع الله وإحاطته بصره بما يعامل به الأزواج بعضهم، ترغيب في المحاسنة وترهيب لأهل المخاشنة والجهل»[1].

هذه أهمّ الميزات التي انفرد بها التّشريع في القرآن الكريم، حيث سلك في تشريع الأحكام نهجاً مغايراً لنهج المؤلّفين والمقنّنين، يتّفق مع خلوده وثباته وعالميته وصلوحيته الشّاملة لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية والعالمية.

سادساً: عالمية الحكْم والتّحاكُم في الخطاب القرآني:

فرغنا من القول: إنّ الخطاب القرآني عالمي التّشريع والتّكليف، وإنّ شريعته عامّة لكل الناس، كما إن التكليف بها عام أيضاً. ومن المعلوم أنّ الأحكام الشّرعية قسمان:

الأول: موكول إلى الوازع الدّيني للفرد، خاطب القرآن به القلب والعقل، ورغّب في الامتثال ورهّب من العصيان، وذلك كالأوامر الواردة في طاعة الوالدين، والإحسان إلى الجار وذوي القربى واليتامى والمساكين، والإنفاق في أوجه البر، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والمواثيق، والاستئذان عند الدّخول، وحسن العشرة بين الزّوجين، والعناية بالأبناء، وغيرها من المأمورات والمنهيات

(١) المرجع نفسه، ٢/٤٣٤.

في القرآن الموكولة إلى دين الفرد وأمانته، فلا يقاضى عليها في الدّنيا وإن كان يلحقه الإثم في الآخرة، وهذا هو نصيب الفرد من الخطاب القرآني.

أما الثاني: فهو موكول إلى أولي الأمر، كالعقوبات المتعلّقة بالقصاص وإقامة الحدود، وسائر الأحكام القضائية التي يحتاج تنفيذها إلى السّلطة القضائية في باب النزاعات بين النّاس، وردّ المظالم، وإقامة العدل، وحفظ الحرّيات. فهذه القضايا وأمثالها تحتاج إلى حكم الحاكم. فالفرد لا يملك هنا السّلطة القضائية في قطع يد السّارق ورجم الزّاني، وما شابه ذلك مما هو من صلاحيات الدّولة، وهذا هو نصيب وُلاة الأمر والحكّام من الخطاب القرآني[1]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ (النساء:٥٨)، والمعنى: «إنّ الله يأمركم يا ولاة الأمور أن تؤدّوا ما ائتمنتم عليه من أمور رعيتكم، وأن توفوهم حقوقهم وأن تعدلوا بينهم».[2] والآية عامة ذلك أنّ: «الخطاب لكلّ من يصلح لتلقّي الخطاب، والعمل به من كلّ مؤتمن على شيء ومن كلّ من تولّى الحكم بين النّاس في الحقوق»[3].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (النساء:٥٩)، فطاعة الله - عزّ وجل- هي امتثال أوامره ونواهيه، وطاعة رسوله ﷺ هي اتباعه فيما أمر به ونهى عنه، وأولي الأمر: هم الأئمّة والسّلاطين والقضاة وكلّ من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية،

(١) الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة مع الأستاذ عمر عبيد حسنه (الجزائر: دار الانتفاضة) ص١٣٤.
(٢) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي) ٥٤٩/١.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٩١/٥.

وطاعتهم واجبة فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم يكن فيه معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.[1] كما أنّ الآية تشير بمنطوقها الصّريح إلى وجوب طاعة أولي الأمر، وتدلّ بدلالة الالتزام على وجوب تنصيب الولاة والحكّام الذين يحكمون بين الناس، وتجب لهم الطّاعة.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ (المائدة:٤٨)، فالآية صريحة في وجوب الحكم بما أنزل الله في القرآن على الناس عامة، عربهم وعجمهم، أمّيهم وكتابيهم.[2] وهي تشير إلى عالمية الحكم في الخطاب القرآني لهيمنته على ما سبقه من الكتب التي نالها التّحريف والتّبديل من جهة، ولكونها غير وافية بحاجات الناس ومصالحهم على مرّ العصور من جهة أخرى.

وبيَّن القرآن محاسن حكم الله تعالى، ومفاسد حكم غيره، فقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠)، وفي الآية «ينكر الله تعالى على كلّ من خرج عن حكم الله المشتمل على كلّ خير، النّاهي عن كلّ شرّ وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرّجال، كما كان أهل الجاهلية يفعلون»[3].

ومما يدلّ على عالمية الحكم والتّحاكم في الخطاب القرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا

(١) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، ط.٢ (مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م) ٤٨١/١.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن، ط.١ (القاهرة: دار الحديث، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ٦٣/٢.
(٣) المصدر نفسه، ٦٤/٢.

تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء:١٠٥)، فالخطاب عام للرسول ﷺ ولولاة الأمر من بعده، وفيها الأمر بالتّحاكم إلى القرآن الكريم بما أوحى الله فيه من قوانين تشريعية تضبط أحوال الناس، وأنّ حكمه وقضاءه عام لجميع الخلق. وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام:١١٤)، والمعنى: «أفغير الله أطلب لكم حاكماً، وهو الذي كفاكم مؤنة المسألة في الآيات بما أنزل إليكم من الكتاب المفصل».[1] فالحكَم هو الحاكم الذي يفصل في القضايا والخصومات، والحكَم أبلغ من الحاكم؛ إذ لا يستحقّ التّسمية بالحكَم إلا من يحكُم بالحقّ.[2] والآية تستنكر في موضع الاستفهام على من ابتغى الحكم في غير شريعة الله، وعلّلت ذلك بأنّ القرآن فصّل في كلّ ما يحتاجه الناس من الكلّيات والجزئيات، بل إنّ القرآن دلّ على أنّ ما من شيء يختلف فيه الناس إلا ويجدون حكمه فيه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى:١٠)، والمعنى: «وما اختلفتم فيه من شيء وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى الله والرّسول ﷺ ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته»[3]. ولما كانت الشّورى أصلاً من أصول الحكم وردت هذه الآية في هذه السّورة، تنبيهاً إلى سياسة الحكم في الإسلام القائمة على الشّورى.

وهكذا فإنّ عالمية الحكم والتّحاكم في الخطاب القرآني، دلّت عليه نصوص صريحة وقاطعة الدّلالة، لا مجال لإنكارها أو تأويلها عن ظاهرها

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط.٣ (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧م) ٧/٧٠.
(٢) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات (بيروت: دار المعرفة) ص١٢٧.
(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير (بيروت: دار الكتب العلمية) ٢٧/١٤٩.

وحملها على معان أخرى، بل إنّ الإيمان بذلك والتّسليم له من عقيدة المسلمين. إنّ الإعراض عن تحكيم القرآن واستبداله بقوانين البشر لم يجلب للعالم سوى الانكسار والذلّ أمام الشّهوات، والاستعلاء والاستكبار أمام المستضعفين في الأرض، وإنّ العودة إلى القرآن هي الأمل الموعود لمن يبتغي حكم الله موقناً بعدله وعدالته، راضياً ومسلّماً.

سابعاً: عالمية الشّهود والظهور في الخطاب القرآني:

لما كان القرآن حاكماً على النّاس أجمعين وعالميا في حكمه وأحكامه، كتب الله له الشّهادة والظّهور إلى قيام السّاعة، فلا كتاب يعلو على خطاب القرآن، ولا تشريع يحاكيه، ولا حكم ينافسه وينازعه. فالقرآن هو الخطاب الأبدي، المطلق، المهيمن، الخالد، الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الشّاهد على الخلائق، الظاهر بنوره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف:٩)، هذا وعْد الله لهذا الدّين الذي ترجمه في القرآن بإتمامه وإظهاره ليكون شاهداً على الخلق أجمعين، ولقد تحقّق هذا الوعْد ذاتَ مرّة على يد رسول الله ﷺ وخلفائه ومَنْ جاء من بعدهم حقبة من الزّمن، كان السّلطان فيها للقرآن ونوره وعدْله الذي عمّ الأرض فأضاءها بالهدى والخير. وهذا الوعْد باق ما بقي المسلمون على هذا الدّين، مستمسكين بالقرآن، معتصمين بحبله، مستنيرين بهديه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾

(النور:٥٥)، فهذا الاستخلاف والتّمكين قادم في أيّ وقت لأهل القرآن وأمّته إذا تحقّقت شروطه. وعودة القرآن إلى الظّهور مشروطة بعودة الأمّة إلى دينها عوداً كاملاً تأخذ فيه بجميع أحكام القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقاً، قضاءً وحكمًا. فلا انتقاء ولا خيرة لحكم على آخر، فالكلّ من عند الله، والكلّ واجب في الاحتكام إليه والعمل به.

إن أمّة القرآن مسؤولة عن تحمّل الشّهادة على أنها حكمت بالقرآن وتحاكمت إليه، وبلّغت القرآن ونشرت أنواره وعلومه وأحكامه في الأرض؛ لتكون بذلك شاهدة على الخلق: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، فالأمّة الوسط هي التي تشهد على الناس جميعاً بالعدل والقسط والبلاغ، لا تدع الحياة للمشاعر والضّمائر، ولا تدعها للتشريع والتأديب، إنما تزاوج بينهما، فلا تكل النّاس إلى سوط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان[1]. فالأمة الوسط بشهادة القرآن هي القوامة على البشرية بعد نبيّها، وهي الوصيّة على الناس بموازين شريعتها إن استقامت على منهج القرآن. ومن ثم فإن النّكوص عن تحمّل هذه الشهادة الواجبة، والقعود عن هذا الأداء العيني يترتب عليه مسؤوليات جسام، ويكون سبيلاً لإشاعة الفساد في الأرض، والخراب الحضاري[2].

إنّ الله لن يرفع هذه الأمة بشيء غير القرآن ولن يعزّ أمرها إلا به: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤)، وصدق وعدُ الله، فإنّ

(١) في ظلال القرآن، ١٣٢/١.

(٢) عمر عبيد حسنه، على طريق الشهود: ملامح وآفاق، ط.١ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ص١٨.

ذكْر الرّسول ﷺ مرتفع في قلوب الملايين من البشر، مذكور على ألسنتهم وشفاههم، بالصّلاة والسّلام عليه، يذكرونه ذكر المحب المشتق آناء الليل وأطراف النّهار منذ مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،[1] وأمّا قومه فإنّ القرآن رفع ذكرهم شرقاً وغرباً لما ذكروه وحملوه رايةً وحكْماً، عدْلاً وإنصافاً، خيراً ورحمة للعالمين، ففتحوا به قلوباً غلفاً، وأعْيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، ودانت لهم الدنيا بالقرآن.

ولما تركت أمّة القرآن أماناته وفرّطت في أحكامه وضيّعت حدوده، وأصبح القرآن تراتيل وأنغاماً وألحاناً، أعرض عنها القرآن كما أعرضت عنه، وانسلخ منها كما انسلخت، وهانت في أعين الناظرين، وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها، وخسارة كبيرة للعالم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ (الأعراف:١٧٥- ١٧٦).

إنّ ظهور هذا الدّين قادم؛ لأنه الحقّ الذي ارتضاه الله للعالمين، ولأنه النّور الذي أضاء العالم بهداياته، ولأنه الحقيقة المطلقة الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدّل، الموعودة بحفظ الله ورعايته: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (التوبة:٣٢)، فسلامٌ على من حفِظ القرآن وحافَظ عليه، وسلامٌ على من نصَر القرآن وناصَر أهله.

(١) في ظلال القرآن، ٥/٣١٩١.

يهدي للتي هي أقوم

عمر عبيد حسنه (*)

التنوع والمدافعة من سنن الله، وهي السبيل للتكامل والتنمية. فلكل أمة اهتمامها وتميزها، فمن التفوق اللغوي والنزوع إلى التسامي الروحي إلى التأمل الفلسفي واعتماد العقل وسيلة المعرفة إلى التميز في المجال التشريعي... وليس ذلك على مستوى الأمم، وإنما على مستوى الأفراد، حيث لا ينكر أمر الفوارق الفردية، لذلك جاء الخطاب القرآني العالمي بمناهجه المتعددة وأساليبه المتنوعة ليحيط بذلك كله.

- مدخل:

تأملت ملياً في محاولتي العثور على عبارة وجيزة تختزل «رسالة القرآن» إلى الناس وتُعرِّف بها، بكل أبعادها، فما وجدتُها إلا في القرآن، فلا أدلَّ ولا أقوم من قوله تعالى في بيان وظيفة القرآن

(*) مدير إدارة البحوث والدراسات.. (قطر).

ورسالته للناس: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٩).

فالقرآن بذلك يُعتبر كتاب هداية، بالدرجة الأولى، ودليل حياة، وسبيل نجاة على جميع الأصعدة، فهو شكَّل الأمة المسلمة، وأقامها على الطريق الصحيح، وقوّم اعوجاجها، وأعطاها قيمة ومكانة، وهداها إلى سبيل السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤)؛

وهو مصدر قيم وسفر هداية مفتوح، على كل الاتجاهات، على الرغم من تنوع أساليب المنطق، وتعدد وسائل ومناهج الإقناع، سواء في ذلك اعتماد «المنهج البرهاني» المقنع في خطاب العقل وطلب النظر والتفكر والتدبر والاعتبار والمقارنة والملاحظة والمقايسة؛

أو «المنهج البياني» البلاغي المعجز، الذي يُقدِّم أرقى الأساليب وأوضحها وأدلها بياناً، وأعظمها تأثيراً، وأعمقها أثراً؛

أو «المنهج العرفاني» المؤثر والآسر، الذي يتوجه إلى القلوب والمشاعر، الأمر الذي يشكل بمجموعه وتنوع وسائله وأساليبه خطاباً للإنسان وإيقاظاً لوعيه، بكل مكوناته؛ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤).

مناهج الهداية

القرآن يستخدم لتحقيق غرضه في الهداية للتي هي أقوم وتحصيل الإقناع والاستدلال كل المناهج والوسائل والأدوات والشواهد.

- المنهج البرهاني:

فالمنهج البرهاني، الذي يؤسس له القرآن، يُحرض على التفكير، وينمّي العقل ويروِّضه، ويدربه على الاستدلال، والاستنتاج، والمقارنة، والملاحظة، والقياس، والاستقراء، واكتشاف النتائج من المقدمات، وإبصار العواقب والمآلات، وإدراك القوانين والأقدار وآلياتها، ويستبين سبل مغالبتها: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١)، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦)، ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:١١١).

- الدعوة إلى النظر في ملكوت الله:

النظر في الكون والتفكر في آلاء الله وآياته، يُعتبر من أهم وسائل إعمال العقل وتنميته وتدريبه وتوجيهه لاكتشاف سبل الحق والخير، الأمر المتوفر لكل إنسان بحسب مكتسباته، واكتشاف نظامه المُمَكِّن من تذليله وتسخيره للإنسان، ولفت النظر إلى السنن التي تحكمه، ومن ثمّ الاستمرار في رحلة اكتشاف هذه السنن والتعرف عليها، والعمل على تسخيرها لصالح الإنسان، وليس الاقتصار في مردود النظر على مجرد

التسليم بوجود الخالق وعدم عبثية الخَلق- وهو الهدف الأساس بلا شك- دون إدراك الغايات والأهداف الأخرى لهذا النظر والتحقق بمردوده، حيث الكون أصبح اليوم من أكبر ميادين البحث العلمي والمكتشفات الباهرة، التي قفزت بالإنسان قفزات نوعية، واختزلت له الزمان والمكان، ولا يزال ينظر ويتفكر....

وتستمر رحلة الكشف العلمي والمعرفي بدفعٍ من القرآن حتى يرث الله الأرض وما عليها: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

- القصص مناط الاعتبار:

وليس أمر إيراد القصص، التي تروي وتُبين مسيرة الحياة، وما اعتورها من إصابات، وتُبصِّر بعوامل السقوط والنهوض، وتؤكد اطراد القوانين الاجتماعية، التي تحكم الحياة والأحياء، بأقل شأناً وإعمالاً للعقل من النظر في ملكوت الله؛ إن قصص الأنبياء والتاريخ البشري هي التي تحقق العبرة للحاضر والمستقبل؛ العبرة التي تعني –فيما تعني- التمكن من العبور الآمن والسليم من الماضي إلى الحاضر والتطلع إلى صناعة المستقبل بخطى ثابتة وآمنة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(يوسف:١١١).

ولعل ضرب الأمثال واعتصار تجارب إنسانية متنوعة في نماذج مجسّدة يسهل إدراكها والخلوص إلى عبرها، لا يقل شأناً عن إيراد القصص.

- الحقيقة العلمية والإغراء باكتشافها:

إن الإغـراء بالحقيقـة العلميـة والاستـشهاد بهـا، للفـت النظـر إليهـا، والتدريب عليها، والتحـريض للوصـول إليهـا، وتوظيفهـا في تحقيـق الهدايـة واستكناه الأمر الإلهي في النظر إلى أهمية التوغل في كشف هذه الحقائق والإفادة منها، يُعتبر من أعلى مراتب الاجتهاد والاستدلال والعمل العقلي واعتماد المنهج البرهاني، الذي يبدأ من وضع الإنسان أمام نفسه، وتوجيه نظره للداخل، وأهمية عكوفه على ذاته، ودفعه لسبر أغوارها: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١)، ومـن ثـمّ الانطـلاق منهـا إلى الآفـاق البعيـدة والممتدة في معرفة سنن الأنفس؛ تلك السنن، التي تتيح خيارات للبشر، كما تتيح القراءة الصحيحة لاستشراف رحلة الإنسان، وإبصار المستقبل، في ضوء ذلك، وتحقيق السبق والكشف العلمي والمعرفي، والتأكيد بكل مناسـبة أن هنـاك قـوانين وسـنناً تحكـم الأنفـس والآفـاق ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنـون:١١٥)، وأن عـدم تـبيُّن هـذه السـنن، في الأنفس والآفـاق، مُوقِـعٌ في الارتطام وعدم الانسجام والعجز عن التسخير ومغالبة قانون بقانون، أو قدرٍ بقدر.

تلك المغالبة التي كانت وراء كل التقدم الذي أحرزته البشرية، ذلك أن الغفلة عن إدراك هذه الآيات والإعراض عنها واكتشاف القوانين، التي تحكمها موقـعٌ في التخلف والنكوص عن مهمة النظر والتحقق بالرؤية الموصلة إلى كشف السنن المَكّنة من تسخيرها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسـف:١٠٥)، حيـث

الإشكالية في التوهم: أن امتداد الغفلة والإعراض والعزوف عن التفكر والنظر تعني التدين الحقيقي وسلامة القلب، وذلك من علل التدين، الذي وقعت به الأمم السابقة وبدأت تتسرب إلى العقل المسلم: «أطفئ سراج عقلك واتبعني»، وأن العقل نقيض الوحي(١)

- من الحفظ والتلاوة إلى التدبر والاعتبار:

والذي نود أن نؤكده أن الوصول إلى الهداية للتي هي أقوم لا يتحقق إلا بتدبر القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤)؛ التدبر والتأمل الذي يوصل إلى اكتساب ملكة التدبير، كما أسلفنا، وإزالة اللبس، والتمكن من كسر الأقفال من على القلوب والعقول، وإيقاظها لإبصار طريق الحياة الطويل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩)؛ التدبر الذي يمنح التقوى وملكة الفرقان والتمييز فيما يشتبه من الأمور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال:٢٩)، وذلك هو بعض معاني تدبر القرآن والعمل به.

أما ما يتوهمه بعض الناس اليوم من أن التدبر هو التلاوة فقط وإعادة التلاوة، دون أن يتحقق بالمقصود الأساس من التلاوة، فذلك هو الخسران المبين؛ ذلك أن التدبر الحق هو الذي يقود إلى التدبير ومنح رؤى للحياة بكل تعقيداتها.

فعَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ، رضي الله عنه، قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: «وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ»، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ

يَا ابْنَ أُمِّ لَبِيدٍ، إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ؟»[1].

إن غياب التدبر بدلالته الحقيقية هو افتقار للمعنى الصحيح للتلاوة وتعلم القرآن وتعليمه؛ افتقار للخيرية المنوطة بالتعلم والتعليم، التي أخبرنا بها الصادق المصدوق: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[2].

فالاعتقاد أن مجرد التلاوة باللسان وتحصيل كم كبير من المساحة المقروءة هو المقصود النهائي، فأمر – فيما نرى- مجافٍ لمقاصد التلاوة نفسها، حيث نخشى أن تصدُق فينا عندها مقولة: «إنما أُنزل القرآنُ ليُعمل به فجعل كثير من الناس من تلاوته عملاً»؛ ذلك أن التطبيق والتنزيل على الواقع ومعاناة التجربة الميدانية عملٌ وفقهٌ لمقاصد الآيات، ومن هنا نُدرك قولة بعض الصحابة: إنهم كانوا لا يتجاوزون الآيات إلى غيرها قبل إعمالها والعمل بها، حيث تعلموا العلم والعمل معاً.

- مصدرية القرآن:

ونعاود القول:

إن القرآن دليل حياة ومصدر هداية للتي هي أقوم، كما أسلفنا، بالدرجة الأولى:

- فالقرآن دليل الحياة، في مجالاتها المتعددة؛
- والقرآن مصدر القيم، التي تُنظم مسيرة الحياة وتضبط إيقاعها؛

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

- والقرآن معيار التقويم والتقييم للفعل الإنساني؛

- والقرآن مصدرٌ لاستيعاب الكون ومعرفة السنن والقوانين، التي تحكم الحياة والأحياء: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:١١)، وكيفية الاتساق معها، والانسلاك في نظامها، وتسخيرها، ومغالبة أقدارها، كما بيَّن الإمام ابن القيم، رحمه الله، في «مدارج السالكين»، في ما معناه: «ليس المؤمن الذي يستسلم للقدر، وإنما المؤمن الحق، الذي يُغالب القدر بقدر أحبَّ إلى الله»: وكيف للمسلم أن يصل إلى درجة المغالبة دون أن يعرف الأقدار والسنن الحاكمة للحياة؟!

- والقرآن مصدرٌ للتشريع والأحكام: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ (الجاثية:١٨)، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة:٤٨)؛

- والقرآن مصدرٌ للتعرف على قوانين السقوط والنهوض، والتعرف على العلل، التي تسببت في الانقراض الحضاري، كما بيَّن حامل «رسالة القرآن» للبشرية ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(أخرجه مسلم)؛

- والقرآن هو مصدر الإجابة عن الأسئلة الكبرى والألغاز المحيرة للعقل البشري عن كيفية بدء الخلق، ومن ثمّ كيف ينشىء الله النشأة الآخرة.

- المنهج البياني:

والمنهج البياني، الذي اعتمده القرآن أداة للتوصيل وتحقيق القناعة، واستخدم له أعلى أنواع الأساليب وأبلغها وأكثرها تأثيراً، هو الذي يُوسع أُفق الإنسان، ويُخصِّب خياله، ويَرقى بقدرته على التجريد، ويغني لغته، ويمكنه من امتلاك القيم التعبيرية والإحاطة بدلالاتها، التي تستوعب خياله ومشاعره وقيمه الشعورية، وتؤمن تواصله مع الآخرين.

- العربية لسان الوحي ووعاء الإعجاز:

فالقرآن الكريم، بإعجازه البياني، الذي يُعتبر معجزته الكبرى الخالدة، كان وراء إغناء اللغة العربية وتطورها واتساعها وعالميتها والبلوغ بها آفاقاً وقدرات تعبيرية قادرة على استيعاب كل الحالات النفسية والعلمية والحضارية والإنسانية.

إن الإعجاز القرآني والتحدي البياني كان الدافع الكبير وراء شحذ الهمم للارتقاء باللغة لاستيعاب مدركات القرآن، ومحاكاة المعجزة الكبرى، والتعرف على وجوه الإعجاز المتعددة.

فالقرآن، في تشكيله للأمة وإقامته للحضارة، لم يُقم وزناً لفارق اللون والجنس والقوم والطبقة والجغرافيا؛ لأن ذلك جميعه فوارق قسرية ليست من صنع الإنسان وكسبه وعمله، ومن الظلم اعتمادها معياراً للكرامة والتمايز والتمييز؛ لكنه لم يتنازل بحال من الأحوال عن اللغة، باعتبارها وسيلة التواصل والاتصال وصياغة المشاعر وتشكيل عقل الأمة ووجدانها ونسيجها الذهني ووعاء أفكارها وتراثها وقيمها، التي تنطلق منه وتصب فيه؛ ذلك

أنه مهما تعددت وسائل الاتصال والتواصل وتطورت فلا قيمة لها بدون اللغة؛ وتبقى اللغة هي الأبلغ والأيسر انسياباً والأكثر انتشاراً والأبقى أثراً.

لم يتنازل القرآن عن العربية، بل كانت اللغة العربية وعاء معجزته البيانية؛ لأن اللغة، أي لغة، كسبية تعليمية في الأساس، كما أشرنا، وبمقدور الإنسان تعلمها وإتقانها، وهي سبيل النقل والتواصل بين الأجيال والحفاظ على النسيج الفكري والثقافي وحماية ذاكرة الأمة وميراثها وتواصل أجيالها وتوارثهم الاجتماعي، وتمكين تلك الأجيال من قراءة ماضيهم وتجاربهم؛ فهي أشبه بالعجينة اللينة، التي يُساهم بها الجميع؛ وهي الخميرة الذهنية، التي تتفاعل مع الجميع؛ وهي العامل الأساس في بناء الثقافة وتشكيل الأمة، وتنظيم تفكيرها، حيث لا يُنكر علاقة التعبير بالتفكير.

- القرآن أغنى العربية وحماها:

ولعلنا نقول هنا: إن القرآن الكريم، الذي نزل على معهود العرب في الخطاب، كان مركز انطلاق اللغة إلى كل آفاق الحياة العلمية والعملية، وكان السبب في ارتقائها وتطورها وعالميتها؛ وقد تكون الدراسات في النحو والصرف والتوليد والاشتقاق والتعريب والبلاغة والبيان والبديع والمعاني وفقه اللغة وعلم القراءات، والمدى الذي بلغته، كلها تمحورت حول النص القرآني، ونشأت بسببه.

فالدراسات المعجمية، التي كان القدح المعلى فيها للغة العرب، حماية للنص القرآني، بمساحاتها ومناهجها وفضاءاتها اللغوية، ما تزال تعتبر من أعظم الإنجازات، التي لم تبلغها أي لغة أخرى.

يضاف إلى ذلك أن الرسم القرآني وَحَّد الحرف والرسم، وأطلق المواهب والقدرات للتفنن في رسمه، وجعل بإمكان أي طفل يعرف الأبجدية أن يقرأ في كتاب مضى عليه قرون، هذا إضافة إلى نقل القرآن مشافهة، وما ترتب على ذلك من معرفة علم الأصوات وأحكام التجويد، الأمر الذي جعل بإمكاننا أن نقرأ القرآن كما قرأه صاحب الرسالة ﷺ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ (الزمر:٢٨)، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٥)، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (طه:١١٣).

- المنهج العرفاني:

وليس أقل من ذلك عطاءً وتأثيراً وهداية للتي هي أقوم المنهج العرفاني التأملي المنضبط بقواعد اللغة وضوابط الشريعة؛ وهنا لا بد أن نذكِّر أن المنهج العرفاني هو المنهج المنضبط بقواعد اللغة وضوابط الشريعة؛ تلك القواعد والضوابط هي التي تحميه من الانحرافات الصوفية والتفاسير الباطنية والمواجد الذوقية، والتي أفضت، بدون ضوابط الشريعة، إلى فكرة الحلول ووحدة الوجود «ما في الجُبّة غير الله!»، «حدثني قلبي عن ربي!».

كما تأتي أهمية انضباط المنهج العرفاني بضوابط الشريعة والتزامه بقواعد اللغة ومعهود العرب في الخطاب، زمن النزول، للحيلولة دون تسرب الإصابات النفسية واللوثات العقلية والهياج والهوس الديني إلى الانحراف بفهم قيم الإسلام، الأمر الذي أدى في تاريخ التدين ويؤدي إلى ظهور نماذج وصور من التدين المغشوش والمنحرف، واستباحة المحرمات وإباحة بعض الممارسات، التي قد تصل إلى الشذوذ الجنسي، والعياذ بالله.

والمطلع على بعض ممارسات الفرق الصوفية المنحرفة يصيبه الذهول من الصور البوهيمية، التي تُمارس باسم الدين، وتستغل المساكين، والتي تحولت من مهمة تزكية النفس، التي تُعتبر المقصد الأساس للمنهج العرفاني، إلى الانغماس في تدسيتها وشهواتها، ومن طهارة الفطرة إلى قبائح الغريزة، بعيداً عن مقاصد الدين وأخلاقه.

إن المنهج العرفاني المنضبط بقواعد اللغة وضوابط الشريعة يُعتبر من أهم الركائز التربوية، من حيث تأثيره في الارتقاء بالوجدان، ودقة الإحساس، وسلامة التذوق، وعمق التأثر، وسحر البيان، وتحريك الأحاسيس، وإيقاظ المشاعر، وإثارة العواطف، وأسر النفوس، وتأهيلها لإعادة صياغتها، وتوجيه حركتها واستجابتها.

لذلك، ليس غريباً ولا عجيباً أن يُنعت القرآنُ، من قِبل بلغاء العرب، بالسحر والشعر؛ وليس مُستهجناً أن يثير القلق والخوف، عند من لم يؤمن به، والرجاء والأمل وأن تقشعر من سماعه الجلود عند من يؤمن به: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (الزمر:٢٣).

وليس مُستغرباً على بعض العرب، وهم أهل البلاغة والبيان، أن يعجز عن الصمود أمام السماع لآيات التنزيل، ويحاول التشويش واللغط واللغو حتى لا يصل النص إلى أسماعه خوفاً أن يغير نفسه ويُعيد صياغته ويبدل قناعته، قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦).

فإذا كان القرآن خطاب الله للإنسان، وكانت مكونات الإنسان ومداخل وعيه: العقل والقلب والعاطفة، وكانت الوسيلة لتحريك ذلك، والوصول إليه، اللغة، أداة التواصل والبيان، أمكننا القول:

إن القرآن الكريم، في السورة الواحدة، وفي الصفحة الواحدة من السورة، قد يستخدم المنهج البرهاني والمنهج العرفاني والمنهج البياني، لتتضافر جميعاً فتستوفي بذلك استحقاقات إيقاظ الوعي، وتوفير القناعة، وتحصيل العبرة، وتحريك العواطف والمشاعر، وبناء الوجدان، وتحقيق الإيمان، الذي هو ثمرة لذلك جميعه، وبذلك تميز أسلوب القرآن وبناء نظامه، ولو لم نستطع الإدراك الظاهر والسريع للوحدة الموضوعية بين السور والآيات، حيث تتمحور جميعها وبطرائق ووسائل متنوعة لتحقق المقصد الواحد، الذي تتفرع عنه المقاصد القرآنية جميعاً، وهو الإيمان.

- تنوع محل الخطاب:

والمتأمل في العطاء القرآني، في مجال العقل والمنهج البرهاني، يرى أن الإسلام ارتقى بالعقل إلى أعلى الدرجات الممكنة، واعتمده وسيلة للاجتهاد وتوليد الأحكام الشرعية، أي جعله مصدراً للتشريع، كما ناط به التجديد وتنزيل الأحكام الشرعية على واقع الناس، واعتبره أساس التكليف ودليل الوحي، وأطلقه في النظر للكون والإنسان والحياة، وجعله سبيل كرامة الإنسان، ووسيلة اختياره، ومحور إيمانه وحريته، وناط به ملكة التعلم والكسب المعرفي، وحرضه على الحضور الدائم، وفحص الأشياء، والحكم عليها، من خلال الأدلة والبراهين والخبرة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦)، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: ١٤)، استنفره واستفزه.

هذا العطاء العقلي، وهذا البناء الفكري الكبير، في مجال الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وما تولد عنه من الترسانة الفكرية القرآنية ،التي حمت الثقافة الإسلامية من تغول (الآخر)، الأمر الذي قد يُظنّ معه أن المنهج البرهاني، دون سواه، هو الذي اعتمده القرآن، ودعا إليه، هو معجزة القرآن، وأن معجزة القرآن عقلية!

وليس أمر المنهج البياني، الذي يشكل الوعاء والأداة والوسيلة واللسان والقيم التعبيرية للمنهج البرهاني هو أقل شأناً؛ ذلك أن المعجزة الأساس تتمحور حول المنهج البياني في القرآن، وأن القرآن في الأصل هو معجزة بيانية؛ إن الشأن الذي بلغته لغة العرب ببيانها وتطورها، كثمرة لعطاء القرآن، والمؤلفات الهائلة حول الإعجاز وأساس البلاغة ودلالات الألفاظ وعلم القراءات والأصوات وفقه اللغة وعلم مفردات القرآن وتصميم المعاجم ومناهج التفسير، وامتداد ذلك إلى الشعوب الإسلامية بتعلمها اللسان العربي، ونبوغها فيه، وقراءة لغاتها وكتابتها بحرفه وصوته لا يضاهيه بيان؛ حيث لا يُنكر اليوم دور الإعلام والبيان في ميدان التنافس الحضاري، حتى يُظن معه أن المنهج البياني، دون سواه، كان معتمد القرآن!

وأمر العطاء العرفاني في القرآن، من تعمير القلب، وتزكية النفس، وبناء الأخلاق، وتأسيس وتأصيل القيم التربوية، وبيان قيم السلوك والزهد والرقائق، وإعادة نسيج العلاقات وبنائها على الأخوة والمحبة والعفو والإيثار والرحمة والتقوى، والتحذير من أمراض النفوس وتدسيتها بالمعاصي، يكاد يستغرق مساحات الكتاب التعبيرية، ويُشكل مقصده الأساس، ذلك أن ولادة الإنسان الجديد، بكل مكوناته، هو الغاية لرسالة القرآن.. ولا يتسع

المجال هنا للإتيان على الإنتاج المعرفي والتربوي الكبير، الذي يُعتقد معه أن المنهج العرفاني هو المنهج الأساس، الذي اعتمده القرآن الكريم!

إن التنوع والاختلاف من سنن الله في الحياة والاجتماع البشري، ليكون هذا التنوع سبيلاً للتكامل والتعارف، والمدافعة التي تبعث الفاعلية وتحقق التنمية وتبني الحضارة وتقيم العمران، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨- ١١٩)؛ وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾ (الحج:٤٠).

فمن الأمم من تتفوق بلغتها وبلاغتها ولسانها وبيانها؛ وأمم أخرى تتفوق بنزوعها إلى السمو الروحي والرقي النفسي، وتتمتع بالمشاعر الفياضة والعواطف الغامرة؛ وتأنس بقيم ومبادئ ومسالك العبادات والرياضات الروحية والنفسية والمعرفية؛ وأمم مولعة بالنظرات الفكرية والأمور الفلسفية، والبراهين العقلية، واعتماد العقل وسيلة المعرفة وأساس القناعة والإجابة عن الأسئلة الكبرى في حياة الإنسان.

وليس ذلك على مستوى الأمم وإنما هذا التنوع لا ينكر على مستوى الأفراد أيضاً، ذلك أن الفوارق الفردية ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ (الروم:٣٠)، هي من المسلمات العلمية والواقعية، بل نستطيع أن نقول: إن الإنسان نفسه يمر بحالات قد تتعاظم معها عواطفه ومشاعره، كما يمر بحالات يتعاظم فيها تفكيره وتأمله ورغبته في تتبع الأدلة والبراهين العقلية، ويعتبرها السبيل إلى الوصول إلى الحقيقة والقناعة والإيمان.

وليس أمر النبوغ والفصاحة والتوجه صوب الترقي اللغوي والتأثر البياني بأقل من ذلك، وتلك هي كينونة الإنسان.

لذلك كله كان لا بد للخطاب القرآني، بمناهجه المتعددة، وأساليبه المتنوعة، ومحله الفرد والمجتمع والأمة والناس جميعاً، أن يحيط بذلك كله، وأن تتعدد مناهجه وأساليبه، من برهاني وعرفاني وبياني، فيخاطب العقل والقلب والعاطفة ببيان فاعل ومؤثر، لتحقيق غرضه في هداية الإنسان وبلوغ مقاصده في العالمية، التي تعني صلاحيته لتحقيق صلاح الأمم والشعوب.

وعلى الجملة، يمكن القول: إن المنهج البرهاني بنى العقل، ودفعه للاطلاع بوظيفته؛ والمنهج العرفاني عمّر القلب وطهره من الأمراض النفسية؛ والمنهج البياني أطلق اللسان في هذا الفضاء الكبير، ليعبر عن ذلك كله، فيوصل رسالة القرآن إلى العقول والقلوب، بحيث يتم التغيير، وتتم الولادة الجديدة لإنسان القرآن المتميز المثير للاقتداء، بفكره وسلوكه وبيانه.

- خلود العطاء:

إن الهداية للتي هي أقوم عطاء خالد على الزمن، وآفاق ممتدة في شعب الحياة وجوانبها، بكل تنوعاتها وفضاءاتها، على مستوى العقيدة، والسياسة، والتربية، والاقتصاد، والاجتماع، والتفكير، والتنهيج، ورحلة البحث والكشف العلمي، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩)، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:٢٧).

عقيدة التوحيد

المرتكز الأساس لرسالة القرآن

إن «رسالة القرآن» انطلقت من أسس ومبادئ وقيم وأهداف شكّلت المرتكزات الأساس أو المقومات الأساس لبلوغها مقاصدها.

- عقيدة التوحيد تحرير للإنسان:

وهي المحور الرئيس لرسالة القرآن؛ وقد لا يتسع المجال للحديث عن دور «رسالة القرآن» في تحرير الإنسان، محور الرسالة ومحل تنزيلها، من التسلط والعبودية والشرك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وبناء كرامته واسترداد إنسانيته، وهو المقصد الأساس، ذلك أن البشرية حتى اليوم، وبعد أربعة عشرة قرناً منذ بدء النزول، تحبو للوصول إلى التحرر من التسلط والتحرير من الظلم.

فعقيدة التوحيد، محور الرسالة القرآنية، هي، في حقيقتها، خلاصٌ للإنسان من ألوهيات البشر، ومساواة بين بني البشر، وإلغاءٌ للتمييز بكل أنواعه، واسترداد لإنسانية الإنسان وكرامته، وفكٌ لقيود الإرهاب والإرعاب، التي كانت تُمارس باسم الدين، أو من قِبل الكهنة والمتحدثين باسم الله؛ فالجميع في قيم القرآن يتصلون ويتواصلون مباشرة مع الله، دون وساطة.

فالوحدانية تحرير وخلاص ونسخ للآلهة وإلغاء للجبت والطاغوت، وجعل الناس، جميعهم، متساوين وكأنهم على طاولة مستديرة، لا فرق بينهم؛ فالكرامة هنا منوطة بالكسب ومرتكزة على الاختيار: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣)، وليس بالفوارق القسرية، اللون، أو الجنس، أو القوم، أو النسب...الخ.

- فك الارتباط بين الألوهية والحكم:

ففي المجال السياسي، وهو الموقع الأخطر، نرى أن «رسالة القرآن» نزعت، لأول مرة في التاريخ السياسي، صفة الألوهية والعصمة عن الحاكم، وأكدت بشريته ومسؤوليته.. فلأول مرة في حياة البشرية، كثمرة لرسالة القرآن وهديه، ينفصل الحكم عن الألوهية، بما في ذلك النبوة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الكهف:١١٠)، «**قَدْ وُلِّيتُ عَلَيكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فإنْ أحْسَنْتُ فأعِينُونِي، وإنْ أسأتُ فقوِّمونِي... أطِيعُونِي مَا أطَعْتُ اللهَ ورسولَه، فإنْ عصيتُ اللهَ ورسولَه فلا طاعةَ لي عليكم**»[1]؛ فلا قدسية ولا عصمة لأحدٍ، ولا حاكم ولا كاهن يتحدث باسم الله.

لقد أصّلت «رسالة القرآن» لأسس الحكم الرشيد، فجعلت الشورى في اختيار الحاكم فرعاً لعقيدة التوحيد وديناً من الدين، يعدل عبادة الصلاة، وأمانةً من الخطورة بمكان التفريط فيها؛ كما أن الشورى في إدارة شؤون الحكم تكليف شرعي وعبادة من العبادات، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

(١) من خطبة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يوم اختياره أول خليفة للمسلمين.

(الشورى:٣٨)، وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وجعلت العدل مرتكز الحكم الرشيد ووظيفة الأمة المسلمة.

هذه القيمة الكبرى، في مجال الحكم، التي أكدها القرآن الكريم، وبينتها السنة، وجسدتها السيرة، كسرت احتكار الحكم وادعاء عصمة الحاكم والاستئثار بالرأي والاستبداد بالرعية، فكانت الهداية للتي هي أقوم، في المجال السياسي.

ولا يفوتنا هنا أن نذْكُر ونُذَكِّر بأن هذه القيم، في المجال السياسي، إنما نزلت وتجلت وتجسدت في واقع قبل أربعة عشر قرناً عندما كان الناس ما يزالون إقطاعات أو قطعاناً بشرية للحاكم، ولا تزال تلك الهداية، إلى اليوم، أحد المطالب الكبرى والتطلعات الغائبة، التي يسعى إليها الناس، وقد يحصلون عليها أو على بعضها، حيث تستمر سنن المدافعة وجدلية الحاكم والمحكوم والمواطن والسلطة، حتى يوم القيامة.

- تحقيق السلم الأهلي:

كما بيّن القرآن القيم الضابطة والمنظمة لقيم السلم والحرب، قال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(الأنفال:٦١)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾(البقرة:٢٠٨)، فاعتبر شيوع وإشاعة السلم والأمن والتعارف والتعاون هو الأصل في العلاقات الدولية، وأن الحرب إنما هي استثناء شُرعت للحماية من الاعتداء أو لرد الاعتداء، يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠)، ويقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾(التوبة:٦).

كما شرع القرآن القيم، التي تنظم العلاقة بـ(الآخر)، ودعا إلى الحوار معه، فقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾(الممتحنة:٨)، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(آل عمران:٦٤)، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾(العنكبوت:٤٦)؛ وجعل الإيمان، الذي يُعتبر من أعلى أنواع الحقوق الإنسانية، ثمرة للحرية والاختيار، وكان شعاره الكبير، ولا يزال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ﴾ (البقرة:٢٥٦).

- وحدة الأصل البشري:

ولعل «رسالة القرآن» في المجال الاجتماعي، حيث التصالح مع «الذات» و«الآخر» وتحقيق السلم المدني تعتبر دليلاً هادياً وعطاءً خالداً؛ فأفراد الإنسانية، جميعهم، منحدرون من أصل واحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾(النساء:١)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)؛ إضافة إلى أن تلك الرسالة القرآنية وضعت تشريعات دقيقة ومحكمة لبناء الأسرة وتنميتها وحمايتها، واعتبارها المحضن الحقيقي للمودة والرحمة والسكينة ومحلاً للتكافل والتوارث وصلات الرحم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١)، كما بينت ونظمت الحقوق والواجبات بين أفرادها، وحرّمت كل ما يخدش طهارة الأسرة وتماسكها، وجعلت الأسرة ممتدة متكافلة متجاوزة الأب والأم والأولاد إلى الجد والجدة وكل الأرحام والعصبات، وبذلك شكلت «رسالة القرآن» نسيجاً اجتماعياً متيناً مترابطاً متواصلاً، كما نظمت علاقات وحقوق الجوار وواجباتهم.

- **الأمن الاقتصادي:**

أما في المجال الاقتصادي، وهو مناط حياة الإنسان، وتنظيم كسبه، وتأمين حاجاته الأصلية، والحد من طغيانه وجشعه ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق:٦- ٧)، ﴿... وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(العاديات:٨)، فإن القيم التي جاء بها القرآن في مجال تحريم الربا والاحتكار والاستغلال وتحريم الكنز والغش والتبذير والإسراف والاستئثار بالمال، أو بتعبير آخر: ما جاء به القرآن من قيم تبيِّن وسائل الكسب المشروع ووسائل الإنفاق المشروع ووسائل الكسب غير المشروع ووسائل الإنفاق غير المشروع، وتنظم العقود في الحقوق وتربطها بأصل الدين ومقاصده، وتضبطها بالتشريعات الملزمة، ضمنت الأمن الغذائي والاقتصادي وعدم الاستغلال، إضافة إلى تشريعات الملكية الجماعية (المرافق ذات النفع العام)، التي لا يجوز للأفراد الحق في تملكها أو التصرف فيها وحجب نفعها عن أبناء المجتمع، حيث الْمُسْلِمُون «شُرَكَاءُ فِي ثَلاثٍ: فِي الْكَلإِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ»[1].

(١) أخرجه أبو داود، وصححه الألباني في إرواء الغليل.

كما بيَّن حامل الرسالة القرآنية ﷺ أنصبة التوارث، وموارد التكافل الاجتماعي، التي تحقق التوازن الاقتصادي، وتحُول دون التفاوت الطبقي، وتحمي المجتمع من الأزمات الاقتصادية والاختناقات المالية والأحقاد الطبقية، حيث كل الشواهد تدلل على أن المخرج من التأزم الاقتصادي هو الالتزام بقيم الهداية ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

- **حفظ الحقوق والوفاء بالعقود:**

أما في مجال حفظ الحقوق وتوثيقها، والالتزام بالعقود والوفاء بها، فالمساحات التعبيرية التي شغلتها من آي القرآن تؤكد أهميتها وضرورة ضبطها وتوثيقها وحمايتها، لما لذلك من أثر على اطمئنان الناس وأمنهم، وحسبنا أن نقول: إن أطول آية في القرآن جاءت في توثيق الحقوق والديون والمعاملات المالية، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...﴾ (البقرة:٢٨٢)، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة:١).

- **تحقيق التنمية الإنسانية:**

أما في المجال التربوي، ومحله الإنسان، فحسبنا أن نقول: إن الغاية من الرسالة القرآنية كلها، بمختلف شعبها وتعاليمها وأحكامها، هو تطهير وتزكية النفس وحمايتها من التدسية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٩- ١٠)؛ وإلحاق الرحمة بالعالمين، واستنقاذهم من التيه والضلال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)؛ وإن مهمة حامل

الرسالة ﷺ إلى الناس: تلاوة الكتاب، بكل عطائه وخلوده التربوي، ونقل تعاليمه إلى الناس، وتزكيتهم؛ التزكية، التي تعني: الطهارة لنفس الإنسان وسلوكه، والتنمية والارتقاء بخصائصه وصفاته، وتمليكه المهارات المتنوعة، وتربيته على التوسط والاعتدال، وإكسابه الحكمة، وهي وضع الأمور بمواضعها ووزنها بموازينها بلا إفراط ولا تفريط: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩)؛ واعتبار التربية والتعليم مفتاح التدين وغايته، فحامل الرسالة ﷺ يقول: «...**إنَّما بُعثتُ مُعَلِّمًا**»[1]، ويحدد الله سبحانه وتعالى مهمة صاحب الرسالة بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(الجمعة:٢)، وركيزة ذلك، كما أسلفنا، عقيدة التوحيد، التي تمحورت حولها وانبثقت منها هذه الرؤى الحضارية والتربوية والثقافية كلها، حيث فيها خلاص الإنسان، وانعتاقه، وتنمية قدراته، وبناء شخصيته الاستقلالية.

- نماذج تربوية:

لقد قدمت «رسالة القرآن»، في إطار المجال التربوي وبيان أسس الروابط والعلاقات الأسرية، نماذج من كل المواقع ومختلف الحالات:

- قدّمت لقمان، عليه السلام، أنموذجاً للأدب في تربية وتنمية ولده في مجال العقيدة والعبادة والسلوك واكتساب الحكمة،

(١) أخرجه ابن ماجه.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان:١٣- ١٩).

- وقدّمت أنموذجاً لعلاقة الأب المؤمن بالابن الكافر ومدى تحكم عاطفة الأبوة والصراع الذي يعيشه الإنسان، البشر، بين عقيدته وعاطفته، بين مقتضيات العقيدة وجواذب العاطفة الأبوية بنوح، عليه السلام، وابنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ

ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(هود٤٢- ٤٧).

- كما قدّمت أنموذجاً للابن المؤمن وبيان حرقته وحرصه على هداية أبيه بعاطفة من البنوة الجياشة ورقتها وحسن أدبها بإبراهيم، عليه السلام، وأبيه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ (مريم:٤١- ٤٧).

- وليست تلك النماذج فقط، فالعلاقات والروابط الزوجية كان لها نماذج أيضاً في «رسالة القرآن» للناس، فأنموذج المرأة المؤمنة والرجل الكافر في بيت واحد: امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التحريم:١١)؛

والرجل المؤمن والزوجة الكافرة: امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ (التحريم:١٠).

- كما عرضت «رسالة القرآن» لمسؤولية الرجل المؤمن عن هداية قومه وإرشادهم إلى سبيل السلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ (غافر: ٣٨)؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ (غافر:٣٠- ٣١).

وهكذا تتكرر النماذج في مجالات الحياة كلها، لتكون دليل التعامل والارتقاء والهداية للتي هي أقوم.

- التبصير بالفقه الحضاري:

وقد يكون في مقدمة ما قَصَدت إليه «رسالة القرآن» في حياة الأمم والأخذ بيدهم ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾: تبصيرهم بالفقه الحضاري، وبيان عوامل سقوط ونهوض الأمم، وبناء الوعي، وإدراك وسائل التغيير وأسباب التأثير، والإتيان بشواهد لذلك وأدلة ميدانية من تاريخ الأمم والشعوب في الأزمان والأماكن المختلفة، لتدلل على أن هذه السنن مضطردة، لا تحابي أحداً ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾(فاطر:٤٣).

ولعل الحديث عن علل التدين، والتحذير منها، وخطورة السقوط فيها، تؤكده المساحات التعبيرية الكبيرة، وبأساليب متعددة، وكيف أن تلك العلل المُتوارثة كانت ولا تزال دابة الأرض، التي تأكل منسأة الحضارة على مدار التاريخ، وأنها إذا تسللت إلى أمة كانت سبباً في انقراضها وهلاكها: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ**»، وأن إيراد الشواهد المتعددة والنتائج المدمرة لانتقال علل التدين، كان ولا يزال ضرورياً لأمة «رسالة القرآن» حتى تأخذ حذرها وتكون على بيِّنة من أمرها؛ ولقد قدمت «رسالة القرآن» تلك النماذج من أكثر من موقع من مواقع الحياة:

فمن الموقع السياسي، قدم القرآن نماذج للطاغوت المتأله والظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي، وكان فرعون الأنموذج المتصاعد له: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٤)، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:٢٤)، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(القصص:٣٨).

ومن الموقع الاقتصادي، كان الأنموذج قارون: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ

ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾
فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ
﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٧٦- ٨٣).

وفي المجال الديني، جاء الأنموذج من الكهانات الدينية وتحكّمها بمصائر البشر وابتزازها لأموالهم: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ﴾ (التوبة:٣٤)، وتوظيفها الدين لخدمة الطاغوت، وتحريف النصوص الدينية وكتمانها لشراء الدنيا بالدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ (البقرة: ١٧٤).

كل ذلك وغيره كثير إنما قصدَت إلى إيضاحه «رسالة القرآن» لتأخذ أمة هذه الرسالة حذرها، وتكون على بيِّنة من أمرها في كيفية التعاطي والتعامل مع هذه القوانين والسنن الاجتماعية.

إن «رسالة القرآن» أوضحت ونبهت إلى هذه القوانين، قوانين الأنفس، التي تحكم الحياة والأحياء، والعلل التي يمكن أن تلحق بها، ليعرف المسلم مسارات الحياة بكل تشعباتها، ويسعى إلى استيعابها وحسن

تسخيرها، فلا يغفل عنها ولا يرتطم بها، وهي في حقيقتها لا تقل اطراداً وانضباطاً عن السنن والقوانين الكونية المادية وإن كانت ظروفها وشروطها خفية عصية في بعض الأحيان عن الإدراك، وموانعها أكثر تعقيداً وخفاءً وأبعد أمداً في كثير من الأحيان.

- التاريخ مصدر معرفة:

ولقد جعلت «رسالة القرآن» التاريخ العام المديد للأمم والشعوب والحضارات، وليس فقط الاقتصار على تاريخ النبوة، هو مصدر المعرفة لإدراك هذه السنن، واستشعار مدى فاعليتها واطرادها، وبذلك أضافت الشاهد والعطاء التاريخي لتأكيد التجربة الذاتية: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧- ١٣٨).

وهنا تبرز أهمية دور التاريخ في قراءة الواقع، وتفسير الحال، ورؤية المآل، وبيان أبعاد «رسالة القرآن» ومداها في واقع الناس وعمقها في تاريخ الحضارة، حيث التاريخ مختبر التجارب البشرية.

من أبعاد رسالة القرآن

«رسالة القرآن» الكريم محلها الإنسان، الذي استخلفه الله تعالى في الأرض ليقوم بمهمة الاستخلاف وإقامة العمران وبناء الحضارة الأنموذج، التي تثير الاقتداء، وزوده بدليل التعامل مع الحياة والأحياء، وناط به مهمة تحقيق العدل والأمن، وأقامه شهيداً على الناس لإلحاق الرحمة بهم.

- بناء أمة الفكرة:

الدعوة إلى عقيدة التوحيد، التي تُشكل المحور الأساس لأمة الفكرة وتحقيق المساواة بين أفرادها، وبيان أثر هذه العقيدة في استرداد إنسانية الإنسان وكرامته، وإيقاف التسلط، ونسخ الألوهية، وتحقيق المساواة؛ تلك الفكرة أو الركيزة، التي تمحورت حولها الأنشطة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وكانت وراء بناء النسيج الذهني والثقافي والاجتماعي والسياسي للأمة، حيث تشكلت من خلالها أول أمة ودولة ومجتمع على هذا النمط، وتحقق وجود المواطن العالمي في أمة الإسلام، مهما بعُدت به الشقة، فالمؤمنون إخوة، والمؤمنون أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠)، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:٩٢).

ونستطيع القول: إن الأمة المسلمة، دون سائر الأمم، تشكّلت من خلال كتاب «القرآن»، وانطلق سلوكها وخلقها من خلال المحراب (المسجد)، وعاء العبادة والتلاوة واجتماع الأمة؛ والأمة، التي نتحدث عنها هنا، غير الدولة، بالمفهوم القانوني والسياسي والواقعي، ولا نرى تضاداً ولا تعارضاً بين أن يكون الإنسان مواطناً عالمياً في أمة الإسلام وفي الوقت ذاته يكون

مواطناً في أية دولة، مهما كان دينها ودستورها، فالأمة باقية، والدولة تدول وتُتداول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(آل عمران:١٤٠).

لقد تشكلت الأمة من خلال كتاب، كما أسلفنا، من خلال فكرة وعقيدة ورسالة، في الوقت الذي كانت عوامل تشكيل الأمم تحكمها الأرض واللون والجنس والقوم والجغرافيا...الخ من الفوارق القسرية؛ فالبعد الحضاري لأمة الفكرة فضاءٌ واسع، يتضح من خلال المقارنة بين أمة تجمعها رسالة وفكرة إنسانية عالمية اختيارية، وأمة تحكمها أسوار اللون والجنس والقوم.

- ميزان الكرامة:

فـ«رسالة القرآن» بعد أن بنت الفرد واستنقذته من الضلال، شكّلت من المؤمنين بها خير أمة أُخرجت للناس، وجعلت ميدان التنافس والارتقاء وميزان الكرامة التقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣)، وفي ذلك ما فيه من المساواة، التي هي روح الحضارة وصمام أمنها وامتدادها، وتأصيل مبدأ تكافؤ الفرص، واسترداد إنسانية الإنسان وكرامته، وبناء الجسور الاجتماعية، وإخراج أمة الوسط (العدل) للناس، تحمل رسالة الخير وتحقق الشهود الحضاري: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠)، تبدأ بتطهير «الذات» من أدران الشرك وتداعياته، وتطهير المجتمع من الفساد: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).. فالوسطية المنوطة بالأمة تعني إقامة موازين العدل وتحقيقه في الحياة، وبيانه للناس، وإقناعهم بها، والتزامهم باستحقاقاته، والشهادة عليهم، وتقويم إنجازهم الحضاري.

وما أظن كتاباً في الدنيا نال إجماعاً، بالمطلق، وإن اختُلف في فهمه وتفسيره، وهذا شيء طبعي، فيما وراء القرآن إلا القرآن، وأن هذه القرون المتطاولة، على الرغم من تطور العلوم والمعارف والتقدم الهائل في العلوم الاجتماعية، لم تُسجل على نصه وأفكاره إصابة واحدة ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:٤٢)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

- عصمة عموم الأمة:

والقرآن، برسالته إلى الناس، لم يقتصر على تشكيل أمة الفكرة، وإنما ضمن خلودها وامتدادها، وذلك بوضع الأسس والضوابط والتعاليم، التي تمنعها من الزلل والانحراف، يقول صاحب الرسالة ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ**»[1]، وشكَّل لها درع الصمود والوقاية والحماية في أيام الأزمات والاستعمار والتخلف والتراجع الحضاري، كما كان لها الدافع والباعث، وأمكنها من القدرة على التجاوز والنهوض، حيث بصَّرها بعوامل النهوض والتغيير، وهذا يدل، من بعض الوجوه، أو من كل الوجوه، على سمة الخلود، التي تعني القدرة على الإنتاج، في كل زمان ومكان، بما يمتلك من الإمكان الحضاري، فكان القرآن ولا يزال هو الملاذ، الذي تلجأ إليه الأمة في الأزمات، وتهتدي به أو تنطلق منه في محاولات النهوض.

ويمكننا القول بعد هذه القرون المتطاولة: إن القرآن هو أعظم ما تمتلك الأمة المسلمة من الإمكان الحضاري، حسبها أنها تمتلك النص السماوي السليم والأخير، الذي صوَّب النصوص الدينية السابقة بعد أن اعترف

(١) أخرجه ابن ماجه.

بأصولها، وشكّل الأمة وحقق حمايتها، وهو الذي يشكل لها المشروعية العليا، والرافعة الحقيقية للدفع الحضاري؛ واستقراء التاريخ يقول لنا: إن الأمة كلما رجعت للقرآن عزَّت ونهضت وانتصرت وقامت من كبوتها، وكلما انسلخت وتراخت وتساهلت تخلّفت وتراجعت ونكصت على أعقابها.

وكم هو اليوم حال الأمة في التعامل مع القرآن محزنٌ، الذي انتهى إلى تلاوات وتلاوات وإعادة التلاوة، بعيداً عن التدبر والاعتبار وامتلاك أهلية التدبير والنظر وتحقيق ملكة الفرقان والتمييز بين الأمور وترجمة مقاصده وتجسيدها في الواقع الاجتماعي.

- وراثة النبوة والبعث الحضاري:

إن القرآن، الذي يُحدث التغيير، ويحقق النهوض، ويبني الحضارة، ويقيم الأمة الشاهدة على الناس، هو القرآن الذي يزكي النفس، وينقّي القلب، ويحرك المشاعر، ويلهب العواطف، ويُوقظ الوعي، ويُلهم العقل، وليس القرآن الذي تحول إلى المقابر وأسِرَّة المرضى واقتصرت تلاوته على الموتى والجنائز.

وإذا كان نهوض المجتمع مرهون إلى حدٍ بعيد بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأول، كما يرى علماء الحضارة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، وأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلُح به أولها، كما قال الإمام مالك، رحمه الله، أدركنا دور القرآن في عملية النهوض الحضاري ومعاودة إخراج الأمة.

إن «رسالة القرآن»، خاتمة الرسالات، التي انتهت إليها النبوة، بكل تجاربها وعطائها وإصابات أتباعها وعلل سقوطهم؛ انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً، وتجربتها التاريخية الحضارية، مؤهلة لمعاودة النهوض وإخراج الأمة من جديد.. فهي خلاصة النبوة، ووريث تجاربها

وتعاليمها، لذلك فالمؤمن بها مؤمن بكل النبوات، وتعاليمها، وعبرها، فجذور إنسان القرآن ممتدة إلى أعماق التاريخ، إلى النشأة الأولى، ومتطاولة حتى نهاية الحياة، عندما يُنشيء الله النشأة الآخرة.

هذا الميراث الضخم، وهذا الإيمان بكل النبوات، يمنح المسلم الحياة الطويلة، ويجعله فرداً في قافلة الحضارة والأمة الممتدة الواحدة، ويمنحه الفقه الحضاري: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ (المؤمنون:٥٢)، وليس المقصود هنا طبعاً أمة الرسالة الخاتمة، وهي أحد المقاصد، وإنما أمة النبوة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ (البقرة:٢٨٥)، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ (المائدة: ٤٨)، ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ (الشورى:١٣).

فالإيمان بأن القرآن يصدّق الذي بين يديه ويرث النبوة: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ (فاطر:٣٢)، يقود إلى الانفتاح والتصالح والحوار به مع الآخرين على طريق تعاليم النبوة وعدم المواجهة والتصادم؛ لأن دين الله واحد؛ ذلك أن القرآن حفظ أصول الديانات السابقة من الاندثار والبلى، وحقق إنسانية الرسالة القرآنية وعالمية النبوة وتاريخيتها وأهّلها لقيادة الناس إلى نهاية الحياة؛ وبذلك فالقرآن سِجِلُّ النبوة الأمين، والمؤمن به مؤمن بكل النبوات، كما أسلفنا، مُثابٌ على ذلك بعظيم الأجر؛ ولعل ذلك مكّن من تحقيق الشهادة على الناس، من بعض الوجوه ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

تصويب الرؤى الدينية

وليس ذلك فقط، وإنما كانت «رسالة القرآن» هي السبيل لتصويب الرؤى الدينية السابقة، والاحتفاظ بأصولها، وبيان الإصابات، التي لحقت بالنص الديني، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة: ٤٨)، فالتصديق للأصول، والهيمنة ،التي تعني الرقابة والشهادة وكشف التحريف والتبديل وبيان مواطن الإصابة، من وظائف ومقاصد «رسالة القرآن».

- الهيمنة ومنهج النقل العلمي:

فـ«رسالة القرآن» بذلك مزدوجة الهدف: فهي أولاً تهدي إلى بناء إنسان النبوة الخاتمة الجديد؛ الذي هو بإيمانه برسالة القرآن تتحقق له ولادة طبيعية للنبوات جميعاً؛ وثانياً مهمة تصويب ما لحق بالنبوة السابقة، وتصويب رؤاها، كما أسلفنا.. فالشاهد والرقيب والمهيمن والكاشف والمعيار والمصوِّب والمبين... هي الأبعاد الحقيقية لقوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

ولقد تحققت لـ«رسالة القرآن» هذه المعيارية وهذه الهيمنة بما يمتلك من مجموعة الخصائص والمقومات، التي جعلته مؤهلاً لهذه المهمة، لعل في مقدمتها أنه النص السماوي الوحيد ،الذي ورد ونُقل بطريق علمي صحيح يفيد علم اليقين، فقد ورد بالتواتر، وهو ما يرويه الجمع عن الجمع، الذي يحيل العقل تواطؤهم على الكذب.

ومن مظاهر الصحة والحفظ والنقل بطريق علمي أن الرسول ﷺ منذ خطوات النزول الأولى اتخذ كُتَّاباً للوحي، متخصصين به، لا يكتبون غيره، حتى الحديث النبوي، حيث نهى الرسول ﷺ كتابة غير القرآن، فقال: «**لا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**»(١).

وليس ذلك فقط، وإنما كان النقل عن طريق الحفظ والمشافهة قرين الكتابة والنقل، فوصل القرآن إلى جميع الأجيال مكتوباً فهو كتاب، ووصل محفوظاً مقروءاً فهو قرآن؛ هذا إضافة إلى التكرار والمراجعة المستمرة في الصلوات الجهرية، الفردية والجماعية، وأداء المحاريب، وما كان من المدارسة المستمرة في رمضان، بين جبريل الأمين على الوحي وبين رسول الله ﷺ متلقي الوحي، فقد « **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، إِنَّ جِبْرِيلَ، عَلَيْهِ السَّلام، كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ، حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ**»(٢).

هذه المدارسة والمراجعة، إلى جانب كل وسائل الحفظ والنقل العلمي، ضمنت للنص القرآني السلامة والصواب، في الوقت الذي تفتقر فيه النصوص السماوية السابقة لأبسط قواعد النقل والتوثيق، مما أوقع بعضها في كثير من التناقض والاضطراب، الأمر الذي دعا الكثير من العلماء والمدققين للقول: إن القرآن، بما يمتلك من الخصائص والصفات الوثائقية،

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

هو المرجع الوثائقي والمصدر المعرفي الوحيد لهذه الأديان، أو هذه الكتب، فهو أقدم وثيقة تاريخية وردت بطريق علمي صحيح.

هذا من الجانب الوثائقي العلمي، أما من حيث الجانب العقدي الديني، الذي جاء الجانب العلمي الوثائقي ثمرة له، فإن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظ كتاب الرسالة الخاتمة، الذي انتهت إليه النبوات، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، في الوقت الذي أوكل حفظ الكتب السابقة لأهلها، فقال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ (المائدة:٤٤).

هذا الحفظ، الذي تعهد به الله سبحانه وتعالى، إنما تحقق من خلال عزمات البشر وفعلهم، ابتداءً من حياة الرسول ﷺ باتخاذ كُتّاب وحفظة للوحي، ومروراً بفعل سيدنا عمر، رضي الله عنه، جمع القرآن بعد أن استحر القتل بالقراء، في معركة اليمامة، عندما خاف ضياع القرآن، حيث لم يخطر بباله أنه يُخالف قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، أو ببال أحد أن يُنكر عليه فعله، متوهماً أن ذلك مخالفةً شرعية، ويطرح على نفسه أو غيره السؤال التالي: كيف تخاف على ضياع القرآن وقد تكفل الله بحفظه؟ كحال فهم إنسان التخلف والتراجع الحضاري(١) والأمر ذاته تكرر عندما أمر سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بنسخه وتوزيعه على الأمصار، كنسخة معتمدة رسمية، وما تتابع من أدوات ووسائل الحفظ والنقل، التي ما تزال مستمرة إلى الآن.

- صحة النص القرآني:

وقضية أخرى، هي: أن من لوازم الخاتمية صحة النص ووصوله واستمراره سليماً، إلى يوم القيامة، لتوقف التصويب من السماء، إذ لايمكن عقلاً ولا ديناً ولا منطقاً أن يُخاطَب الناس ويحمَّلوا مسؤولية التكليف ويُحاسبوا بنصوص منحولة ومحرّفة وغير صحيحة، ومن ثمّ تتم محاسبتهم على أعمالهم في ضوئها ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:٤٢)، «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ»[1].

- التجديد من لوازم الخاتمية:

كما أن من لوازم الخاتمية: الهيمنة والخلود والتجرد عن حدود الزمان والمكان، وإمكانية التجريد عن ظرف الزمان والمكان، والقدرة على التوليد للرؤى والأحكام، في ضوء قيم القرآن وسنة صاحب الرسالة ﷺ، والبيان في كل زمان ومكان، إضافة إلى القدرة على العطاء المستمر والإنتاج في كل زمان ومكان.

ولعل من لوازم الخاتمية أيضاً: التجديد للمعطيات والاجتهادات المنطلقة من قيم القرآن ورسالته وإزالة ما يمكن أن يلحق بها من تراكم التقاليد والعادات والفهوم المعوجة، الأمر الذي نيط بالعلماء العدول، الذين يحمون القيم والمفاهيم من الفهوم والاجتهادات المعوجة، ويعودون بالأمة إلى الينابيع الأولى، والمقاربة مع فهوم خير القرون، وينفون نوابت السوء المحتملة،

(١) أخرجه ابن ماجه.

ويحولون دون تسرب علل التدين إلى أمة الرسالة الخاتمة، أو بتعبير أدق: يعودون بالتدين إلى الانضباط بقيم القرآن وبيان مقاصده وتحقيق رسالته في التجديد واستشعار المسؤولية عنه، وهو أحد وجوه الخلود، من بعض الوجوه، ولا أدل على ذلك من قول صاحب «رسالة القرآن» ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**»(١)، وقوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(٢).

- أعظم ما تمتلك الأمة:

وليس من قبيل التكرار ومعاودة القول: إن أعظم ما تمتلك الأمة، في تاريخها وحاضرها ومستقبلها، هذا القرآن، الذي يمثل النص السماوي السليم، الذي يشكل دليل الحياة، ويبين سنن الأنفس والآفاق، ويشكل الإمكان الحضاري والمحرض لمعاودة النهوض واسترداد الفاعلية، كمايشكل درع الحماية والملجأ وسبيل الخروج أثناء السقوط والهزيمة والتراجع والتخلف الحضاري، لكن يبقى السؤال الكبير والمستمر: كيف نتعامل مع القرآن وننشر رسالته في الحياة ونحقق مقاصده؟

وهذه القضية، التعامل مع القرآن، لا بد من التوقف عندها واستمرار التأمل فيها واكتشاف وتحديد مواطن الخلل، ذلك أن القرآن كدليل للحياة في مساراتها المتعددة والمتنوعة، إنما وضَع القيم والمبادئ العامة، وبيَّن

---

(١) أخرجه البيهقي.

(٢) أخرجه أبو داود.

السنن، التي تحكم الحياة والأحياء؛ تلك القيم القرآنية هي التي تشكل المرجعية والمنطلق وتضبط المسار وتوجهه، وترسم الفضاء الكبير لحركة الإنسان والاضطلاع بوظيفته في الاستخلاف وإقامة العمران وتعمير الأرض وفق هذه القيم.

هذه القيم، من وجه آخر تعتبر موازين ومعايير تقوّم العمل والفعل الإنساني، وتسدد مساره، وترشد إلى استقامته، وتبيِّن مواطن الخلل فيه، وهي في الوقت نفسه تعطيه القيمة الحقيقية، وبذلك فالقرآن ليس مصدر خطط وبرامج وتفاصيل، ذلك أن تنزيل هذه القيم القرآنية على الواقع وتحقيق «رسالة القرآن» في حياة الناس، ووضع الخطط والبرامج وإبداع الوسائل والأدوات، في ضوء الاستطاعات البشرية، إنما هو منوط بالاجتهاد البشري، أو بتعبير آخر: بمعرفة العقل وخبرته واجتهاده، وهي بطبيعتها متغيرة متجددة بحسب حالات الناس واستطاعتهم، أي بحسب الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، وهي في حركة دائبة وكشوفات مستمرة.

فإذا كانت المبادئ العامة والقيم الهادية والمعايير الأساس للفعل الإنساني متأتية من معرفة الوحي (القرآن وبيانه) فإن وضع البرامج والخطط متأتية من معرفة العقل، حيث لا يمكن عقلاً ولا شرعاً إلغاء معرفة العقل، وهي سبيل معرفة الوحي وتدبرها، بحيث يتحول الإنسان إلى آلة صماء فاقدة للإرادة والاختيار، إضافة إلى أن الإنسان لا يمكن بحال أن يكون واضع المعيار ومحله في الوقت نفسه!

يضاف إلى ذلك ما يمكن أن ينتج عن هذا من تسلط الإنسان على الإنسان، وذلك بإعطاء نفسه الحق في أن يُشرِّع ويضع القيم والموازين لغيره من البشر وهو إنسان مثله؛ ذلك أن تاريخ الفساد في الحضارة البشرية كان ولا يزال ناتجاً من تسلط الإنسان على الإنسان؛ وما التمييز العنصري أو الجنسي أو اللوني أو الطبقي أو الاجتماعي إلا شواهد على هذا التسلط.

والقضية التي تتطلب إعادة النظر والتفكير والتقويم والمراجعة، هي أن هذا القرآن العظيم، أقام أمة وبنى حضارة وشكل ثقافة وكان محل الوحدة الجامعة والمشروعية الكبرى للأمة، في مراحل حياتها كلها، كان منطلق النهوض، والحصن من السقوط والذوبان وذهاب الريح، فكم من الأمم والحضارات سادت ثم بادت عدا الأمة المسلمة، التي هي بالقرآن، أو ببقايا استمساكها بالقرآن، استعصت على السقوط وأبت الخضوع للدورات الحضارية المعروفة في النهوض والاستواء ومن ثم السقوط والانقراض أو الموت، وإن أصابها بعض الأذى، يقول الله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران:١١١)، ذلك أن الموت والانتهاء أمر يتعارض مع خلود الرسالة التي تحملها، والخاتمية للنبوة التي تؤمن بها، ووظيفة الشهادة التي نيطت بها.

فإذا كان نص القرآن صحيحاً كما نزل، خالداً مجرداً عن حدود الزمان والمكان، قادراً على الإنتاج والتوليد في كل زمان ومكان، وإذا كانت مرحلة السيرة، التي تمثل التجسيد العملي لقيم القرآن وتعاليمه في حياة الناس، حيث قدمت الأنموذج لتنزيل القرآن على واقع الناس، بحسب

ظروفهم، إضافة إلى التجربة الحضارية التاريخية، التي استوعبت جميع الحالات الإنسانية ماثلة للعيان... إذا كان نص القرآن صحيحاً كما نزل، وكان القرآن اليوم هو القرآن المُنزل على الجيل الأول، وإذا كان الإنسان هو الإنسان، فلماذا توقف عن البناء والعطاء المأمول؟ ولماذا توقفت أمة القرآن عن الشهادة والقيادة؟ وما هي العوائق التي تحول دون معاودة الإخراج للأمة من جديد؟

- الهجر وغياب التدبر:

والإجابة بقدر ما هي بسيطة بقدر ما هي معقدة ومتراكبة ومتداخلة؛ ذلك أن السبب - فيما نرى- هو الخلل الكبير الحاصل في التعامل مع القرآن وعدم امتلاك الفقه والخطط والبرامج والأدوات التي تمكّن من التجسير بين قيمِه وأنشطة الحياة ومسالك الإنسان، في ضوء الاستطاعات المتوفرة والظروف المحيطة؛ هو سوء التعامل؛ هو غياب التدبر لآياته، الذي يمكّن الإنسان من البصيرة والتدبير؛ هو غياب فقه البيِّنات والهدى والفرقان، أو هو بكلمة مختصرة: الهجر ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ (الفرقان:٣٠)؛ الهجر بكل آفاقه وأبعاده وآفاته؛ حتى ولو حفظنا وتلونا دون أن نتدبره ونعمل به فالهجر، من بعض الوجوه، يبقى قائماً.

ولعل الإشكالية تكمن في فهمنا المتخلف، الذي ينعكس على النصوص.. لقد أصبح فهمنا العملي لقوله، عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُكُمْ مَنْ

تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1]، يعني حفظه بالذاكرة ومراجعة هذا الحفظ ولو لم نعمل ونتدبر آياته ونعرف كيف ننتفع بها، حتى باتت التلاوة والحفظ والنقل والتفنن في الرسم والخط هو منتهى القصد وغاية التعامل مع القرآن وتجنب هجره، الأمر الذي يذكرنا بقولة الحسن البصري، رحمه الله، التي بتنا اليوم نتلبس بها بكل أبعادها: إنما نزل القرآن ليُعمل به فجعل الناس من تلاوته عملاً(!)

ونحن هنا لا نقلل من شأن الحفظ والتلاوة وما يترتب عليهما من ثواب وأجر وأنها السبيل إلى التدبر والاهتداء إلى العبر وسنن السقوط والنهوض، وإنما الذي نود قوله: إن الحفظ والتلاوة هو طريق الوصول إلى التدبر والتأمل والتفكير والتدبير لشؤون الحياة انطلاقاً من القرآن؛ ويبقى السؤال الكبير قائماً وفي كل آن:

كيف نتعامل مع القرآن، خاصة وأن تعاملنا القائم لا يحقق مقاصد القرآن وينزله على حياة الناس بقدر استطاعتهم ومن خلال ظروفهم؟

- من المبادئ والقيم إلى البرامج والخطط:

ووجه آخر للإصابة أو الإشكالية، قد لا يقل شأناً عما أشرنا إليه، وهو التوهم، الذي لا يزال يسيطر على كثير من الأذهان من أن القرآن، دليل الحياة، إنما هو كتاب خططٍ وبرامج، يكفي فيه أن نعلن أنه دستورنا، وأن الإسلام هو الحل لإشكالياتنا؛ فعلى الرغم من أن هذا صحيح بعمومه

(1) أخرجه الترمذي، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وإطلاقه، لكن شريطة أن يُستتبع باجتهادات وبرامج وخطط واستراتيجيات تنطلق من مرجعية القرآن، بحسب مشكلات الإنسان الفردية والاجتماعية والتنموية والسياسية والاقتصادية... إلخ، كما أنه لا بد أن ندرك أن القرآن إنما هو كتاب قيم ومعايير ومحددات وتوجهات، والإنسان محل التنزيل، ووسيلته، وهو المنوط به تنزيل الآيات على واقع الناس ضمن خطط وبرامج لفقه الواقع واستطاعاته وظروفه، كما تُفْهَم وتفقه من النص القرآني.

ذلك أن رفع شعار: «الإسلام هو الحل»، و«القرآن دستورنا»، وتركه معلقاً فوق رأس الجماهير المؤمنة ومحل نظرها وتطلعها دون تقديم البرامج والخطط والاستراتيجيات المنطلقة من قيم القرآن، وتحويل هذه الشعارات إلى أعمال وشعائر وممارسة، نخشى أن يؤدي ذلك إلى إجهاض هذه القيم العظيمة، وإقامة السدود النفسية بين الإنسان وبين القرآن، وبذلك يُرفع القرآن من الواقع إلى الرفوف، ومن العمل إلى الهجر، وتُجعل مجرد تلاوته عملاً يتوهم معها الخروج من عهدة التكليف بعدم الهجر.

فلذلك نقول: إن رفع هذه الشعارات دون خطط تنزيل وبرامج عمل قد يؤدي إلى القيام بأعمال وممارسات سلبية، ويدفع إلى تصرفات وألوان من التدين المغشوش والفكر الأعوج والغلو والتطرف الخطير، حيث النظر كليل، والفقه قليل، والحماس الزائد المتوثب، الذي يدفع إلى الغلو والتطرف والتعصب، دون فقه واختصاص يؤدي إلى إلغاء العمل، وانطفاء الفاعلية، وعطالة الحواس.

ونخشى أن نقول: إن ذلك سوف يقيم حواجز بين القرآن والإنسان، ويحكم على القرآن، ولو ضمنياً، بأنه عاجز عن حل مشكلات الناس المتراكمة، التي لمّا تجد حلولاً لها، وعدم الارتقاء بهم، فنسيء من حيث نظن أننا نحسن صنعاً.

- من إثبات النص إلى إعماله:

وقد يكون من أهم مظاهر الخلل في التعامل مع القرآن الكريم، أن صرف الجهود كلها تقريباً كان ولا يزال يتجه إلى الحديث عن عظمة القرآن وبلاغة النص وصحته وإعجازه، أو بعبارة أخرى أن معظم الجهود تتمحور حول فقه النص وتفسيره وتحقيق ألفاظه ودلالاتها، فيما نعتقد أن صحة النص وسلامته وعلمية نقله وهيمنته لم تعد تحتاج لاستزادة أي مستزيد، وإنما قد يكون المطلوب اليومَ فقه واجتهاد بالوسائل والأدوات، وتقدير الاستطاعات المطلوبة لإعمال النص في واقع الناس تحقيقاً لرسالة القرآن، أي إدراك أهمية إعمال النص بقدر أهمية تحقيقه وتوثيقه.

إن الذين يبذلون الجهود الكبيرة في المدارس والجامعات والمعاهد ومن على المنابر للحديث عن عظمة النص القرآني وصحته، وتحقيق مخطوطات تفسيره، على ما فيه من خيرٍ، إلا أنه يشكل نصف الطريق إلى المقصد، وقد يفتقد هذا النصف قيمته ويصبح في عداد الوسائل النظرية إذا لم نتابع الخطو إلى النصف الآخر، الذي هو إعمال هذا النصّ في حياة البشر، وتنزيله على واقعهم بقدر استطاعتهم؛ لأن ذلك على أهمية ارتباطه بالنصف الأول، إثبات النصِّ، وتحقيقه، إلا أنه يشكل المقصد النهائي لكل الجهود المبذولة لإثبات النصّ.

فقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، وقد تقدمت العلوم الاجتماعية والإنسانية، التي يمكن توظيفها إلى حدٍ بعيد في فهم النص وإعماله وتقدير الاستطاعات وقياسها، قد يكون المطلوب اجتهاد مقدور في إعمال النصّ، في ضوء الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، يوازي الاجتهاد في إثباته، ومعالجة الخلل القائم.

فالحديث عن عظمة النصّ وإعجازه البياني، ولغتنا في تراجع مستمر، وبذل الجهود الكبيرة للحديث عن إعجازه العلمي — ونحن أشد ما نكون متخلفين علمياً—... إلى آخر قائمة الإعجاز، العددي والتاريخي والإخبار بالغيب، والمسلمون من تخلف إلى تخلف، في العلم والعمل والحضارة، أمرٌ قد يُزري بأهل القرآن، ويُلحق الضرر بدعواهم، التي لا شاهد لها على أرض الواقع.

لقد اكتفينا بالحديث عن الإعجاز عن بذل الجهود في الإنجاز، وتلك من أخطر آفات التخلف.

هذا الفهم العقيم السقيم، الذي يعطل الفاعلية ويلغي التكليف والمسؤولية، تسانده فلسفة الإرجاء المعاصر، التي تقيم أسواراً من الخوف والإرهاب الفكري يُحمِّل الرسالة القرآنية ما نحن عليه من العجز والكسل العقلي، ويُلجم الألسنة عن الاعتراض؛ لأنها بزعمهم تتطاول على المقدس (!)، ويعفي من المسؤولية، ويطارد العقل، ويعطل آلية النقد والمراجعة، وقد يؤدي إلى إقامة الحواجز بين القرآن ووصول رسالته إلى الناس وإنقاذهم مما هم فيه.

- **نص الشارع وفهم الشارح:**

ولعل من الأمور الجديرة بالنظر والتفكر أن الإنتاج البشري والاجتهادات المتنوعة، التي تمحورت حول القرآن، بدل أن تُشكل جسراً معرفياً تمنح الرؤية والأدوات، وتخصب الذهن، وتغني المعرفة، وتمكّن من النظر فتسهل العودة إلى القرآن، ودخول البيوت من أبوابها الصحيحة، والإفادة لذلك من عطاء هذه العقول أثناء التعامل مع القرآن، والاهتداء بهديه، والارتقاء إلى التي هي أقوم في أنشطة الحياة المختلفة والمتجددة، تحولت في كثير من الأحيان إلى جدران وحواجز مانعة، عزلت القرآن عن حياة الناس، ادعاءً بأنها إنما استنبطت من القرآن، وأن القرآن هو مرجعيتها، فلا حاجة إلى العودة إلى القرآن، والنهل منه، حيث لم يترك الأقدمون للمتأخرين شيئاً (!)

وبذلك، تعطلت فاعلية القرآن في الحياة وصياغة الإنسان، وتحول من المجتمعات إلى المقابر، والاكتفاء برأي واجتهاد الشارح، القابل للخطأ والصواب، المحكوم بحدود عصره ومشكلاته، عن نصّ الشارع المعصوم، الخالد العطاء لكل زمان ومكان.

وليس أقل من ذلك خطورة، وكرد فعلٍ غير سوي، محاولات القفز من فوق هذه الاجتهادات والفهوم والرؤى، والتعامل مع القرآن مباشرة، دون امتلاك الأداة والمؤهل والتحقق بالمحصلة التراثية.

وقد يكون المنهج الأسلم، والله أعلم، في العودة إلى القرآن، الينبوع الأول، الخالد على الزمن، وتدبر آياته، واسترداد دوره في معاودة إحيائنا وحياتنا، وإعادة اعتماده المعيار الحاكم على كل إنتاج واجتهاد بشري،

من خلال استصحاب هذه الرؤى والاجتهادات، دون تقديس لأي رأي، وإحلاله مكان القرآن المقدس المعصوم، فـ«كل إنسان يؤخذ من كلامه ويُرد إلا صاحب هذه القبر ﷺ»، كما يقول الإمام مالك، رحمه الله، بحيث يبقى القرآن هو الهادي للتي هي أقوم، والأساس، والمعيار، والميزان لقول البشر، مهما بلغوا.

ومحصلة القول: إن القرآن منهج حياة كامل، ودليل عمل، ومصدر قيم، ودستور إصلاح وبناء عقيدة، ومصدر تشريع، يقدم رؤية للحياة، ابتداءً من النشأة الأولى (بدء الحياة) وحتى النشأة الآخرة (انتهاء الحياة)، ويجيب عن الأسئلة والاستفهامات الكبرى الخارجة عن ساحة العقل ونطاق الحواس، ويقدم لإنسان الرسالة الخاتمة تجربة النبوة التاريخية، ويبصّره بقوانين السقوط والنهوض، ويدعوه للاعتبار والإفادة من هذه التجارب، التي تحكمها سنن وقوانين مطردة لا تتبدل ولا تتحول، ويطلب إليه تسخيرها ومغالبتها.

لكن الإشكالية أن الإنسان اليوم أضاع بوصلة الحياة في القرآن، وحوّله إلى ساحةٍ للتبرك، وتحول هو إلى نوع من العطالة عن التزام المنهج السنني وتعاطي الأسباب، التي هي أقدار الله في تسيير الحياة، باسم الدين.. فكيف يأمل من هذا الإنسان «الكَلّ»، الذي وصفه القرآن بقوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ (النحل:٧٦)، النهوض والإصلاح والصلاح؟

رسالة القرآن في الإصلاح

إن هاجس الإصلاح والتنمية وسؤال النهضة كان ولا يزال همّ الإنسان ومؤرقه الدائب، ولقد سلك الإنسان تاريخياً صوب الإصلاح طرائق قدداً، ولعل مشاريع الإصلاح، التي طُرحت على الساحة الإسلامية، بعد انفصال السلطان عن القرآن وتحوّل القرآن إلى تراتيل وتلاوات بعيدة عن صُنع الحياة، أكثر من أن تحصى، وقد باءت جميعها بالفشل في استنقاذ الإنسان، واسترداد إنسانيته، وتحقيق كرامته، وتوفير اختياره؛ ابتداءً من المذاهب والدعوات القومية إلى المبادئ والأنظمة الماركسية والاشتراكية، التي توهمت أن أس البلاء في الرأسمالية وامتلاك وسائل الإنتاج، إلى الثورة وإيقاد الصراع الطبقي، إلى مذاهب الحرية الاقتصادية والترويج لمؤسسات التجارة الحرة، إلى استعارة واستيراد الخطط والبرامج التربوية والتنموية، التي عانت ولا تزال من غربة المكان والإنسان، هذا عدا عن المذاهب الفلسفية الكثيرة، التي انتهت عند حدود المعارف الباردة، التي لم تُحرك ساكناً، وبعثرت رقعة التفكير، وعجزت أن تغير حتى سلوك أصحابها، بله الآخرين.

فرحلة الشقاء هذه، الذي كان الإنسان أول ضحاياها، حتى في أرضها ومنبتها، أعادت التفكير بموضوع الإنسان والمراجعة للخطط والقيم والمبادئ من جديد، وإلى اعتبار الإنسان أو إنسانية الإنسان هي هدف الإصلاح ووسيلته في الوقت ذاته؛ ذلك أن ما خلّفت تلك التجارب من حياة الضنك جعلت الإنسان يقف حائراً قلقاً معذباً خائفاً شاكاً يعاود البحث من

جديد... إنه الإعراض عن طريق القرآن في الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه:١٢٤).

إن منهج القرآن في الإصلاح توجُّه صوب الإنسان لتغييره وإعادة صياغته وبناء شاكلته التي يعمل عليها ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء:٨٤)، فالإنسان في القرآن هو وسيلة التغيير، وهو هدف التغيير.

- فشل مشاريع الإصلاح:

ولعل من أهم أسباب فشل مشاريع الإصلاح والنهوض والتغيير:

- غياب النظرة الكلية الشاملة:

إن غياب النظرة الكلية الشاملة لأبعاد التنمية، وعدم الإحاطة بعلم جوانب إشكالية التخلف والتراجع الحضاري ودراسة أسبابها، من قِبل متخصصين وخبراء، والاقتصار على معرفة الآثار، وغلبة النظرة الجزئية السطحية لبعض جوانب المشكلة، على مستوى الفكر والفعل، والعجز عن اختيار الموقع الفاعل في ضوء الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة... هذا التبعيض، إن صح التعبير، أدى إلى الفشل والعجز والخزي ومزيد من التراجع، يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٨٥)، ولعل الكفر المقصود هنا هو كفر عملي ولو لم يُعترف به فكرياً.

- الاستيراد وغربة المكان:

المغلوب والمتخلف مولع دائماً بتقليد الغالب المتقدم، لذلك يتوهم أن استيراد أشيائه وخططه في النهوض، بلا فقه ولا روية ولا وعي ومعرفة بما

ينفع وما يضر، وما يناسب وما لا يناسب، يمكن أن يحقق له قفزات نوعية وطي مسافة التخلف! ونحن هنا لا ندعو للانغلاق والانكفاء وعدم الإفادة مما عند «الآخر»، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، لكن الذي ندعو إليه أن نمتلك المعيار القيمي (القرآن) الذي يُبصّرنا ما نأخذ وما ندع؛ وقد ثبت علمياً وواقعياً أن الإنسان المتخلف، المنسلخ عن مرجعيته، العاجز عن اكتشاف إمكاناته الذاتية الكامنة للنهوض وامتلاك القدرة على تطويرها، إن هذا الإنسان العاجز عن الاستفادة من ذاته ورصيده الحضاري، هو أعجز عن إمكانية الإفادة من «الآخر»، وأن الذي يقدر على الإفادة واختيار ما ينفعه هو الإنسان المتقدم، لذلك سقطت مشاريع وخطط الاستيراد وتكديس الأشياء؛ لأنها تعاني من غربة المكان وخيبة الإنسان.

- عدم التوافق مع المعادلة الاجتماعية:

وليس ذلك هو السبب الوحيد، فالمعروف أن هذه المشاريع جاءت ثمرة لتراث وتاريخ وعقيدة وثقافة ومرجعية ومعادلة اجتماعية، وبالتالي فهي سوف تفتقر في المكان المنقولة إليه هذه المحاضن والمناخات الضرورية لنموها وتحقيق مقاصدها.. لقد سقطت لمغايرتها المعادلة الاجتماعية للأمة ومرجعيتها وعدم إحاطتها بمشكلات الأمة، ولم ينفع معها التقليد والمحاكاة والتكديس.

ولعل في الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، و﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ دلالة واضحة على أهمية الانبعاث الذاتي لخطط التنمية والنهوض، بحيث تكون وليداً شرعياً للأمة، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢).

فإذا تقرر عندنا أن الأمة المسلمة تشكلت من خلال كتاب (القرآن)، وتجسدت في حياة الناس من خلال السيرة وجيل خير القرون، وأنه لا بد لكل مشروع نهوض وخطة تنمية من مرجعية تُشكل لها الموجِّه والضابط المنهجي والمعيار، وأن القرآن هو المرجعية والضابط المنهجي لهذه الأمة، وإذا كان نهوض أي مجتمع مرهون بتوفير شروط وظروف ميلاده الأول، أدركنا العلة الأساس في العجز والتخلف وفشل مشروعات النهوض، حتى تلك التي رفعت شعارات الإسلام دون توفير ظروف وشروط ومحاضن وبرامج وخطط هذا الطرح، حيث اكتفت برفع الشعار وغابت في الماضي واكتفت بالفخر به لمعالجة مركب النقص والعجز عن الإنجاز، دون إبصار لمعطيات ومتغيرات العصر، فعانت غربة الزمان كما عانت المناهج والمشاريع المستوردة غربة المكان.

- سبيل التغيير والخروج:

والإصلاح، في الرؤية القرآنية، يبدأ من تغيير عالم الأفكار وإعادة بناء الشاكلة الثقافية، كما أسلفنا؛ والمعادلة الصادقة للتغيير والإصلاح تتمثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، فكيف نتعامل مع القرآن لتغيير عالم أفكارنا وبناء شاكلة ثقافية قرآنية، بحيث يصبح ذلك وسيلة تغيير؟

وكيف يمكن لنا أن نُنضج منهج الاقتداء، ونحدد موقع الاقتداء لواقعنا ومجتمعنا في مسيرة السير النبوية، في ضوء استطاعاتنا؟ وكيف يمكن أن نبني العقل الناقد، ونعيد للعقل مكانه وفعله، في ضوء معرفة الوحي؟ وكيف نفقه قوانين السقوط والنهوض ونصل إلى مرحلة مغالبة قدر بقدر، التي لا تتأتى إلا باستيعاب المنهج السنني في الأنفس والآفاق؟

فالإنسان في الإسلام خليفة الله في الأرض، والقرآن دليله إلى بناء الحضارة وإقامة العمران، وفق قيم السماء، ومنحه الرؤية على تسخير السنن والقوانين.

فالنص القرآني يشكل فضاءً واسعاً يحيط برحلة النبوة في مسيرتها التاريخية الطويلة، ويواكب الإنسانية في مسيرتها إلى أن ينشئ الله النشأة الآخرة، ولا يزال البشر يبدون في إدراك النص القرآني ويعيدون، كل يغترف منه حسب اختصاصه ومعرفته وثقافته، فالقرآن حمّال أوجه، ولكلٍ فيه نصيب: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾(الرعد:١٧)؛ إنه فضاء مفتوح غير متناه، لا يمكن أن يُختزَل بمنهج أو مذهب أو جماعة أو طائفة أو زمان أو مكان، أو يمكن إغلاقه دون سائر الناس، محل الخطاب، وقد يسره الله للذكر، وحض العقل الإنساني والجنس البشري وحرضه بكل مستوياته وأزمنته على النظر والادّكار والتدبر والتبين والاعتبار، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧).

ولعل من الأمور الملفتة حقاً أن المتأمل في سياق قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، الذي ورد في سورة القمر، يدرك أنه إنما جاء بعد بيان جملة من أحوال الأمم - قوم نوح وعاد وثمود ولوط

وآل فرعون، على تباين الزمان والمكان والإصابات المتنوعة- بسبب نكولها عن تعاليم الله وارتطامها بسننه أو غفلتها عنها، والله يقول: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:١٥)، وليس المقصود بأمر التيسير فقط مجرد القدرة على التلاوة؛ لأن القرآن كما أنه خطاب أمة فهو خطاب نخبة.

- الإعجاز وعزمات البشر:

ولعل هذا التيسير، الذي يشكل بعض ملامح الإعجاز، هو الذي حرك الهمم، وأهّل النفوس، وشحذ العقول لمحاولة محاكاة النص القرآني واستكناه أبعاده ومقاربة أسلوبه، وكشف وجوهه، والتعرف إلى كنوزه، فكان النص القرآني المعجز الميسر للذكر سبيلاً للارتقاء باللغة والأسلوب والتطور في النظر والاجتهاد والعطاء، حيث إن مفهوم الإعجاز القرآني الذي يعني - فيما يعني - العجز عن الإتيان بمثله، لم يكن يعني للمسلم العجز والعقم والعطالة وانطفاء الفاعلية، وإنما كان الدافع الكامن وراء كل الأنشطة الذهنية، يمدها بالعطاء الثقافي والتشريعي والتربوي والاجتماعي والسياسي والفكري، وحتى الفلسفي بشكل عام، بمعنى أن النص القرآني المعجز كان المحور لثقافة الأمة والمصدر لانطلاقها في شعب المعرفة المختلفة، بالمفهوم الواسع لمصطلح «الثقافة» على مستوى المعرفة والتربية معاً.

ولئن كان المعنى المتبادر لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ سهولة تلاوة وإمكانية تداول وتناول النص القرآني وتحصيل المدركات والمقاصد لكلٍ بحسب مؤهله، فإنه بهذا التيسير يشكل مائدة العقل والنفس للناس جميعاً.

إن المتأمل المتدبر في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يبصر فيه دلالات عميقة وعميقة جداً، لكن هذا العمق لا يحول

دون أن يأخذ كل إنسان منه بحسب كسبه العلمي والمعرفي، وليس أقلها قوانين الحركة الاجتماعية، ويبقى النص دائم العطاء بحسب ترقي الإنسان وارتقائه، ولا تُدرك تلك الأعماق ويتوصل إلى غورها إلا عند انتهاء الحياة، فهو ميسر لكل الناس، وكل الأجيال، وكل الاختصاصات، وكل المناهج، سفر مفتوح دائماً، ولكل العصور، ليس مغلقاً بطبيعة خاتميته وخلوده على منهج أو عصر أو طبقة أو نخبة أو تخصص أو ظرف اجتماعي أو ثقافي، إنه مصدر ثقافة الأمة، التي يشارك فيها الجميع، بأقدار متفاوتة لكنها متجانسة، من العامي البسيط وحتى العالِم المكين.

إنه القرآن، معجزة الإسلام الخالدة.

والقرآن على الجملة، هو كتاب حياة كاملة، وهداية للإنسان، فهو ليس كتاب لغة وبيان وأدب وتربية وعلم وتاريخ وفنون وعلوم، وإنما يستخدم ذلك كله لتحقيق غرضه في الهداية، فهو يمثل القيم المرجعية لذلك كله، حيث يؤهِّل الإنسان، ويضعه في مناخ ذلك، ويدفعه للإنتاج النافع في شتى هذه الميادين، ويقدم له النماذج في المجالات المتنوعة للاهتداء، لكن ذلك جميعه لا يخرجه عن مقصده وهدفه، صناعة الإنسان المستخلف لصنع التقدم والحضارة، وفق منهج القرآن، وأن هذه الروافد والجداول من الرؤى والمناهج جميعها تخرج من القرآن وتعاود الصب فيه، وتعين على فهمه.

ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى الأثر الكبير، الذي أحدثه القرآن المعجز في العقول والنفوس ووجوه الترقي اللغوي والبياني والبرهاني مقاربة ومحاكاة للإعجاز، ولا المناخ العلمي الذي دفع الإنسان المسلم إلى الكشف والإبداع والتحريض والفاعلية لعقله ونظره، ليتدبر ويتبين فيندفع صوب كشف الحقيقة وتسخير معطيات الكون وفق منهج القرآن.

ولحكمة يريدها الله أن الكثير من آيات الأنفس والآفاق وردت في القرآن مجملة، لينطلق الفكر والفعل في آفاقها وأمدائها وفضاءاتها الواسعة، يكشف عن موجوداتها، ويكتشف قوانينها، ويعمل على محاكاتها ومقاربتها وابتكار وسائل إبصارها. وما أعتقد أن هناك كتاباً في تاريخ البشرية شكل منطلقاً لمجموعة دراسات متنوعة ومصدراً لثقافة إنسانية في بيئات جغرافية وتاريخية وزمانية متعددة التنوع موحدة المصدر كالقرآن الكريم.

- ديمومة العطاء:

والحقيقة أن رحلة البحث في فضاءات النص القرآني ماضية لا تتوقف حتى انتهاء رحلة الحياة، وهذا يشكل بحد ذاته دليل الخلود والحيوية وديمومة العطاء، ويؤكد حقيقة الإعجاز، كما أن الجدل والتمحور حول النص ما يزال مستمراً أيضاً، بين مدافع عنه، كاشف لإعجازه وكنوزه، وبين خارج عليه يحاول النيل منه والحاق الإصابة به؛ وبين هذا وذاك يبقى النص القرآني خالداً خلود الزمان، ومحلاً لاهتمام الناس جميعاً وفائدتهم، من الأميين إلى الأكثر تعلماً وتحضراً وكسباً معرفياً.

لكنني أعتقد، في إطار ذلك كله، وفعل ذلك كله، على أهميته وضروريته، أن من المقاصد الأساسية التي لا يجوز أن تغيب ولو لحظة واحدة، أو تتراجع عن مرتبتها وأولويتها أثناء النظر والتنهيج والبحث والجدل حول فهم النص وتحديد معطياته: أن هذا القرآن إنما أنزل ليُتدبر فيعمل به، فلا يصح أن يستغرق الجدل حول النص القرآني الجهد كله، والاستغناء بالجدل وصوابية المنهج وأهميته عن العمل بمقاصده، فيحول ذلك دون التوجه صوب قراءة المجتمعات ومعرفة استطاعاتها وإمكاناتها ومن ثم إعادة

تجسير العلاقة بين الأمة والنص القرآني، لأنه خطاب أمة، حتى ولو كانت مناهج التعامل معه إنتاج نخبة، لكن يبقى تحقيق عطاء القرآن إنجاز أمة.

إن الاقتصار في التمركز حول مناهج الفهم وأدواته، على أهميتها وضروريتها - باعتبارها تشكل مرتبة الفكر قبل الفعل- إذا لم يتم تجاوزها إلى الفعل وتنزيل القرآن على واقع الناس وبناء ثقافة الأمة من خلال الاقتصار على آياته وتقويم مسيرتها بقيمه، فقد يخرج بالأمة من دائرة النص، ويحول دون التعاطي معه، إلى جدلية نخبة، كما يخرج النص من إطار العقيدة الفاعلة المحركة في الأمة، الدافعة للإنجاز، المانعة من السقوط والانقراض، إلى إطار الفلسفة ذات المعارف النظرية الباردة، حيث يقتصر العمل على النظر والجدل وينحصر في خاصة الخاصة، التي تعيش معزولة عن الأمة، فيتحول الجدل حول النص عملاً؛ ويغيب عن عقولنا وإدراكنا المقصد الحقيقي ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، فإذا تعطلت الهداية أو توقفت فإن ذلك يعني خللاً في التعامل مع القرآن.

ويبقى أن الهاجس الدائم، أو القلق السوي، الذي يشكل المهماز والمحرض الحضاري، ويكوِّن ثقافة الإصلاح والتغيير، ويبني محاضنه، ويؤدي إلى التبصير بوسائله وإبداع أدواته هو التفكير الدائم بالتي هي أقوم.. هذا التفكير هو الرافعة الحقيقية للنهوض الحضاري؛ لأنه يدفع إلى قراءة الواقع وتقويمه وتحديد مواطن الخلل ووسائل تجاوزها، وفق رؤية دقيقة فقهية بصيرة، حيث المطلوب دائماً التفكير بالارتقاء للتي هي أقوم.

وبالإمكان القول: إن معرفة الوحي هي التي تجيب عن سؤال أهداف التغيير: «لماذا التغيير»؟ ويأتي دور معرفة العقل لتجيب عن برامج ووسائل وأدوات التغيير: «كيف يكون التغيير»؟

وبعد:

فإن «رسالة القرآن» عطاءٌ إنسانيٌّ جديد متجدد **«لا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ»**؛ آفاقها لا تحدها الجغرافيا: **«إِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»**[1]، **«... ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار...»**[2]، وقد بلغ؛

ولا يحدها التاريخ، ابتداءً من النشأة الأولى وحتى ينشئ الله النشأة الآخرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى:١٨- ١٩)؛

ولا يحاصرها الزمن بكل مكتشفاته العلمية وكسبه المعرفي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:٤٢)؛ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣)؛

إنها فضاء لا نهائي، وعطاء يمتد إلى ما بعد الموت، لا ينفد إلا بانتهاء الحياة على الأرض: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩).

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه ابن حبان.

الفهرس

إدارة
البحوث والدراسات الإسلامية



المشروعات الثقافية الجماعية المشتركة

سلسلة حوليّة

- تؤصل للأعمال الجماعية وبناء القاعدة الثقافية المشتركة .
- تساهم في التدريب على التفكير الاستراتيجي واستشراف الرؤية المستقبلية

تترجم إلى عدد من اللغات الحية

قطر - الدوحة - ص.ب :٨٩٣ - هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤) - فاكس : ٤٤٤٧٠٢٢

www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa